

البيروت

# الإنسان المتمرّد



البئير كامو

# الإنسان والملكوت

ترجمة  
نهاد رضا

البشير كامو

جائزة «نوبل»

# الإنسان الملتصق

ترجمة

نهاد رضا

عاز لى الأدب والعلمة من السربون

منقورات عويحات

بيروت - بّاريس

منشورات عويدات - بيروت  
جميع حقوق الطبعة العربية في الماء وفي البلدان العربية  
خاصة مخطوطة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب  
اتفاق خاص مع دار عالمي مار Gallimard - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

الى جان غرينيه

نذرت قلبي علانيةً للأرض العظيمة المعدّبة ،  
وغالباً ما عاهدتها في ظلمة الليل المقدس ، على  
أن أحبها ، مع ما تحمل من عبء القدر ، حباً  
وفياً ودونما وجل حتى الموت ، وعلى أن لا  
لا أقابل أي لغز من ألغازها بالازدراء .

هكذا ارتبطت بها برباط يميت .

هولدولين  
موت أمبيدوفليس

# الفهرست

صفحة	
٧	المقدمة : العبث والقتل
١٧	الفصل الأول : الانسان المتمرد
٣١	الفصل الثاني : التمرد الماورائي
٣٦	ابناء قابيل
٤٨	الانكار المطلق
	١ - الاديب ساد
٤٩	
	٢ - تمرد أهل التظاهر
٦٣	
٧٢	رفض الخلاص
٨١	التأكيد المطلق
	١ - الأوحى أو الأنا الفردية
٨١	
	٢ - نيتشه والعدمية
٨٥	
١٠٥	الشعر المتمرد
	١ - لوتريامون والتفاهة
١٠٦	
	٢ - السريالية والثورة
١١٤	
	أندريه بریتون
١١٨	
١٢٨	العدمية والتاريخ
٣٨١	

١٣٤	الفصل الثالث : التمرد التاريخي
	التمرد والثورة
	تمرد مبارتاكوس
١٤٣	قتل الملوك
	١ - الانجيل الجديد
	٢ - إعدام الملك
	٣ - دين الفضيلة
	الارهاب
١٦٩	قتل الآلهة
	فينومينولوجيا الذهن
١٨٨	الارهاب الفردي
	١ - التخلي عن الفضيلة
	٢ - ثلاثة مموسين
	بيزاريف
	باكونين
	نيتشايف
	٣ - القتل الرداء
	٤ - الشيغالية
٢٢٣	ارهابية الدولة والارهاب اللاعقلاني
٢٣٥	ارهابية الدولة والارهاب العقلاني
	١ - النبوة البورجوازية
	جوزف دي ميستر



٢٤٧	٢ - النبوة الثورية
٢٦٢	٣ - فشل النبوة
٢٨٢	٤ - ملكوت الغايات
٢٩٠	٥ - الشبول والمقاضة
٣٠٦	التمرد والثورة
٣١٤	الفصل الرابع : التمرد والفن
٣١٤	١ - تمهيد
٣٢١	٢ - الرواية والتمرد
٣٣٣	٣ - التمرد والاسلوب
٣٣٨	٤ - الخلق والثورة
٣٤٥	الفصل الخامس : ضحى الفكر
٣٤٦	التمرد والقتل
٣٥٠	١ - القتل العدمي
٣٥٤	٢ - القتل التاريخي
٣٦٤	ملازمة الحد ومجاوزته
٣٦٤	١ - تمهيد
٣٦٨	٢ - فكرة الضحى
٣٧٤	ما وراء العدمية

١٩٦٣/٤/٧١

# المقدمة

## العبث والقتل

ثمّة جرائم تُرتكب بدافع الهوى<sup>(١)</sup> ، وأخرى استناداً الى محاكمات عقلية . إن مجموعة القوانين الجزائية تميز بينهما تمييزاً ملائماً إلى حد كافٍ ، إستناداً إلى مبدأ سبّوق التصور والتصميم . وإنّما لفي زمان سبّوق التصوّر والتصميم ، في زمان الجريمة الكاملة . فلم يعد مجرمونا هؤلاء الاطفال العزّل يتذرعون بالحب . إنهم ، بالعكس ، راشدون ؛ ولا سبيل إلى دحض ذريعتهم : الفللفة التي تُستخدم لكل شيء ، حتى لتحويل القتل إلى قضاة .

إن هيثكليف ، في مرتفعات ويدرنيغ<sup>(٢)</sup> ، مستعد لقتل البرية كلها كي يمتلك حبيته كاتي ، ولكن لن يخطر بباله أن يقول إن هذا القتل معقول ، أو انه يُبرّر بذهب . إنه يرتكب الجريمة ، وعند هذا الحد يقف كل معتقده . ويفترض هذا العمل قوة الحب ، والمزاج الملائم . وبما أن قوة الحب نادرة

(١) مقدمة الكتاب مطعنة ، والأفضل أن تقرأ ثانية بعد الانتهاء من الكتاب لأنها تشير بشكل مقتضب ونحريدي لما هو معصّل ومشروح في فصول الكتاب المختلفة -- العرب -  
(٢) قصة .

الوجود ، لذلك يبقى القتل عملاً استثنائياً ، ويحتفظ إذن بطابعه التحطيمي .  
ولكن اعتباراً من اللحظة التي نسارع فيها ، بسبب انعدام المزاج الملائم ، إلى  
التسلح بإحدى النظريات ، ومُنذُ تشرع الجريمة بالذرع بالمحاكمات المنطقية ،  
فإنها تتشعب تشعب العمليات العقلية ، وتكتسب كل أشكال القياس المنطقي .  
لقد كانت متوحدة منفردة كالصرخة ، فإذا بها تُصبح عامة شاملة كالعلم .  
بالأمس كانت في قصص الاتهام ، وما هي ذي قد أصبحت صاحبة الأمر والنهي .

لن نستطيع غيظاً لذلك هنا . فهدف الدراسة ، ونكرار القول ، هو قبول  
واقع الحال ، ونعني الجريمة المنطقية ، وأن نفحص مبرراتها : إنني أبذل جهدي  
هذا في سبيل فهم زماني . لعلنا نعتبر أن عصراً شرّداً أو استعبداً أو قتل  
سبعين مليون نسمة خلال خمسين عاماً ، يستدعي فقط وقبل كل شيء أن يحاكم .  
إلا أنه يجب أن نفهم دونه . ففي العهود الأولية الساذجة حين كان الطاغية  
يمسح مدناً بأكملها لإعلاء مجده ، وحين كان العبد الموثق بعربة المنتصر يسير  
معروذاً في شوارع المدن المختلفة بأعياد النصر ، وحين كان يُرمى بالعدو إلى  
الحيوانات المفترسة أمام جموع الشعب المحتشد ، نقول : لزاء جرائم مثل هذه  
الساذجة ، كان في وسع الوجدان أن يكون ثابتاً وفي وسع الحكم أن يكون  
جلياً . أما أن نقام معسكرات العبيد تحت راية الحرية ، وأن تُترر المجازر  
بحجة الانسان أو بالميل الى انسانية متفوقة ، فهذا لعمرى ما يُعني ، بوجه ما ،  
قوة التمييز والحكم . حيناً تترن الجريمة بثوب البراءة ، وذلك بحكم طريقة  
مقلوبة غريبة يتميز بها عصرنا ، يومئد يُطلب الى البراءة أن تقدم مبرراتها .  
إن مطمح هذه الدراسة قبول وتفحص هذا التحدي الغريب .

إن بيت القصيد أن نعرف هل البراءة ، اعتباراً من قيامها بعمل ، لا يسعها  
أن تمتنع عن القتل . فنحن لا نستطيع ان نقوم بعمل إلا ضمن إطار زماننا ،  
وبين الأناس المحيطين بنا . ولن نعرف شيئاً ما دمنا لا نعلم هل لنا الحق في أن  
نقتل هذا الانسان الآخر الموجود أمامنا ، أو في أن نوافق على مقتله . وبما أن

كل عمل في يومنا هذا يؤدي الى القتل ، المباشر أو غير المباشر ، لذلك لا نستطيع القيام بعمل قبل أن نعلم هل ينبغي لنا ، ولماذا ينبغي لنا ، أن نقتل .

ليس المهم بعدُ أن نرجع إلى أصل الأشياء ، بل أن نعرف - والعالم على ما هو عليه - كيف نتصرف فيه . ففي زمان الإنكار ربما كان من السهل أن تتساءل حول مشكلة الانتحار . أما في زمن النظريات العقائدية فيجب السير بموجب الأصول مع القتل . فإذا كان للقتل أسبابه ، فنحن وزماننا على هدى من أمرنا . وإذا لم يكن له أسبابه ، فنحن في دوامة الجنون ، وليس لنا من نخرج سوى أن نجد قيسة ، أو أن نتصرف عن هذه الطريق . مهما يكن من أمر ، فعلىنا أن نجيب بوضوح عن السؤال المطروح علينا ، في خضم العصر وصيحات احتجاجه ، لأننا محور الموضوع . فمئذ ثلاثين عاماً ، قبل عقد النية على القتل ، أنكرنا وأنكرنا كثيراً حتى أنكرنا ذاتنا بالانتحار . الله يغش ، والجميع يغشون معه ، وأنا نفسي أغش ، بناءً على ذلك ، أنا أموت : لقد كان الانتحار محور الموضوع . أما النظريات العقائدية في الوقت الحاضر فلم تعد تنكر سوى الآخرين ، الفاشين الوحيدبن . بناءً على ذلك يُقتل الآخرون . وهكذا ، في مطلع كل فجر ، ثمة قتلة مزدانون بالأوسمة يتسللون الى زنزاة : لقد صار القتل محور الموضوع .

أن التحليلين قائمان معاً . وهما يشداننا بالأحرى لدرجة أننا لم نعد نتمكن من اختيار مشكلاتنا . انهما يصطفياننا الواحد تلو الآخر . فلنقبل إذن أن نكون موضع اصطفاء . إن هدف هذه الدراسة أن نتابع ، أمام القتل والتمرد ، تأملاً بدأ حول الانتحار ومفهوم العبث .

★

على أن هذا التأمل لا يقدم لنا في الوقت الحاضر سوى مفهوم واحد ، مفهوم العبث . وهذا المفهوم ، بدوره ، لا يحمل إلينا سوى تناقض فيما يتعلق بالقتل . إن الشعور بالعبث ، حينما نزعم باديء ذي بدء أننا نستخلص منه قاعدة

سلوك ، يجعل القتل على الأقل عملاً ليس له ما يؤيده أو ما ينافيه ، وبالتالي عملاً ممكناً . فإذا كنا لا نؤمن بشيء ، وإذا لم يكن هناك معنى لأي شيء ، وإذا كنا لا نستطيع تأكيد أية قيمة ، أصبح كل شيء ممكناً ، ولا أهمية لأي شيء . لا يعود هناك إذن ما يؤيد وما ينافي ، ولا يكون القاتل على خطأ أو على صواب . في وسعنا حينئذ أن نؤجج المحارق ، كما في وسعنا أن نتذّر أنفسنا للعناية بالمجدومين . وتكون الرذيلة والفضيلة مجرد صدقة ، أو مجرد نزوة .

يمكننا ان نقرر حينئذ ان لا نقوم بعمل ، ومعنى هذا على الأقل قبول مقتل الآخرين ، وان نرتي - إن لزم - بعد البشر عن الكمال . ويمكننا أيضاً ان نستبدل العمل بالخذلة المفجعة ، وفي هذه الحالة لا تعود الحياة الإنسانية سوى مدار لعب .

ويمكننا أخيراً أن نعتزم القيام بعمل لا يكون بلا داع . وفي هذه الحالة الاخيرة ، نظراً لعدم وجود قيمة عليا موجّهة للعمل ، سنتجه في منحنى الفعالية المباشرة . بما انه ليس من شيء صحيح أو باطل ، حسن أو سيء ، لذلك ستكون القاعدة ان يظهر من اعمالنا أننا أكثر فعالية ، أي : اكثر قوة . حينئذ لا يعود الناس منقسمين الى فئة عادلة وفئة باغية ، بل الى سادة وعبيد . وعليه ، كيفما انجنا ، نرى ان للقتل مقامه المفضل في صميم الإنكار والعدمية .

فإذا ادعينا تبني الموقف العبسي ، فمن واجبنا ان نتهاى للقتل ، مقدمين المنطق على وساوس نعتبرها وهمية . لا جرم أن الأمر يتطلب بعض الاستعدادات ، ولكنه ، في الحاصل ، يتطلب اقل مما تتصور ، اذا حككنا على ذلك استناداً الى التجربة . ومع ذلك ، من الممكن دائماً ، كما يرى عادة ، ان ندفع غيرنا الى القتل . كل شيء يُسوّى ادن باسم المنطق ، اذا وجد المنطق حقاً فائدته فيه .

ويمكن ليس في وسع المنطق أن يجد مصلحته في موقف يريه على التوالي

ان القتل ممكن وغير ممكن . ذلك ان التحليل العبثي ، بعد ما جعل عملية القتل على الاقل ، عملية ليس لها ما يؤيدها أو ما ينافيها ، ينتهي الى إدانة هذه العملية في أهم نتيجة من نتائجها . إن النتيجة الأخيرة الناجمة عن المحاكمة العبثية هي ، في الحقيقة ، نبذ الانتحار ، واستبقاء هذه المقابلة اليائسة بين التساؤل الإنساني وصمت العالم <sup>(١)</sup> . والانتحار معناه نهاية هذه المقابلة ، والمحاكمة العبثية ترى انها لا تستطيع الموافقة على ذلك إلا بإنكار مقدماتها الخاصة . وتصبح مثل هذه النتيجة ، في رأيها ، هروباً أو خلاصاً . ولكن من الواضح ان هذه المحاكمة في الوقت نفسه ، تقبل الحياة على انها الخير الوحيد الضروري ، لأنها بالضبط تسمح بهذه المقابلة ، ولولاها لكان الرهان العبثي بلا دعامة . فلكي يقول إن الحياة عبث ، يلزم للشعور ان يكون شعوراً حياً . فكيف اذن ، دون ان نتراجع امام الميل الى الراحة ، نحفظ لأنفسنا فقط بالتمتع بمثل هذه المحاكمة ؟ والحقيقة ، ما أن يُعترف بهذا الخير كخير ، حتى يشمل الجميع . اننا لا نستطيع ان ننفي على القتل تماسكاً اذا انكرنا هذا التماسك على الانتحار . إن الذهن المشبع بفكرة العبث بقر ، دون شك ، بالقتل قضاء وقدر ، ولكن لا يسعه ان يقبل بالقتل المبني على المحاكمة العقلية . فالقتل والانتحار هما ، إزاء المقابلة ، شيء واحد ، يجب أن تقبلها معاً أو أن تطرحها معاً .

ذلك أن العدمية المطلقة ، العدمية التي تقبل بتسوية الانتحار ، تُسرِع بمزيد من السهولة ايضاً الى القتل المنطقي . فإذا كان زماننا يسلم دونما صعوبة بأن للقتل مبرراته ، فذلك بسبب عدم الاكتراث بالحياة الذي تتميز به العدمية . لقد كانت هناك ، دون ريب ، فترات بلغ فيها حب الحياة حداً جعله ينفجر هو ايضاً في أعمال إجرامية مفرطة . ولكن هذه المبالغات كانت كحرق متعة رهيبية ، ولم تكن هذا النظام الرتيب ، أقامه منطق "بأس يتساوى في ناظره كل شيء" . ولقد سار هذا المنطق بقم الانتحار التي تغذيها عذرتنا ، حتى نتيجتها

(١) راجع اسطورة سبريف .

القوى ، ونعني القتل المبرر . وفي الوقت نفسه ، بلغ ذروته في عمليات الانتحار الجماعي . إن اسطع برهان ، قدمته رؤيا الدمار الكلي الهلثية عام ١٩٤٥ ؛ إفناء الذات لم يكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى المجانين الذين كانوا يعدّون لأنفسهم مئة تأليهة في الاوكار . كان الامر الاساسي بالنسبة اليهم أن لا يفنوا أنفسهم فقط ، بل ان يجرؤا معهم العالم كله . بصورة ما ، يُعتبر الانسان الذي يقتل نفسه على انفراد ، محتفظاً بقيمة ما ، لأنه في الظاهر لا يُقر لنفسه بحقوق على حياة الآخرين . والدليل على ذلك انه لا يستعمل ابدأ ، في سبيل السيطرة على الآخرين ، هذه القوة الرهيبة وهذه الحرية الواسعة اللتين تأتياه عن تصميحه على الموت . إن كل انتحار منفرد ، حيناً لا يكون دافعه الغل ، هو في بعض نواحيه صادر عن شرف النفس أو عن الازدراء . بيد أننا نزدري بإسم شيء ما . فإذا كان العالم فاقد الأهمية بالنسبة الى المنتحر ، فذلك لأن هذا الأخير يملك فكرة عما هو مهم أو يمكن ان يكون مهماً بالنسبة اليه . فنحن نعتقد اننا نهدم كل شيء ، ونحمل معنا كل شيء ، ولكن عن هذا الموت بالذات تتبع قيمة ربما تستحق أن نحيا من أجلها . لذلك ، لا يُستنفذ الإنكار المطلق بالانتحار . ولا يمكن أن يُستنفذ إلا بإفناء انفسنا وإفناء الآخرين إفناء تاماً . وليس في وسعنا ان نحيا ، على الاقل ، إلا باتجاهنا نحو هذا الحد الرائع . إن الانتحار والقتل هما هنا وجهان من مرتبة واحدة ، مرتبة عقل تعيس يؤثر التمجيد الاسود الذي تتلاشى فيه الارض والسماء ، على الألم الناجم عن الوضع المحدود .

وبنفس الصورة ، اذا انكرنا على الانتحار اسبابه ، فلا يمكننا ان نقر للقتل بالأسباب . إذ لا يمكننا ان نكون نصف عدمين . إن المحاكمة العبيثة لا تستطيع في الوقت نفسه ان تصور حياة الشخص المتكلم ، وان تقبل بالتضحية بالآخرين . فنحن أن نقر باستحالة الإنكار المطلق – والعيش بصورة ما ، إقراراً بهذه الاستحالة – فان اول شيء لا يمكن إنكاره هو حياة الآخرين . وعليه ،

إن المفهوم الذي اومئنا بأن القتل ليس له ما يؤيده أو ما ينافيه ، هو نفسه الذي يجرده بعدئذ من مبرراته . وعليه ، نعود الى الوضع غير الشرعي الذي حاولنا الخروج منه . والواقع أن محاكمة كهذه تؤكد لنا في وقت واحد أننا نستطيع ولا نستطيع أن نقتل . انها 'تخلقتنا في جو من التناقض ، دون أن يكون هناك ما من شأنه ان 'يجرم القتل أو يجلله ، مهددين مهددين ، تجرفنا حقبة مصابة بحمى العدمية، وفي العزلة مع ذلك، بأيدينا السلاح... وماخوذاً بخناقنا .



ولكن هذا التناقض الجوهرى يظهر ولا بد مع مجموعة من التناقضات الأخرى حالما ندعي البقاء في العيش ، مهلين طابعه الحقيقي كانتقال 'معاش ، كنقطة انطلاق ، كمشيل على صعيد الوجود<sup>(١)</sup> للشك المنهاجي عند ديكارت . العيش هو في حد ذاته تناقض .

إنه تناقض في مضمونه ، لأنه يزيح الأحكام القيمية ، مع الرغبة في المحافظة على الحياة ؛ في حين ان العيش في حد ذاته حكم قيمي . التنفس 'حكم . من الخطأ ، ولا شك ، ان نقول إن الحياة اصطفاء دائم . ولكن من الصحيح ايضاً أننا لا نستطيع تصور حياة محرومة من كل اصطفاء . فالوقوف العيشي ، من خلال وجهة النظر البسيطة هذه ، موقف لا يمكن تصوره ، بالفعل . ولا يمكن تصوره ايضاً في تعبيره . كل فلسفة من فلسفات اللامعنى تقوم على تناقض بمجرد ما 'يعبر عنها . انها ، بذلك ، تعطى للفوضى أقل حد يمكن من التماسك ، وتدخل الترابط الى ما ليس فيه ترابط ، على حد زعمها . إن مجرد الكلام يصلح الأمر . والموقف الوحيد المتناسك القائم على اللامعنى هو الصمت ؛ هذا اذا

(١) راجع مسألة الانتقال من الشك الى اليقين ، واثبات وجود الأنا عند ديكارت . ص ٦٥ - تيارات الفكر الفلسفي ، تأليف اندويه كريسون ، ترجمة سهاد رضا ، منشورات عويدات .



كان الصمت ، بدوره ، لا يعني شيئاً . العبثية التامة تحاول أن تكون خرساء .  
فاذا ما تكلمت ، فذلك لأنها معجبة بذاتها ، أو لأنها - كما سنرى - تعتبر  
نفسها موقفة . هذا الاعجاب بالذات ، هذا الاعتبار للذات ، يميز تماماً الالتباس  
العبيق الذي يكتنف الموقف العبثي . وبصورة ما ، إن العبث الذي يدعي  
التعبير عن الانسان في انفراده يجعله يجأ أمام مرآة . وحينئذ يتعرض التمزق  
الأصلي لأن يصبح مرجحاً . إن الجرح الذي 'يحكك' بكثير من الاهتمام ، يولد  
اللذة في النهاية .

على أن كبار مغامري العبث لم 'يعوزونا' . ولكن عظمتهم تقاس ، أخيراً ،  
في انهم رفضوا تساهلات العبث ، ولم يحتفظوا إلا بمتطلباته . انهم يهدمون في  
سبيل ما هو أكثر ، لا ما هو أقل .

قال نيتشه : « الذين يريدون قلب الأمور رأساً على عقب ، لا أن يخلقوا  
أنفسهم بأنفسهم ، أولئك هم اعدائي » .

أما نيتشه فيقلب الأمور ، ولكن كي يحاول أن يخلق . وهو يشيد بالنزاهة  
مسلطاً سياطه على المتمتعين ، « ذوي فطرية الخنزير » . إن المحاكاة العبثية ،  
كما تتخلص من الاعجاب بالذات ، تجرد الزهد . انها ترفض التثنت وترغمي في  
إملاق اعتباطي ، في إزماع على الصمت ، في التنكس الغريب الخاص بالتمرد .  
إن الشاعر رانبو الذي يتغنى بـ « الحريمة الحلوة التي تنوح في وحل الشارع » ،  
يهرع الى مدينة « هررار » ليشكو من أمر واحد فقط : انه يعيش بلا أسرة  
في هذه المدينة . كانت الحياة بالنسبة اليه « تمثيلية هزلية يقوم الجميع بأدوارها » .  
ولكن لما دنت ساعة الموت ، إذ به يشكو أمره الى أخته قائلاً : « سأوارى  
تحت التراب ، أما أنت فستسيرين في ضياء الشمس ! » .

★

العبث متناقض إذن ، اذا ما اعتبر كقاعدة حياة . فما الغرابة اذا لم يقدم  
لنا القيم التي تقرر ، بالنسبة اليها ، شرعية القتل ؟ من المستحيل ، على كل ، أن

نبي موقفاً على انفعالٍ نفسيٍّ مميّز. إن الشعور العبيّ واحدٌ من مشاعرٍ أخرى. فلئن مهر بطابعه كثيراً من الأفكار والأفعال في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، فهذا يثبت قوته وشرعيته فقط . ولكن حدّة شعور ما ، لا يترتب عليها أن يكون هذا الشعور عاماً شاملاً . إن الخطأ الذي وقعت فيه حقبةٌ بأسرها ، هو أنها وضعت - أو افترضت انها موضوعة - قواعد سلوكٍ اعتباراً من انفعالٍ نفسيٍّ يائس ، حركته الخاصة ، بما هو انفعالٌ نفسيٍّ ، أن يجاوز ذاته . ان الآلام الكبرى ، كالأفراح الكبرى ، قد تكون موجودة في بداية محاكمة ما . انها عواملٌ وسيطة ، ولكننا لا نستطيع أن نجد لها ثانياً وان نستبقها طوال هذه المحاكمات . فاذا كان شرعياً اذن أن نأخذ الحساسية العبيّة بعين الاعتبار ، وان 'نشخص داء' ما كما نجد في ذاتنا وفي الآخرين ، فمن المستحيل أن نرى في هذه الحساسية ، وفيما نفترض من عدمية ، سوى نقطة انطلاق ، سوى نقد 'معاش' ، سوى مثل للشك المنهجي على صعيد الوجود . بعدئذ يجب ان نحطم المرآة وانعكاساتها الثابتة ، وان ندخل في الحركة الجارفة التي بواسطتها يجاوز العبيث ذاته .

عندما تتحطم المرآة ، لا يبقى لدينا ما من شأنه أن يفيدنا في الإجابة على الأسئلة التي يطرحها العصر . ان العبيث ، كالشك المنهجي ، نبذ كل شيء وضرب عنه صفحاً ، وخلفنا في مأزقٍ حرج . ولكنه ، كالشك المنهجي أيضاً ، يستطيع اذا ما عاد الى ذاته أن يوجه تحريات جديدة . وحينئذ تستمر المحاكمة بنفس الصورة . فأنا أصرخ قائلاً إنني لا أوّمن بشيء ، وأن كل شيء عبيث ، ولكنني لا أستطيع الشك في صرختي ، وينبغي لي على أقل تقدير أن أوّمن باحتجاجي . إن البديهة الوحيدة التي ألتقاها في صميم التجربة العبيّة ، هي التمرد . انني ، وأنا المهروم من كل علم ، والمكروه على أن أقتل أو على أن أوافق على القتل ، لا أجد تحت تصرفي سوى هذه البديهة التي تتعزز أيضاً بما أنا فيه من تمزّق . إن التمرد ينشأ عن مشهد انعدام المنطق ، أمام وضع جائر

مستغلن . ولكن توثبه الأعمى يطالب بالنظام وسط الغوضى ، وبالوحدة في صميم الزائل المتلاشي . انه يصرخ ، يطالب بإلحاح ، يريد أن تتوقف المهرة وأن يستقر أخيراً ما كان يُسطّر حتى الآن ، وبلا انقطاع ، على صفحة البحر . انه يريد أن 'يجول' ؛ ولكن التحويل معناه القيام بعمل ، والقيام بعمل معناه ، غداً ، القتل ؛ في حين انه لا يعلم هل القتل مشروع . انه ، بالضبط ، يولد الافعال التي يُطلب اليه تبريرها . على التمرد إذن أن يستمد مبرراته من ذاته ، لأنه لا يستطيع ان يستخلصها من أي شيء آخر . عليه أن يرضى بفحص ذاته ليعرف كيف يتصرف .

هناك قرنان من التمرد الماورائي أو التاريخي ، يعرضان لتفكيرنا . ولا يستطيع سوى مؤرخ ان يطمح الى عرض المذاهب والحركات التي تتالت فيها ، عرضاً مفصلاً ؛ على الأقل ، لا بدّ انه من الممكن ان نجد فيها خيطاً يوجه خُطانا . إن الصفحات التالية لا تقترح سوى بعض العلامات الفارقة التاريخية ، وفرضية مفسّرة . هذه الفرضية ليست الوحيدة الممكنة ؛ وهي ، على كل ، عاجزةٌ عن توضيح كل شيء . ولكنها تقسر اتجاه زماننا تفسيراً جزئياً ، وتكاد تفسر إفراطه تفسيراً كلياً . إن التاريخ العجيب الذي نأتي على ذكره في هذا الكتاب هو تاريخ الفطرسة الأوروبية .

وما كان في وسع التمرد ، على كل ، أن يكشف لنا أسبابه إلا في ختام تحقيق يتناول موافقه ومطامحه وانتصاراته . فلعل في أعماله قاعدة السلوك التي لم يتمكن العبث من مدنا بها ، وإشارة على الأقل حول حق أو واجب القتل ، ولعل فيها أخيراً الأمل في خلق ما . الانسان هو الكائن الوحيد الذي يرفض أن يكون ما هو . والمسألة هي ان نعرف هل هذا الرفض لا يستطيع السير به إلا إلى إفناء الآخرين وإفناء ذاته ، وهل على كل تمرد أن ينتهي بتبرير القتل الشامل ، أو انه بالعكس ، وعلى الأقل ، دون أن يطمح الى براءة مستحيلة ، يستطيع أن يكتشف مبدأً بتحريمٍ معقول .

# الفصلُ الأولُ

الإنسان المتعبد

فكرة وجود حد ،  
فكرة وجود حق ما ( ١ )

ما الإنسان المتمرد ؟ انه انسان يقول : لا . ولئن رفض ، فانه لا يتخلى .  
فهو أيضاً انسان يقول : نعم ، منذ أول بادرة تصدر عنه . إن العبد الذي  
ألف تلقي الأوامر طيلة حياته يرى فجأة ان الأمر الجديد الصادر اليه غير  
مقبول . فما هو فحوى هذه « اللا » ؟

انها تعني مثلاً « أن الأمور استمرت اكثر مما يجب » و « أنها مقبولة حتى  
هذا الحد ، ومرفوضة فيما بعده » و « انك غالبت في تصرفك » ، وتعني أيضاً  
أن « هناك حداً يجب ان لا تتخطاه » . وخلاصة القول إن هذه « اللا » تؤكد  
وجود حد . إننا نجد نفس فكرة الحد في إحساس المتمرد بأن الانسان الآخر  
« يبالغ » ، وأنه يبسط حقه ويمجاوز الحد الذي اعتباراً منه يجابه ويحده حق  
آخر . فحركة التمرد تستند إذن ، في نفس الوقت ، الى رفض قاطع لتعدّي لا  
يطاق ، والى يقين مبهم بوجود حق صالح ، وبصورة أصح ، الى اعتقاد المتمرد  
ان « له الحق في أن ... » . فلا بدّ للمتمرد من أن يكون مقترناً بشعور  
المراء بأنه على حق ، بصورة ما ، وفي مجال ما . وبهذا المعنى يقول العبد المتمرد  
« نعم » و « لا » في نفس الوقت . إنه يؤكد وجود الحد ، ويؤكد في الوقت  
نفسه كل ما يتصوره ويريد أن يصونه فيما وراء الحد . ويبين بعناد أن في ذاته  
شيئاً ما « يستحق أن ... » ، شيئاً ما يتطلب أن يؤخذ بعين الاعتبار . انه ،  
بصورة ما ، يجابه الأمر العاشم الصادر اليه بنوع من الحق في أن لا يُضطهد الى  
أبعد من الحق المقبول .

( ١ ) العناوين الصغيرة من وضع المحرر . ( الناشر )

## التمرد ووجود قيمة

إلى جانب النفور من المتعدي الغاشم ، هناك أيضاً في كل تمرد مشايعة تامة وفورية من الانسان لقسم معين من ذاته . إن الانسان يُدخل إذن بصورة ضمنية حكماً قيمياً يؤكد وسط المخاطر مهما كان واهي الأساس . حتى هذا الحد ، كان مخلداً الى الصمت على الأقل ، مستسلماً لهذا اليأس الذي يُقبل فيه بوضع ما حتى لو اعتُبر جائراً . إن الإخلاق الى الصمت معناه الانجاء للآخرين بأننا لا نحكم على شيء ، ولا نرغب في شيء ؛ وفي بعض الحالات معناه في الحقيقة اننا لا نرغب في شيء . إن اليأس ، كالعبت ، يحكم على كل شيء ويرغب في كل شيء بشكل عام ، ولا يحكم على أي شيء ولا يرغب في أي شيء بشكل خاص . وإن الصمت ليعبر عنه تعبيراً جيداً ، ولكنه ما أن ينطق ، فإنه يرغب ويحكم حتى لو قال : « لا » . إن التمرد ، بالمعنى الاشتقائي ، يبدل موقفه فجأة . لقد كان يسير تحت سوط السيد ، فاذا به يقف موقف المجاهدة . إنه يقابل بين ما هو مفضل وغير مفضل . صحيح أن كل قيمة لا تولد التمرد ، ولكن كل حركة تمرد تستدعي ضمناً وجود قيمة . فهل نحن على الأقل بصدد قيمة ؟

## الشعور المفاجيء بقيمة مبهمة

غمة وعي - مهما تكن درجة ابهامه - ينشأ عن حركة التمرد : الإدراك فجأة بأن في الانسان شيئاً يمكن للإنسان أن يتوحد معه ذاتياً ، ولو لوقت قصير . حتى الآن ، لم يكن 'بمجنس' بهذا التوحد إحساساً فعلياً . لقد تحمل العبد كل التعسفات السابقة لحركة التمرد . بل كثيراً ما تقبل ، دون تمرد ، أوامر أقسى من الأوامر الذي يثير الآن رفضه . لقد كان يلود بالصبر ، وربما كان يذفن هذه الأوامر المتعسفة في أذواق ذاته ، ولكنه - نظراً لصمته - كان مشغولاً بمصلحته المباشرة أكثر من أن يكون شاعراً بحقه بعد . ومع نقاد الصبر وانعدامه تبدأ ، العكس ، حركة " قد نتد فنتد كل ما كان

مقبولاً في السابق . هذه الوثبة تكاد تكون دائماً ذات مفعول رجعي . فالعبد عندما يرفض الأمر المهيمن الصادر عن سيده ، يرفض في الوقت نفسه حالة العبودية بالذات . إن حركة التمرد تسير به إلى أبعد مما كان عليه في رفضه البحت . بل انه يتخطى الحد الذي عينه لخصه ، مطالباً الآن بأن يُعامل على قدم المساواة مع سيده . فالشيء الذي كان في البدء مقاومة عنيدة من الانسان ، أصبح الآن الانسان كله متوحداً في هذه المقاومة ومختصراً فيها . حيثُ يضع هذا القسم من ذاته والذي كان يريد دفع الآخرين على احترامه ، نقول : يضع هذا القسم فوق كل ما تبقى ، ويعلن انه يفضلُه على كل شيء ، حتى على حياته . ويُصبح هذا الجزء بالنسبة اليه بمثابة الخير الأسمى . لقد كان وضعه من قبل وضع التسوية المجحفة ، فاذا به يرتقي دفعة واحدة ( « بما أن الأمر هكذا... » ) في وضع جديد : « كل شيء او لا شيء » .

إن الشعور<sup>(١)</sup> يولد مع التمرد .

الاستعداد للموت في سبيل  
هذا الكلام المهم

ولكننا نرى أن هذا الشعور هو ، في نفس الوقت ، شعور بـ « كل » ، لا يزال على درجة كافية من الغموض ، وشعور بـ « لا شيء » يُبشر بإمكانية تضحية الانسان في سبيل هذا الكل . فالتمرد يريد أن يكون كل شيء ، يريد أن يتوحد توحداً ذاتياً كلياً مع هذا الخير الذي شعر به فجأة ، وأن يُجَيِّساً ويُعترفَ به في شخصه . إنه يريد أن يكون هذا الكل ، أو أن يكون لا شيء : أي أن تحرمه القوة المتحكمة به حرماناً نهائياً . وهو ، في النهاية ، يرضى بالحرمان والسقوط الاخير ، ونعني الموت ؛ اذا كان لا بد من حرمانه من هذا التكريس الخاص الذي يسميه ، مثلاً ، حرите . إنه يؤثر أن يموت عزيزاً رافع الرأس على أن يعيش عبثة الهوان .

(١) معنى وعي .

مجازة الذات الى قيمة

مشتركة بين الناس

تمثل « القيمة » ، في نظر المؤلفين الصالحين ، وفي اغلب الاحيان ، انتقالاً من الواقع الى الحق ، من المرغوب فيه الى المشتى (وذلك عن طريق المرغوب فيه اعتيادياً ، بوجه العموم ) . إن الانتقال الى الحق واضح في التمرد ، كما رأينا . وكذلك الانتقال من « كان يجب أن يتحقق ذلك » الى « أريد أن يتحقق ذلك » . وربما بشكل أكثر هذا المفهوم : مفهوم تجاوز الفرد في خير أصبح مشتركاً . إن بروز « كل شيء أو لا شيء » بين أن التمرد ، خلافاً للرأي السائد ، وعلى الرغم من أنه ينشأ في صميم فردية الإنسان ، يثير التساؤل حول مفهوم الفرد بالذات . والحقيقة ان الفرد اذا قبل بالموت ، ومات في الوقت الموافق في حركة تمرد ، فانه يدلل بذلك على انه يضحي بذاته في سبيل خير يعتبر انه يجاوز مصيره الخاص . واذا فضل الموت على إنكار هذا الحق الذي يذود عنه ، فلأنه يضع الحق فوق ذاته . إنه يتصرف إذن باسم قيمة ، لا تزال مبهمة ، ولكنه يحس على الاقل بأنها قيمة مشتركة بينه وبين الناس جميعاً . وعليه ، نرى ان التأكيد الذي ينطوي عليه كل فعل تمرد يمتد الى ما هو ابعد من الفرد ، وذلك بمقدار ما ينتشله من عزله المفترضة ويمده بداع الى العمل . ولكن يجدر بنا ان نلاحظ ان هذه القيمة السابقة في وجودها لكل عمل ، تناقض الفلسفات التاريخية الصرفة التي تذهب الى ان القيمة تكتسب -- هذا اذا كانت تكتسب -- في نهاية العمل . إن تحليل التمرد يقودنا على الاقل الى تصور وجود طبيعة بشرية ، كما كان يعتقد الإغريق ، وخلافاً لفرضيات الفكر المعاصر . فلماذا يثور الانسان لو لم يكن هناك في ذاته شيء دائم يستدعي الصيانة ؟ إن العبد يهب في الحقيقة لنصرة الجميع ، في الوقت نفسه ، وذلك حينما يعتقد ان هذا الأمر الصادر اليه ينكر شيئاً لا يخصه وحده فحسب ، بل هو محل مشترك يجد فيه الناس جميعاً ، حتى ذلك الذي



يشتم هذا العبد وبضطهده ، رابطة جاهزة (١) .

ملاحظتان

هناك ملاحظتان تدعمان هذه المحاكمة :

١ - نلاحظ أولاً أن حركة التمرد ليست ، في جوهرها ، حركة أنانية . قد يكون لديها ، ولا شك ، مقاصد أنانية . ولكننا نتمرد ضد الكذب مثلما نتمرد ضد الاضطهاد . أضف الى ذلك ، ان التمرد ، اعتباراً من هذه المقاصد وفي توثبه الصيبي ، لا يصون شيئاً ؛ لأنه يغامر بكل شيء . لا جرم انه يطالب بالاحترام من أجل ذاته ، ولكن بمقدار ما يتوحد ذاتياً مع جماعة طبيعية .

٢ - فلنلاحظ بعدئذ ان التمرد لا ينشأ فقط وبالضرورة لدى المضطهد ، بل قد ينشأ ايضاً لدى مشاهدة الاضطهاد الذي يتعرض له شخص آخر . هناك اذن ، في هذه الحالة ، توحد ذاتي مع الشخص الآخر . ويجب أن نبين بأن المسألة ليست مسألة توحد ذاتي نفسياني ، مسألة وسيلة بحس الفرد بواسطتها في غيخته أن الاهانة موجهة اليه . قد يحدث لنا ، بالعكس ، ان لا نتحمل رؤية إهانات تكال للآخرين ، مع العلم بأننا سبق لنا تحملها نحن انفسنا دون ان نتمرد . إن الانتحارات الاحتجاجية في السجن ، وهي الانتحارات التي كان الارهابيون الروس يلجأون اليها عندما كان رفاقهم 'يجلّدون بالسياط ، أكبر دليل على هذه الحركة العظيمة . وليست المسألة ايضاً مسألة الاحساس بوحدة المصالح . فنحن قد نجد في الحقيقة ان الظلم اللاحق بأناس نعتبرهم من اخصامنا ، ظلاماً مثيراً . هناك فقط توحد ذاتي في المصائر وتحزّب . فالفرد وحده لا يشكل إذن هذه القيمة التي يريد الدفاع عنها . لا بدّ ، على الأقل ، من جميع البشر لتشكيلها . في التمرد ، يجاوز الانسان ذاته في الآخرين ، ومن وجهة النظر

(١) إن الرابطة التي تجمع بين الضحايا هي نفس الرابطة التي تجمع بين الصحبة والجلاد . ولكن الجلاد لا يعرف ذلك .

هذه ، يُعتبر التضامن البشري تضامناً ماورائياً . بيد اننا لا نقصد في الوقت الحاضر سوى هذا النوع من التضامن الذي ينشأ في حالة الرسوف في الأغلال .



### مقارنة التمرد والغل

يمكننا ايضاً ان نوضح الوجه الايجابي للقيمة التي يفترضها كل تمرد ، وذلك بمقارنتها بمفهوم سلبي بحت كمفهوم الغل كما عرفه شيلر . الحقيقة ان حركة التمرد هي اكثر من عملية مطالبة ، بالمعنى القوي للكلمة . لقد عرف شيلر الغل تعريفاً ممتازاً ، كتسم ذاتي ، كإفراز مشؤوم لعجز مستديم ، يجري ضمن حيز مغلق . أما التمرد فيصدع الكائن ويساعده على مجاوزة ذاته . انه يحرق أمواجاً كانت ساكنة فصارت عاتية . وإن شيلر نفسه يركز على الوجه السلبي للغل ، ملاحظاً المقام الكبير الذي يحتله في نفسية النساء المتذورات للشهوة والتسلك . أما في أصل التمرد فتمة مبدأ قدرة وافرة وفعالية زاخرة . إن شيلر على حق ايضاً في أن يقول إن التمني يهر الغل بطابع قوي . ولكننا نتمنى ما لا نملك ، في حين ان التمرد يدافع عن كيانه . إنه لا يطالب فقط بما لا يملك أو بما حرم منه ، بل يرمي ايضاً الى دفع الآخرين الى الاعتراف بشيء ما ، سبق ان اعترف به هو نفسه ، في جميع الحالات تقريباً ، على انه أهم من الأشياء التي قد يتبناها . فالتمرد ليس بواقعي . وفي اعتقاد شيلر ايضاً أن الغل يصبح وصولية أو حقداً ، تبعاً لنشوته في نفس قوية أو ضعيفة . ولكننا ، في كلتا الحالتين ، نريد ان نكون غير ما نحن عليه . الغل هو دائماً غل ضد الذات . أما التمرد ففي أول حركة تصدر عنه يرفض مس كيانه . انه يناضل من أجل سلامة جزء من كينوته ، ولا يسعى أولاً الى التوسع بل الى تأكيد الذات .

يبدو أخيراً ان الغل يتلذذ سلفاً بآلام يتمنى أن يحس بها من هو موضوع حقه . وإن نيتشه وشيلر على حق في أن يريا دليلاً على هذه الحساسية في المقطع الذي ينسب فيه توتوليان قراءه ان أكبر مصدر لسعادة الأبرار في الفردوس هو منظر الأباطرة الرومان يحترقون في سعيهم جهنم . هذه السعادة هي أيضاً سعادة أهل الفضيلة والأمانة الذين كانوا يحضرون عمليات الاعدام . أما التمرد فيكتفي ، في مبدئه ، برفض الذل دون أن يطلبه للانسان الآخر . بل انه يرتضي لنفسه بالألم ، على أن تحترم سلامته ويصان كماله .

تقد شيلر

لذلك لا نفهم لماذا يوحد شيلر توحيداً ذاتياً مطلقاً بين روح التمرد والغل . وان نقده للغل في مذهبه خير الانسانية العام ( الذي يصفه على أنه الشكل غير المسيحي لهجة البشر ) ربما انطبق على بعض الاشكال المهمة من المذهب المثالي الانساني أو على فنون الارهاب . ولكنه باطل فيما يتعلق بتمرد الانسان على وضعه ، هذه الحركة التي تدفع الفرد الى أن يهب مدافعاً عن كرامة مشتركة بين البشر جميعاً . إن شيلر يريد أن يثبت ان مذهب خير الانسانية العام يكون مقروناً بكره الناس . فنحن نحب الانسانية بوجه العموم ، كي لا نضطر الى حب المخلوقات بوجه الخصوص . هذا صحيح في بعض الحالات ، وانا لنفهم شيلر فهماً أفضل حينما نرى ان المذهب المذكور يتمثل بالنسبة اليه في الفيلسوفين بنتام وروسو . بيد أن حب الانسان للانسان قد ينشأ عن شيء آخر غير حساب المنافع<sup>(١)</sup> ، أو ثقة بالطبيعة البشرية<sup>(٢)</sup> ، هي - على كل - ثقة نظرية .

(١) إشارة الى نظرية البيلوف بنتام - المررب -

(٢) إشارة الى نظرية الصلاح الطبيعي عند روسو - المررب -

منطق جديد

إزاء النفعيين ، وإزاء مؤدّب إميل<sup>(١)</sup> ، هناك هذا المنطق الذي جسّده دوستويفسكي في إيفان كارامازوف ، والذي ينتقل من حركة التمرد إلى العصيان الماورائي<sup>(٢)</sup> ، إن شيار الذي يعرف ذلك ، يلخص هذه النظرة كما يلي : « ما أقل الحجة في العالم حتى بددها على كائن آخر غير الكائن الانساني . حتى لو كانت هذه الفكرة صحيحة ، فان اليأس القاتل الذي تفترضه يستحق شيئاً آخر غير الازدراء . والواقع انها لا تقدّر الطابع الممزق الذي يتصف به تمرد كارامازوف . أما مأساة إيفان فتنشأ عن فيض من حب لا موضوع له . بما أن هذا الحب أصبح دون استعمال ، بسبب نكران الإله ، لذلك يُعقد العزم على تحويله الى الكائن البشري باسم مشاركة خيرة سمحاء .

إجاية التمرد

على ككل ، في حركة التمرد كما نظرنا إليها حتى الآن ، لم نصطب مثلاً أعلى تجريبياً ، عن فقر في العاطفة وبهدف مطالبة عقيمة . وانما طالبنا بأن يؤخذ بعين الاعتبار هذا الجزء الذي لا يمكن إرجاعه الى التصور الذهني عند الانسان ، هذا الجزء الدافئ الذي لا يفيد لشيء غير الكينونة . فهل يعني ذلك انه لا يوجد أي تمرد مشحون بالغل ؟ كلا ، وهذا ما نعرفه معرفة كافية في عصر الأحقاد . ويمكن علينا أن نأخذ هذا المفهوم بمعناه الاوسع بحافة أن لا تبقى آمينين له ، وهذا الخصوص يجاوز التمرد الغل من جميع الجوانب . ففي مرتفعات ويزرنع ، عندما يفضل هيثكليف حبه على الله ، ويطلب الجحيم كي يلتقي بمن يحب ، فليس شبابه المهان هو الذي يتكلم فقط ، بل تتكلم

(١) اسم الفن التلهيد في كتاب رومو التربوي المسمى إميل - المرعب -

(٢) سردى تمرد إيفان كارامازوف مدروماً بشكل موسع في الصفحات المقبلة تحت عنوان :

رفض الخلاص - المرعب -

أيضاً التجربة الملتهبة ، تجربة حياة بأكملها . نفس الحركة تدفع إيكارت على أن يقول ، في نوبة مدهشة من نوبات هرطقته ، إنه يفضل الجحيم مع يسوع على الجنة من غير يسوع . أنها اندفاعة الحب ذاتها . فصد شيار ، لا يعنا إذن أن نفيض في التشديد على التأكيد المحموم الذي يسري في حركة التمرد ، والذي يميزه عن الغل . ان التمرد الذي يبدو سلبياً في الظاهر لأنه لا يخلق شيئاً ، هو في الحقيقة إيجابي جداً لأنه يكشف القسم الذي يستحق أن ندافع عنه دائماً ، في الانسان .



#### التمرد والمجتمعات

ولكن هذا التمرد والقيمة التي يحملها ، أليسا سبباً ؟ الحقيقة ان الأسباب الدافعة إلى التمرد تتبدل ، فيما يبدو ، بتبدل العصور والحضارات . بما لا ريب فيه ان المنبوذ الهندوسي ، أو المحارب في مملكة الأنكا ، أو البدائي الموجود في افريقيا الوسطى ، أو أحد أفراد الجماعات المسيحية الأولى ، لم يكن لديهم نفس الفكرة عن التمرد ، بل يمكننا أن نثبت إثباتاً شديد الرجحان ان مفهوم التمرد لا معنى له في هذه الحالات المعينة . ولكن اذا أمكن للعبد الاغريقي ، والقين المملوك ، والجندي المرتزق في عصر النهضة ، والبورجوازي الباريسي في عهد الوصاية ، والمثقف الروسي في مطلع القرن العشرين ، والعامل المعاصر ، تقول اذا أمكن لهؤلاء جميعاً أن يختلفوا في أسباب التمرد ، فانهم يتفقون دون أي ريب على شرعيته . وبتعبير آخر ، يبدو أن مشكلة التمرد لا تكتسب معنى دقيقاً إلا داخل التفكير الغربي . ويمكننا أن نكون أكثر وضوحاً أيضاً اذا لاحظنا مع شيار أن روح التمرد صعبة الظهور في المجتمعات التي يسودها التفاوت الواسع ( نظام الطبقات الهندوسية ) أو ، على العكس ، في المجتمعات التي تسودها المساواة المطلقة ( بعض المجتمعات البدائية ) . ليست روح التمرد ممكنة ، في المجتمع ، إلا ضمن الأرهاط التي تغطي فيها مساواة

نظرية فوارق واقعية كبرى . لذلك لا تكتسب مشكلة التمرد معنى إلا داخل المجتمع الغربي . وحينئذ قد تسول لنا نفسنا أن نؤكد بأن هذه المشكلة متعلقة بنمو الفردانية ، لو لم تحذرنا الملاحظات السابقة من الخلوص الى هذا الاستنتاج.

التمرد والوعي وعالم القديسات

على صعيد البدهة ، كل ما يمكننا استخلاصه من ملحوظة شيلر ، في الحقيقة ، ان هناك في مجتمعاتنا بسبب نظرية الحرية السياسية ازدياداً لمفهوم الانسان لدى الانسان ، وان هناك بسبب تطبيق هذه الحرية بالذات ظمناً مقابلاً . فالحرية الواقعية لم تتزايد بنسبة تزايد وعي الانسان للحرية . عن هذه الملاحظة لا يمكننا ان نستنج سوى ما يلي : إن التمرد مسلك الانسان المطع الشاعر بحقوقه . ولكن لا شيء ينجولنا بأن نقول إن المسألة مسألة حقوق الفرد فقط . إذ يبدو ، بالعكس ، وبفضل التضامن الذي أشرنا اليه سابقاً ، ان المسألة مسألة شعور بالذات متزايد الاتساع ، ينشأ لدى الجنس البشري خلال مغامراته . والواقع ان الفرد في مملكة الأنكا أو المنبوذ الهندوسي لا يطرح على نفسه مشكلة التمرد ، لأن المشكلة 'حلّت' بالنسبة اليه في التقاليد ، وقبل ان يتسنى له طرحها على نفسه ، والجواب موجود في القديسات . واذا كنا لا نجد في عالم القديسات مشكلة التمرد ، فذلك لأننا في الحقيقة لا نجد فيه أي التباس ، فلقد أعطيت جميع الأجوبة دفعة واحدة . هكذا استبدلت الماورائيات بالأسطورة . ولم يعد هناك تساؤلات ، بل أجوبة وتفسيرات خالدة ، يمكن لها إذ ذاك أن تكون ماورائية ، ولكن الانسان قبل ان يدخل عالم القديسات ، وكما بدخله أيضاً ، أو حالما يخرج منه ، وكما يخرج منه ايضاً ، ... هو تساؤل وتمرد . الانسان المتمرد هو الانسان الموجود قبل عالم القديسات أو بعده ، والمنهك في المطالبة بوضع انساني تكون فيه جميع الأجوبة انسانية ، أي مصاغة بشكل منطقي . اعتباراً من هذه اللحظة يكون كل تساؤل ، كل كلام ، تمرداً . أما في عالم القديسات يكون كل كلام حمداً وشكراً . ويصبح ممكناً بالتالي ان

نبين انه لا يمكن ان يوجد بالنسبة الى الفكر البشري سوى عالين : عالم  
القدسيات ( أو عالم العون <sup>(١)</sup> على حد التعبير المسيحي ) ، وعالم التمرد . إن  
اختفاء احدهما معناه ظهور الآخر ، وإن أمكن لهذا الظهور أن يجري بأشكال  
عجيرة . هنا ايضاً نجد « كل شيء » ، أو « لا شيء » <sup>(٢)</sup> . إن ما تتمتع به مشكلة  
التمرد من صفة حالية مردته فقط الى ان مجتمعات بأسرها أرادت أن تتعد عن  
عالم القدسيات . فنحن نحيا في تاريخ نُزعت عنه القدسية . لا جرم أن الانسان  
لا يُلخّص في العصيان . بيد ان تاريخ اليوم ، بمواقفه الإنكارية ، يضطرننا الى  
القول إن التمرد أحد أبعاد الانسان الاساسية . انه حقيقتنا التاريخية . علينا  
إذن ان نجد فيه قيمنا ، اللهم إلا اذا هربنا من الواقع . فهل في وسعنا أن نجد  
قاعدة سلوك ، بعيداً عن عالم القدسيات وعن قيمه المطلقة ؟ هذا هو السؤال  
الذي يطرحه التمرد .



#### التمرد والتضامن

استطعنا سابقاً أن نلاحظ القيمة المبهمة التي تنشأ عند هذا الحد الذي يستقر  
فيه التمرد . علينا الآن أن نتساءل هل هذه القيمة موجودة في الاشكال الحالية  
للفكر والعمل المتمردين ، وان نين محتواها اذا كانت موجودة فيها . ولكن  
فلنلاحظ قبل متابعة الكلام ان أساس هذه القيمة هو التمرد نفسه . إن تضامن  
البشر يقوم على حركة التمرد ، وهذه الحركة ، بدورها ، لا نجد ما يبررها إلا  
في هذه المشاركة . لذلك من حقنا أن نقول إن كل تمرد يسبح لنفسه بإنكار أو  
بتهديم هذا التضامن ، يفقد في الوقت نفسه اسم التمرد ، ويلتقي في الحقيقة مع  
إذعان قتال . كما ان هذا التضامن ، خارج عالم القدسيات ، لا يكتب حياة

(١) بما لا ريب فيه ان هناك تمرداً ماورياً في المسيحية ، ولكن قيامة المسيح والتبشير بملكوته  
الرب المعسر على انه وعد بجماعة أزلية ، هي الاجوبة التي تحمل هذا التمرد عديم الجدوى .  
(٢) راجع ما جاء سابقاً (ص ٢٤) تحت عنوان : الشعور المفاجيء بقيمة مبهمة (العرب) .

إلا في مستوى التمرد . وحينئذ تُعلنُ مأساة الفكر الحقّة . فالإنسان ، كما يوجد ، عليه ان يتمرد ، ولكن على تمرده ان يحترم الحد الذي يكتشفه في ذاته ، هذا الحد الذي عنده يشرع البشر بالوجود بتلاقيهم مع بعضهم بعضاً . فلا يمكن إذن للفكر المتمرد ان يستغي عن ذاكرة : انه توتر دائم . وإذا ما تتبعناه في صنيعه وأفعاله ، فعلينا أن نين ، كل مرة ، هل بقي أميناً لنبله الأولي ، أم أنه بدافع التعب والجنون نسيه في نشوة الطغيان أو العبودية .

### التمرد والمشاركة

ولكن هاكم ، في غضون ذلك ، أول تقدم 'يدخله روح التمرد في تفكير كان في البدء مقتنعاً بالعبثية وبالعدم الظاهري الذي يغلف العالم . فالألم يكون فردياً في التجربة العبثية . ولكن اعتباراً من حركة التمرد يشعر بأنه ألم جماعي ، ويصبح مصيراً مشتركاً بين الجميع . إن أول خطوة بخطوها فكر تملكه الغرابة هي أن يسلم بأنه يسهم في هذه الصفة مع البشر جميعاً ، وان الحقيقة الانسانية ، في مجموعها ، تعاني من هذا البعد عن الذات والعالم . والداء الذي كاث يبتلي انساناً واحداً يصبح وباء جماعياً . وفي تجربتنا اليومية الخاصة ، يقوم التمرد بنفس الدور الذي تقوم به الكوجتة<sup>(١)</sup> على صعيد الفكر : انه البديهية الأولى . ولكن هذه الحقيقة البديهية الأولى تنتشل الفرد من عزله . إنها محل مشترك يرسي القيبة الأولى على البشر جميعاً :

أنا أتمرد ، إذن نحن موجودون .

(١) أنا الفكر إذن أنا موجود .



## الفصلُ الثاني

### التمرد الماورائي

العبد المتمرد ، والمتمرد الماورائي

التمرد الماورائي هو الحركة التي بواسطتها يثور إنسان ما ضد وضعه ، وضد الخلق كله . انه ماورائي لأنه ينكر غايات الانسان والخلق .

العبد يحتاج ضد الوضع المخصص له ضمن حالته (١) ، أما المتمرد الماورائي فيحتاج ضد الوضع المخصص له كإنسان .

العبد العاصي يؤكد ان فيه شيئاً ما لا يرضى بالطريقة التي يعامله بها سيده ، أما المتمرد الماورائي فيعلن بأن الخلق قد حرّمه .

ليست المسألة بالنسبة الى كليها مسألة إنكار ليس غير . ففي كلتا الحالتين ، في الحقيقة ، نجد حكماً قيبياً بإسسه يرفض المتمرد الموافقة على وضعه الخاص .

ترد العبد تطلع الى نظام

فلنلاحظ ان العبد المتمرد على سيده لا يهتم بأن 'ينكر هذا السيد كإنسان ، بل كسيد . إنه 'ينكر أن يكون لسيده الحق في ان ينكره ، هو ، العبد ، بوصفه تطلباً وحاجة . ويسقط السيد من مرتبته بمقدار عدم استجابته لحاجة بوليها الإهمال . فإذا كان البشر لا يستطيعون الركون الى قيمة مشتركة 'يقرها الجميع في كل فرد ، فحينئذ يصبح الانسان مستغلقاً بالنسبة الى أخيه الانسان . إن العاصي يطالب بأن 'يعترف له بهذه القيمة في ذاته اعترافاً واضحاً ، لأنه يتصور أو يعلم ان القوضى والاجرام سيعمان العالم ، إذا لم يؤخذ بهذا المبدأ . وتظهر حركة التمرد لديه كمطالبة بالوضوح والوحدة (٢) .

إن أبسط شكل من اشكال العصيان يعتبر ، بحكم مفارقة عجيبة ، عن التطلع الى نظام .

(١) أي ضمن حالة العبودية (العرب) .

(٢) بمعنى انسجام (العرب) .

## موقف المتمرد الماورائي

ينطبق هذا الوصف تماماً على المتمرد الماورائي . فهو يقف على أنقاض عالم محطم مطالباً بوحده . إنه يجابه مبدأ الظلم الموجود في العالم بمبدأ العدالة الكامن في ذاته . إنه لا يريد إذن ، في البدء ، إلا أن يحل هذا التناقض ، وأن يقيم سلطان العدالة الموحد ، إذا استطاع ، أو سلطان الظلم ، إذا أخرج . وفي غضون الفترة الفاصلة ، يفضح التناقض .

إن التمرد الماورائي ، إذ يحتج بواسطة الموت على ما يتميز به الوضع من نقصان ، وبواسطة الشر على ما يتميز به من توزع ، تقول : إن التمرد الماورائي باحتجاجه المذكور هو مطالبة " ميسونة " ، مطالبة " معلنة " ضد آلام الحياة والموت . فإذا كانت عقوبة الموت المعممة الشاملة تعرف الوضع البشري ، فإن التمرد ، بوجه ما ، معاصر لها . والمتمرد يرفض وضعه الفاني ، وفي الوقت نفسه يرفض الاعتراف بالقوة التي تجعله يعيش في هذا الوضع . ليس المتمرد الماورائي إذن ملحداً بوجه التأكيد ، كما قد نعتقد ، ولكنه مجدّد حتماً . إنما مجدّد أولاً باسم النظام ، معلناً ان الله أبو الموت ، وأنه العار الأكبر .

سلطان السيد

وحضوع العبد سييان

فلنعد الى العبد المتمرد كي نوضح هذه النقطة . فهذا العبد كان يثبت ، في احتجاجه ، وجود السيد الذي يتمرد ضده . ولكنه ، في الوقت نفسه ، كان يدل على انه يلحق بتبعيته سلطة هذا الاخير ، ويؤكد سلطته الخاصة : ونعني قدرته على ان يضع تحت البحث دائماً وابدأ هذه السلطة المتفوقة التي كانت تتحكم به حتى الآن . وبهذا الخصوص ، يُعتبر السيد والعبد حقاً في نفس الوضع : فسلطان الاول الموقت نسبي كخضوع الآخر . ان كلا القوتين تؤكدان ذاتهما بالتناوب ، ساعة العصيان ، ريثما تتجاهلان لتحطم إحداهما الاخرى ، وحينئذ تحتفي احدي هاتين القوتين اختفاء موقتماً .

## التمرد والكائن العلوي

كذلك ، اذا ثار التمرد الماورائي ضد قوة يؤكد وجودها في الوقت نفسه ، فانه لا يثبت هذا الوجود الا ساعة إنكاره . وحينئذ يجر هذا الكائن العلوي في نفس المصير الانساني الدليل ، لأن سلطته الزائلة توازي وضعنا الزائل . إنه 'يخضع هذا الكائن العلوي لقوة الرفض الانساني ، ويجنيه امام هذا الجزء الذي لا ينحني لدى الانسان ، ويدبجه عنوةً في وجود عبثي بالنسبة اليه ، وينتزعهُ أخيراً من مقامه العلوي ليدخله في التاريخ ، أبعد ما يكون عن استقرار سرمدية لا يستطيع ان يجده إلا في موافقة البشر الإجماعية . هكذا يؤكد التمرد أن ، على مستواه ، كل وجود سامٍ هو وجود متناقض على الاقل .

## التمرد والاستسلام للانكار التام أو الخضوع الكلي

لا يمكن إذن لتاريخ التمرد الماورائي أن يختلط مع تاريخ الإلحاد . بل إنه ، من زاوية معينة ، يختلط مع تاريخ الشعور الديني المعاصر . فالتمرد يتحدى أكثر مما ينكر . انه ، في البدء على الاقل ، لا يحذف الله ، بل يكلمه فقط كلام الند للند . ولكن المسألة ليست مسألة حوار مجاملة ، بل مسألة مجادلة تحدوها الرغبة في التغلب . إن العبد يبدأ بالمطالبة بالعدالة ، ثم ينتهي به الأمر الى المطالبة بالسلطة . فهو ، بدوره ، يحتاج الى التحكم . إن الانتفاضة على الوضع تنتظم في حملة عارمة ضد السماء ، لتعود منها بملك سجين يُعلن خلعهُ أولاً ، ويُحكّم عليه بالموت بعدئذ<sup>(١)</sup> . هكذا ينتهي العصيان البشري في ثورة ماورائية . إنه يسير من التظاهر الى التنفيذ ، من الداندي<sup>(٢)</sup> الى الثوري .

(١) إشارة الى قتل الملك المستند الى الحق الالهي وستوضح هذه النقطة في الفصول الآتية .  
(المعرب)

(٢) الداندي هو من اهل التظاهر وستوضح ذلك في الفصول الآتية (المعرب) .

وما ان يُخلع الرب عن العرش ، حتى يتبين للعاصي ان هذه العدالة وهذا النظام وهذه الوحدة التي كان ينشدها عبثاً في وضعه ، أصبح من واجبه أن يوجد لها بكتا يديه ، ان يخلقها بنفسه ، وأن يبرر بذلك عملية الخلع الرباني . وحينئذ يبدأ مجهود يائس لبناء مملكة البشر ، حتى لو اقتضى ذلك ارتكاب الجرائم . وهذا لا يتم دون نتائج رهيبية ، لا نعرف منها الآن سوى بعضها . ولكن هذه النتائج لا ترجع ابدأ الى التمرد ذاته ، أو انها على الاقل لا تظهر إلا بقدر ما ينسى المتمرد اصله ، ويميل التوتر العنيف الذي يبقيه مشدوداً بين القبول والرفض ، ويستسلم اخيراً للانكار التام أو الخضوع الكلي . إن العصيان الماورائي يقدم لنا في أول حركة من حركاته نفس المحتوى الايجابي الذي يقدمه عصيان العبد . وستكون مهمتنا ان نفحص مصير محتوى التمرد في الاعمال التي تنتسب اليه ، وان نبين الى اين تؤدي خيانة المتمرد لأصله ، أو امامته له .

## أبناء قاييل

التمرد في القديم :

روميثيوس

التمرد الماورائي، بمصر المعنى ، لم يظهر في التاريخ الفكري بشكل متناهي إلا في نهاية القرن الثامن عشر . فابتدأت آنذاك الأزمنة الحديثة على ضجيج الأسوار المتهاوية . ولكن اعتباراً من هاتيك الآونة ، تالت نتاجه بصورة مستمرة ، ولا نبالغ اذا اعتقدنا انها كُتبت تاريخ عصرنا . فهل يعني ذلك ان التمرد الماورائي كان فاقد المعنى قبل هذا التاريخ ؟ الحقيقة ان غاذه تعود الى غابر الازمان ، لأن عصرنا يروق له الادعاء بأنه عصر "روميثيوسي"<sup>(١)</sup> . ولكن هل هو حقاً بروميثيوسي ؟

إن الأساطير الدينية الأولية تصور لنا بروميثيوس مربوطاً الى عامود قائم في أقاصي الارض ، شهيداً أزلياً ، محروماً الى الأبد من مغفرة يرفض التماسها . وإن أسخيل<sup>(٢)</sup> Eschyle ليضخم من صورة البطل ، فيجعل منه ثاقب البصيرة ( « ما من شقاء يجلب في الا تكهنات بوقوعه » ) ، ويجعله يجاهر ببغضه لجميع الآلهة ، وإذ يرمي به في « بحر عاصف من اليأس القاتل » ، يقدمه للبروق والصواعق : « آه ! اشهدوا ما أعاني من ظلم » .

(١) نسبة الى بروميثيوس إله النار .

(٢) أبو المأساة الاغريقية . مؤلف : روميثيوس المفيد ، والثلاثة - العرب -

## الاعريق وانموذج التمرد

لا يمكننا اذن أن نقول إن الاقدمين جهلوا التمرد الماورائي . فقد رسموا ، قبل إبليس بكثير<sup>(١)</sup> ، صورة مؤلمة ونيئة عن التمرد ، واعطونا أعظم أسطورة عن العقل المتمرد . إن العبقرية اليونانية التي لا ينضب معينها ، والتي أفسحت المجال وسيماً لأساطير التواضع والاذعان ، قد عرفت مع ذلك أن تعطي أنموذجاً عن العصيان . ولا مرء في أن بعض الحصال البروميشوسية ما تزال موجودة في التاريخ المتمرد الذي نعيش :

- الصراع ضد الموت : ( « لقد أتقدت البشر من هاجس الموت » ) .
- الطموح الأعمى : ( « لقد أودعت فيهم الآمال العمياء » ) .
- محبة البشر : ( « عدو الإله زوس ... لأنني أحببت البشر حباً جماً » ) .

## التمرد الاعريقي روح الاعتدال

ولكن لا يمكننا أن ننسى أن «بروميشوس حامل النار» ، الحد الأخير في الثلاثية الأسخيلية<sup>(٢)</sup> ، بشر سلطان التمرد الذي نال العفران . ان اليونان لا يكفرون شيئاً . وفي أقصى ما يبلغون من جرأة ، يظلون وفيين لهذا الاعتدال الذي سموا به الى مرتبة التأليه . ان متمردهم لا يثور ضد الخلق كله ، بل ضد الإله زوس فقط ، وهو ليس سوى إله من آلهة عدة ، بالاضافة الى انه محدود الأجل والمدة . وبروميشوس نفسه هو نصف إله . المسألة اذن مسألة تصفية حسابات خاصة ، مسألة نزاع على الخير لا صراع عام يدور بين الخير والشر .

## سبب روح الاعتدال

### عند الاعريق

ذلك ان الاقدمين وإن كانوا يؤمنون بالقدر ، كانوا يؤمنون أولاً بالطبيعة

(١) لقد تمرد إبليس على ربه - المرب -

(٢) الثلاثية هي ثلاث تراجيديات كان يتقدم بها المتنافسون، في المباريات الدرامية ، وتعتبر

ثلاثية أسخيل أفضلها - المرب -

التي هم جزءٌ منها . التمرد على الطبيعة معناه إذن التمرد على الذات ، معناه مناطقة الجدران . فالتمرد المنطقي الوحيد هو اذن الانتحار . ان القدر الاغريقي نفسه هو قوة عمياء يُخضع لها مثلما يُخضع للقوى الطبيعية . ومنتهى الجنون بنظر الاغريقي ان يُجلد البحر بمقرفة<sup>(١)</sup> ، انه جنون يليق بالبرابرة . ليس من شك في ان الاغريقي يصف الافراط ، لأنه موجود ، انما يعطيه محله ، وبذلك يعين له حداً . ان تمهدي آشيل<sup>(٢)</sup> بعد موت صديقه باتروكليس ، واستنزال الأبطال المساويين اللعنات على قدرهم لا يستدعيان الادانة العامة الشاملة . كما أن أوديب (Edipe) يعلم انه غير بريء . انه مذنب على كرهٍ منه ، انه أيضاً جزءٌ من القدر ، وهو يشكو أمره ، ولكنه لا يتفوه بأقوال لا يمكن تلافيتها . وأتيفون<sup>(٣)</sup> نفسها تنمرد ، ولكنه باسم التقاليد ، ولكي يجد أخواها الراحة في القبر وتتراعى الطقوس . المسألة إذن مسألة تمرد رجعي . ان الفكر اليوناني ، هذا الفكر ذا الوجهين ، يكاد يتبع دائماً أياس الألمان بكلمة أوديب الخالدة ، بكلمته يُقر وهو الاعمى البائس أن كل شيء خير . القبول يتوازن إذن مع الرفض . وحتى عندما يصور لنا أفلاطون مسبقاً بكاليكليس Callicles الأنودح النيشوي العامي ، وحتى عندما يهتف هذا الاخير قائلاً : « ألا فليات اسات يتحلى بالخلق المطلوب ... انه سيتحرر من الإسار ، وسيدوس بتقديمه مراسيمنا وشعوذاتنا وسحرنا ، وسيدوس أيضاً هذه القوانين التي تُعتبر جميعاً ، دونما استثناء ، قوانين مخالفة للطبيعة . لقد تمرد عبدنا وتكشّف عن سيد » بقول : حتى آنذاك فانه يتفوه بكلمة الطبيعة اذا ما رفض القانون .

خصائص الفكر اليوناني

ذلك ان التمرد الماورائي يفترض نظرة مبسطة عن الخلق<sup>(٤)</sup> ، ما كان

- ١) أي أن مقارعة القدر غير مجدية ، وهي أشبه ما تكون بجلد البحر عمقعة - المغرب .  
 ٢) أشهر بطل في الالباذة . يح أن لا يحطه مع أسجبل - المغرب .  
 ٣) ابنة أوديب .  
 ٤) كثيراً ما تستعمل هنا كلمة خلق بمعنى : كون ، عالم - المغرب .



بالامكان وجودها عند اليونان . فلم يكن هناك في اعتقادهم آلهة من جهة ، وبشر من جهة أخرى ، بل درجات تقود من أولئك الى هؤلاء . كان تصور البراءة المعارضة للذنب ، وتصور تاريخ يتلخص كله في الصراع بين الخير والشر ، شيئاً غريباً عليهم . في عالمهم أخطاء أكثر بما فيه جرائم ، والجريمة النهائية الوحيدة هي مجاوزة الحد . أما في العالم التاريخي المحض الذي يوشك أن يكون عالمنا ، فلم يعد هناك أخطاء ، بل جرائم وفي طبيعتها ملازمة الحد<sup>(١)</sup> . بناء على ذلك ، يمكننا ان نفهم المزيج الغريب من الوحشية والتسامح ، والذي مجده في الأسطورة الاغريقية . فاليونان لم يجعلوا قط من الفكر معسكراً محضاً معزولاً ، وهذا ما يجعلنا دونهم مستوى . على كل ، لا يمكن تصور التمرد الا على انه تمرد ضد شخص ما . ان نظرية الإله الشخصي ، الإله الخالق وبالتالي المسؤول عن الأشياء جميعاً ، هي وحدها التي تكسب الاحتجاج الانساني معناه . وعليه ، يمكننا أن نقول ، دونما تناقض ، ان تاريخ التمرد هو في العالم الغربي غير منفصل عن تاريخ المسيحية . ولا بد في الحقيقة من انتظار المراحل الاخيرة من الفكر القديم كي نرى التمرد وقد شرع يجد لغته لدى نفر من مفكري المرحلة الانتقالية<sup>(٢)</sup> ، وبعمق لا يجارى لدى ابيقورس ولو كريس .

نبرة جديدة :

ابيقورس ، لو كريس

في حزن ابيقورس الخفيف نبرة جديدة . وليس من شك في انه ناشئ عن قلق ليس بغريب عن الفكر الإغريقي . ولكن النبرة المؤثرة التي اكتسبها هذا القلق ذات دلالة . « يمكننا أن نؤمن انفسنا ضد الاشياء جميعاً ، أما فيما يتعلق بالموت فنظل كسكان قلعة مهدمة الأسوار » .

(١) يقصد أن ملازمة الحد تعتبر جريمة ننظر عالمنا الحالي - العرب -

(٢) المرحلة السابقة لولادة المسيح بقليل - العرب -

ويوضح لو كريس قائلاً : « جوهر هذا العالم الى الموت والدمار » . فلماذا نؤجل المتعة الى ما بعد ؟ « من انتظار الى انتظار ، 'نفني حياتنا ، ونموت جميعاً وقد أجهدنا العناء » . علينا إذن ان نتمتع . ولكن يا لها من متعة ! إنها تكمن في إحكام سد أسوار القلعة ، وتأمين الخبز والماء في الظلال الصامتة .

عزل الموت عن الكائن

بما أن الموت يهددنا ، لذلك علينا ان نثبت ان الموت ليس شيئاً . إن ابيقورس يعزل الموت عن الكائن ، شأنه في ذلك شأن ابيكتيت ومارك أوريل . « ليس الموت شيئاً بالنسبة الينا ؛ لأن ما ينحل ، يصبح عاجزاً عن الحس ؛ وما لا يحس أبداً ، ليس شيئاً بالنسبة الينا » .

الموت عودة الى العنصر

هل هو العدم ؟ كلا . لأن كل شيء في هذا العالم مادة ، ولا يعني الموت سوى العودة الى العنصر . الكائن هو الحجرة (١) . واللذة الخاصة التي يتحدث عنها ابيقورس تكمن خاصة في انعدام الألم . انها سعادة الحجارة .

حق الامل

للخلاص من المصير المحتوم ، يقتل ابيقورس الحساسية ، وذلك بحركة رائعة نجدها عند كبار الكلاسيكيين الفرنسيين . ويقتل في البدء أول صحة تند عن الحساسية ، ونعني الامل .

مصدر شقاء البشر

وما يقوله هذا الفيلسوف الاغريقي عن الآلهة لا يُفهم على وجه آخر . كل شقاء يحل بالبشر مصدره الامل الذي ينتزعهم من صمت القلعة ، ويرمي بهم على الاسوار في انتظار الخلاص . هذه الحركات المنافية للصواب ليس لها سوى نتيجة واحدة : انها تنكأ جراحات ضمدت بعناية . لهذا السبب لا ينكر

(١) لأن الحجرة لا تعرف الامل ، ولا الامل (العرب) .

أبيقورس الآلهة ، بل يبعدها ، ولكن بصورة نسب الدوار لدرجة أن المخرج الوحيد للنفس أن تحبس نفسها ثانية بين الجدران<sup>(١)</sup> . « الكائن السعيد الخالد لا مشكلة له ، ولا يخلق مشكلة لأحد ، .

موقف الآلهة عند لو كريس

وزيد لو كريس قائلاً : « لا ريب في أن الآلهة ، وبحكم طبيعتهم بالذات ، يتمتعون بالخلود في أعمق سكونية ، متجنبين أمورنا ، منصرفين عنها كل الانصراف ، فلننس الآلهة إذن ، ولا نفكر فيها ابداً ، وحينئذ « لن تكدر الصفوة هواجس النهار ولا رؤى الليل ، .

تمرد أبيقورس تمرد دفاعي

وفي زمن لاحق ، نجد فكرة التمرد الازلية هذه ، ولكن مع تفاريق هامة . إن التصور الديني الوحيد الذي يتخيله المتمردون هو : إله لا يثيب ولا يعاقب ، إله أصم . ولكن في حين يلعن الشاعر فيني صمت الآلهة ، يعتقد أبيقورس ما يلي : بما انه ليس من الموت بد ، لذلك فان صمت الانسان يهد لهذا المصير المحتوم خيراً بما تفعل الاقوال الربانية. إن هذا المفكر الغريب يبذل قصارى جهده ليقم الجدران حول الانسان ، وليعيد بناء أسوار القلعة ، وليخفق - دونما شفقة - صرخة الامل الانساني التي لا تقمع . وحين يتم الانطواء الاستراتيجي ، حينئذ فقط ، وكإله وسط البشر ، يتغنى أبيقورس بالنصر ، في نشيد بشير غامماً الى صفة تمرده الدفاعية . « لقد أحببت مكائلك ايها القدر ا وأقفلت جميع السبل التي تسير بك إلي . لن نمكنك ولن نمكن أية قوة أخرى شريرة من التغلب علينا . وحينما تدق ساعة الرحيل المحتوم ، سينفجر احتقارنا لأولئك الذين يتمسكون دون جدوى بأهداب الحياة ، في هذه الترتيلة الجميلة : آه ا كما كانت حياتنا موفورة الكرامة ! ، .

(١) أي يجعلها بلا أمل (المعرب) .

السعادة ، المصير ، الصدفة ،

التمرد الهجومي

إن لو كريس ، دون غيره من أبناء زمانه ، سار بهذا المنطق أبعد بكثير ، وجعله يصب في المطالبة الحديثة . وهو لم يصف شيئاً ، في الأساس ، الى ابيقورس . ورفض ، هو ايضاً ، كل مبدأ تفسيري لا يقع تحت الحس . ليس الجوهر الفرد سوى الملمح الأخير يتابع فيه الكائن ، وقد عاد الى عناصره الاولى ، نوعاً من الخلود الاصم الاعمى ، نوعاً من الموت الخالد ، يمثل بالنسبة الى لو كريس كما بالنسبة الى ابيقورس ، السعادة الوحيدة الممكنة . ولكن كان لا بد له مع ذلك من ان يسلم بأن الجواهر الفردة لا تتشابه وحدها ؛ وبدلاً من أن يقول بقانون علوي ، وبالقدر الذي يريد أن ينكره ، سلم بوجود حركة طارئة ( الكليامين ) ، تتلاقى بموجبها الجواهر الفردة وتتعالق . فلنلاحظ ان مشكلة الازمنة الحديثة الكبرى قد طرحت مذ ذاك ، حيث اكتشف العقل ان انتشار الانسان من المصير المحتوم معناه تركه لعامل الصدفة . لهذا السبب سعى الى ان يعطي الانسان مصيراً تاريخياً هذه المرة . على ان لو كريس لم يبلغ هذه النقطة . إن بغضه للمصير المحتوم والموت يرضى بهذه الارض النشوى حيث تشكل الجواهر الفردة الكائن بالصدفة ، وحيث يتبدد الكائن ، صدفة ، في جواهر فردة ، ولكن مفرداته تدل مع ذلك على حساسية جديدة . فالقلعة العمياء أصبحت معكراً محصناً منعزلاً . إن « أسوار العالم » هي احد التعابير الاساسية في بلاغة لو كريس المجازية . وليس من شك في ان المهمة الكبرى في هذا المعسكر هي اسكات الامل وخنق الرجاء . ولكن زهد ابيقورس المنهاسجي تحول الى نسك مضطرب تتوجه اللعنات احياناً . إن التقوى ، بنظر لو كريس ، هي دون شك « القدرة على النظر الى كل شيء بروح لا يعكر صفوها شيء » . ولكن هذه الروح ترتجف مع ذلك من الظلم اللاحق بالانسان . وتحت ضغط السخط ، ثمة مفاهيم جديدة في الإجرام والبراءة

والذنب والمعقاب تسري خلل قصيدته الكبرى<sup>(١)</sup> حول ماهية الأشياء ؛ فيجري الحديث فيها عن « جريمة الدين الأولى » وعن إيفيجيني<sup>(٢)</sup> وبراءتها الذبيحة ، وعن هذا السهم الرباني الذي « غالباً ما يمر بجانب المذنبين » ويقضي على حياة الأبرياء بعقاب ظالم . ولئن هزىء لوكريس بالحرف من عقاب الآخرة ، فما ذلك ابدأ في حركة تمرد دفاعي ، كما عند أبيقورس ، وإنما بناءً على محاكمة هجومية : لماذا يعاقب فاعل الشر ما دمنا نرى بشكل كاف ومنذ الآن أن فاعل الخير لا يكافأ ؟

إنسان لوكريس

ان ابيقورس نفسه يتحول ، في ملحمة لوكريس ، إلى متورد رائع ، الى متورد لا علاقة له بأبيقورس الاصيلي . « على حين كانت الانسانية ، بنظر الجميع ، تقضي على الارض حياة الذل والهوان ، مثقلة الكاهل بديانة تطل بوجهها من أعالي السماء ، مهددة البشر بظورها المرعب ، اذا باغريقي ، بانسان ، يتجرأ قبل غيره من البشر على رفع عينيه الفانيتين في وجه هذه الديانة ، وعلى الوقوف ضدها... هكذا نجد الدين بدوره ، وديس بالأقدام ، أما نحن معشر البشر فتسامى بنا النصر حتى السموات » . هنا نشعر بالفارق الذي قد يوجد بين هذا التجديف الجديد واللعنة القديمة . كان في وسع الأبطال الإغريق ان يتسناوا بأن يصبحوا آلهة ، انما في آن واحد مع الآلهة الموجودة سابقاً . كانت المسألة آنذاك مسألة ارتقاء في المرتبة . أما انسان لوكريس فيشرع بثورة . إنه اذ ينكر الآلهة المجرمين وغير الجديرين ، يحتل مكانهم هو نفسه . انه يخرج من المعسكر المنعزل ويبدأ المهجمات الأولى ضد الآلهة باسم الألم الانساني . في العالم القديم ، كان القتل هو العامل الغامض الذي لا يمكن التكفير عنه . أما عند لوكريس فلم يعد قتل الانسان سوى رد على القتل الإلهي . ولئن انتهت قصيدة لوكريس

(١) عنوان قصيدته : في ماهية الأشياء (المرب) .

(٢) ابنة آعمنون .

بصورة عجيبة عن معابد إلهية مملوءة بركام الجثث المألحة المتسهمة ، فلم يكن ذلك مجرد صدفة .

★

التمرد الهجومي ومفهوم الإله الشخصي

لا يمكن فهم هذه اللغة الجديدة دون الاعتماد على مفهوم إله شخصي شرع بالتكون ببطء في عقل معاصري ايقورس ولو كريس . ولا يستطيع التمرد أن يطلب تفسيرات إلا من إله شخصي<sup>(١)</sup> . فما أن يسيطر ، حتى يهب التمرد في تصميم عنيف ، ويعلن الرفض النهائي . في قابيل ، يلتقي أول تمرد مع أول جريمة . أما تاريخ التمرد ، كما نجاه حالياً ، فهو تاريخ أبناء قابيل أكثر مما هو تاريخ تلامذة بروميشوس . وعلى هذا الأساس ، يكون إله العهد القديم L'Ancien Testament خاصة هو الذي يعبء الطاقة المتمردة . وبالعكس ، يجب الخضوع لإله ابراهيم واسحق ويعقوب حينما نكون قد أكملنا ، كباسكال<sup>(٢)</sup> ، طريق العقل المتمرد . النفس التي تفوق غيرها في الشك تصبو الى أعظم جانسينية<sup>(٣)</sup> .

تدخل المسيح ، الألم بلا أمل

على هذا الأساس ، يمكن اعتبار العهد الجديد Le Nouveau Testament ك محاولة للرد سلفاً على كل القتل في العالم ، وذلك بتلطيف صورة الإله ، وإقامة وسيط بينه وبين الانسان . وعليه ، أتى المسيح ليحل مشكلتين أساسيتين : وجود الشر ووجود الموت ، وهما بالضبط مشكلتا المتمردين . لقد قام حله أولاً على أخذ هاتين المشكلتين على عاتقه . فالإله - الانسان<sup>(٤)</sup> يتألم ايضاً متحملاً آلامه بصبر . لذلك لا يمكننا أبداً أن نعزو الشر والموت اليه ، لأنه

(١) إله الديانات السابوية (المغرب) .

(٢) باسكال : حياته ، فلسفته ، منتخبات . تأليف اندريه كريون ، ترجمة نهاد رضا .

سلسلة « زدي علأ » رقم ٢٤ - منشورات عويدات .

(٣) مذهب جانسينيوس وكان باسكال من المتحمسين له (المغرب) .

(٤) المسيح .

هو نفسه يتمزق ويموت . ولا تصكسب ليلته التعذيب على جبل الجلجلة La Nuit du Golgotha مثل هذه الالهية في تاريخ البشر إلا لأن الإله بعد ما تخلى علناً عن امتيازاته التقليدية عاش ، في ظلمات هذه الليلة ، حتى النهاية عذاب الموت مع اليأس . بناء على ذلك ، نفهم قول المسيح : إلهي إلهي لماذا تركتني ، وشكته الرهيب ساعة احتضاره . لو كان الاحتضار مدعوماً بالامل الدائم لكأن خفيفاً . فلا بدّ لئلا من التعرض لليأس حتى يكون إنساناً .

حرف التمرد ، نزع صفة  
الظلم عن الألم

إن الغنوصية ، وهي ثمرة تعاون إغريقي مسيحي ، حاولت خلال قرنين ، في ردة فعلها ضد التفكير اليهودي ، أن تعزز هذه الحركة . ونحن نعرف الوسطاء العديدين الذين تصورهم فالنتينوس<sup>(١)</sup> مثلاً . ولكن الإيونات في هذا المذهب الحليط تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الحقائق الوسيطة في المذهب الهيليني . انها تستهدف انقاص عبثية مواجهة انفرادية مباشرة بين الانسان الشقي والاله الحقود . انه خاصة دور الإله الثاني القاسي المحب للحرب ، عند مارسيون<sup>(٢)</sup> . هذا الإله الوسيط خلق العالم المحدود والموت . علينا اذن ان نكرهه ، وعلينا في الوقت نفسه أن نكرر خلقه ، عن طريق التنسك ، حتى نحطم هذا الخلق بواسطة العفة . انها اذن مسألة تنسك متشامخ وتمررد . إن مارسيون يجرف التمرد نحو إله أدنى كي يشيد بالإله الأعلى إسطادة افضل . ولكن المذهب الغنوصي ، بأصله الاغريقي ، بقي عقيدة توفيقية هدفت الى تهديم التراث اليهودي الموجود في المسيحية . وأرادت أيضاً أن تتجنب سلفاً مذهب القديس اوغسطينوس بمقدار ما يقدم هذا المذهب حججاً لكل تمرد . إن الشهداء ، في اعتقاد باسيليد<sup>(٣)</sup> مثلاً ، أخطأوا ، والمسيح ايضاً قد أخطأ ،

(١) من الفلاسفة الغنوصيين (المرج) .

(٢) من الفلاسفة الغنوصيين .

(٣) من الفلاسفة الغنوصيين .

لأنهم يتألمون . انها فكرة غريبة ، ولكنها تستهدف نزع صفة الظلم عن الأمم .  
فحمل العون الرباني الاعتباري القادر على كل شيء ، أراد القنوصيون ان يحلوا  
نظرية الاشتراك في معرفة الاسرار ، هذه النظرية التي تترك للانسان كل فرصة .  
إن جمهرة الفرق ، لدى غنوصي الجيل الثاني ، تعبر عن هذا الجهد المتعدد  
العنيد الذي بذله الفكر الاغريقي كي يجعل العالم المسيحي أسهل مدخلاً ،  
وليحرّم من الأسباب تمرداً كانت الهيلينية تعتبره كأسوأ الشرور . ولكن  
الكنيسة خطأت هذا المسعى ، وإذا فعلت ذلك زادت عدد المتمردين .

الاله الحقود ، وذرية قابيل

بمقدار ما كتبت النصر المتزايد لذرية قابيل ، على امتداد العصور ، يمكن  
القول إن إله العهد القديم لاقى نجاحاً غير متوقع . إن المجدفين ، بحكم مفارقة  
عجيبة ، أحيوا الإله الحقود الذي أرادت المسيحية طرده من مسرح التاريخ .  
وكان أحد مواقفهم الجريئة بحق ، إلحاقهم المسيح نفسه بمسكرهم ، منبهين  
تاريخه على رأس الصليب وعند الصرخة المرة التي سبقت احتضاره . وعليه ،  
استبقيت صورة إله حقود ، وهو إله أحسن مطابقة للخلق كما كان يتصوره  
المتمردون . والى مجيء دوستوفسكي ونيتشة ، لم يتوجه التمرد إلا الى إله قاس  
يتبع هواه ، الى إله يفضل دونما سبب مقنع تضحية هايل بدلاً من قابيل ،  
مسياً بذلك أول جريمة قتل . ان دوستوفسكي بالتصور ونيتشة بالفعل وسعاً  
ساحة الفكر المتمرد توسيعاً مفرطاً ، وطالبا إله المحبة نفسه بتقديم تبريرات .  
لقد اعتبر نيتشة الإله ميتاً في قلوب معاصريه ، لذلك هاجم ، ككلفه ستيرنر  
وهمّ الإله ، هذا الهم الذي بقي موجوداً ، تحت صورة الاخلاق ، في ذهن  
عصره . ولكن الفكر الملحد مثلاً ، حتى مجيء هذين المفكرين ، اكتفى بانكار  
قصة المسيح ( « هذه الرواية التافهة في اعتقاد الماركيز ساد Sade » ) والابقاء  
على الايمان التقليدي بإله مرعب ، في مواقفه الانكارية بالذات .

التمرد وشمول الأمم

وبالعكس ، كانت الانجيل التوجمان بين السماء والارض ، طالما كان الغرب



مسيحياً . وكانت صورة أعظم ألم 'تقدم' كلما صدرت صرخة تمرد منعزلة . بما أن المسيح تعذب هذا العذاب الشديد ، وبمحض اختياره ، لذلك لم يعد هناك ألم ظالم ، وكل ألم أصبح ضرورياً . وبوجه ما ، ان حدس المسيحية المر وتساؤمها الشرعي فيما يتعلق بالقلب البشري ، هو أن الظلم الشامل يُرضي الانسان بقدر ما يرضيه العدل الكامل . ولم يكن ثمة شيء يستطيع تسويغ تعذيب الابرياء الطويل العام ، سوى التضحية بإله بريء . ولم يكن ثمة شيء يستطيع تخفيف احتضار البشر ، سوى ما حل بالإله نفسه من عذاب بائس . فاذا كان كل شيء دونما استثناء ، من الارض الى السماء ، فريسة الألم ، فثمة سعادة غريبة تغدو بمكنة حينئذ .

نصر الألم على البشر

ولكن ما أن ألقت المسيحية نفسها ، لدى خروجها من مرحلتها المظلمة ، معرضة لنقد العقل ، وبمقدار ما أنكرت ألوهية المسيح ، أصبح الألم ثانية من نصيب البشر وحدهم . فالمسيح المحروم ، المسيح المظلوم ، ليس سوى بريء جديد نكّل به علانية بمثلو إله ابراهيم<sup>(١)</sup> . هكذا انفتحت ثانية الهوة التي تفصل السيد عن العبيد ، وصار التمرد يصرخ دائماً في وجه الإله الحسود المتخفي . لقد مهدّ المفكرون والفنانون الفاسقون لهذا الانفصال الجديد ، بمهاجمتهم ألوهية المسيح وما جاء به من أخلاق ، متخذين الاحتياطات المألوفة . ان عالم الرسام كالو يعبر جيداً عن عالم الصعاليك المهووسين الذين بدأ ضحكهم بشكل مستر أولاً ، وتصاعد حتى بلغ السماء أخيراً ، بواسطة « دون جوان » مولير . وخلال القرنين اللذين مهدا للانقلابات الثورية والمدنسة للقدسيات في آن واحد ، والتي حدثت في نهاية القرن الثامن عشر ، كان كل مجهود الفكر الفاسق قائماً على جعل المسيح بريئاً ، أو أبله ، وذلك لإلحاقه بدنياً بالبشر ، بما هم عليه من 'نبل' أو هزة لاذع .

(١) اليهود (المرب) .

## الانكار المطلق

إن أول هجوم متمسك ، في التاريخ ، هو هجوم المركيز ساد Sade الذي جمع في عدة هجومية واحدة براهين الفكر الملحد حتى الأب ميلييه وفولتير . وغني عن البيان ان إنكاره هو أيضاً أشد إنكار . ان ساد لا يستخلص من التمرد سرى الرفض المطلق . والحقيقة ان سبعة وعشرين عاماً تقضى في السجن ليس من شأنها أن توجد عقلاً نزعاً الى التوفيق . ان مثل هذا الحبس الطويل يخلق شخصاً ذليلاً أو قاتلاً مجرماً ، ويولد أحياناً كلا الاثنين في نفس الشخص . فاذا كانت النفس تتحلى بالقوة الكافية كي تبني ، في غياب السجن ، اخلاقاً لا تكون أخلاق خضوع ، والمسألة في أغلب الاحيان تكون مسألة اخلاق سيطرة . كل اخلاق انفراديه تفترض القوة . وعلى هذا الاساس ، بمقدار ما لقي المركيز ساد من مجتمعه معاملة قاسية ، ردّ عليه بصورة قاسية ، وفي هذا يُعتبر المركيز ساد نموذجاً . أما ساد الكاتب فيأتي في المرتبة الثانية ، رغم بعض الصرخات الموفقة ، ورغم ثناء معاصرينا الطائش ، انه اليوم محط اعجاب سادج ، انما لاسباب لا تمت الى الادب بصلة .

إننا نجد فيه الفيلسوف المكبل بالاغلال ، وأول عقائدي للتمرد المطلق . والحقيقة انه كان يستطيع أن يكون ذلك العقائدي . ففي غياب السجن ، يغدو الحلم بلا حدود ، ولا توقف الحقيقة الواقعة شيئاً . ان العقل المكبل يفقد على صعيد الوضوح والتمييز ، ما يربح على صعيد الفورة والجيشان . لم

يعرف المركيز ساد سوى منطق واحد ، منطق العواطف . فهو لم يبن فلسفة ، ولكنه جد في إثر حلم فظيع مسموح ، راود بحيلة انسان مضطهد . ولكن اتفق ان هذا الحلم كان حلماً نبوياً . فالمطالبة بالحرية مطالبة محومة ، أوصلت المركيز ساد الى مملكة العبودية . وشوقه العارم الى حياة صارت في حكم المحرمة عليه ، قد شفى غلته ، وهو يسير من فورة الى فورة ، في حلم تدميري شامل . وفي هذا عل الاقل ، يُعتبر المركيز ساد من معاصرنا . فلنتبعه إذن في سلسلة موافقه الانكارية المتتالية :

### ١ - الأديب ساد Sade

ساد والاحاد

هل كان المركيز ساد ملحداً ؟ لقد ادعى ذلك - ونحن نصدقه - قبل دخوله السجن ، في كتابه «محاورة بين راهب ومحتضر» . ولكننا نتردد بعدئذ أمام عنقه في خرق القديسات . ان سان فون ، وهو من أكثر ابطاله قساوة ، لا ينكر الله إنكاراً تاماً ، بل يكتفي بشرح نظرية غنوصية حول الإله - الوسيط الحديث ، وبأن يستخلص منها النتائج الملائمة . يقال ان سان فون لبس المركيز ساد ، وهذا صحيح دون شك . فالروائي لبس أحد شخوصه ، انما هناك احتمال في أن يكون جميع شخوصه معاً . ولكن جميع ملحدي ساد يقرون مبدئياً بعدم وجود الله ، للسبب الواضح التالي : ان وجوده سيفترض انه يتصف باللامبالاة أو الحُب أو القسوة . ان أهم كتاب وضعه المركيز ساد ينتهي بالبرهنة على السخف والخذل الإلهيين . فجوستين البريئة تركز في العاصفة والمجرم نوارسوي يقسم بأنه سيهتدي الى الايمان اذا لم يمسا غضب السماء بسوء ، ولكن غضب السماء أصاب جوستين ، فانتصر نوارسوي ، واستمرت جريمة الانسان كرد على الجريمة الإلهية . وعليه ، ته رهان ملحد يُعتبر رداً على « رهان باسكال »<sup>(١)</sup> .

(١) راجع باسكال ، سلسلة « زدي علا » رقم ٢٤ - منشورات عويدات ، ص ٥٦ ، العصل الرابع : الرهان والايان - المر -

تمرد مردوح

على الاقل ، ان المفهوم الذي كوّنهُ المركيز ساد عن الإله ، هو انه إله مجرم يسحق الانسان وينكره . ولأن يكون القتل صفة إلهية فهذا ما نراه بشكل كاف ، في اعتقاد المركيز ساد ، في تاريخ الديانات . فلماذا إذن يكون الانسان فاضلاً ؟ إن أول حركة تصدر عن السجين هي أن يقفز الى النتيجة القصوى ، فاذا كان الله يقتل الانسان وينكره ، فلا شيء يستطيع أن يمنعنا من إنكار أقراننا ومن قتلهم . هذا التحدي الحائق لا يشبه أبداً الإنكار المادىء الذي نجده ايضاً في محاوره ١٧٨٢ . ليس بالشخص المادىء السعيد هذا الذي يهتف قائلاً : « لا شيء لي ، لا شيء مني » ويخلص الى القول : « لا ، لا ، الفضيلة والرذيلة ، كل شيء مختلط في النعش » إن مفهوم الإله هو الشيء الوحيد الذي لا يسعه ان يغفره للانسان . ان كلمة الغفران هي كلمة غريبة لدى استاذ التعذيب هذا . ولكنه لا يستطيع ان يغفر لنفسه فكرةً تدحضها دحضاً تاماً نظرتُه اليائسة الى العالم وحالته كسجين . ثمه تمرد مزدوج سيوجه بعد الآن محاكمة المركيز ساد : تمرد على العالم وتمرد على الذات . وبما ان هذين التمردين متناقضان في كل مكان ما عدا في قلب مضطهدٍ ، محطّم ، لذلك تظل محاكمته دائماً غامضة أو مشروعة ، وذلك حسباً ندرسها على ضوء المنطق أو بدافع الرأفة .

الانكار بإسم العريزة

إنه اذن سينكر الانسان وأخلاقه لأن الله ينكرهما . ولكنه سينكر الله في الوقت نفسه ، وهو الذي كان يقوم مقام الضامن والشريك حتى الآن . بإسم ماذا ؟ بإسم أقوى غريزة لدى هذا الشخص الذي جعله كره البشر يحيا بين جدران سجن : بإسم الغريزة الجنسية . فما هي اذن هذه الغريزة ؟ انها من جهة ، صرخة الطبيعة بالذات <sup>(١)</sup> ، ومن جهة أخرى ، الاندفاع العبياء التي

(١) يعتذر عرمو المركيز ساد عن جرائمهم بأسم يلكون شهوات عارمة لا يستطيعون مقاومتها .

تطلب امتلاك الكائنات امتلاكاً تاماً ، حتى لو أدى ذلك الى إفنائها . ان  
المركيذ ساد سينكر الإله بإسم الطبيعة - مع العلم بأن جعبة زمانه العقائدية  
تمده بأقوال مأخوذة من الفلسفة الآلية - وسيجعل من الطبيعة قوة مدمرة .  
الطبيعة ، بنظره ، هي الجنس ، وهكذا يقوده منطقها الى عالم بلا قانون ،  
حيث لا سيد إلا طاقة الشهوة العارمة . هنا بملكته المحمومة ، حيث يجد اجمل  
صرخاته : « ما قيمة جميع مخلوقات الارض ازاء شهوة واحدة من شهواتنا ! » .  
إن المحاكات الطويلة التي يبرهن فيها أبطال المركيذ ساد على أن الطبيعة تحتاج  
الى الجريمة ، وتحتاج الى التهديم كي تخلق ، ومن واجبنا بالتالي ان نساعدنا على  
أن تخلق ما ان نفني ذاتنا ، نقول : إن هذه المحاكات لا تستهدف سوى دعم  
حرية ساد السجين المطلقة ، وهو المغلوب على امره ظلاماً لدرجة تدفعه الى الرغبة  
في الانفجار الذي ينسف كل شيء . وفي ذلك ، يخالف المركيذ ساد اهل زمانه :  
إن الحرية التي يطالب بها ، ليست حرية المبادئ ، بل حرية الغرائز .

ساد والجمهورية العالمية

ليس من شك في ان المركيذ ساد حلم بجمهورية عالمية ، عرض علينا مخططها  
على لسان حكيم مصلح اسمه زاميه ، انه يبين لنا بهذه الصورة أن احد اتجاهات  
التمرد هو تحرير العالم كله ، وذلك بمقدار ما يزداد رفضاً للحدود إذ تأخذ  
حركته في التسارع . ولكن كل شيء فيه يناقض هذا الحلم الورع . انه ليس  
صديق الجنس البشري ، ويكره محبي البشر . اما المساواة التي يتحدث عنها  
احياناً فهي مفهوم حسابي : تعادل الاشياء ، ويعني البشر . المساواة الحقيقية  
بين الضحايا . من بسير بشوته حتى نهاية الشوط فسيحتاج الى السيطرة على كل  
شيء . وتحقيقها الفعلي يكون في الكره . إن شعار جمهورية المركيذ ساد هو  
الفسق لا الحرية . كتب هذا الديموقراطي الغريب قائلاً : « ليس للعدالة وجود  
حقيقي ، انها ألوهية جميع الاهواء » .

تائج إزاحة ملك الحق الإلهي

لا شيء أكثر دلالة بهذا الصدد من الأهمية الشهيرة التي يتلوها دولاميه في

كتاب الماركيز ساد المسمى : فلسفة المتمدن ، هذه الأهمية التي تحمل عنواناً غريباً : « أيها الفرنسيون ابدلوا قليلاً من الجهد ايضاً ، ان كنتم تريدون ان تصبحوا جمهوريين » (١) . إن بير كلوسوفسكي (٢) على حق إذ ينوه قائلاً إن هذه الأهمية تثبت لرجال الثورة أن جمهوريتهم تقوم على قتل ملك الحق الإلهي (٣) ، وانهم إذ أعدموا الإله بالمقصلة في ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ (٤) ، حرّموا على أنفسهم الى الابد الغناء الجريمة وبسط الرقابة على الفرائض الفاسدة . لقد كانت الملكية تحافظ على نفسها ، وتحافظ في الوقت ذاته على مفهوم الله الذي يدعم القوانين . أما الجمهورية فتقوم بمفردها ، ويجب ان تكون الاخلاق فيها دون اوامر ووصايا . اننا نتك مع ذلك في ان يكون الماركيز ساد ، كما يدعي كلوسوفسكي ، قد تملكه شعور عميق بوجود خرق للقدسيات ، وان هذا النفور الذي يكاد يكون دينياً قاده الى ما يعلن عنه من نتائج . انه بالاحرى امسك بالنتائج اولاً ، ولاحظ بعدئذ الحجة الكافية بتبرير الانحلال الخلفي الذي كان يريد ان يطالب به حكومة زمانه . إن منطق الأهواء قلب نظام المحاكمة التقليدي ، ووضع النتيجة قبل المقدمة . حسبنا كفي تقتنع بذلك ان تقدر التابع الرائع من المغالطات التي يبرر بواسطتها الماركيز ساد ، في هذا النص ، النسيبة والسرقه والقتل ، ويطالب بأن يُسمح بها في المدينة الجديدة .

الحرية ، الجريمة ، الجريمة القاوتية

ولكن ، حينئذ فقط ، تصبح فكرته أكثر عمقاً . انه ، وبتبصر غير مألوف في عصره ، يرفض التحالف المغرور الذي يجمع بين الحرية والفضيلة . فالحرية ، ولا سيما اذا كانت حلم السجين ، لا تستطيع تحمل الحدود . انها الجريمة ، أو انها ليست أبداً بالحرية . بالنسبة الى هذه النقطة ، لم يتبدل موقف

(١) مجد شرحاً لهذه الجملة بمد قليل (المغرب)

(٢) Sade , mon prochain. Editions du Seuil

(٣) اشارة الى اعدام لويس السادس عشر وستجد شرحاً مفصلاً في الاقسام المقبلة (المغرب)

(٤) تاريخ اعدام الملك لويس السادس عشر (المغرب)

لمركز ساد إطلاقاً . فهذا الرجل الذي لم يبشر إلا بالمتناقضات ، لا يستعيد  
اسمه ، وتماسه التام المطلق ، إلا فيما يتعلق بحكم الاعدام . ان المركز  
ماد لم يتمكن قط ، وهو الذي يهوى الاعدامات المتفننة ، ووضع نظريات  
لحرية الجنسية ، نقول: انه لم يتمكن من تحمل الجريمة القانونية . «إن اعتقالي،  
المقصلة تحت ناظري ، سبب لي من الأذى اكثر بمائة مرة بما كان قد نسيه لي  
كل السجون الممكن تصورهما » . في هذا الهول ، تجرأ على ان يكون معتدلاً  
علانية خلال عهد الارهاب ، وعلى ان يتدخل بنبل لصالح حياته ، مع انها  
كانت السبب في ادخاله الى سجن الباسنيل . وبعد بضع سنين لحص نوديه  
وضوح ، ربما على غير علم منه ، الموقف الذي دافع عنه المركز ساد دفاعاً  
عندياً : « لأن تقتل انساناً وانت في ذروة الهوى فهذا أمر مفهوم ؛ أما أن  
تدفع شخصاً آخر الى قتله بناء على تأمل جدي هادئ » (١) ، وبمجة اداء مهمة  
مشرفة ، فهذا أمر غير مفهوم » . نجد هنا بداية فكرة المركز ساد ايضاً :  
على القاتل ان يقتدي جريمته بدمه . وهكذا نرى ان ساد اكثر اخلاقية من  
معاصرنا (٢) .

حرية ساد المفزعة

ولكن كرهه لعقوبة الاعدام (٣) ليس أولاً سوى كرهه لأناس يؤمنون  
بفضيلتهم أو بطهر قضيتهم إيماناً كافياً بحيث يتجرأون على ازالة العقوبة وبشكل  
نهائي ، في حين انهم هم انفسهم مجرمون . لا يمكننا في الوقت نفسه ان نصطفي  
ارتكاب الجريمة لأنفسنا والعقاب للآخرين . علينا ان نفتح ابواب السجون ، أو  
ان نقيم الدليل على فضيلتنا ، وهذا أمر مستحيل . ما ان نرضى بالقتل ولو مرة  
واحدة، فعلياً ان نرضى به بشكل عام. إن المجرم الذي يتصرف وفقاً للطبيعة،

(١) فلتذكر الجملة الاولى من مقدمة الكتاب (المغرب)

(٢) مهم هذه الجملة الاخيرة على ضوء ما جاء في بعض اقسام المقدمة وعلى ضوء ما سنراه في

الاقسام القادمة (المغرب)

(٣) الجريمة القانونية (المغرب)

لا يسعه ، دوناً خيانة ، ان يقف الى جانب القانون . « ابدلوا قليلاً من الجهد ايضاً ، ان كنتم تريدون ان تصبحوا جمهوريين » معناها : « اقبلوا بجرية ارتكاب الجريمة ، الحرية الوحيدة المعقولة . وادخلوا في المعصية مثلاً يدخل في النعمة . ان الخضوع التام للشر يؤدي حينئذ الى زهد رهيب يفرغ جمهورية الأنوار والصلاح الفطري (١) . فهذه الجمهورية التي احرقت فتنتها الاولى ، بحكم مصادفة ذات دلالة ، مخطوطة « أيام سدوم المائة والعشرون » لم يكن في وسعها ان تسهو عن استنكار هذه الحرية المارقة ، وان ترج في غياهب السجون بؤيدٍ فاضح . وبذلك أتاحت له الفرصة الرهيبية للمضي في منطق التمرد الى حد أبعد .

القوة ناموس العالم

ربما كانت الجمهورية العالمية حلاً بالنسبة الى المركيز ساد ، ولكنها لم تكن قط نزعاً . كان موقفه الحقيقي على الصعيد السياسي هو الموقف الكلاسيكي . ففي كتابه : جمعية أصدقاء الحرية ، تؤيد الحكومة وقوانينها علانية ، ومع ذلك توطن النفس على خرق هذه القوانين . وعليه ، نرى حماة بيوت الدعارة يصوتون للنائب المحافظ . إن مشروع المركيز ساد يفترض حياة السلطة العطوف . وليس في وسع جمهورية الجريمة ان تكون ، موقتاً على الاقل ، جمهورية عالمية ؛ إذ لا بد لها من التظاهر بطاعة القانون . ومع ذلك ، في عالم لا تسوده إلا قاعدة الجريمة ، وتمت سماء الجريمة ، وبإسـم طبيعة مجرمة ، لا يخضع المركيز ساد في الحقيقة الا لقانون الشهوة الدائم . ولكن ان تشتهي دون حد ، معناه ايضاً ان تشتهي دون حد . ان اباحة الافناء تفترض امكان افنائنا ايضاً . لا بد اذن من الكفاح والسيطرة . فقانون هذا العالم ليس الا قانون القوة ، ومحركه ارادة القوة .

(١) جمهورية الثورة المرنبية التي تأثرت بنظريات روسو (المعرب) .



حلقة الاقوياء وطبقة العبيد

إن صديق الجريمة<sup>(١)</sup> لا يحترم في الحقيقة سوى نوعين من القوة : القوة القائمة على عرض المنشأ والولادة ويجدها في مجتمعه ، والقوة التي يرقى اليها المضطهد حينما يتمكن ، بسبب كثرة فبوره ، من مساواة الاقطاب الخليعين الذين يجعل منهم المراكز ساد ابطاله الاعتياديين . هذه المجموعة الصغيرة من الاقوياء ، هؤلاء المظلومون على الاسرار ، يعلمون ان لهم جميع الحقوق . من يخامر الشك ولو لحظة واحدة في هذا الامتياز الرهيب يطرد فوراً من المجموعة ويصبح في عداد الضحايا . حينئذ نصل الى نوع من البلائكية<sup>(٢)</sup> الاخلاقية تتقلد فيها بعزم حلقة صغيرة من الرجال والنساء مكانها فوق طبقة من العبيد ، وذلك لأنها تملك معرفة غريبة . أما المشكلة الوحيدة بالنسبة الى هذه الحلقة فتكمن في تنظيم نفسها كي تمارس ممارسة تامة حقوقاً لها امتداد الشهرة الرهيب .

إلخاح قانون القوة

لا نستطيع هذه الفئة المحدودة ان تفرض نفسها على العالم كله ما دام هذا العالم لا يقبل بقانون الجريمة . بل ان المراكز ساد لم يعتقد قط ان امته سترضى ببذل الجهود الاضافي الذي سيجعلها « جمهورية »<sup>(٣)</sup> . ولكن اذا لم تكن الجريمة والشهرة قانون العالم كله ، واذا لم يسودا ، على الاقل ، في بقعة معينة من الارض فانها لا يعودان يشكلان مبدأ وحدة ، بل سبب تنازع . انها لا يعودان يشكلان القانون ، وهككدا يعود الانسان الى التشتت والى عامل الصدفة . يجب ان نخلق اذن عالماً يكون تماماً على قدر القانون الجديد . إن ضرورة الوحدة التي خيب الخلق املها ، تشفي غلتها بكل وسيلة في عالم ضيق

(١) شرح للكتاب المذكور اعلاه : جمعية اسدقاء الجريمة

(٢) نسبة ال اسم علم .

(٣) إشارة الى الجملة التي شرحت في المقطع الواقع تحت عنوان حرية ساد المفزعة (العرب)

الأرجاء . ففانون القوة لا يملك ابدأ الصبر اللازم لبلوغ مملكة العالم . ولا بد له من ان يجدد على جناح السرعة المجال الذي يمارس فيه تأثيره ، حتى لو اقتضت الحاجة إحاطة هذا المجال الضيق بالاسلاك الشائكة وبمراكز المراقبة والاستكشاف .

#### بجال قانون القوة

إن قانون القوة عند المركيز ساد 'ينشئ' اماكن مغلقة وقصوراً محاطة بسبعة أسوار ، يستحيل الهروب منها ؛ وفي هذه الأماكن يسير مجتمع الشهوة والجريمة ، دون عقبات ، بمقتضى نظام مقيم . وتكون نتيجة التمرد الذي لا يجاريه في جموحه تمرد ، والمطالبة التامة بالحرية ، استعباد السواد الاعظم . ان تحرير الانسان يتم ، بنظر المركيز ساد ، في اوكار الخلاعة هذه ، حيث يتولى شبه مكتب سياسي للرديلة تنظيم حياة وموت رجال ونساء دخلوا الى الابد في جحيم الضرورة . ويزخر كتابه بأوصاف هذه الأماكن المميزة التي يردّد فيها الخليعون الاقطاعيون ، كل مرة ، مثبتين للضحايا المجتمعين عجزهم التام وعبوديتهم المطلقة قَوْلَ الدوق دي بلانجي لرُعاع أيام سدوم المائة والعشرون : « لقد صرتم في عداد الموتى وانتم في هذا العالم » .

#### المكان المغلق والنظام الداخلي

كان المركيز ساد مقيماً كذلك في برج الحرية ، ولكن في سجن الباستيل . لقد اندفن معه التمرد المطلق في قلعة قدرة لا يستطيع ان يخرج منها احد ، لا المضطهد ولا المضطهد . وكي يدعم حريته ، كان مضطراً الى تنظيم الضرورة المطلقة . فالحرية المطلقة للرغبة تعني انكار الآخرين والغاء الشفقة . يجب ان نخلق العاطفة ، « وَهْنَ الفكر » . وهذا ما يتلافاه المكان المغلق ونظامه الداخلي . ان النظام الذي يقوم بدور رئيسي في قصور المركيز ساد الغربية ، يكرس عالم الريبة . انه يساعد على التكهن بكل شيء كي لا 'يفسد حنان' غير منتظر أو شفقة غير متوقعة مخططات الإرادة المطلقة . وهي ولا شك ارادة

غريبة تمرن على الامر : « استيقظوا كل يوم في العاشرة صباحاً ... » ،  
ولكن يجب ان نحول دون انحدار المتعة الى تعلق ، علينا ان نعزلها ونجعلها  
قاسية العود . يجب ايضاً ان لا تتراعى وسائل المتعة <sup>(١)</sup> ابداً كأشخاص . فاذا  
كان الانسان « نوعاً من نبات مادي تماماً » فلا يمكن معاملته إلا ككأداة ،  
ككأداة تجريبية . في جمهورية الماركيز ساد المحاطة بالاسلاك الشائكة ، لا يوجد  
سوى آلات وآلاتين . ان النظام ، طريقة استعمال هذه الآلات ، يحدد  
مكان كل شيء . ولهذا الأديرة الشائكة قواعدها المأخوذة عن قواعد الجمعيات  
الدينية بطريقة ذات دلالة. هكذا يُتجلب الخليع على الاعتراف العلني بالخطايا .  
ولكن الملباس يتبدل : « اذا كان ظاهر السلوك فهو من المومنين » ...

#### تسجيل الجرائم حسابياً

لقد بنى الماركيز ساد اذن مجتمعات مثالية، كما جرت عليه العادة في عصره .  
ولكنه ، خلافاً لـ لأهل زمانه ، ضم مساوية الانسان الطبيعية في مجموعة  
وحدة ، وبنى بدقة فائقة مدينة التسلط والكرامية ، كسباق في هذا المجال ،  
حتى انه قاس ما اكسب من حرية بالأرقام . فلخص فلسفته في تسجيل الجرائم  
تسجيلاً حسابياً بارداً : « المقتولون قبل اول آذار : ١٠ ، منذ اول آذار :  
٢٠ ، الراحلون : ١٦ ، المجموع : ٤٦ . انه سباق دون شك ، ولكنه  
ما زال متراضعاً كما نرى <sup>(٢)</sup> .

#### ترابط التمتع والدناء

لو ان كل شيء وقف عند هذا الحد ، لما استحق الماركيز ساد إلا الاهتمام  
الخاص بالباقيين المنسيين . ولكن مما ان يُرفع الجسر المتحرك فلا بد من  
العيش داخل القصر <sup>(٣)</sup> . مهما يكن النظام الداخلي دقيقاً فانه لا يتمكن من

(١) الضحايا (المعرب)

(٢) إشارة الى الجرائم المسامرة ومستكرات الابادة حيث قتل كثير من الاشخاص  
(المعرب)

(٣) الجبال يصبح مقلناً بعد رفع الجسر المتحرك (المعرب)

التكهن بكل شيء . انه يستطيع ان يلغى لا ان يخلق . فسادة هذه المجتمعات  
 المعذبة لن يجدوا فيها المسرة التي يشتهون . وغالباً ما يأتي المركيز ساد على  
 ذكر « عادة الإجرام العذبة » . ومع ذلك ، لا شيء هنا يشبه العذوبة ، بل  
 هنا بالأحرى غضبُ انسانٍ يرسف في الاغلال . المسألة في الحقيقة هي مسألة  
 الحصول على متعة ، وان المتعة القصوى تتطابق مع اقصى درجات الدمار . ان  
 لحظة الحرية التي يتجه نحوها كل تنظيم القصور هي: تملك من تقتل ، والتزاوج  
 مع الألم . ولكن ما ان تقتل الجريمة الجنسية أداة اللذة ، حتى تحذف اللذة التي  
 لا توجد إلا في لحظة القضاء على الضحية . فلا بد لنا حينئذ من ان نخضع ضحية  
 أخرى ، وأن نقتلها أيضاً ، وأن ننقل بعدئذ الى أخرى ، وبعدها الى جميع  
 الضحايا اللامتناهية الممكنة . فنحصل بالتالي على هذا الركام الكئيب من المشاهد  
 الجنسية والاجرامية التي يترك منظرها المسمر ، في روايات المركيز ساد ،  
 بصورة مناقضة ، ذكرى عفة قبيحة لدى القارىء .

#### البطش بجميع الضحايا

ما هي مهمة المتعة في هذا العالم السادي؟ ما هي مهمة البهجة الزاهرة الكبرى  
 للأجسام الراضية المشتركة في الجريمة ؟ المسألة مسألة بحث مستحيل للهرب من  
 اليأس ، ينتهي مع ذلك يأس ، مسألة هروب من العبودية الى العبودية ، ومن  
 السجن الى السجن . فاذا كانت الطبيعة صحيحة وحدها ، واذا كانت الشهوة  
 والتدمير وحدهما مشروعين في الطبيعة ، فحينئذ من تدمير الى تدمير يجب أن  
 نغضي نحو الإفناء الشامل ، لأن مملكة الانسان بالذات لا تعود كافية لإرواء  
 الظمأ الى الدماء . علينا ان نصبح ، على حد تعبير المركيز ساد ، جزائري  
 الطبيعة . ولكن حتى هذا لا يتحقق بسهولة . فعندما تقفل الحسابات ، وحينما  
 يكون قد بطش بكل الضحايا ، يبقى الجزائريون وجهاً لوجه في القصر المنزول .  
 ثمة شيء لا يزال ينقصهم . ان الاجسام المعذبة ترجع بعناصرها الى الطبيعة  
 حيث تنبعث الحياة ثانية . القتل نفسه لما ينته بعد . « إن القتل لا ينتزع إلا

الحياة الاولى للفرد الذي تحمل به ضربتنا . علينا ايضاً ان نتسكن من انتزاع  
حياته الثانية ... ، ،

محاولة الاعتداء على الكون

وها هوذا المركب ساد يفكر في الاعتداء على الخلق (١) . « إني أمقت  
الطبيعة... أود لو أفسد عليها مخططاتها ، لو أعاكس سيرها ، لو أوقف دوران  
الكواكب ، لو أفسد البلبلة في الأفلاك السابجة في الفضاء ، لو أحطم ما يفيدها  
وأحمي ما يؤذيها ، وبكلمة موجزة : أتمنى أن أهينها في أعمالها ، ولكني لا  
استطيع النجاح في هذه المهمة . عبقاً تصور المركب ساد آلياتاً يتمكن من  
سحق الكون ؛ انه يعلم ان الحياة ستستمر في ذرات الكواكب . الاعتداء على  
الخلق عملية مستحيلة ، ولا يمكننا تحطيم كل شيء ، لأن هناك بقية سنتنجو من  
الدمار . « لا أستطيع النجاح في هذه المهمة . فهذا الكون الحاقد الجامد  
يستكين فجأة الى حزن مبهم شديد ، بواسطة يؤثر فينا ساد من حيث لا يريد .  
لعلنا نستطيع مهاجمة الشمس ، وأن نحرم منها الكون أو أن نستخدمها  
لإحراق العالم ، هذه الاعمال ستكون حقاً في عداد الجرائم ، ولكنها لن  
تكون الجريمة التي ما بعدها من جريمة .. يجب إذن ان نستمر في السير .

وها هم الجزأرون يتناظرون بعين التوعد ...

القتل يتعد الى السادة

إنهم الآن وحدهم ، بسوسهم قانون واحد : قانون القوة . بما أنهم ارتضوا  
به عندما كانوا سادة ، لذلك لم يعد في وسعهم رفضه اذا انقلب ضدّهم . كل  
قوة تنزع الى ان تكون فريدة وحيدة . لا بدّ اذن من القتل أيضاً . وهكذا ،  
بدورهم ، يمزق السادة بعضهم بعضاً . لقد استشف ساد هذه النتيجة ولكنه لم  
يتراجع . ثمة ثبات عجيب على الرذيلة يلقي خيطاً من نور على أغواط التمرّد  
هذه . انه لن يحاول الالتحاق بدنيا الحنان وعالم التسوية . ولن يُخفّض الجسر

(١) بين الطبيعة ، الكون - المرء -

المتحرك<sup>(١)</sup> ، انه سيرضى بالفناء الشخصي . ان قوة الرفض الجامعة تلتقي في حدها الاقصى مع قبول غير مشروط لا يخاو من عظمة . ويقبل السيد بأن يصبح بدوره عبداً ، بل لعله يتمنى ذلك . « المقصلة أيضاً ستكون في نظري بمثابة عرش الملذات » .

بقاء الفريد

إن أعظم تدمير يتطابق إذن مع أعظم تأكيد . وينقض السادة على بعضهم بعضاً ، ويصبح هذا الصرح المشيد على شرف الدعارة « مزروعاً بجثث أشخاص داخرين حلت بهم الضربة وهم في أوج عبقريتهم »<sup>(٢)</sup> . أما الأقوى ، الذي سيقى حياً ، فسيكون الوحيد ، سيكون الفريد ، الذي قام المركيز ساد بتجيده ، هو نفسه في آخر الأمر .  
ها هو ذا أخيراً على سدة الملك ، سيداً وإلهماً .

تبدد الحلم

ولكن في لحظة أوج انتصاره ، يتبدد الحلم . فيعود الفريد نحو السجين الذي ابتدعه بمخيلته العارمة ، ويتمازج معه . انه وحيد في الحقيقة ، سجين في باستيل مخضب بالدماء ، 'بني بأكمه حول متعة ما زالت بعد عطشى ، ولكنها صارت كمتعة بلا أداة لذة . إنه لم ينتصر إلا في الحلم . أما هذه العشرات من المؤلفات المحشوة بالفظاعات والفلسفة فتأخذ زهداً بائساً ، وسيراً سهوياً من الرفض التام الى القبول المطلق ، ويُلخص في النهاية رضى بالموت 'يحول قتل الكل والجميع الى انتحار جماعي .

عندما ينسى منطلق

التبريد حيلة أمه

لقد 'نقد حكم الاعداء في تمثال المركيز ساد ، وهو كذلك لم يقتل إلا في الخيلة . هكذا انتهى بروميثيوس في أوغانوس . انه سيقضي حياته ، سجيناً

(١) أي أنه لن يتحل عن المكان المغلق ، مجال قانون القوة - المرعب -

(٢) Maurice Blanchot . Lautréamont et Sade . Editions de Minuit .

دائماً ، ولكن في مأوى هذه المرة ، وهو يمثل مسرحيات على منصة مرتجلة ، وسط جماعة من المهوسين . ان نظام العالم لم يؤمن له المسرة ، فقدم له الحلم والابداع معادلاً لما يستحق الهزء . وبما لا شك فيه ان الكاتب لا يحرم نفسه شيئاً . فالنسبة اليه على الاقل ، نهار الحدود ، ويمسح للرجبة ان تمضي الى آخر الشوط . وفي هذا ، يعتبر الماركيز ساد الاديب الكامل . فقد بنى صورة خيالية ليهم نفسه انه موجود . وجعل « الجريمة التي تباع عن طريق الكتابة » فوق كل شيء . ان فضله الذي لا 'يتمجد' يكمن في انه صور من أول وهلة -- في بصيرة الغيظ المترالم البانسة -- النتائج القسوى التي يصل اليها المنطق المتمرد ، حينما يدس على الأول حقيقة أصله . هذه النتائج هي الكاية المغلقة ، والجريمة الشاملة ، وأريستوقراطية السفاهة ، وإرادة الدمار الكلي . ولسوف نجد هذه النتائج بعد ساد بسنوات عديدة . ولكنه ، بعد ما تذوق هذه النتائج ، يبدو وكأنه اختنق في ورطاته الخاصة ، وانه لم يجد لنفسه مخرجاً إلا في الادب .

مدلول اتاج ساد

والغريب ان ساد هو الذي وجه التمرد على دروب الفن ، حيث سارت به الرومانسية بعدئذ شوطاً اخر الى أمام . ودار من الكتاب الذين قال عنهم « ان فسادهم باع من الخطورة والشائمة ما يغدأ بحيث انهم لا يستمدفون ، وهم يطعمون مذهبهم الخفيف ، سوى أن يدوا بمجرع جرائمهم الى ما بعد حياتهم ؛ انهم لم يوردوا قادرين على ارتكاب الجرائم ، ولحين كتاباتهم اللهيئة ستدفع الى ارتكاب الجرائم ، وهذه الفكرة اللطيفة التي يملونها معهم الى القبر تعزيمهم عن ارتكابهم بجسده الموت الى النخلي عما هو موجود . ان اتاجه المتمرد بدل بالتالي على معطسه الى البقاء . وحتى لو كان الخلود الذي ينمناه هو مخلود هابيل ، فانه يتمسك على الاقل ، وشهد على الرغم منه من أجل اصدق ما في التمرد الماورائي .

سب نجاح ساد حالياً

إن ذريته بالذات هي التي تضطرننا الى تكريمه (١) . وَوَرَّثَتْهُ لِبِسُوا جَمِيعاً من الكتاب . وبما لا شك فيه انه تألم ، ومات كي يلهب محبة أهل الاحياء الجميلة ، ورواد المقاهي الادبية . ولكن ليس هذا كل ما في الامر . إن النجاح الذي يلاقيه المركز ساد في عصرنا ، يفسره حلم مشترك بينه وبين الحساسية المعاصرة : المطالبة بالحرية التامة ، تجرؤد من الانسانية يجريه العقل دونما تأثر ، تحويل الانسان الى أداة تجربة ، النظام الذي يوضح العلاقات بين إرادة القوة والانسان - الأداة ، المجال المغلق لهذه التجربة الفظيمة ، (٢) . . . هي دروس سيجدها فلاسفة القوة حينما سيعملون على تنظيم عصر العبيد (٣) .

مجتمع ساد ومجتمع عمرنا

قبل عصرنا بقرنين ، وعلى نطاق ضيق ، أساد المركز ساد بالمجتمعات المستبدة بإسم الحرية المفرطة ، وهي حرية لا يطالب بها التمرد في الحقيقة . ان التاريخ والمأساة المعاصرين يبدآن حقاً معه . ولكنه اعتقد ان مجتمعات يقوم على حرية الحرية لا بد له من ان ينسجم مع حرية الآداب ، كأن للعمودية حداً . وقد اكتفى عصرنا بأن يخلط حله بجمهورية عالمية وفنه الإذلافي خلطاً غريباً . أخيراً ، ان ما كان المركز ساد يمثله اكثر من أي شيء آخر ، ونعني القتل القانوني (٤) ، وقد اخذ على عاتقه الاكتشافات التي اراد بالمركز ساد أن يضعها في خدمة القتل العريزي . أما الجريمة التي اراد لها المركز ساد أن تكون ثمرة استثنائية لذيدة ناجحة عن وذيلة منفصلة من عقالمها ، فلم تعد اليوم سوى عادة كثرية لقضية اسبحت بوليسية . انها مفاجآت الادب (٥) .

(١) تضطرننا الى تكريمه لانه لم يقتل إلا في الغيبة ، أما هي لقتلت بالعمل - المرعب -

(٢) مررنا بهذه المصطلحات في الصفحات السابقة - المرعب -

(٣) إشارة الى العصر الحالي ، وستنوسم المؤلف في شرح ذلك في الاسام القادمة - المرعب -  
: الحكم بالاعدام ( المرعب )

(٥) إشارة الى ما في الادب من استباق ونبوءه ( المرعب )



## ٢ - تمرد أهل النظار

تمرد الرومانسية

ولكن الوقت ما زال للأدباء . ان الرومانسية مع تمردها الإبلبي لن تفيد وأيم الحق سوى شطحات الخيلة . انها ، كالمركيز ساد ، انفصلت عن التمرد القديم بما منعت من تفضيل للشر والفرد . والتمرد في هذا الطور ، إذ ركز على قوة تحديه ورفضه ، نسي مضمونه الايجابي . بما ان الله ينسب اليه كل ما هو خير في الانسان ، لذلك يجب ان نسخر من هذا الخير ، وان نصطفي الشر . لقد أدى كره الموت والظلم اذن ، على الاقل ، الى الدفاع عن الشر والقتل ، إن لم يكن الى ممارستها .

وقف التمرد الروماني

إن الصراع بين الشيطان والموت في قصيدة الشاعر ملتون المسماة «الفردوس المفقود» ، قصيدة الرومانسين المفضلة ، يرمز الى هذه المسألة ؛ وبما يزيد ذلك عمقاً ان الموت هو ، مع الخطيئة ، ابن الشيطان . فالتمرد ، كي يجارب الشر ، ولأنه يعتبر نفسه بريئاً ، يتخلى عن الخير ويرتد الشر ثانية . ان البطل الروماني يدمج الخير والشر دمجاً عميقاً ، بل دينياً ان جاز القول<sup>(١)</sup> . وهو يقول بالقضاء والقدر لأن القدر يمزج الخير والشر ، دون ان يتمكن الانسان من الدفاع عن نفسه . ان القدر يزيح الاحكام القيسية ، ويستبدلها بـ « كتب علينا ذلك » ، الأمر الذي يسمح بمذرة الكل ، ما عدا الخالق ، المسؤول الوحيد عن هذا الواقع المشين . والبطل الروماني « يقول بالقضاء والقدر » أيضاً ، لأنه كلما تعاضم قوة وعبقرية ، تعاضمت فيه قوة الشر . كل قوة ،

(١) انما موصولة اساسية عند وليم بلاك ، ص ١٠٤ .

كل مبالغة، تختمي حينئذ وراء « القول بالقضاء والقدر ». ولأن يكون الفنان، والشاعر خاصة ، شيطانياً ، فلقد شرح الرومانسيون هذه الفكرة القديمة جداً شرحاً مثيراً . بل ان هناك في هذا العصر استعماراً يقوم به الشيطان ويستهدف إلحاق كل شيء به ، حتى عباقرة الفكر التقليدي . وقد لاحظ بلاك قائلاً : « ان ما جعل ميلتون يكتب بتضايق عندما كان يتحدث عن الملائكة وعن الإله ، وبجراحة عندما كان يتحدث عن الشياطين والنجيم ، هو أنه كان شاعراً بكل معنى الكلمة ، ومن حزب الشيطان ، على غير علم منه » . الشاعر ، العبقرى ، الانسان ذاته ، في اسمى صورته ، يصرخ حينئذ مع الشيطان : « وداعاً ايها الرجاء ، ولكن مع الرجاء ، وداعاً ايها الخوف ، وداعاً ايها الندامة ... ايها الشر 'كن خيري » .

إنها صيحة البراءة المهانة .

اختلاف الخير والشر

ان البطل الرومانسي يعتبر نفسه اذن مكرهاً على ارتكاب الشر ، شوقاً منه الى خير مستحيل . والشيطان يتمرد على خالقه ، لأن هذا الخالق استخدم القوة لإخضاعه وقهره . يقول شيطان ميلتون : « صار للخالق انداد في العقل ، فسما عليهم بالقوة » . لقد أدين العنف الرباني ادانة صريحة ، لذلك سيتعد المتمرد عن هذا الإله المعتدي الفظيع<sup>(١)</sup> ، « الافضل هو الابتعاد عنه اكثر ما يمكن » ، ومسيطر سلطانه على جميع القوى المناوئة للنظام الإلهي . ان امير الشر<sup>(٢)</sup> لم يصطف طريقه إلا لأن الخير مفهوم " يعرفه الله ويستخدمه لمقاصد جائزة . وحتى البراءة تثير حفيظة المعاصي بمقدار ما تفترض عمى مخدوع . ان « روح

(١) « ان شيطان ميلتون متورط كثيراً على إلهه من الناحية الاخلاقية . ولما يعتبر ذلك الذي ينبت بالرغم من الراء والبراء ... اسمى من الذي يطبق على أعدائه اشد انواع الانتقام ، وهو واثق من نصره المؤكد » هيرمان ويلفيل .

(٢) الشيطان (المرب)

الشر السوءاء التي تثيرها البراءة « ستولد اذن ظلاماً بشرياً مقابلًا للظلم الرباني .  
بما ان الشر موجود في اصل الخلق ، لذلك سيقابله عنف مقصود . ان الافراط  
في اليأس سيزيد ايضاً من اسباب اليأس كي يسير بالتمرد نحو هذه الحالة من  
الختور المقيت ، التي تتبع حنة الظلم الطويلة ، وحيث يندم التمييز بين الخير  
والشر انعداماً نهائياً . ان شيطان الشاعر فييني

... لم يعد يميز المنكر والمعروف

بل لم يعد يبتهج بما سبب من مصائب

وهذا ما يعرف العدمية ويبيح القتل .

شيطان الرومانيين ،  
الرومانية والجرية

أصبح القتل في الحقيقة لطيفاً محبوباً . وحسبنا ان نقارن ابليس مصوري  
القرن الوسطى بشيطان الكتّاب الرومانيين . فتي « غص الإهاب ، حزين  
وفاتن » ( الشاعر فييني ) ، يحل محل الحيوان الأقرن . « جميل جمالاً يجهل  
الارض » ( ليرمنتوف ) ، منفرد وقوي ، مؤلم ومحتقر ، يضطهد بلا مبالاة ،  
ولكن عذره هو الألم . يقول شيطان ميلتون : « من يجرؤ على ان يغبط ذلك  
الذي حكم عليه مقامه الاعلى بأعظم قسط من الآلام اللامتناهية » مثل هذا  
الظلم الكبير ومثل هذا الألم المتواصل ، يسمح بكل المبالغات . ان المتمرد  
يمنح نفسه اذن بعض الامتيازات . وليس من شك في ان القتل لا يوصى به  
لذاته ، وايكفه رسوم داخل قيسمة الفورة ، وهي قيسمة سامية بالنسبة الى  
الروماني . الفورة هي عكس السأم : ف « لورانسو »<sup>(١)</sup> يحلم بـ « هان  
الإسلائي » . ان الحساسيات الذليلة تستدعي فوران البهيمه البدائي . والبطل  
البيروني<sup>(٢)</sup> ، العاجز عن الحب ، أو القادر فقط على حب مستحيل ، يتألم سأمًا .

(١) البطل في مسرحية الفريد دي موسيه المعروفة بهذا الاسم (المعرب)

(٢) نسبة الى الشاعر الانكليزي اللورد بيرون .

انه وحيد ، مضى ، 'مرهق' بوضعه . فاذا اراد ان يشعر بأنه يحيا ، وجب أن يكون ذلك في تمجيد رهيب لعسل قصير الامل ومُفْنن<sup>(١)</sup> . أن نحب ما لن نراه ابدأ مرتين ، معناه ان نحب في اللهب والصراخ كي نفنى بعدئذ ، فلا نعود نحيا إلا في هذه اللحظة وبها ، من أجل

هذا الوصال الحي ، هذا اللقاء الخاطف

لقلبٍ معذبٍ التحم بالعواصف (ليرمانتوف)

ان التهديد الميت الذي يحوم فوق وضعنا يجعل كل شيء مجذباً . الصرخة وحدها تجعلنا نحيا . الحسيّة تقوم مقام الحقيقة . وعند هذا الحد ، تصبح رؤيا الدمار الكلي قيمة يختلط فيها كل شيء : الحب والموت ، الوجدان والإثم . في عالم شدّة عن مداره ، لا يعود هناك من حياة إلا حياة المهاوي ، حيث - على حد اعتقاد الفريد لبواتقان يتدحرج البشر « مرتجفين سخطاً ، متمسكين بجرائهم حباً » ، ليعلنوا فيها الخالق . السكرة الجنوبية ، وفي النهاية الجريمة الجيلة ، تستنفدان في لحظة واحدة معنى حياة بأكملها . ان الرومانسية ، دون أن تبشر بالجريمة بالمعنى الحقيقي ، تسعى الى تصوير حركة مطالبة عميقة ، في صور اصطلاحية : الخارج على القانون ، الشقي الصالح ، اللص الكريم . لقد كتب النصر للنساء الموسيقية الدامية وللرواية السوداء . وان شخصاً مثل بيريكسيكور بجرر ، بشن بجنس ، هذه الشهوات النفسية الرهيبية التي يروها غيره في معسكرات الإبادة<sup>(٢)</sup> . ليس من شك في ان هذه الاعمال هي ايضاً تحدّي موجه الى مجتمع العصر . ولكن الرومانسية ، في منبعا الحي ، تتحدى القانون الاخلاقي والرماني في البدء . ادلك ، أولاً وبصورة منطقية ، نجد أفراد صورة لها في الداندي<sup>(٣)</sup> لا في الثوري .

(١) للتذكير ترابط المنعة والعناء عند المركب ساد (المغرب)

(٢) اشارة ايضاً الى العصر الحالي (المغرب)

(٣) الداندي هو من اهل التظاهر (المغرب)

## التمرد الروماني والموقف

تقول : منطقياً ، لأن هذا العناد في الروح الشيطانية لا يمكن ان يبرره إلا تأكيد الظلم تأكيداً يتردد في استمرار ، ونوطيده بصورة ما . ولا يبدو الألم مقبولاً في هذه المرحلة إلا اذا كان بلا دواء . ان التمرد يصطفي ماورائيات الأسوأ ، وتتجلى في أدب التجديف الذي لم نخرج منه بعد . « كنت اشعر بقوة ، وكنت اشعر بالأغلال » ( بيتروس بوريل ) . ولكن هذه الأغلال محبة . يجب ، بدونها ، ان تثبت أو ان نمارس القوة التي لسنا ، مع ذلك ، واثقين من امتلاكها . وهكذا يصبح المرء موظفاً في الجزائر ، وما هوذا بروميشوس ، مع بيتروس بوريل بالذات ، يريد ان يعاق الملاهي وان يصلح اخلاق المستوطنين . ولكن هذا لا يمنع ان على كل شاعر ، كما يقبل ، ان يكون ماعوناً<sup>(١)</sup> . ان شارل لاساي ، وهو نفسه الذي كان يعتزم وضع رواية فلسفية : روبسبير ويسوع المسيح ، لا ينأى ابداً دون ان يتفوه ببعض التجديفات الشديدة ، حتى يستر ويمنع نفسه من السقوط . فالتمرد يتصنع الأسى ، وينتزع آيات الاعجاب . اما الرومانية فتدشن عبادة الشخصية اكثر مما تدشن عبادة الفرد ، وحينئذ تصبح منطقية . ان التمرد الروماني ، إذ لم يعد يرتجى القاعدة<sup>(٢)</sup> أو الوحدة من الله<sup>(٣)</sup> ، وإذ أصر على ان يلتف حول ذاته ضد قدر معاد ، وإذ فقد الصبر في أن يبقى كل ما في وسعه البقاء في عالم نذر لهوت والفناء ، نقول : ان هذا التمرد يلتس حينئذ حلاً في الموقف . فالمرقف يجمع في وحدة جمالية الانسان الذي يتحكم به القدر ويحطبه العنف الرباني . ان الكائن الذي يكتب عليه الموت يتألق على الاقل قبل ان يتلاشى . وهذا التألق هو مبرزه ومسوغه . المرقف نقطة ثابتة ، النقطة الوحيدة التي

(١) « ما زال الادب الفرنسي متأثراً بذلك . يقول مارو : « لم يعد هناك شعراء لعنة » .

لقد صار عددم الال ، ولكن الآخرين هم سائو النية .

(٢) قاعدة سالوك (المغرب)

(٣) سنرى بعد قليل ان التمرد الروماني يخلق وحدته الخاصة بوسائل جمالية (المغرب)

يمكننا أن نجابه بها وجه إله البغضاء الذي أصبح وجهاً متحجراً . والمتنرد الساكن يتحمل نظرة الله، دون أن يعتربه وهن . يقول ميلتون : « لن يبدل شيء هذه الروح الثابتة ، هذا الازدراء المتعالي الناشء عن الوجدان المهان » . كل شيء يتحرك ويمضي نحو الدم ، ولكن المهان يكبر ويعاند ، ويصون عزة نفسه على الأقل . ثمة رومانسي شاذ اكتشفه ريمون كينو ، يزعم ان غاية كل حياة عقلية ان تصبح إلهاً . والحقيقة ان هذا الروماني سابق لأوانه بعض الشيء ، لأن الغاية آنذاك لم تكن سوى مضاهاة الإله والبقاء عند مستواه . فلم يكونوا يهدمونه آنذاك، بل كانوا يجهد متواصل يرفضون الخضوع له البتة . الداندية نوعٌ منحط من الزهد .

الداندي والمرأة

الداندي يخلق وحدته الخاصة بوسائل جمالية ، ولكنها جماليات الغرابة والإنكار . « العيش والموت أمام المرأة »<sup>(١)</sup> . كان هذا هو شعار الداندي ، بنظر الشاعر بودلير . انها ، في الحقيقة ، جماليات متمسكة . إن الداندي معارضٌ بحكم دوره . فهو لا يستمر الا في التحدي . كانت الخلق يتلقى تماسكه حتى الآن من الخلق . ولكن ما أن كرتس انفصاله عن الخلق ، اذا به يقع فريسة للحظات العابرة والايام الزائلة والحساسية المشتتة . لا بد له إذئذ من امتلاك زمام نفسه . انه يستجمع ذاته ويقم لنفسه وحدة بقوة الرفض بالذات . بما أنه مشتت كشخص محروم من القاعدة ، لذلك سيصبح متمسكاً كشخصية . ولكن الشخصية تفترض وجود جمهور . ان الداندي لا يستطيع ان يؤكد ذاته الا إذا عارض ، ولا يستطيع ان يتأكد من وجوده إلا اذا رآه في وجه الآخرين . الآخرون هم المرأة . صحيح ان هذه المرأة سرعان ما تتكدر لأن قدرة الانسان على الانتباه محدودة ، لذلك يجب تنبيهها في استمرار ، ويجب حثها بالاثارة . فالداندي مضطر إذن دائماً الى ادهاش الآخرين . كفاءته في الغرابة ،

(١) المرأة : الآخريين - العرب -

وكياله في المرابدة . انه وهو الكائن المنفصل ، الموجود على الهامش دائماً ،  
 'يجبر الآخرين على خلقه ، وذلك بإنكاره قينتهم . انه يمثل حياته تمثيلاً ، لأنه  
 لا يستطيع ان يجيها . انه يمثلها حتى الموت ، إلا حينما يكون وحيداً بلا مرآة .  
 لأن يكون الداندي وحيداً ، معناه ان لا يكون أي شيء . ولم يتحدث  
 الكتاب الرومانسيون عن العزلة مثل هذه الروعة ، إلا لأنها كانت المهم الحقيقي ،  
 الألم الذي لا يمكن تحمله . ان تمردهم يد جذوره الى مستوى عميق ؛ ولكن  
 من كليفلاند الأب بريفو الى الداويين<sup>(١)</sup> مروراً بجمانين ١٨٣٠ ، وبودلير  
 ومنحطلي<sup>(٢)</sup> ١٨٨٠ ، ثمة قوت ونيف من التمرد يروي غليله بشمن بنحس في  
 جرات الشذوذ والغرابة . ولث عرف الجميع كيف يتحدثون عن الألم ، فذلك  
 لأنهم إذ يشعرون من أن لا يتخطوه أبداً إلا بواسطة تقليدات وتحريفات باطلة ،  
 شعروا غريزياً بأن هذا الألم يبقى حجتهم الوحيدة ونبلمهم الحقيقي .

تردد شارل بودلير

لذلك ، لم يتحمل هوغو ، عضو المجلس الأعلى الفرنسي ، تراث الرومانسية ،  
 بل تحمله بودلير و لاسنير شاعرا الجريمة . يقول بودلير ، « كل شيء ينضح  
 بالجريمة في هذا العالم : الجريمة والحائط ووجه الانسان » . فلتأخذ إذن هذه  
 الجريمة التي هي قانون العالم شكلاً متميزاً على الأقل . إن الشاعر لاسنير ، أول  
 النبلاء المجرمين من الناحية التاريخية ، أكب على ذلك بشكل فعلي . أما بودلير  
 فكان أقل عنفاً ، ولكنه كان عبثياً . لقد ابتدع حديقة الشر<sup>(٣)</sup> ، حيث لا  
 تمثل الجريمة سوى نوع أندر من الانواع الأخرى . وأصبح الرعب نفسه حساً  
 مرهفاً وشيثاً ثميناً . « سأكون سعيداً بأن أصبح ضحية ؛ ليس ذلك فحسب ،  
 بل سأرحب أيضاً بأن أصبح جلاتاً كي أحس بالثورة بطريقتين » . حتى

(١) فئة من الكتاب .

(٢) فئة من الكتاب .

(٣) علم ان شارل بودلير ألف : أزهار الشر - المرص -

خضوع بودلير تفوح منه رائحة الجريمة . ولئن اصطفى دي ميستر<sup>(١)</sup> مرشداً فكرياً ، فذلك بمقدار ما يمضي هذا الكاتب المحافظ حتى نهاية الشوط ، ويركز عقيدته حول الموت وحول الجلاء . ويتظاهر بودلير بأنه يعتقد أن « القديس الحقيقي هو ذلك الذي يهين الشعب ويقتله من أجل الشعب » . ان طلبه سيستجاب . فقد بدأ جنس القديسين الحقيقيين بالانتشار على هذه الارض كي يثبت نتائج التمرد الغربية هذه . ولكن بودلير ، رغم جعبته الشيطانية ، ورغم ميله الى التركيز ساد ، ورغم تجديفاته ، ظل لاهوتياً لدرجة تمنعه من أن يكون متردداً حقيقياً . ان مأساته الحققة التي جعلته أعظم شعراء زمانه ، كانت في مجال آخر . ولا يمكننا أن نتعرض هنا لذكر بودلير إلا بمقدار ما كان أعمق مفكري الداندية ، وبمقدار ما اعطى صيفاً نهائياً لإحدى نتائج التمرد الرومانسي .

التمرد والرومانسية والداندية

إن الرومانسية تدل في الحقيقة على ان التمرد مرتبط بالداندية . ذلك أن أحد اتجاهاته هو التظاهر . والداندية في أشكالها التقليدية تُقر بنزوع الى اخلاق . فهي ليست سوى شرف المنحط الى نخوة<sup>(٢)</sup> . ولكنها تدشن في الوقت نفسه جماليات ما زالت مسيطرة على عالمنا ، جماليات المبدعين المنفردين ، المنافسين العنيدين لإله 'مدان' . اعتباراً من الرومانسية لا تعود مهمة الفنان منحصرة فقط في خلق عالم ، ولا في ان يشيد بالجمال لذاته ، بل ايضاً في ان يحدد موقفاً . حينئذ يصبح الفنان أنموذجاً . انه يعرض نفسه كأسوة : والفن اخلاقه . ومعها يبدأ عهد المرشدين . وعندما لا يقتل اهل التظاهر بعضهم بعضاً ، او عندما لا يصبحون في عداد المجانين ، فانهم يعرضون انفسهم كأنموذج أمام الاجيال المقبلة . وحتى حينما يجهرون قائلين ، مثل الشاعر فيني ، انهم سيلزمون بجانب الصمت ، فان صمتهم مجلجل .

(١) راجع من ٢٨٢ في « تيارات الفكر الفلسفي » . تأليف أندريه كريسون .

ترجمة نهاد رضا . المكتبة الفلسفية - منشورات عويدات

(٢) أي انه يستمد القاعدة من دالمع ذاتي (المعرب)



اهل التظاهر ،  
الانصاليون ، الثوريون

ولكن في صميم الرومانسية نفسها ، يتراءى عظم هذا الموقف لبعض المتطرفين الذين يشكلون حينئذ النموذجاً انتقالياً بين الشاذ ( أو الخارق ) وبين مغامرينا الثوريين . فما بين « ابن اخ الموسيقى رامو » (١) ، و « الفاتحون » (٢) في القرن العشرين ، نرى بيرون وشيلي يتنازعان من اجل الحرية ، وان يكن في الظاهر . انها يعرضان نفسها ايضاً ولكن بصورة اخرى . ان التمرد يبارح تدريجياً عالم التظاهر الى عالم التنفيذ ، حيث سيزج نفسه كلياً فيه . وحينئذ سيتراءى طلاب ١٨٣٠ الفرنسيون ، ومتظاهرو (٣) كاثوث الاول الروس ، كأطهر تجسيدات يكتسبها تمرد كان في البدء منعزلاً ، ثم اصبح بعدئذ يفتش عن درب اتحاد ، خلال سلسلة من التضحيات . ولكن الميل الى رؤيا الدمار الكلي والحياة الجنونية ، ستوجد لدى ثوريينا (٤) . ان عرض المحاكمات ، وتمثيلية قاضي التحقيق والمتهم الفظيعة ، واصطناع الاستجوابات ، تدفنا احياناً الى القول بوجود مجازاة مفعمة للعبة القديمة التي كان بواسطتها التمرد الرومانسي ، إذ يرفض وضعه ، يحكم على نفسه موقفاً بالتظاهر ، يدغدغه أمل بائس باكتساب كينونة أعمق (٥) .

- .....
- (١) قصة هجاية ألدها الفيلدوف الفرنسي ديدرو . راجع ص ٣١ - ٣٢ من : « الادب الثوري في القرن الثامن عشر » تأليف نهاد رضا .
  - (٢) « الفاتحون » أو « الفزاة » قصة لأندريه مارو .
  - (٣) مستعملة هنا بالمعنى المادي المعروف .
  - (٤) اشارة الى الثورات السياسية في العصر الحالي .
  - (٥) أ - الشاذ = ابن اخ الموسيقى رامو = التظاهر .  
ب - النموذج انتقالياً = الشاعر بيرون ، الشاعر شيلي .  
ج - المفاكرون الثوريون = الفاتحون = التنفيذ .

(المعرب)

## رفض الخلاص

### التمرد الرومانسي

لئن يمجّد التمرد الرومانسي الفردَ والشرَّ ، فإنه لا يتحزّب اذن للبشر ، بل يتحزّب لذاته فقط . ومهما تكن الداندية فهي دائماً داندية بالنسبة الى الإله . فالفرد ، بوصفه مخلوقاً ، لا يسعه ان يعارض إلاّ الخالق . إنه بحاجة الى الله ليتابع معه نوعاً من الحوار المغناج الكثيب . وحقّ لأرمان هوغ<sup>(١)</sup> ان يقول إن الله لم يمّت بعدُ في هذه المؤلفات الرومانسية رغم ما فيها من جو نيتشوي<sup>(٢)</sup> . وما الهلاك الابدي نطالب به بجمجمة ، سوى مخاتلة على الله .

أما عند دوستوفسكي فقد خطا وصف التمرد خطوة اخرى . فإيفان كارامازوف<sup>(٣)</sup> يتحزّب للبشر ، وينوه ببراءتهم . انه يؤكد ان حكم الموت الذي يتقل كاهلهم هو حكم جائز . انه ، في حركته الاولى على الاقل ، لا يدافع عن الشر ، بل عن العدالة التي يجعلها فوق مقام الالهية ، فهو اذن لا ينكر وجود الله انكاراً مطلقاً ، بل يخطيء الله بإسم قسبة اخلاقية .

(١) Les Petits Romantiques ( Cahiers du Sud )

(٢) سنرى مسألة موت الاله عند نيتشه في الصلحات التالية (المرب) .

(٣) الإخوة كارامازوف ، لدوستوفسكي .

كان مطمح المتمرد الروماني ان يخاطب الله مخاطبة الند للند . حينئذ يقابل الشر بالشر ، والقساوة بالتسامح . إن المثل الاعلى للشاعر فيني هو مثلاً ان يقابل الصمت بالصمت . ليس من شك في ان المقصود بذلك هو الارتقاء الى مستوى الإله ، وهذا ما يشكل تجديفاً . ولكن لا يقصد إنكار سلطان الالهية ، ولا مقامها . فهذا التجديف موقتر ، لأن كل تجديف هو اخيراً بمثابة اشتراك في القدسيات .

تمرد إيفان

اما مع ايفان فقد تبدلت الالهية . إن الله يحاكمكم بدوره ، ومن عُلٍ . فاذا كان الشر ضرورياً للخلق الالهي ، فان هذا الخلق يكون حينئذ غير مقبول . لن يعود ايمان يتوكل على هذا الاله الغامض ، بل سيلفوض امره الى مبدأ أعلى منه ، الى مبدأ العدالة ؛ انه يدشن المشروع الاساسي للتمرد ، ونعني استبدال ملكوت العون بملكوت العدالة . وفي الوقت نفسه ، يشرع بالمهجوم ضد المسيحية . إن المتمردين الرومانيين قطعوا حبل الصلة مع الله نفسه ؛ بوصفه مبدأ بغضاء . أما إيفان فيرفض اللغز رفضاً صريحاً ، وبالتالي يرفض الله بوصفه مبدأ محبة ؛ فالهبة وحدها تستطيع ان تدفعنا الى ان نقر بالظلم اللاحق بمارت Murthe ، وبالعمال الذين يشتغلون عشر ساعات ، ويجعلنا فيما بعد ايضاً نقبل بموت الاطفال<sup>(١)</sup> الذي لا يمكن تبريره . يقول إيفان : « اذا كان نألم الاطفال مفيداً لاستكمال مجموع الآلام اللازمة للحصول على الحقيقة ، فاني أؤكد سلفاً ان هذه الحقيقة لا تساوي مثل هذا الثمن » . إن إيفان يرفض العلاقة المميقة التي اوجدتها المسيحية بين الألم والحقيقة . وأعمق صرخة تند عن إيفان ، الصرخة التي تفتح أرواح المهاوي تحت اقدام المتمرد ، هي : حتى لو . « إن سخطي باقٍ حتى لو كنتُ على خطأ » . ومعنى ذلك ان إيفان ان يقبل ان يدفع عن هذه الحقيقة بالشر والألم وبموت الابرياء ، حتى لو كان الله موجوداً ،

(١) الاطفال رمز البراءة التامة (المرب) .

وحتى لو كان اللغز يغطي حقيقة ما ، وحتى لو كان الكاهن زوزيم<sup>(١)</sup> على حق . إن إيفان يجسد رفض الخلاص . فالإيمان يؤدي إلى الخلود ، ولكنه يفترض قبول اللغز والشر والرضا بالظلم . فمن ينال الخلود . وفي مثل هذه الشروط ، سيرفض إيفان هذه الصفقة حتى لو كان الخلود موجوداً . إنه لن يرضى بالمعون الرباني إلا إذا كان غير مشروط . ولهذا السبب يضع هو نفسه شروطه . التمرد يريد كل شيء ، أو لا يريد أي شيء . « كل ما في الكون من علم لا يساوي دموع الاطفال » .

#### صراع العدالة والحقيقة

إن إيفان لا يقول إن الحقيقة غير موجودة ، بل يقول ما يلي : إذا كانت الحقيقة موجودة ، فلا يسعها أن تكون إلا غير مقبولة . لماذا ؟ لأنها جائزة . هنا ، ولأول مرة ، يبدأ صراع العدالة ضد الحقيقة ، وسيكون صراعاً بلا انقطاع . إن إيفان المنفرد ، وبالتالي الأخلاقي ، سيكتفي بنوع من الدونكيشوتية الماورائية . ولكن ما إن تقضي سنوات ، حتى تسمى مؤامرة سياسية واسعة إلى أن تجعل من العدالة الحقيقة .

#### رفض الخلاص الفردي

أضف إلى ذلك أن إيفان يجسد رفض الخلاص المنفرد . فهو يتضامن مع المالكين ، وبسببهم يرفض دار النعيم . والحقيقة أنه لو كان من المؤمنين لأمكن انقاذه ، ولكن الملاك الأبدي سيحل بغيره ، وسيستمر الألم . ليس من خلاص يمكن بالنسبة إلى ذلك الذي يتألم بدافع الرأفة الحقة . إن إيفان سيستمر في تخطئة الله ، رافضاً الإيمان رفضاً مزدوجاً ، مثلاً يرفض الظلم والامتياز . ولا نحتاج إلا إلى خطوة واحدة أيضاً حتى ننقل من « كل شيء أو لا شيء » إلى « الجميع أو لا أحد » .

(١) الكاهن زوزيم من شخص رواية دوستويفسكي (المعرب) .

## إيفان المزق

هذا التصميم البالغ وما يفترض من موقف ، كان من شأنه ان يكفي الرومانيين . ولكن إيفان ، على الرغم من خضوعه للداندية ايضاً ، يجيا مشكلاته حقاً ، مزقاً موزعاً بين القبول والرفض . اعتباراً من هذه الآونة يصبح تصرفه منطقياً . فاذا رفض الخلود فماذا يبقى له ؟ الحياة بما تلك من ابتدائي . فاذا ما حذف معنى الحياة ، بقيت الحياة ايضاً . يقول إيفان : « أنا أحياء على الرغم من المنطق » . ويقول ايضاً : « لو انني لم اعد أو من بالحياة ، ولو كان يساورني الشك في امرأة محبوبة ، وفي النظام الكوفي ، مقتنعاً على العكس بأن كل شيء ليس سوى فوضى جهنمية ملعونة - حتى حينئذ ، لوددت ان احياء » . لذلك سيحيا إيفان ، وسيحب ايضاً « دون ان يعرف السبب » . ولكن العيش معناه ايضاً القيام بعمل . باسم ماذا ؟ اذا كان الخلود غير موجود ، فلا وجود للثواب ولا للعقاب ، ولا وجود للخير ولا للشر . « اعتقد انه لا توجد فضيلة بلا خلود » . وايضاً : « أعلم فقط ان الألم موجود ، وان لا وجود للمذنبين ، وأن كل شيء مترابط ، وأن كل شيء يضي ويتوازن » . ولكن اذا كانت الفضيلة غير موجودة ، فلا وجود لشرعية : « كل شيء مباح »

## شرعية القتل

بشعار « كل شيء مباح » يبدأ حقاً تاريخ العدمية المعاصرة . فالتمرد الروماني لم يصل الى هذا الحد ، بل اكتفى بأن يقول ، إجمالاً ، إن كل شيء ليس مباحاً ، ولكنه بدافع القحة يسمح لنفسه بعمل ما هو ممنوع . أما مع الأخوة كارامازوف فإن منطق السخط قلب التمرد على ذاته ، وأوقعه في تناقض منطقي . الاختلاف الاساسي هو أن الرومانيين يسمحون لأنفسهم بتساهلات ، في حين ان إيفان يجبر نفسه على ارتكاب الشر بدافع التماسك المنطقي . انه لن يسمح لنفسه بأن يكون برأ صالحاً . فالعدمية ليست فقط

بأساً وإنكاراً ، ولكنها بوجه خاص إرادة يأس وانكار . نفس الانسان الذي كان يتحزب بشراسة للبراءة ، ويرتجف امام تألم طفل ، ويريد ان يرى « بأم عينه » الوعلة تنام قرب الاسد ، والضحية تعانق القاتل ، نقول : نفس هذا الانسان يعترف بشرعية القتل ، وذلك اعتباراً من رفضه المنطق الإلهي ومحاولته ايجاد قاعدة شخصية له . إن إيفان يتمرد على إله قاتل ، ولكنه ما ان يزن تمرده بميزان العقل ، حتى يستخرج منه قانون القتل . اذا كان كل شيء مباحاً ففي وسعه اذن ان يقتل اباه ، أو ان يرضى على الاقل بأن يُقتل ابوه . إن امعان النظر في وضعنا كأشخاص محكوم علينا بالموت ، يؤدي فقط الى تبرير الجريمة . ففي نفس الوقت يكره إيفان عقوبة الموت (لأنه إذ يروي قصة اعدام يقول بقسوة : «هوى رأسه بإسم العون الرباني » ) ، ويسلم مبدئياً بالجريمة . التسامح كل التسامح بحق القاتل ، ولا يُقبل أي تسامح بحق الجلاد . لقد كان المركيز ساد يتقلب في هذا التناقض بيئسر ، ولكن هذا التناقض يأخذ بمخناق إيفان كارامازوف .

#### التساؤل الجديد

إنه ، في الحقيقة ، يتظاهر بأنه يحاكم كما لو كان الخلود غير موجود ، في حين انه اكتفى بأن يقول انه يرفض الخلود حتى لو كان موجوداً . ولكي يحتاج ضد الشر والموت ، يصطفي اذن بعمد أن يقول إن الفضيلة ليست اكثر وجوداً من الخلود ، وان يسمح بقتل والده . إنه يقبل بالحيار المزدوج عن علم : أن يكون فاضلاً وغير منطقي ، أو منطقياً وجرمياً . ونظيره الشيطان ، على حق إذ يوسوس له قائلاً : « ستؤدي عملاً فاضلاً ، ومع ذلك انت لا تؤمن بالفضيلة ، وهذا ما يفيظك ويمدبك » . السؤال الذي يطرحه إيفان على نفسه أخيراً ، السؤال الذي يشكل التقدم الحقيقي الذي ادخله دوستويفسكي على روح التمرد ، هو الوحيد الذي يهنا هنا : هل نستطيع ان نحيا وان نستمر في التمرد ؟

الإنسان - الإله  
وقبول الجريمة

إن إيفان يجعلنا نغمن بجوابه : لا يمكننا أن نحيا في التمرد إلا إذا سرنا به الى نهاية الشوط . « ما هي نهاية التمرد الماورائي ؟ الثورة الماورائية . فبعدها أنكرَ ربّ هذا العالم في شرعيته ، صار لزاماً أن يطاح به ، وان يحتل الإنسان مكانه . « بما ان الله والخلود غير موجودين ، لذلك يُسمح للإنسان الجديد بأن يُصبح إلهاً . « ولكن ما معنى ان يكون للإنسان إله ؟ أن يعترف حقاً أن كل شيء مباح ، وان تُرفض كل شريعة غير شريعته الخاصة . نلاحظ اذن ، ودون ان يكون التوسع في المحاكمات المتوسطة أمراً ضرورياً ، أن تتحوّل الانسان الى إله معناه قبول الجريمة ( وهي فكرة مفضلة عند مثقفي دوستوفسكي ) . فمشكلة إيفان الشخصية هي اذن أن يعرف هل سيكون وفيّاً لمنطقه ، وهل سيقبل إذ ينطلق من احتجاجه الساخط إزاء تألم البريء - بمقتل والده ، مع التزام الامبالاة المميزة « للبشر الآلهة » . نحن نعرف حله : إن إيفان سيسمح بقتل والده . انه اعتمق من ان يكتفي بمجرد التظاهر ، وأودع من ان ينفذ العمل بيده ، لذلك سيسمح بأن ينفذ غيره هذا العمل . ولكنه سيصاب بالجنون . فالإنسان الذي لم يكن يفهم كيف يمكننا ان نحب الآخرين ، لا يفهم ايضاً كيف يمكننا ان نقتلهم . . . إنه محصور بين فضيلة لا يمكن تبريرها وجريمة لا يمكن قبولها ، تهشه الشفقة ويعجز عن الحب ، وحيدٌ محروم من القحة المسعفة . لذلك سيقتل التناقض هذا العقل السامي . قال : « لي عقل دنيوي ، فما جدوى رغبتني في فهم ما ليس من هذه الدنيا ؟ » . ولكنه لم يكن يحيا إلا من اجل ما ليس من هذه الدنيا ، وكان هذا الاعتزاز بالمطلق ينتزعه عن هذه الارض التي لم يكن يجب منها شيئاً .

السير نحو التنفيذ

ولكن ما ان تطرح المشكلة ، فلا بد من ان تتلوها النتيجة : التمرد بعد الآن سيسير نحو التنفيذ . وقد اشار دوستوفسكي الى هذه الحركة ، بقوة نبوية ،

في اسطورة المفتش الأكبر . ثم إن ايفان لا يفصل الخلق عن الخالق . فهو يقول : « أنا لا ارفض الله ، بل الخلق » . وبتعبير آخر ، يرفض الإله الآب ، غير القابل للفصل عما خلق . فشروعه الاغتصابي يبقى إذن ادبياً تماماً . إنه لا يريد ان يصلح شيئاً في الخلق . ولكن بما ان الخلق هو على هذه الحال ، لذلك يستخلص منه حق تحرير نفسه أدبياً ، وتحرير الناس الآخرين معه .

#### مشروع جديد

وبالعكس ، ما ان يسمى روح التمرد - إذ يقبل مبدأ « كل شيء مباح » ومبدأ «الجميع أو لا احد» - الى اصلاح الخلق لتأمين سلطان البشر وألوهيتهم ، وما ان تمتد الثورة الماورائية من الميدان الاخلاقي الى الميدان السياسي ، حتى يبدأ مشروع جديد من الأهمية بمكان ، ناشئ هو ايضاً ... ويجدر بنا ملاحظة ذلك - عن نفس العدمية .

إن دوستوفسكي ، رسول الديانة الجديدة ، توقع ذلك وبشتر به ، « لو ان أليوشا خلس الى أن الإله والخلود غير موجودين ، لأصبح في الحال ملجداً واشتراكياً . فالاشتراكية ليست المسألة العنالية فحسب ، انها بوجه خاص مسألة الإلحاد وتجسده المعاصر ، مسألة برج بابل 'بشيد بلا إله ، لإنزال السموات حتى الارض لا لبلوغ السموات من الارض .

#### الحرية والسعادة

لذلك يمكن لأليوشا في الحقيقة ان يصف ايفان بالغرّ الحقيقي . فهذا الاخير كان يحاول ان يسيطر على ذاته ، انما دون نجاح . وثمة آخرون ، اكثر جدية ، سيأتون وسيطالبون بالسيطرة على العالم ، منطلقين من نفس الإنكار اليائس . انهم المفتشون الكبار الذين يسجنون المسيح ، ويقولون له إن طريقته ليست الطريقة الصالحة ، وان السعادة الشاملة لا تُنال بالحرية الفورية ، حرية الإصطفاء



بين الخير والشر ، وإنما بالسيطرة على العالم وبتوحيده <sup>(١)</sup> . يجب بسط السيادة والسلطان أولاً . إن ملكوت السموات آتٍ في الحقيقة على الأرض ، ولكن البشر هم الذين سيؤدون فيها ، بعضهم في البدء سيكونون القياصرة ، أولئك الذين كانوا سابقين إلى الفهم ، وبعدهم سيؤدون الآخرون كلهم مع مر الزمان . إن وحدة الخلق هذه ستتحقق بجميع الوسائل ، لأن كل شيء مباح . لقد أدرك الوهن المفتش الأكبر لأن علمه سرّ لا ذع . إنه يعلم أن البشر أقرب إلى الكسل منهم إلى الجبن ، وأنهم يؤثرون الطمانينة والموت على حرية التمييز بين الخير والشر . إنه يرثي رثاءً فاتراً لهذا السجين الصامت الذي يكذبه التاريخ في استمرار ، ويحثه على الكلام وعلى أن يعترف بأخطائه ، وعلى أن يبرر بوجه ما مشروع المفتشين والقياصرة . ولكن السجين يلزم الصمت . لذلك سيستمر المشروع بدونهِ ، وسيقتل . أمسا الشرعية فستأتي في نهاية الزمان بعد توطد سلطان البشر . « المسألة ما زالت بعد في البداية ، بعيدة عن النهاية ، وعلى الأرض ان تعاني كثيراً وكثيراً ، ولعنتنا سنبليغ غايتنا وسنصبح قياصرة ، وحينئذ سنفكر في السعادة الشاملة » .

خبز القياسرة

مذ ذاك أعدم السجين ، ولم يعد هناك من سادة سوى المفتشين الصغار يصفون إلى روح الموت والدمار . « إن المفتشين الكبار يرفضون إلباء خبز السماء <sup>(١)</sup> والحربة ويقدمون خبز الأرض بلا حرية . لقد كانت شرطتهم تصرخ على جبل الجلجلة قائلة : « انزل من الصليب نؤمن بك » . ولكنه لم ينزل ، وحتى في أصعب لحظات النزاع اشتكى إلى الله لأنه تخلى عنه . لم يعد هناك إذن براهين ، بل هناك الإيمان واللغز ، اللذان يرفضهما المترددون ويزدرجها

(١) هذا المقطع مكتوب بصورة رمزية. انه يشير إلى الحركات السياسية التي تهدف أولاً إلى السيطرة على العالم في نطاق السعادة في المستقبل (المعرب)  
 (١) الترجمة الحديثة هي : الدومان ، ولكننا آثرنا الترجمة التكلية كما هي في النص الفرنسي  
 لنافظ على جمالية اللفظة (المعرب)

المفتشون. كل شيء مباح، وقد اخذت عصور الجريمة أهبتها لهذه اللحظة العصبية. ومن بولس الى ستالين ، نرى البوابات الذين اصطفوا قيصر قسد مهدوا الطريق للقيصرة الذين لا يصطفون إلا ذاتهم .

إن وحدة العالم التي لم تتحقق مع الله ، ستحاول بعد الآن ان تتحقق ضده .

عزلة ايفان

ولكننا لم نصل بعد الى هذا الحد . إن ايفان لا يقدم لنا حالياً سوى الوجه الشاحب لتمررد في المهاوي ، عاجز عن القيام بعمل ، تمزقه فكرة براءته وإرادة القتل . انه يكره عقوبة الموت لأنها صورة الوضع البشري ، ويسير في الوقت نفسه نحو الجريمة . ان نصيبه العزلة لأنه تمحزب للبشر .

إن تمررد العقل ، معه ، ينتهي في الجنون .

## التأكيد المطلق

ما أن 'يخضع الانسان' الله للحكم الاخلاقي ، حتى يقتله في ذاته . ولكن ما هو حينئذ اساس الاخلاق ؟ ان الله 'ينكسر' بإسم العدالة (١) ، ولكن ذكورة العدالة هل 'نفسهم بدور' فكرة الله ؟ ألا نكون حينئذ في العبيية ؟ العبيية هي التي يجابها نيتشه . وكما يتخطاها بشكل افضل ، يسير بها الى نهاية الشوط : الاخلاق هي الوجه الاخير للاله ، ويجب ان نهدمها قبل إعادة البناء . وحينئذ لا يعود الله موجوداً ، ولا يعود يضمن وجودنا . وعلى الانسان ان يعقد العزم على القيام بعمل ، كما يوجد .

١ - الأوحده

أو

الأنا الفردية

الأنا الفردية

سبق ان اراد ستيرنر (٢) ان يهدم لدى الانسان ، بعد الله بالذات ، كل فكرة عن الإله . ولكن عدميته قنوعة ، خلافاً لنتشه . إن ستيرنر يضحك

(١) تحت عنوان : تمرد إيمان ، رأينا استبدال ملكوت المون بملكوت العدالة (المعرب)

(٢) بلسوف الماني .

وهو في ورطته، أما نيته فيناطح الجدران. منذ ١٨٤٥ ، عام صدور كتابه: الأوحده وملكيتته ، شرع ستيرنز بعملية التكنيس . فهذا الرجل الذي كان يختلف الى « جمعية المتحررين » ، مع الهيفلين الشبان اليساريين ( ومنهم كارل ماركس ) ، لم يكن لديه حساب يصفه مع الله فحسب ، بل ايضاً مع إنسان فويرباخ ، و فكر هيفل المطلق وتجمده التاريخي في الدولة . فقد اعتقد ان كل هذه المعاييد صدرت عن نفس «المونغولية Mongolisme» : الايمان بمثل خالدة. لذلك أمكنه ان يكتب ما يلي: « لم أن قضيتي على أي شيء » . ليس من شك في أن الخطيئة بلية، ولكن الحق الذي نكابده منه هو ايضاً بلية، الله هو العدو؛ وإن ستيرنز يذهب الى ابعد ما يمكن في التجديف : ( « اهضم خبز الذبيحة تصبح بريء الذمة » ) ولكن الله ليس سوى احد انحرافات <sup>(١)</sup> Aliénations الأنا، أو بشكل اصح ، احد انحرافات أناي الذاتية الفردية. إن سقراط ويسوع وديكارته وهيفل ، كل الانبياء والفلاسفة ، لم يكفوا عن ابتداع صور جديدة لانحرافات أناي الذاتية الفردية ، هذه الأنا التي يحرص ستيرنز على تمييزها عن الأنا المطلقة ( فيخته Fichte ) ، بتحويلها الى منتهى ما لها من صفة خصوصية وعابرة . « الأسماء لا تسميها » ، إنها الأنا الفردية .

#### انخاض الأنا الفردية للتجريدات

يعتقد ستيرنز ان التاريخ العام حتى مجيء يسوع لم يكن سوى جهد طويل للسير بالواقع نحو المثال . وقد تجسد هذا الجهد في الافكار والطقوس التطهيرية الخاصة بالقدماء . واعتباراً من يسوع نحقق الهدف ، وشرع بجهد آخر ، قوامه ، بالعكس ، تحقيق المثال . فالكلف بالتجسيد تلا التطهير ، وأخذ يخرب العالم بشكل متزايد كلما وسعت الاشتراكية ، وريثة المسيح ، من سلطانها . ولكن التاريخ العام ليس سوى سلسلة طويلة من الإسماءات لمبدأ أناي الذاتية الأوحده ، وهو مبدأ حي ، محسوس ، مبدأ انتصار أرادوا إخضاعه لريقة

(١) مفردهما انحراف ، ويستعمل بعضهم كلمة : ضيعة .

تجريدات متتابعة : الله ، الدولة ، المجتمع ، الانسانية . في اعتقاد ستيرنر ان حجة البشر تمعية . والفلسفات الملحدة التي تبلغ ذروتها في عبادة الدولة والانسان ، ليست هي نفسها سوى « عصيان لاهوتي » . يقول ستيرنر : « ان ملحدينا هم حقاً اشخاص ورعون » . وعلى امتداد التاريخ لم توجد سوى عبادة واحدة ، عبادة الخلود . هذه العبادة وهمٌ وضلال . ليس من حقيقي سوى الأوحاد ، عدو السرمدي ، وعدو كل شيء لا يفيد رغبته في السيطرة .

حرية واحدة : قوتي ،  
حقيقة واحدة : الأناية

إن حركة الإنكار التي ينبض بها التمرد تغمر ، عند ستيرنر ، كل التأكيدات بشكل لا يقاوم ، وتُجكس أيضاً مستبدلات الإلهي المزدحمة في الوجدان الاخلاقي . يقول ستيرنر : « لقد كنت الآخرة الموضوعية ، ولكن الآخرة الذاتية اصبحت سماً جديدة » . ان هذا التمرد نقر حتى من الثورة ، ولا سيما من الثورة . كي يكون المرء ثورياً ، ينبغي له ان يؤمن بشيء ما ، وذلك حيث لا يوجد شيء يؤمن به . « لقد أدت الثورة (الفرنسية) الى ردة ، وهذا بين ما كانت عليه الثورة في الحقيقة » . ليس الخضوع للانسانية بأفضل من القيام بواجبات العبادة . وعلى كل ، ليست الأخوة سوى « نظرة الغد المنتظر عند الشيوعيين » . أما خلال الفترة الفاصلة فيصبح الإخوة عبيداً . لا توجد اذن ، في اعتقاد ستيرنر ، سوى حرية واحدة : « قوتي » ، وحقيقة واحدة : « الأناية العظيمة ، أناية النجوم » .

التآلف : تطابق الأنايات

ولكن كل شيء يزهر ثانية في هذا القفر<sup>(١)</sup> . « إن المغزى الرهيب لصرخة الفرح بلا فكرة ، ما كان فهمه ممكناً ما دام ليل الفكر والايان مستمراً » . لقد دنا هذا الليل الطويل من نهايته ، وسيبزع فجرٌ ليس بفجر الثورات ، بل

(١) لأن الانكار كس كل شيء (العرب)

فبجر العصيان . والعصيان في حد ذاته تنسك يرفض كل اشكال العيون . ولن يتآلف العصاة مع الآخرين إلا بمقدار تدلّابقي انانيتهم مع انانيتهم وخلال هذا التطابق . حياته الحقيقية في العزلة ، حيث سيُشبع .. دون الج . سام شهوة الوجود ... التي هي وجوده الوحيد .

### الواحد والقتل

هكذا بلغت الفردانية ذروتها . إنها إنكار الكل ما ينكر الفرد ، وتجميع لكل ما يشيد به ويفيده . ما الخير بنظر ستيرنز ؟ « انه هذا الذي استطيع الانتفاع به » . بمَ يُسمح لي بصورة شرعية ؟ « بكل ما أنا قادرٌ عليه » . إن التمرد يصب ايضاً في تبرير الجريمة . لم يجرب ستيرنز هذا التبرير فحسب ( بهذا الصدد ، نجد ذريته المباشرة ثانية في الاشكال الإرهابية للفوضوية ) ، بل ثمل بما افتتح من آفاق على هذه الصورة . « ان الزهد في القديسات ، او بالأحرى تحطيم القديسات ، يمكن أن يصبح عاماً . ليست بالثورة الجديدة تلك التي تطالعنا . ولكنك وانت القوي ، المتغترس ، الج . صاف ، الوقع ، اللامبالي ، ألا ترى ان هناك جريمة تتعاضم مع الصاعقة في الأفق ، ألا ترى أن السماء المشحونة بالتحسبات يلفها السواد وتلزم جانب الصمت » . نتشف هنا الفرحة القائمة التي تصدر عن أولئك الذين يؤكدون رؤى الدمار ... في كوخ حقير . لم يعد في وسع أي شيء ان يوقف هذا المنطق المرّ الملحاح ، سوى «أنا» متمردة على كل التجريدات ، أصبحت هي نفسها مجردة غير قابلة للتسمية ، وذلك من فرط ما 'عزلت عن أصولها وقطعت عن جذورها . لم يعد هناك جرائم ولا أخطاء ، وبالتالي لم يعد هناك مذنبون . اننا جميعاً متصفون بالكمال . وبما أن كل أنا هي ، في حد ذاتها ، مجرمة اصلاً نحو الدولة ونحو الشعب ، لذلك فلنعرف كيف تقرّ بأن الحياة معناها التعدي والتجاوز. إن لم يرض المرء بالموت ، وجب عليه ان يرضى بأن يقتل ، كي يكون الأوحده الفريد . « لست بعظمة مجرم ، أنت يا من لا تنتهك أية حرمة مقدسة » . ولكن ستيرنز

مسا زال متعزاً من الحليئة ، لذلك بوضع قائلاً : « القتل ، لا التعذيب الشديد » .

اكتشاف القدر

ولكن "سن" شرعية الجريمة ، معناه إعلان التعبئة والإقتال بين الأوحدين .  
وعليه ، بتطابق القتل مع نوع من الانتحار الجماعي . إن ستيرنز الذي لا يعترف بشيء من ذلك ، أو لا يرى منه شيئاً ، لن يتراجع أمام أي تدمير . واخيراً يجد روح التمرد إحدى أمر "سراته في الحواء . « ستدفنين (الأمة الألمانية) ، وعمما قريب ستلحق بك اخواتك الأمم الأخرى . وحينما تمضي جميعاً في إترك ، ستوارى الإنسانية التراب . وعلى قبورها ، أنا ، سيد نفسي الوحيد أخيراً ، أنا ، وريثها ، سأنفجر ضاحكاً » . هكذا على انقراض العالم ، ستعرب الضحكة المكدرة الصادرة عن « الفرد - الملك » ، ستعرب عن آخر انتصار بجزه روح التمرد . ولكن ، عند هذه النهاية ، لا يعود ثمة شيء يمكن إلاّ الموت أو الانبعاث . إن ستيرنز ، ومعه كل المتبردين العدميين ، سيهجرون جميعاً نحو أقاصي العالم ، ثلثين بالدمار . بعدئذ 'يكتشف القدر ، ولا بدّ للمرء من ان يتعلم كيف يبقى فيه .

حينئذ يبدأ بحث نيتشه المرهق .

## ٢ - نيتشه والعدمية

العدمية الواعية

« إننا ننكر الله ، ننكر مسؤولية الله ، بهذه الصورة ليس غير ، سنحرق العالم » . لدى نيتشه ، أصبحت العدمية نبوية . ولكننا ما دمنا لا نجعل في المقام الاول من انتاجه الطبيب قبل الفيلسوف ، فأننا لا نستطيع استخلاص أي شيء منه ، اللهم إلاّ القسوة الوضيعة التي كان يبغضها بكل قوته . إن الطابع الموقر ، المنهجي ، وبكلمة واحدة : الطابع الستراتيجي لفكره ،

لا يمكن ان يوضع موضع الشك . فلدیه اصبحت العدمية واعية لأول مرة .  
والجراحون يشتركون مع الانبياء فيما يلي : انهم يفكرون ويعملون تبعاً  
للمستقبل . ولم يفكر نيتشه قط إلا تبعاً لرؤيا دمار كلي مقبل ، وذلك لا  
ليشيد بها لأنه كان يقدر الوجه القذر الحاسب الذي ستكتسبه هذه الرؤيا في  
النهاية ، بل ليتجنبها ويحولها الى نهضة وانبعاث . لقد أقر بالعدمية وفحصها  
كواقعة سريرية . وادعى انه اول عدمي كامل في اوروبا ، لا عن ميل بل عن  
واقع حال ، ولأنه كان اعظم من ان يرفض تركة عصره .

تساؤل

لقد شخص في ذاته ولدى الآخرين المعجز عن الايمان ، واختفاء الاساس  
الاولي لكل اعتقاد ، ونعني الايمان بالحياة . « هل يستطيع المرء ان يعيش  
متردداً ؟ » ، هذا التساؤل أصبح لديه كما يلي : « هل يستطيع المرء ان يعيش  
دون أن يؤمن بشيء ؟ » . إن رده ايجابي . أجل ، وذلك اذا جعلنا من  
فقدان الايمان طريقة ، واذا سرنا بالعدمية حتى نتأججها القصى ، واذا شعرنا  
- ونحن نصب في القفر <sup>(١)</sup> ونمحص الثقة لكل ما هو آت - بالألم والبهجة من  
نفس الحركة الأولية .

الإنكار المنهاجي

بدلاً من الشك المنهاجي <sup>(٢)</sup> ، مارس نيتشه الإنكار المنهاجي <sup>(٣)</sup> والتهديم  
الدائب لكل الاشياء التي ما زالت العدمية تخفيها عن نفسها ، ولكل المعبودات  
التي تخفي موت الإله . « لإقامة معبد جديد ، لا بدّ من تهديم معبد قديم ، ...

(١) تليجة للإنكار المنهاجي (المعرب)

(٢) راجع : تيارات الفكر الفلسفي ، تأليف اندريه كريسون ، ترجمة نهاد رضا ،  
المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات .

راجع ايضاً : مدخل ال فلسفة ديكرت ، تأليف الدكتور كمال الحاج ، المكتبة  
الفلسفية ، منشورات عويدات .

(٣) أي : جعل من فقدان الايمان طريقة ، كما جاء تحت عنوان : تساؤل (المعرب)



ذاك هو القانون». من يُرد أن يكون خالفاً في الخير والشر ، فلا بدّ له ، في اعتقاد نيته ، من أن يكون هداماً ، وأن يحطم القِيَم . « إن منتهى الشر هو اذن جزءٌ من منتهى الخير<sup>(١)</sup> ، ولكن منتهى الخير خلاق » . لقد كتب على طريقته الخاصة « مقالة في الطريقة »<sup>(٢)</sup> خاصة بزمانه ، ولكن بغير الحرية والدقة اللتين كانتا تميزان القرن السابع عشر الذي كان نيته معجباً به لِمَا أعجاب ، بل بالصحر المجزون الذي يميز القرن العشرين ، قرن العبقرية في اعتقاده . وعلينا الآن أن نفحص طريقة التمرد هذه<sup>(٣)</sup> .

العالم ، النائية ، الله

إن أول مسمى يصدر عن نيته هو اذن الموافقة على ما يعرف . ففي اعتقاده أن الالحاد شيء بدهي ، وأنه « بناء وجذري » . وتكمن كفاءة نيته العليا ، فيما يوحى لنا ، في أنه يولد نوعاً من مرحلة وقف حاسم في مشكلة الالحاد . العالم يجبط يجبط عشواء ، ولا يخضع لغائية . فالله اذن غير 'مجد ، لأنه لا يريد شيئاً . لو كان يريد شيئاً ما -- وهنا نرى الصيغة التقليدية لمشكلة وجود الشر لصار لازماً عليه أن يأخذ على عاتقه « كمية من الآلام والمخالفات المنطقية من شأنها تخفيض القيمة الكلية للصيرورة » . ومعلوم أن نيته كان يحمّد ستاندال<sup>(٤)</sup> علانية على عبارته التالية : « لا عذر لله إلا كونه غير موجود » .

مشكلة الحكم على العالم

إذا ما 'حرم العالم من المشيئة الربانية فإنه يحرم أيضاً من الوحدة والغائية .

(١) سنرى في الصلحات المقبلة أن الشر عند نيته هو احد وجوه الخير الممكنة والله يقبل على الله لدر (المرب)

(٢) اشارة ال كتاب ديكتارت .

(٣) سنتم هنا بملف نيته الاخير ١ من ١٨٨٠ الى الانزيار . ويمكن اعتبار هذا الفصل بمثابة تعليق على كتاب نيته : ارادة القوة .

(٤) طالع : الأحمر والأسود ، تأليف ستاندال ، منشورات عويدات .

لذلك لا يمكننا الحكم على العالم . كل حكم قيمي يطلق عليه ، يؤدي في النهاية الى التجني على الحياة . حينئذ نحكم على ما هو موجود ، قياساً على ما كان يجب ان يوجد : ملكوت السماء ، المثل الخالدة ، الاوامر الاخلاقية . ولكن الذي كان يجب ان يوجد ، ليس بالموجود . ولا يمكننا ان نحكم على هذا العالم باسم لا شيء . « محسنات هذا الزمان : لا شيء حق » ، كل شيء مباح . هذه العبارات التي تنعكس في آلاف العبارات الأخرى ، العظيمة أو الساخرة ، تكفي لتبين لنا أن نيتشه يأخذ على عاتقه عبء العدمية والتمرد . حتى انه في تأملاته حول « الترويض والاصطفاء » ، وهي على كل تأملات ساذجة ، عبّر عن أقصى منطق للحاكمية العدمية : « المشكلة : بأي وسائل نحصل على شكل دقيق من العدمية الكبرى المعدية التي تعلم الموت الاختياري وتمارسه بوجودان علمي تماماً ؟ » .

#### ينشئه والأخلاق

على ان نيتشه يستشير لصالح العدمية القيم التي اعتبرت تقاليدياً مانعة للعدمية ، ونخص بالذكر الاخلاق . المسلك الاخلاقي كما شرحه سقراط أو كما توصي به المسيحية ، هو في حد ذاته علامة انحطاط . انه يريد ان يستبدل الانسان الحقيقي بإنسان وهمي ، ويستنكر عالم الأهواء والمواظف باسم عالم منسجم ، كله خيال . فاذا كانت العدمية هي العجز عن الايمان ، فان اخطر ظاهرة لها لا توجد في الاحاد ، وانما في العجز عن الايمان بما هو موجود ، وفي العجز عن رؤية ما يجري وعن عيش ما يسبح . هذا الوهن هو في اساس كل مذهب مثالي . الاخلاق لا تؤمن بالعالم . أما الأخلاق الحقة فهي في اعتقاد نيتشه غير منفصلة عن الصحو والتمييز . إنه يقسو على « المتجبنين على العالم » ، لأنه يستشف في هذا التجني ميلاً مخجلاً نحو الهروب . وفي اعتقاده ان الاخلاق التقليدية ليست سوى حالة خامئة من اللاأخلاقية . فهو يقول : « الخير هو الذي يحتاج الى تبرير » . وايضاً : « لأسباب أخلاقية سنكشف ذات يوم عن عمل الخير » .

## ينتشه والتمرد

إن فلسفة نيتشه تدور حقاً حول مشكلة التمرد . انها بالضبط تبدأ بأن تكون تمرداً . ولكننا نشعر بالتحول الذي يجريه نيتشه . فالتمرد ، عنده ، ينطلق من : « لقد مات الإله » ، ويعتبر ذلك واقعة مكتسبة . وحينئذ ينقلب على كل ما يستهدف زوراً وبهتاناً استبدال الألوهية الزائلة ، وكل ما يُشِينُ عالمياً ، هو ولا شك دون توجيه ، ولكنه يبقى البوتقة الوحيدة للآلهة . وبخلافاً لاعتقاد بعض النقاد المسيحيين ، لم يعقد نيتشه النية على قتل الإله . فقد وجدته ميتاً في نفوس أهل زمانه ، وأدرك قبل غيره أهمية الحادثة ، ورأى أن تمرد الانسان هذا لا يسعه أن يؤدي الى نهضة وانبعاث اذا لم يكن خاضعاً لتوجيه . كل موقف آخر ازاء التمرد ، سواء أكان موقف الأسف أم المسيرة ، سيؤدي الى رؤيا الدمار الكلي .

إن نيتشه لم يضع إذن فلسفة في التمرد ، ولكنه بنى فلسفة على التمرد .

## ينتشه والمسيحية

لأن يحمل على المسيحية بوجه خاص ، فذلك فقط بوصفها أخلاقاً ، ولكنه لا يس ابدأ شخص المسيح من جهة ، والنواحي الكافية في الكنيسة من جهة أخرى . وغير 'خاف' انه كان معجباً باليسوعيين إعجاب العارف . كتب يقول : « لم يدحض في الحقيقة سوى الإله الاخلاقي » (١) . والمسيح ، بنظر نيتشه كما بنظر تولستوي ، ليس متسرداً . ان اساس عقيدته يتلخص في الرضا الكلي ، وفي عدم مقاومة الشر . يجب ان نمتنع عن القتل حتى في سبيل منع القتل . يجب ان نرضى بالعالم كما هو ، وان نرفض ان نزيد في شقائه ، وان نوافق على ان نتألم شخصياً بما فيه من شر . ان ملكوت السماء في متناولنا مباشرة . انه

(١) « تلولون إن هذا هو التحليل القوي لله ، ولكنه ليس سوى اسلاخ . إنه يبدل بشرته الخارجية ؛ وسيتراهي لكم ما وراء الخير والشر » .

ليس سوى استعداد داخلي يسبح لنا بأن نوقى افعالنا مع هذه المبادئ ،  
ويستطيع ان يمنحنا السعادة السماوية المباشرة . وفي اعتقاده ان رسالة المسيح  
تكمن في الافعال لا في الاعتقاد . وعلى هذا الاساس ، ليس تاريخ المسيحية  
سوى سلسلة طويلة من الحيات لهذه الرسالة . لقد سبق للعهد الجديد ان  
حُرِّفَ ، ومن بولس الى المجامع المقدسة ، تدفعنا العبادة الى نسيان  
الأفعال .

### المسح والمسيحية

ما هو التحريف العميق الذي تضيفه المسيحية الى رسالة يسوع ؟ فكرة  
الحساب الدخيلة على تعاليم المسيح ، والمفاهيم المتعلقة بالعقاب والثواب . منذ  
هذه اللحظة ، تصبح الطبيعة تاريخياً ، وتاريخياً ذا دلالة ، هكذا وُلدت فكرة  
الشمول الانساني . ومن البشارة الى يوم الحساب ، تنحصر مهمة الانسانية في  
التكيف مع الغايات الاخلاقية الصريحة الخاصة برواية مكتوبة سلفاً . والفارق  
الوحيد هو أن الشخص ، في الحاتمة ، ينقسمون بأنفسهم الى أبرار وأشرار .  
وفي حين ان الحكم الوحيد للمسيح يكمن في قوله : ان الخطيئة الطبيعية ليست  
ذات أهمية ، نرى المسيحية التاريخية تجعل من الطبيعة كلها مصدر الخطيئة .  
« ماذا يُنكر المسيح ؟ كل ما يُسمى حالياً بمسيحي » . تعتقد المسيحية أنها  
تناضل ضد العدمية ، لأنها تعطي توجيهاً للعالم ، في حين أنها عدمية هي نفسها ،  
وذلك بمقدار ما تحول دون اكتشاف المعنى الحقيقي للحياة ، إذ تفرض عليها  
معنى وهمياً : « كل كنيسة بلاطة موضوعة على ضريح انسان - إله . إنها  
تسمى بالقوة لأن تمنعه من الانبعاث » . والنتيجة الغريبة -- ولكنها نتيجة ذات  
دلالة - التي يخلص اليها نيتشه ، هي أن الله قد مات بسبب المسيحية ، وذلك  
بمقدار ما جعلت القديسات أشياء دنيوية . ويجب ان نعني هنا المسيحية التاريخية  
و « مداهنتها الشديدة الحفيرة » .

## الاشتراكية والعدمية

نفس المحاكمة ندفع نيتشه الى الوقوف في وجه الاشتراكية ، وكل مذاهب الخير الانساني العام . ليست الاشتراكية سوى مسيحية منحطة . انها تؤكد في الحقيقة الایمان بغائية التاريخ ، هذا الايمان الذي يخون الحياة والطبيعة ، ويحيل غايات مثالية محل الغايات الحقيقية ، ويُسهم في إثارة الرغبات والخيالات . الاشتراكية هي عدمية ، وذلك بالمعنى الدقيق الذي يضيفه نيتشه على هذه الكلمة . العدمي ليس ذلك الشخص الذي لا يؤمن بشيء ، بل ذلك الذي لا يؤمن بما هو موجود . وبهذا المعنى ، تكون كل اشكال الاشتراكية تجليات عن الانحطاط المسيحي ما زالت متردية . فبالنسبة الى المسيحية ، كان الثواب والعقاب يفترضان وجود تاريخ . ولكن التاريخ ككله يعني في النهاية ثواباً وعقاباً ، وذلك بموجب منطق حتمي . اعتباراً من ذلك اليوم ، وُلد الطموح الجماعي . أخذ الى ذلك أن مساواة النفوس امام الله تؤدي - بعد موت الإله - الى المساواة ليس غير . هنا ايضاً ، يجارب نيتشه النظريات الاشتراكية بوصفها نظريات اخلاقية . فالعدمية ، سواء أتجملت في الدين أم في التبشير الاشتراكي ، هي النتيجة المنطقية لما يُسمى بقيمتنا السامية . إن الفكر الحر سيهدم هذه القيم ، بفضحه الأوهام التي تستند اليها ، والمساومات التي تفترضها ، والجرائم التي ترتكبها إذ تمنع العقل البصير من انجاز مهمته : تحويل العدمية السلبية الى عدمية ايجابية .



## الحرية والمسؤولية

في هذا العالم المتحرر من الإله ومن المعاييد الاخلاقية ، ما هو ذا الانسان وحيداً دون سيد . كان نيتشه أقلّ من أوحى بأن مثل هذه الحرية في وسعها أن تكون سهلة ، وفي ذلك يتسيز عن الرومانسيين . وكان هذا التحرر الوحشي يضعه في مصاف أولئك الذين قال عنهم هو نفسه إنهم يعانون العذاب من كربة

وسعادة جديدتين . ولكنها الكربة الوحيدة التي تهتف : « واحسرتاه ! لمنعني الجنون إذن ... إن لم أكن فوق القانون ، فانا ألعن الملعونين » . فذلك الذي لا يستطيع أن يبقى فوق القانون ، لا بدّ له في الحقيقة من أن يوجد قانوناً آخر ، أو أن يُصاب بالجنون . ما أن يُنكر الانسانُ الله ، ويكف عن الايمان بالخلود ، حتى يصح « مسؤولاً عن كل ذي حياة ، وعن كل ما نُذر للتألم من الحياة ، إذ يولد من الألم » . اليه ، اليه وحده يرجع أمر ايجساد النظام والقانون . حينئذ يبدأ زمان الملعونين ، والبحث عن المبررات ، والشوق الخالي من الهدف . « أكثر ما يؤلم القلب ويمزقه ، تساؤله : أين يمكنني أن أحس بأنني في مقامي ؟ » .

#### الحرية والقيمة

لقد عرف نيتشه ، وهو المفكر الحر ، أن حرية الفكر ليست مجلبة للرفاه ، بل هي عظمة تُبتغى وتُنال على فترات فاصلة كبرى ، بعد نضال مرهق . وعرف ان هناك احتمالاً كبيراً في ان تتردى الى ما دون القانون ، حينما تريد البقاء فوق القانون . لذلك أدرك ان الفكر لا يتحرر حقاً إلا اذا قبل واجبات جديدة . إن الوجه الاساسي في اكتشافه يكمن فيما يلي : إذا لم يكن القانون الخالد هو الحرية ، فأحرى بانعدام القانون ان لا يكونها . إذا لم يكن أي شيء صحيحاً ، واذا كانت العالم بلا قاعدة ، فلا شيء ممنوع . لمنع فعل ما ، لا بدّ في الحقيقة من قيمة ومن هدف . ولكن لا شيء مباح ، في الوقت نفسه . فلا بدّ ايضاً من قيمة ومن هدف لاصطفاء فعل ما . سيطرة القانون المطلقة ليست بالحرية . ولكن الانعتاق المطلق ليس بالحرية أيضاً . إذا ما أُضيفت كل الممكنات الى بعضها بعضاً فانها لا تشكل الحرية . ولكن المستحيل هو عبودية . والبلبة هي أيضاً عبودية . لا حرية إلا في عالم يُعرف فيه ما هو ممكن وما هو غير ممكن في نفس الوقت . بدون قانون ، لا وجود للحرية أبداً . اذا لم توجه المصيرَ قيمةً عليا ، واذا كانت الصدفة هي المتحكّمة ، فنحن نخبط نخبط عشواء ، ونحن لزاء حرية الأعمى الرهيبه .

من التحرر  
الى التبعية

في نهاية أعظم تحرر ، يصطفي نيتشه اكبر تبعية . « اذا لم نجعل من موت الإله زهداً كبيراً ، وانتصاراً دائماً على ذاتنا ، فسيتهتم علينا ان ندفع ثمن هذه الخسارة » . وبتعبير آخر ، اصبح التمرد مع نيتشه يصب في التناك . ثمة منطق أعمق يستبدل حينئذ شعار كارام اذوف : « اذا لم يتمكن أي شيء صحيحاً ، فكل شيء مباح » . لأن تنكر أن يكون شيء واحد فقط ممنوعاً في هذا العالم ، معناه ان تتغلى عما هو مباح . حيث لا يعود أحد قادرأ على أن يبين ما هو طالح وما هو صالح ، ينطفىء النور وتدمبح الحرية سجنأ اختيارياً .

الحياة ، الحرية ، القانون

إن نيتشه يسير بعدميته سيراً منهاجياً الى هذا المأزق . ويمكننا القول إنه يتهاوت عليه بنوع من البهجة الرهيبة . وهَدَفُ المَعْتَرَفِ به هو ان يجعل وضع انسان عصره وضعاً لا يُطَاق . ويبدو ان الأمل الوحيد بنظره هو الوصول الى منتهى التناقض . فاذا كانت الانسان لا يريد حينئذ ان يهلك في العُقْد التي تأخذ بمنطقه ، فعليه ان يقطعها بضربة واحدة ، وان يخلق قِسْمَهُ الخاصة . إن موت الإله لا يُنهي شيئاً ، ولا يمكن أن يُجتمَل إلا بشرط ان يهد لانبعات . قال نيتشه : « حيناً لا نجد العظمة في الله ، لا نجدها في أي مكان آخر . يجب ان ننكرها او ان نخلقها » . أما إنكارها فكان مهمة الناس المحيطين به ، والذين كان يرام يروعون الى الانتحار . وأما خلقها فكان المهمة الحارقة التي من أجلها أراد ان يموت . كان يعلم في الحقيقة أن الخلق ليس بمكنأ إلا في نهاية العزلة ، وان الانسان لا يعقد النية على بذل هذا المجهود المسبب للدوار ، إلا اذا كان من واجبه ، في منتهى شقاء الروح ، أن يرضى بهذا المسلك أو أن يموت . إن نيتشه يهيب به إذن قائلاً إن الاوض حقيقته الوحيدة ، من واجبه أن يخلص لها وأن يحيا ويحقق خلاصه عليها . ولكنه يعلم في الوقت نفسه

أن العيش على أرض بلا قانون شيء مستحيل ، لأن الحياة تفترض بالضبط وجود قانون .

كيف السبيل إذن الى أن يعيش المرء حراً وبلا قانون ؟ على هذا اللغز يجب ان يرد الانسان تحت طائلة الموت .

الرضا التام بالعالم

إن نيتشه على الأقل لا يتهرب . انه يجيب ، وجوابه في ركوب المخاطر : خير ما يُرَقص ديوقليس ، حينما يكون تحت حد السيف . يجب أن نقبل ما لا يُقبل ، وان نتحمل ما لا يُحمل . اعتباراً من اعترافنا بأن العالم لا يستهدف أية غاية ، يقترح نيتشه بأن نسلّم ببراءته ، وان نؤكد بأنه لا يقع تحت نطاق الحكم ، لأننا لا نستطيع ان نحكم عليه بناءً على أية غاية ، وأن نستبدل - بالتالي - كل الأحكام القيسية بـ « نعم ، واحدة » برضا تام بهذا العالم . هكذا ، من اليأس المطلق ستنبثق الفرحة اللامتناهية ، ومن العبودية العمياء ستنبثق الحرية . ان يكون المرء حراً ، معناه بالضبط إلغاء الغايات . ما أن نعترف ببراءة الصيرورة ، حتى تمثل منتهى الحرية : الفكر الحر يجب ما هو حتمي . ان فكرة نيتشه العميقة هي ان حتمية الظاهرات اذا كانت حتمية مطلقة ، « محكمة الجوانب » ، فحينئذ لا يترب عليها أي نوع من الإكراه . الرضا التام بالحتمية الثامة ... هوذا تعريفه الغريب للحرية . والمسؤول القاتل : « حرٌّ من أي شيء ؟ » يُستبدل حينئذ بالسؤال القاتل : « حرٌّ من أجل أي شيء ؟ » . فالحرية تتطابق مع البطولة . انها 'نسك الرجل العظيم' ، « القوس الأكثر توتراً » .

لمجيد القدر

هذا القبول السامي الناشئ عن الوفرة والكمال ، هو التأكيد المطلق للخطيئة نفسها وللألم ، للشر والقتل ، لكل ما في الحياة من ملتبس وغريب . انه ناشئ عن عقدا العزم على ان نكون ما نحن ، في عالم يكون ما هو . « استبصار



الذات كقدر محتم ، وان لا نزيد ان نصبح غير ما نحن ... » . لقد 'نطق  
 بالكلمة . إن السك السيتشوي ، المنطقي من الاعتراف بالقدر ، يؤدي الى تأليه  
 القدر . ويزداد تمجيد القدر بتقدير ما هو ملازم . الله الاخلاقي ، والشفقة ،  
 والحب ، من اعداء القدر بتقدير ما تحاول التعويض . إن نيتشه لا يريد اقتداء ،  
 ففرحة الصيرورة فرحة الفناء . ولكن لا يحل التلف إلا بالفرد وحده . إن  
 حركة التردد التي كان الانسان فيها يطالب بكيونته الخاصة ، تتلاشى في خضوع  
 الفرد خضوعاً مطلقاً للصيرورة . « ان حب القدر حل محل ما كان كره القدر »<sup>(١)</sup> .  
 « كل فرد يشارك في كل الوجود الكوني ، سواء أعرفنا ذلك أم لا ،  
 أردناه أم لا » . هكذا يتلاشى الفرد في مصير النوع والحركة الخالدة للعوالم .  
 « كل ما وجد فهو خالد ، إن البحر يطرحه الى الشاطئ »<sup>(٢)</sup> .

حينئذ يعود نيتشه الى نشأة الفكر ، الى المفكرين الذين سبقوا سقراط .  
 كان هؤلاء الفلاسفة يلغون العال الغائية ، كي لا يمساوا خلود المبدأ الذي كانوا  
 يتصورونه . لا خلود إلا للقوة التي ليس لها هدف ، « لعبة » هيراقليطس .  
 نكل بجهود نيتشه منحرف ، اذن الى اثبات وجود القانون في الصيرورة ، واللعب  
 في الضرورة : « الطفل هو البراءة والنسيان ، تكرار ، لعب ، دولاب يدور  
 من ذاته ، حركة اولى ، قدرة مقدسة على قول : « نعم » . العالم إلهي لأنه  
 بلا سبب . لذلك لا يكتبه إلا الفن ، لأنه بلا سبب ايضاً . ما من حكم يفسر  
 العالم ، ولكن الفن وحده يستطيع ان يعلمنا كيف نكرره ، مثلاً يتكرر العالم  
 على امتداد الممعد الابدي . على نفس الشاطئ يكرر البحر الاولي نفس  
 الكلام ، دون كلل ولا ملل ، ويطرح نفس الكائنات المدهوشة من الحياة .  
 ولكن ، على الاقل ، ذلك الذي يرضى بأن يعود ، وان يعود كل شيء ،  
 والذي يصبح صدى وصدى متحمساً ، فانه يشارك في ألوهية العالم .

(١) هذه الجملة بالنسب اللاتيني .

(٢) اشارة الى فكرة المعاد الابدي (المرب)

## الإيمان والالوهية

بهذه الوسيلة في الحقيقة ، تدخل ألوهية الانسان في نهاية الامر . فالمتهم الذي ينكر الإله في البدء ، يسمى بعدئذ الى ان يجمل محله . ولكن رسالة نيتشه ان المتهم لا يصبح إلهاً ، إلا اذا تغلى عن كل قرد ، حتى عن التهم الذي يواتد الآلهة في سبيل تقويم هذا العالم . « اذا كان هناك إله ، وكيف يتحمل المرء ان لا يكون هذا الإله » . ثمة إله في الحقيقة ، هو العالم . وكما يسهم المرء في ألوهية هذا العالم ، حسب ان يقول: نعم . « فلنكف عن التضرع والصلاة » ، وحينئذ تمتلئ الارض ببشر- آلهة . ان يقول المرء نعم للعالم ، ان ينكر ذلك ، معناه في الوقت نفسه ان يعيد خلق العالم ، وان يعيد خلق ذاته ، معناه ان يصبح الفنان الأكبر ، الخالق . إن رسالة نيتشه تتلخص في كلمة خالقي ، بالمعنى الملتبس الذي اكتسبته هذه الكلمة . لم يجد نيتشه قط سوى الأناية والقساوة الخاصتين بكل خالقي . أما تحويل القيم فيكمن في استبدال قيمة الحاكم<sup>(١)</sup> بقيمة الخالقي: احترام ما هو موجود، والكلف به . الألوهية بلا خلود تعرف حربة الخالقي . ان ديونيزوس ، إله الأرض ، يزعم دائماً في التجزئة . ولكنه يمثل في الوقت نفسه هذا الجمل القلق الذي يتطابق مع الألم . وفي اعتقاد نيتشه ان قول: نعم للأرض ، وإله الأرض ، معناه قول : نعم لآلام الذات . ان نقبل بكل شيء ، ان نقبل بالألم وبمنتهى التناقض في الوقت نفسه ، معناه بسط السلطان على كل شيء . وقد رضي نيتشه بدفع الثمن من اجل هذا الملكوت . فالأرض « العظيمة المعذبة »<sup>(٢)</sup> وحدها هي الحققة ، وحدها هي الألوهية . وكما ان أميدوقليس يرمي نفسه في بركان « إتنا » باحثاً عن الحقيقة حيث هي ، في أحشاء الارض ، كذلك يقترح نيتشه على الانسان ان يفرق في الكون ليجد ألوهيته الخالدة ، وليصبح هو نفسه إله الأرض . إن كتاب

(١) الذي يطلق احكاماً على العالم ، على اقتراس ان هذا العالم يخضع للآية (المرب)

(٢) جاءت في الكلمة المصدرة للكتاب (المرب)

نيتشه : إرادة القوة ينتهي مثل كتاب باسكال : خواطو - والذي كثيراً ما يذكر به في رهان<sup>(١)</sup> . فالإنسان ما زال لا يحصل على اليقين ، بل على إرادة اليقين ، وهذا ليس نفس الشيء . إن نيتشه كان أيضاً متحيراً متردداً عند هذه النهاية : « هوذا ما لا يعتفر فيك ، فأنت تملك الطاقة ، ولكنك ترفض الموافقة » .

★

نيتشه والشر ،  
تشويه فكرته

إن التردد لدى نيتشه يؤدي ، بوجه ما ، الى تمجيد الشر . الفارق ان الشر عنده لم يعد عملية ثار<sup>(٢)</sup> ، بل يُقبل على انه أحد وجوه الخير الممكنة ، وبشكل أو ثقل ، يُقبل على انه قدر . إنه اذن يؤخذ كي يتجاوز ، يؤخذ كعلاج ، ان جاز القول . كانت المسألة ، بنظر نيتشه ، فقط مسألة رضا النفس الشامخ امام ما لا تستطيع تقاديه . ولكننا نعرف ذريته ، وأية سياسة كانت تنوي الاستناد الى ذلك الذي كان يقول عن نفسه إنه آخر ألماني معادٍ للسياسة<sup>(٣)</sup> . كان نيتشه يتخيل طغاة فنانيين . ولكن الطغيان اكثر مطابقة من الفن لطبيعة التافهين . كان نيتشه يصرخ قائلاً : « قيصر بورجيا ... ولا بارسيفال »<sup>(٤)</sup> . فحصل على قيصر وبورجيا<sup>(٥)</sup> ، ولكن محرومين من نبل العاطفة ، هذا النبل الذي كان يعزوه نيتشه الى عظماء عصر النهضة . وعلى حين كان يطلب ان يخضع الفرد

(١) راجع : باسكال ، حياته ، فلسفته . تأليف الدريه كريسون ، ترجمة نهاد رضا ، منشورات عويدات .

(٢) أي : مماثلة الشر بالشر كما رأينا تحت عنوان : التمرد الروماني ( رفض الخلاص ) (المغرب)

(٣) يقصد سياسة هتلر وجماعته ( الاشتراكية الوطنية ) (المغرب)

(٤) الكوردينال ليمر بورجيا الذي اشتهر بما اترف من جرائم . بارسيفال : بطل طاهر النفس (المغرب)

(٥) لعبة لغزية : لقد اشتق من الاسم الاول امين معروفين كرمز للطغيان (المغرب)

خلود النوع ، وان يفرق في دوامة الزمان الكبرى ، تراهم قد جعلوا من العريق حالة خاصة من النوع ، واخضعوا الفرد لهذا الإله الدنس . اما الحياة التي كان يتحدث عنها بخوف وارتجاف ، فقد هبطوا بها الى بيولوجيا للاستعمال المنزلي<sup>(١)</sup> . وفي النهاية اخذت ذرية من السادة الأميين المتأثرين بإرادة القوة ، أخذت على عاتقها « الشناعة المعادية للساميين » والتي ما فتر هو عن ازدوائها .

### بيتشه والنازية

لقد آمن بالشجاعة المقرونة بالعقل ، وهذا ما كان يسميه بالقوة . ولحكنهم قلبوا بإسسه الشجاعة ضد العقل . وهذه المزية التي كانت حقاً مزيتها الخاصة ، تحولت اذن الى عكسها : العنف المحروم من البصيرة . وخلط الحرية بالعزلة بموجب قانون فكرٍ شامخ . ولكن « عزله العميقة ، عزلة النور والديجور » قد تبذرت في الحشود الآلية التي زحفت على أوروبا<sup>(٢)</sup> . هذا المدافع عن الذوق الكلاسيكي ، هذا النبيل الذي عرف ان يقول ان النبيل يكمن في ممارسة الفضيلة دون التساؤل عن السبب ، وانه من الواجب علينا ان نشك في الانسان الذي يحتاج الى اسباب كي يبقى شريفاً ، هذا الشغيف بالاستقامة .. « هذه الاستقامة التي اصبحت غريزة ، هوى » - ، هذا الخادم العنيد « لمنتهى انصاف العقل السامي الذي يعتبر التعصب أعدى أعدائه » ؛ ... تقول : هذا الشخص بالذات قد نصبته بلاده ، بعد انقضاء ثلاثة وثلاثين عاماً على وفاته ، معلماً للكذب والعنف ، ونشرت النفوس من مفاهيم ومزايا جعلت منها تضحيته اشياء رائجة . واذا ما استثنينا كلدل ماركس ، فلا مثيل لمغامرة بيتشه في تاريخ العقل . ومهما حاولنا فلن نتمكن من اصلاح ما لحق به من ظلم . ليس من شك في اننا نعرف في التاريخ فلسفات قد أوكلت وارتكبت بحقها الحياة . ولكن

(١) يقصد القومية العربية (المغرب)  
(٢) اشارة الى الغزو الهتلري (المغرب)

حتى يجيء نيتشه والاشتراكية الوطنية الالمانية ، لم يكن لدينا مثال عن فلسفة مُنارة كلها بنبل وبتنزقات نفس فريدة ، قد أظهرت للملأ بسيل من الافتراءات وبركام جيش المعتامين الرهيب . التبشير بإذمانية متفوقة يكون مؤداه إنتاج الاقزام ... هوذا الأمر الذي يحج . ان يفضح دون شك ، والذي يحتاج ايضاً الى التفسير . فاذا كلف من اللازم ان تكون النهاية الاخيرة لحركة التمرد الكبرى في القرن التاسع عشر والقرن العشرين هذا الاستعباد الظالم ، أفلا يجب علينا حينئذ ان ننصرف عن التمرد وان نعود الى صرخة نيتشه اليائسة التي وجهها الى أهل زمانه : « وجداني ووجدانكم لم يعودا نفس الوجدان » .

نيتشه وروزنبيرغ

فلنعترف أولاً بأنه سيستحيل علينا دائماً ان نخلط نيتشه وروزنبيرغ . علينا أن ندافع عن نيتشه . وقد قال هو نفسه ، فاضحاً سلفاً ذريته النجسة : « من حرر فكره ، فعليه ايضاً ان يطهر نفسه » . ولكن المسألة هي على الاقل ان نعرف هل ان تحرير الفكر -- كما كان يتصوره -- لا يزيح التطهر . فالحركة التي أدت الى نيتشه وحملته ، حركة لها قوانينها ومنطقها اللذان لعلها يفسران التغيير الدامي الذي أدخل على معالم فلسفته . الا يوجد أي شيء في إنتاجه يمكن ان يستخدم في منعى القتل النهائي ؟ فإذا ما أنكر المحتوى من أجل الشكل ، واذا ما أنكر ما تبقى ذا محتوى ضمن الشكل ، أفلم يكن في وسع القتل ان يلتسوا حججهم عند نيتشه ؟ يجب ان نرد بالايجاب . فمذ يهمل الوجه المناهجي للتفكير النيتشوي ( وليس مؤكداً انه هو نفسه قد تمسك به دائماً ) ، لا يعود منطق التمرد يعرف هدأ .

القبول النيتشوي  
وتبرير القتل

ولنلاحظ ايضاً ان القتل لا يجد تبريره في الرفض النيتشوي للمعايير ، بل في الإذعان المسمور الذي يتروج إنتاج نيتشه . فقبول كل شيء معناه قبول القتل .

هناك على كل طريقتان للموافقة على القتل . فاذا قبل العبد كل شيء ، فإنه يقبل بوجود السيد وبألمه الشخصي ، والمسيح يعلم اللامقاومة . واذا قبل السيد بكل شيء ، فإنه يقبل بعبودية الآخرين وبألمهم ، وهما نحن أولاء حينئذ إزاء الطاغية ، وإزاء تمجيد القتل . « أليس مضحكاً ان نؤمن بقانون مقدس ، مصون - لا تكذب ، لا تقتل - (١) ، في حياة طابعها الكذب الدائم والقتل المستمر ؟ » . اضع الى ذلك ان التمرد الماورائي في حركته الاولى لم يكن سوى احتجاج ضد الكذب وجريمة الوجود . ان القبول النيشتوي ، الناسي للرفض الاصلي ، ينكر التمرد ذاته ... في نفس الوقت الذي ينكر فيه الاخلاق التي ترفض العالم كما هو (٢) . كان منتهى ما يمتنى نيته قيصرأ رومانياً له نفسية المسيح . وكان معنى ذلك ، في اعتقاده ، قول : نعم للعبد والسيد في الوقت نفسه . ولكن قول : نعم للآخرين معناه اخيراً تطهير اقواها ، اي : تطهير السيد . كان على قيصر أن يتغلى عن تحكم الفكر ، لاصطفاء ساطان الواقع . إن نيته كان يتساءل تساؤل الاستاذ المخلص لطريقته فيقول : « كيف تستفيد من الجريمة ؟ » وكان على قيصر ان يجيب : بالإكثار منها ... « حينما تكون الغايات عظيمة - كتب نيته لسوء حظه - . تالجا الانسانية الى إجراء آخر ، ولا تعود تحكم على الجريمة بوصفها جريمة ، حتى لو استعملت افطع الوسائل » . ولقد مات نيته عام ١٩٠٠ في مطلع القرن الذي اصبح فيه هذا الإدعاء مهلكاً . وعبثاً هتف في ساعة الصبح : « من السهل ان نتحدث عن كل انواع الافعال اللاأخلاقية ، ولكن هل سنملك القوة على تحملها ؟ فانا مثلاً لن اتمكن من تحمل الحنث بالكلام أو القتل . سيحل بي السقام زمناً متفاوت الطول ، ولكنني سأموت من جراء ذلك ، هكذا سيكون مصيري » . ما ان نوافق على شمول التجربة الانسانية ، فئمة آخرون لا يحل بهم السقام ، سيأتون وسيؤمنون في الكذب والقتل . ان مسؤولية نيته تكمن في انه قد حلل في

(١) من وصايا الكتاب المقدس (المعرب)

(٢) عالم الأخلاق هو عالم ما يجب ... (المعرب)

صحو الفكر .. لأسباب طرائقية عليا ، وحتى للحظة - الحق في الحزبي ، هذا الحق الذي قال عنه دوستوفسكي إننا واثقون دائماً بأننا سنرى البشر يتهافون عليه اذا ما قدمناه لهم . ولكن مسؤولية نيتشه غير الارادية تذهب الى أبعد من ذلك ..

الخلاص على الارض ،  
السير نحو انسانية متفوقة

لقد ملك نيتشه احد " شعور بالعدمية ، كما اعترف به هو نفسه . اما الخطوة الحاسمة التي خطاها بفكر التمرد ، فتكمن في القفز به من إنكار المثال ، الى جعله مثلاً علمانياً . بما ان خلاص الانسان لا يتحقق في الله ، لذلك يجب ان يتحقق على الارض . وبما ان العالم يسير على غير هدى ، لذلك على الانسان ، اعتباراً من قبوله بهذا العالم ، ان يوجهه توجيهاً يؤدي الى انسانية متفوقة . كان نيتشه يطالب بإدارة المستقبل الانساني . « إن مهمة إدارة الارض ستؤول اليها . وفي مكان آخر : « ليس بعيد هذا الزمن الذي يجب علينا أن تناضل فيه من أجل السيطرة على الارض ، وسيقاد هذا النضال بإسم المبادئ الفلسفية » . كان إذن يبشر بالقرن العشرين <sup>(١)</sup> . ولئن بشر به فلأنه كان متنبهاً الى منطق العدمية الذاتي . وكان يعلم ان التسلط احدى نتائجها . وبذلك بالذات ، مهد لهذا التسلط .

استثمار مفهوم ارادة القوة

ثمة حرية للانسان بلا إله ، كما تصوره نيتشه ، أي : منفرداً . وثمة حرية في الظهيرة حينما يقف دولاب العالم ، ويقول الانسان نعم لما هو موجود . ولكن ما هو موجود ، يتحول . لذلك يجب ان نقول نعم للصيرورة . النور سيضي في النهاية ، وسيميل محور النهار . حينئذ يبدأ التاريخ ثانية <sup>(٢)</sup> ، وفي التاريخ

(١) إشارة الى النازية والشيوعية المتشدتين على فلسفة (المعرب)

(٢) فكرة الماد (المعرب)

يجب ان نلتبس الحرية . للتاريخ يجب ان نقول : نعم . إن النيتشوية ، نظرية لإرادة القوة الفردية ، كان محكوماً عليها بأن تدرج في إرادة القوة الكلية . فهي لم تكن شيئاً بدون التسلط على العالم . ليس من شك في ان نيتشه كان يكره المفكرين الاحرار ، والقائلين بنظرية الخير الانساني العام . وكان يأخذ كلمة « حرية الفكر » في معناها الاوسع : ألوهية الفكر الفردي . ولكن ما كان في وسعه منع المفكرين الاحرار من ان ينطلقوا من نفس الواقعة التاريخية التي انطلق منها هو بالذات ، ونعني موت الإله ، وان تكون النتائج هي نفسها . لقد رأى نيتشه ان مذهب الخير الانساني العام لم يكن سوى مسيحية محرومة من التبوير العلوي ، تستبقي العلل الغائية بطرح العلة الأولى<sup>(١)</sup> . ولكنه لم يلاحظ ان مذاهب التحرر الاشتراكي ستأخذ على عاتقها ، بموجب منطق حتمي للعدمية ، ما حلم به هو نفسه : الانسانية المتفوقة .

استنار آخر

إن الفلسفة تجعل المثال علمانياً . فاذا بالطغاة يأتون ، وسرعان ما يجعلون الفلسفات علمانية ، هذه الفلسفات التي تعطيهم الحق في ذلك . لقد سبق لنيته ان تكهن بهذا التطاول بخصوص هيغل الذي كانت أصلته ، بنظر نيتشه ، تكمن في انه استنبت أحدى Panthéisme (ألوهية الكون) ، لا يعود يصبح فيها الشر والخطأ والألم حجة ضد الألوهية . « ولكن الدولة والسلطات القائمة استخدمت فوراً هذه المبادرة العظيمة » . وهو نفسه ، كان قد تصور مذهباً لا تعود تصبح فيه الجريمة حجة ضد أي شيء ، وحيث تكمن القيمة الوحيدة في ألوهية الانسان . هذه المبادرة العظيمة كانت بحاجة ايضاً الى الاستعمال . وليست الاشتراكية الوطنية الالمانية بهذا الصدد سوى وريث عرضي ، سوى النتيجة العضوية المشهودة للعدمية .

(١) العلة الأولى : الإله (المرب)



نيتشه وماركس

وئمة أشخاص منطقيون وطموحون بصورة اخرى ، ونعني أولئك الذين ، اذ يُصمِّحون نيتشه بماركس ، يصطفون بأن لا يقولوا نعم إلاّ للتاريخ ، لا للخلق كله <sup>(١)</sup> . فالتمرد الذي كان نيتشه يحمله على الركوع امام الكون ، سيُعمل والحالة هذه على الركوع امام التاريخ . ما الغرابة في ذلك ؟ ان نيتشه على الاقل في نظريته في الانسانية المتفوقة ، وماركس قبله في نظرية المجتمع بلا طبقات ، يستبدلان كلاهما العالم الآخر بالمستقبل الآجل . وفي ذلك خالف نيتشه اليونانيين وتعاليم يسوع الذين استبدلوا ، في اعتقاده ، العالم الآخر بالفوري العاجل . إن ماركس ، مثل نيتشه ، كان يفكر تفكيراً استراتيجياً . ومثله ، كان يكره الفضيلة الصورية . وان تمرديهما اللذين ينتهيان ايضاً بالاذعان لوجه معين من الحقيقة الواقعة ، سيدوبان في الماركسية - اللينينية ، وستتجسدان في هذه الطبقة التي تحدث عنها نيتشه سابقاً ، والتي « ستحل محل الطاهي والمربي والطبيب » . أما الفارق ، الفارق الاساسي ، فهو ان نيتشه اذ ينتظر الانسان المتفوق ، يقترح قول نعم لما هو موجود ، في حين يقترح ماركس قبول ما هو في حالة الصيرورة . وفي اعتماد ماركس ان الطبيعة هي ما تخضعه في سبيل الامتثال للتاريخ ، وفي اعتقاد نيتشه انها ما تمثل له في سبيل اخضاع التاريخ . انه الاختلاف بين المسيحي واليوناني . وقد تكهن نيتشه على الاقل بما سيحدث : « إن الاشتراكية الحديثة تسمى الى ايجاد نوع من اليسوعية <sup>(٢)</sup> العلمانية ، وان تجعل من البشر جميعاً ادوات » . وايضاً : « ما نريد ... هو الرفاه ... ومن ثم نمشي نحو عبودية روحية لم يُر لها مثل ... ان الاستبداد العقلي يحوم فوق كل نشاط التجار والفلاسفة » . فالتمرد اذ يمر ببوتقة الفلسفة النيتشوية ، وفي شغفه بالحربة ، يؤدي الى الاستبدادية البيولوجية أو التاريخية <sup>(٣)</sup> . لقد سار

(١) الخلق بمعنى الكون (المعرب)

(٢) أي : المداينة (المعرب)

(٣) اشارة الى النظرية النازية ، والنظرية الشيوعية (المعرب)

الرفض المطلق بـ « ستيرنر » الى تمجيد الجريمة والفرد في الوقت نفسه . ولكن القبول المطلق يؤدي الى تعميم الجريمة والانسان بالذات في نفس الوقت . وقد أخذت الماركسية - اللينينية حقاً على عاتقها إرادة نيتشه ، مقابل جهل بعض الفضائل النيتشوية . وحينئذ يخلق العاصي الكبير بكلماته سلطان الضرورة المقيم ، ليجس نفسه فيه . انه اذ يتحرر من سجن الاله ، ينصرف اول ما ينصرف الى بناء سجن التاريخ والعقل ، مستكملاً بالتالي اخفاء وتكريس هذه العدمية التي اراد نيتشه التغلب عليها .

## الشعر المتمرد

تمهيد

إذا رفض التمرد الماورائي القبول ، واكتفى بالانكار المطلق ، فإنه ينذر نفسه للتظاهر . وإذا تهافت على عبادة ما هو موجود ، زاهدآ في انكار قسم من الحقيقة الواقعة ، فإنه يُلزم نفسه عاجلاً أم آجلاً بالقيام بعمل . بين هاتين الحالتين ، يُمثل إيفان كارامازوف التفاضلي ، ولكن بمعنى مؤلم . إن الشعر المتمرد ، في نهاية القرن التاسع عشر وفي مطلع القرن العشرين<sup>(١)</sup> ، تقلب في استمرار بين هذين الموقفين المتطرفين: الأدب وإرادة القوة، اللاعقلاني والعقلاني، الحلم اليائس والعمل الحقود . ومرة أخرى ، نرى هؤلاء الشعراء ، وخاصة السرياليين ، ينيرون لنا الدرب الذي يقود من التظاهر الى التنفيذ ، في طريق مختصر ملحوظ .

لقد أمكن لـ « هاوثورن » أن يقول عن « ميلفيل » : كافر لم يكن يعرف الاستقرار في الكفر . كذلك ، عن هؤلاء الشعراء المنطلقين في الهجوم على السماء ، يمكن القول إنهم ، إذ أرادوا قلب كل شيء ، أكدوا في الوقت نفسه حينئذ اليائس الى نظام . وبتناقض أخير ، أرادوا استنباط الحجة من

(١) راجع : تأريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين ، تأليف بيير هنري سيون  
ترجمة بيبه سمر ، منشورات عويدات

عدم الصواب ، وأن يجعلوا من اللاعقلاني طريقة من الطرائق . هؤلاء الورثة الكبار للرومانسية أرادوا أن يجعلوا الشعر شعراً نموذجياً ، وأن يجدوا ، في وجهه الاكثر غزياً للقلب ، ما يندشون من حياة حقة . فوجدوا التجديف ، وحولوا الشعر الى تجربة والى وسيلة عمل . حتى يجيء هؤلاء ، نرى حقاً ان اولئك الذين أرادوا التأثير على الاحداث وعلى الانسان ، في الغرب على الأقل ، فعلوا ذلك باسم قواعد عقلانية . أما السريالية ، بعد أرثور رانبو ، فأرادت أن تجد في الجنون والهدم قاعدة بناء . إن رانبو ، بانتاجه ، بانتاجه فقط ، كان قد أشار الى الطريق ، ولكن بالصورة الحاطفة التي تكشف بها العاصفة طرف الدرب . والسريالية حفرت هذا الدرب ورتبت اشاراته المادية . وبمعالجاتها كما بتراجعاتها ، قدمت التعبير الاخير العظيم لنظرية عملية في التمرد اللاعقلاني ، في حين كان الفكر المتمرد ، على طريق آخر ، يضع أسس عبادة العقل المطلق . ولقد بين لنا ملهاما ، لوتريامون ورانبو ، بأية طرق يمكن للرغبة اللاعقلانية في التظاهر أن تسيروا بالتمرد الى اكثر اشكال العمل قضاءً على الحرية .

### ١ - لوتريامون والتفاهة

يبين لنا لوتريامون أن الرغبة في التظاهر تختفي ايضاً ، لدى المتمرد ، خلف ارادة التفاهة . فسواء تماظم المتمرد أم تدنى ، فانه في كلتا الحالتين يريد أن يكون غير ما هو ، في حين انه تمرد كما يُعترف به في كينونته الحقيقية . إن تجديف لوتريامون وإذعانه يُظهران على حد سواء هذا التناقض المشؤوم الذي يتحول معه الى ارادة العدم . ليس هناك استدراك كما يُعتقد بوجه العموم ، فنفس الوله بالفناء يفسر نداء مالديورور<sup>(١)</sup> Maldoror ليل الأولي العظيم ، والتفاهات المتعبة الموجودة في كتابه : أشعار .

(١) اسم الشخصية الغريبن في كتابه : أناشيد مالديورور .

تمرد لوتريامون

إننا ندرك ان التمرد عند لوتريامون ما زال في طور المراهقة . فكبار  
إرهايبي القنابل والشعر لم يخرجوا من الطفولة الا منذ قليل . وكتاب :  
أناشيد مالديورور كتاب طالب ثانوي يكاد يكون عبثياً . أما طابع الأناشيد  
المؤثر فينشأ بالضبط عن تناقضات قلب صغير متمرد على ذاته وعلى الخلق (١) .  
ومثل رانبو الاشراقات ، التمرد ضد حدود العالم ، بصطفي الشاعر أولاً  
الفناء ورؤيا الدمار الكلي ، بدلاً من أن يقبل بالقاعدة المستحيلة التي تجعله ما  
هو ، في هذا العالم السائر كما هو سائر .

من هو مالديورور؟

يقول لوتريامون بلا بساطة : « أتيت للدفاع عن الانسان » . هل مالديورور  
إذن ملاك الرحمة ؟ إنه كذلك بصورة ما ، لأنه يشفق على ذاته . لماذا ؟ هذا  
ما يحتاج الى الاكتشاف . ولكن الرحمة الخبيثة ، المهانة ، المضرة ، المنكرة ،  
ستدفعه الى مبالغات غريبة . إن مالديورور ، على حد أقواله الخاصة ، تلقى  
الحياة كجرح ، ومنع الاتسار من شفاء الندوب (هكذا) . انه مثل  
وانبر . ذلك الذي تألم فتمرد . ولكنه إذ يتردد تردداً غامضاً في أن يقول  
انه يتهم على وضعه ، يتذرع بحجة الناثر الدائمة : حجة البشر .

أضواء على التمرد العدمي

يبد أن ذلك الذي يأتي للدفاع عن الانسان ، يكتب في الوقت نفسه :  
« أراني إنساناً واحداً صالحاً » . هذه الحركة الدائمة هي حركة التمرد العدمي .  
فمن تمرد على الظلم اللاحق بذاتنا وبالانسان . ولكن في لحظة الصحو ، حيث  
نستشف في الوقت نفسه شرعية هذا التمرد ، وعجزه ، يمتد حينئذ الكلف  
بالانكار حتى الى ما كنا نريد الدفاع عنه . إننا ، إذ لا نتمكن من إصلاح  
الظلم باقامة العدالة ، نفضل على الاقل إغراقه في ظلم أوسع يختلط أخيراً مع

(١) بمن التكون - العرب -

الفناء . « الأذى الذي ألحقتموه بي كبير جداً ، والأذى الذي ألحقته بكم أكبر من أن يكون طوعياً » . فحتى لا يكره المرء ذاته ، ينبغي له ان يعلن براءته ، وهي جرأة مستحيلة دائماً على الانسان بمفرده ؛ ومانعه انه يعرف نفسه . يمكنه على الاقل ان يعلن بأن الجميع ابرياء ، ولأن عوملوا معاملة المذنبين . الله ، حينئذ ، هو المجرم .

الله ، مالدورور

من الرومانسيين الى لوتريامون ، لا يوجد إذن تقدم حقيقي ، إلا في اللهجة . ان لوتريامون يبعث مرة اخرى ايضاً ، مع بعض التحسينات ، صورة إله ابراهيم وصورة العاصي الابليسي . انه يضع الله « على عرش من ذهب ... ومن ب... ز البشر » ، حيث يستقر « بكبرياء حمقاء ، ذلك الذي يسمي نفسه بانخالق ، وبدنه ملفوف بكفن مصنوع من شرشف غير مغسولة » . « القيوم الفظيع ذو الوجه الشبيه بوجه الأفعى » ، « الشقي المحتال » الذي نراه « يشعل الحرائق حيث يهلك الشيوخ والاطفال » ، يتدحرج بمخوراً في الجدول ، أو يبحث عن متع دنيئة في الماخور . الله لم يمت ، ولكنه هوى . وأمام الألوهية المخلوعة يصور لنا مالدورور كفارسي تقليدي ذي رداء اسود . انه الملعون الاكبر . « يجب ان لا تكون العيون شاهدة على الدمامة التي أودعها الكائن الأسمى في » ، بإتسامة حقد شديد . لقد انكر كل شيء « أباه ، أمه ، العناية الربانية ، الحب ، المثل الاعلى ، كي لا يعود يفكر إلا في نفسه » . هذا البطل المعذب بالكبرياء يملك كل جاذبية الداندي الماورائي : « وجهه يفوق وجه البشر ، حزين كالكون ، جميل كالانتحار » . لذلك ، مثل المتورد الرومانسي ، سبتحزب مالدورور للشر إذ يعتريه اليأس من عدالة الرب . إيلام الآخرين ، والتألم من جراء ذلك : هذا هو البرنامج . الأناشيد هي ابتهالات شر حقيقية .

المجموع التقليدي

عند هذا المنعطف ، لا يعود هناك دفاع حتى عن المخلوق . بل على العكس ،

تصبح « مهاجمة الانسان ، هذا الحيوان الأصعب ، ومهاجمة الخالق ، بكل الوسائل ... » الغاية التي تنادي بها الأناشييد . إن مالدورور ، القلق بفكرة ان الله عدوه ، والتمل بعزلة كبار المجرمين القوية ( « أنا وحدي ضد الانسانية » ) ، سيشن الهجوم على الكون وعلى صانعه . فالأناشييد تتغنى بـ « قداسة الجريمة » ، وتبشر بسلسلة متزايدة من « الجرائم الجيدة » ؛ بل ان المقطع رقم ٢٠ من الفصل الثاني يدشن فلسفة تربوية حقة خاصة بالجريمة والعنف .

أصالة لوتريامون :  
تخطيم حدود الكون

مثل هذه اللفظة الجميلة كانت آنذاك تقليدية . إنها لا تكلف شيئاً . ولكن أصالة لوتريامون الحقة تكمن في مجال آخر . كان الرومانسيون يستبقون ، بعناية ، التضاد المحتوم بين العزلة البشرية واللامبالاة الربانية ، علماً بأن التعبيرات الأدبية عن هذه العزلة هي: القصر المنعزل والداندي . ولكن انتاج لوتريامون يتحدث عن مأساة أعمق . إذ يبدو أن هذه العزلة كانت لا تطاق بالنسبة اليه ، وانه ، في تمرده على الكون ، أراد تخطيم حدوده . فبدلاً من ان يسمى لأن يعزز عالم الانسان بروج مسننة ، أراد ان يخلط كل العوالم . لقد ارجع الكون الى البعار الأولية ، حيث تفقد الاخلاق معناها ، وكذلك جميع المشكلات ، ومن جعلتها هذه المشكلة المفزعة في اعتقاده ، مشكلة خلود النفس . انه لم يرد ان يرسم صورة ملحوظة عن المعاصي أو الداندي امام الخلق ، بل ان يخلط الانسان والعالم في نفس الفناء . لقد هاجم الحدود التي تفصل الانسان عن الكون . الحرية التامة ، حرية الجريمة خاصة ، تفترض تهديم الحدود البشرية . ليس بكافٍ ان نندر كل البشر وذاتنا للكره . بل يجب أيضاً أن نعود بعالم الانسان الى مستوى عوالم الغريزة . اننا نجد عند لوتريامون هذا الرفض للشعور العقلاني ، هذه العودة الى البدائي التي هي احدى علامات الحضارات المتمردة على ذاتها . المسألة لا تعود مسألة تظاهر ، بواسطة جهد عنيد يبذله

الشعور ، بل هي ان لا نعود موجودين بوصفنا شعوراً .

الهروية

كل مخلوقات الأناشيد هي مخلوقات بر-مائية Amphibies ، لأن مالدورور يرفض الأرض وما فيها من تحديدات . النباتات مكونة من الأشنة ومن خز الماء Gnémons . وقصر مالدورور قائم على المياه . موطنه الأوقيانوس القديم . والأوقيانوس ، الرمز المزدوج ، هو في الرقت نفسه مكان الفناء والصلح الموفتق . انه يكتن ، على طريقته ، الظماً الشديد الذي تحس به نفوس "منذورة" لاحتقار ذاتها والآخريين ، الظماً الى الكف عن الوجود . فالأناشيد ، والحالة هذه ، هي استحالاتنا ، حيث تستبدل الابتسامة القديمة بافتقار ثغر مشروط بالموسى ، وهي صورة ذات فكاهة مجنونة حانقة . ولا يسع هذا المؤلف ان يخفي كل المعاني التي ارادوا ان يجدوها فيه ، ولكنه يكشف على الاقل ارادة فناء تنبع من أحلك صميم التمرد . ومعه يكتب قول باسكال : «تَبَالَدُ» ، معنى حرفياً . يبدو أن لوتريامون لم يتمكن من تحمل الرضوح العابس الحفود الذي ينبغي للمرء ان يستمر فيه كي يعيش . « ذاتي ... وخالق ، ... هذا كثير بالنسبة الى الذهن » . لقد اصطفى اذن ان يرجع بالحياة وباتجاهه الى مستوى عوم أبو زيد البحر<sup>(١)</sup> الحاطف وسط لطيفة حبر . ان المقطع الجليل الذي نرى فيه مالدورور يتزاوج بانثى سمك القرش «تزاوجاً طويلاً، عفيفاً ، شنيعاً» ، ولا سيما الحكاية ذات الدلالة حيث يهاجم مالدورور - وقد تحول الى اخطبوط - الخالق ، نقول : ان هذه الاشياء تمبيرات واضحة عن هروية خارج نطاق الكينونة ، وعن اعتداء مسعور على نواميس الطبيعة .

مخلوقات لوتريامون وحياته

أولئك الذين يجدون انفسهم منبوذين من العالم المنسجم الذي يتوازن فيه الهوى والعدالة اخيراً ، يفضلون ايضاً على العزلة ، العوالم المرّة حيث لا يعود

(١) نوع من الرخويات عديدة القمار .



لل كلمات معنى ، وحيث تسود قوة وغريزة كائناتٍ تجبب نخبط عشواء . هذا التحدي هو في الوقت نفسه امانة للحواس . إن الصراع مع الملاك في الفصل الثاني ينتهي بمخذلان الملاك وفساده . حينئذ ترجع السماء والأرض الى دركات الحياة الاولية وتختطان بها . هكذا نرى في الأناشيد ان الانسان - كلب البحر -- L'homme requin<sup>(١)</sup> « لم يطرأ التبدل الجديد على طرفيه العلويين والسفليين إلا كجزاء تكفيري عن جريمة مجهولة » . هناك في الحقيقة جريمة ، أو وم جريمة ، (هل هي اللطراط) ، في حياة لوتريامون المجهولة . ولا يستطيع أي قارئ للأناشيد أن ينكر الفكرة القائلة إن هذا الكتاب بحاجة الى اعترافات .

من الاناشيد الى الاشعار

لعدم وجود اعترافات ، يجب ان نرى في الأشعار ازدياداً لهذه الرغبة الغامضة في التكفير . إن الحركة الخاصة ببعض اشكال التمرد والتي تقوم ، كما سنرى ، على اعادة العقل في نهاية المغامرة اللاعقلانية ، وعلى الاهتمام الى النظام من فرط الفوضى ، وعلى التحمل الاختياري لأغلال اتقل من تلك التي كان يراد التحرر منها ، تقول : ان هذه الحركة قد رسمت في الكتاب بإرادة تبسيطة وبقوةٍ هما من القوة بحيث لا بد ان يكون لهذا التحول معنى ما . فقد قلت الأناشيد التي كانت تمجد الرفض المطلق ، نظرية في القبول المطلق ، وتلا التمرد القاطع إذعاناً بات . لقد جرى هذا في الصحر . والحقيقة ان كتاب الأشعار يعطي خير تفسير عن كتاب الأناشيد . « فاليأس إذ يقتات بالاوهام العبيية بتعرض ، يقود الاديب بخطى ثابتة الى الغاء القوانين الإلهية والاجتماعية بالجملة . والى الحبث النظري والعملي » . إن الأشعار تفضح ايضاً « إثم كاتب يتدحرج على منحدرات العدم ، ويحتر ذاته 'مصدراً صيحات الابتهاج' . ولكنكم لا تدأوي الداء إلا بالإذعان الماورائي . فلتن وصل شعر الشك الى هذا الحد

(١) سمك القرش او كلب البحر .

من اليأس الكئيب والحبث النظري ، فلأنه باطل أصلاً . ذلك ان المرء يناقش فيه المبادئ ، مع انه يجب ان لا تناقش فيه . ( رسالة الى داراستيه ) .  
والخلاصة ان هذه الحجج السامية تلخص اخلاق خادم القديس وكتاب الأوامر العسكرية . ولكن الاذعان قد يكون جنونياً ، وبالتالي غير اعتيادي . فحينما يكون المرء قد مجد انتصار النسر الشرير على تنين الرجاء ، يمكنه أن يردد باصرار انه لم يعد يتروخ إلاّ بالأمل ، ويمكنه ان يكتب : « بصوتي وبأبهة الأيام العظيمة ، ادعوك الى مواطني المقفرة ، أيها الأمل المجيد! » ، ... ولكن ينبغي له ان يقنعنا ... إن تعزية الانسانية ، معاملتها معاملة الأخ ، الرجوع الى كونفوشيوس ، بوذا ، سقراط ، يسوع المسيح ، الى « هؤلاء الاخلاقيين الذين كانوا يطوفون بالقرى وهم يموتون جوعاً » ( الأمر الذي لا اساس له من الوجهة التاريخية ) ، ... نقول : إن هذه الأمور ما زالت مشاريع اليأس . وعليه ، في صميم الرذيلة ، يكون للفضيلة وحسن السيرة فَوْحُ الحين . لأن لوتريامون يرفض الصلاة ، وليس المسيح بنظره سوى مؤلف في علم الاخلاق . إن ما يقترحه ، ما يعقد العزم عليه بالأحرى ، اللأدرية وانجاز الواجب . مثل هذا البرنامج العظيم يفترض لسوء الحظ الاهمال وحلاوة الأمسيات ، ويفترض قلباً خلياً وفكراً مطبئاً . إن لوتريامون يثرثر في النفس حينما يكتب فجأة : « ليس لي عهد إلاّ بنعمى واحدة : نعمى الولادة » . ولكننا نستشف حنقه عندما يضيف قائلاً : « ان الفكر المتجرد يجدها نعمى تامة » . ليس من فكر متجرد ازاء الحياة والموت . فعند لوتريامون ، يهرب المتورد الى القفر . ولكن قفر الاذعان محزن كـ « حَرَرٌ » <sup>(١)</sup> . فالميل الى المطلق ما زال يعقّمه ، وكذلك الكاف بالغناء . بما ان مالدورور اراد التردد الكلي ، لذلك ولنفس الاسباب ، يسنّ لوتريامون التفاهة المطلقة . إن صرخة الشعور ، هذه الصرخة التي سعى الى خنقها في الاوقيانوس الاولي ، والى خلطها بالصيحة

(١) حرر : مدينة في الحبشة سافر اليها الشاعر رانجو ، وسجد ذلك في الصلحات المقبلة .  
(المغرب)

البيمية ، والتي سعى في آونة أخرى الى الشاغل عنها في الشغف بالرياضيات ، يريد الآن ان يخنقها في تطبيق اذعان كتيب . حينئذ يحاول المتورد ان يتصامم عن هذا النداء نحو الكينونة القابع ايضاً في اعماق تمرده . المقصود هو الكف عن الكينونة ، إما برفض المرء ان يكون أي شيء ، أو بقبوله ان يكون أي شيء . والمسألة في كلتا الحالتين مسألة اصطلاح حالم .  
التفاهة ايضاً هي موقف .

لوتريامون والاذعان

إن الاذعان أخذ ميل التمرد العدمية ، ويهين على قسط كبير من تاريخنا الفكري . يبين لنا ذلك ، على كل حال ، ان المتورد الذي ينتقل الى التنفيذ يفتن بأكبر اذعان ، اذا ما نسي اصله . انه اذن يفسر القرن العشرين .

ينادي بلوتريامون عادة ، كشاعر التمرد المحض . ولكنه يبشر على العكس بالميل الى العبودية العقلية التي تفتح في عالمنا . ليست الأشعار سوى مقدمة « كتاب مقبل » ، والجميع يحملون بهذا الكتاب المقبل ، النتيجة المثلى للتمرد الادبي . ولكنه يكتب اليوم ، ضد لوتريامون ، بلالين النسخ ، على صعيد المكاتب . ليس من شك في ان العبقرية لا تنفصل عن التفاهة . ولكن ليس المقصود تفاهة الآخرين ، تلك التي تنوي اللحاق بها سدى ، والتي تلحق هي نفسها المبدع ، وقت الحاجة ، بالوسائل البوليسية . المسألة بالنسبة الى المبدع مسألة تفاهته الخاصة ، الواجب خلقها بتامها . كل عبقرية هي في الوقت نفسه قريبة وتافهة . وهي ليست شيئاً اذا كانت احدهما فقط . علينا ان نتذكر ذلك فيما يتعلق بالتمرد . لأن له جماعة من اهل التظاهر ومن اهل الاذعان ، ولكنه لا يتوسم فيهم ابناءه الشرعيين (١) .

(١) يتصف هذا المقطع بشيء من النعوس . مثل هذا التمرد يتكرر في سائر الكتاب كلما انتقل المؤلف فبأية الى حركات التمرد السياسية - العرب .

## ٢ - السريالية والثورة

توضيح

يكاد رانبو لا يكون موضوع البحث هنا. فحواله قيل كل شيء ، بل لسوء الحظ قيل المزيد. ولكننا سنبين مع ذلك (لأن هذا الايضاح يتعلق بموضوعنا) ، أن رانبو لم يكن شاعر التمرد إلا في انتاجه . أما حياته فلا تبرز مسا أثارت من اسطورة ، بل تُظهر فقط رضاءً بأسوء عدمية ممكنة ، واث. المطالعة الموضوعية لرسائل حرّز تكفي لتبيان ذلك . لقد نجد رانبو .. لأنه تخلي عن عبقريته ، فكأن هذا التخلي يفترض وجود مزية خارقة . ولكن بالعكس . وعلى الرغم من ان هذا يزيج ذرائع معاصرنا ، يجب أن نقول إن العبقرية وحدها تفترض وجود مزية ، لا التخلي عن العبقرية . ليست عظمة رانبو في الصرخات الاولى التي اطلقها في مدينة شارلويل ، ولا في العمليات التجارية التي أجراها في حرّز (الخبشة). انها تجعلنا حينما يعطي التمردَ اغرب عبارة صحيحة ، وبصور انتصاره ونغمه ، الحياة الساهية عن العالم .. والعالم الذي لا مفر منه ، استصراخ المستحيل .. والواقع الحشن الواجب احتضانه ، رَفْضَ الاخلاق .. والشوق العارم الى الواجب . انه اذ يجمل في حنايا ذاته الاشراق والجحيم<sup>(١)</sup> ، ويثتم الجمال و'بجيه ، يجعل التناقض الثابت نشيداً مزدوجاً متناوباً . في هذه اللحظة بالذات ، يصبح شاعر التمرد ، اعظم شاعر تمرد . أما ترتيب تكوين كتابيه العظيمة فليس ذا أهمية . على كل ، لم تفصل بين تكوينها سوى فترة زمنية بسيطة ، وكل فنان يعلم من اليقين المطلق الحاصل عن تجربة حياة ، أن رانبو كوّن كتابيه : فصل في الجحيم و الاشراقات في نفس الوقت. لئن كتبها

(١) سنرى بعد قليل ان كتابيه الاساسيين هما : « الاشراقات » و « فصل في الجحيم » - العرب -

الواحد بعد الآخر ، فلقد عاناها معاً . في هذا التناقض الذي كان يفتك به ، كانت تكمن عبقرية الحلقة .

هض أسطورة

ولكن أين هي اذن مزية ذلك الذي ينصرف عن التناقض ويخون عبقريته قبل ان يعانها حتى النهاية؟ ليس سكوت رانبر بالنسبة اليه طريقة جديدة في التمرد . على الاقل ، لم نعد نستطيع ان نؤكد ذلك منذ نشر رسائل حرّو . ليس من شك في أن تحوله غامض . ولكن هناك ايضاً لغزاً في التفاهة التي تطرأ على هؤلاء الفتيات الذكيات اللواتي يجولن الزواج الى آلات مبتزة للأموال . ان الاسطورة التي حيكت حول رانبر تفترض وتؤكد ان ليس من شيء بممكن بعد فصل في الجحيم . ما هو اذن الشيء المستحيل بالنسبة الى الشاعر المتوج بالموهب ، بالنسبة الى المبدع الذي لا ينضب له معين ؟ فبعد هوبي ديك ، القضية ، هكذا تكلم زرادشت ، المأخوذون<sup>(١)</sup> ، ماذا تصور ؟ مع ذلك ثمة مؤلفات عظيمة ، بعد هذه المؤلفات المذكورة ، ما تزال تظهر ، تعلم وتقرم ، وتشهد لأنبل ما في الانسان ولا تنتهي إلا بموت المبدع . من ذا الذي لا يأسف لهذا المؤلف الذي يفوق فصل في الجحيم ، والذي حرمننا منه بسبب توقف رانبر عن الكتابة ؟

تليم

هل الحبشة دير على الأقل ، هل المسيح هو الذي أسكت رانبر ؟ هذا المسيح يكون حينئذ ذلك الذي يجلس على العرش اليوم في نافذات المصرف ، اذا حكمنا بناءً على هذه الرسائل التي لا يتحدث فيها الشاعر الملعون<sup>(٢)</sup> إلا عن تقوده التي كان يود لو يراها مستثمرة استثماراً جيداً ، و « تدرّ بانتظام »<sup>(٣)</sup> .

- ١) هوبي ديك: قصة الليل . القضية: قصة لكافكا . المأخوذون: قصة لدستوييسكي - الحرب -
- ٢) ينبر رانبر مع الشاعر فرلين والشاعر بودلير من شعراء اللنة - الحرب -
- ٣) يصح ان نلاحظ ان لعبة هذه الرسائل يمكن ان تفسر بشخصية المرسل اليهم . ولكننا لا نشعر بوجود جهد للكذب فيها . وما من كلمة يشك منها رانبر القديم .

ذلك الذي كان يعني في العذاب ، ويشتم الإله والجمال ، ويحتوس من العدالة والامل ، وبتنشف باعتزاز في هواء الجريمة ، ... يريد فقط ان يتزوج بأمرأة « ذات مستقبل » . وهذا المتبىء ، العراف ، السجين الشرس الذي تغلق عليه أبواب السجن دائماً . الانسان . الملك على الارض دون آلهة ، ... يحمل دائماً ثمانية كيلوغرامات من الذهب في نطاق يمسك بكرشه ، ويشكو من انه يسبب له الزحار (الزنتاريا) . أهذا هو البطل الأسطوري نمرضه على كثير من الشبان الذين لا يصدقون ، هم ، على العالم مثل رانبو ، ... ولكنهم يموتون خجلاً لمجرد فكرة هذا النطاق ؟ لإبقاء الأسطورة يجب ان نجعل هذه الرسائل الحاسمة (١) . انا نفهم سبب قلة ما لقيت من تعليق . إنها خارقة للقدسيات شأنها في ذلك شأن الحقيقة احياناً . شاعر عظيم رائع ، أعظم شعراء زمانه ، هاتف بالغيب ، ... هوذا رانبو . ولكنه ليس الانسان . الإله ، الأنموذج المتوحش ، راهب الشعر ، هذا الذي ارادوا ان يصوروه لنا . لم يجد الرجل عظيماً ثانية إلاّ وهو مسجى على سرير المستشفى ، في ساعة الاحتضار الصعبة ، حيث تصعب حتى تفاهة القلب ذات جرس مؤثر : « ما اتعسني ، ما اتعسني اذن ، ... ومع ذلك معي تقود لا تستطيع حتى حراستها ! » . ان الصرخة الكبرى الصادرة في هذه الساعة البائسة ، ترجع رانبو لحسن الحظ الى هذا الجزء من القياس المشترك الذي يتطابق بصورة غير ارادية مع العظمة : « كلا ، كلا ، الآن اتمرّد ضد الموت ! » . إن رانبو الشاب ينبعث ثانية أمام الهوة ، وينبعث معه تمرّد هاتيك الاوقات التي لم يكن فيها صبّ اللعنات على الحياة سوى ياس من الممات . حينئذ يلتقي رانبو التاجر البورجوازي برانبو الفتى الممزق الذي طالما محضناه حباً ودوداً . انه يلحق به في الذعر وفي الألم المرّ ، حيث يلتقي أخيراً الناس الذين لم يعرفوا كيف يستقبلون السعادة . هنا فقط يبدأ عذابه وحقيقته .

(١) يقصد رسائل حرر - العرب -

من رانبو الى السريالية

ولكن المعالم المبشرة بـ « حرر » ، كانت بادية في اتناجه ، انما في شكل الاستعفاء الاخير : « الأفضل ، نومٌ مثل ، على الساحل الرملي » . إن الولوج بالفناء ، والحاص بكل متهم ، يكتسب حينئذٍ أعم شكل . وإن رؤيا الجريمة كما بصورها رانبو في الأمير الذي يقتل اتباعه دون كلل ، والاختلال الطويل ، هما موضوعتان تمرديتان سيقع عليهما السرياليون فيما بعد . ولكن التفوق كتب أخيراً للثنى العدمي ؛ فالكفاح والجريمة بالذات تصكدان النفس الواهنة . إن هذا العرف الذي . اذا تجرأنا على القول كان يشرب كي لا ينسى ، يجد أخيراً في الثمل النوم العميق الذي يعرفه معاصروننا معرفة جيدة . فنحن نستسلم للنوم على الشاطئ الرملي ، أو في عدن ، ونوافق سلباً لا ايجاباً على نظام العالم ، حتى لو كان هذا النظام مذللاً مخزياً . إن صمت رانبو يهد ايضاً لصت الامبراطورية الذي يحوم فوق اذهان راضية بكل شيء إلا بالنضال . فهذه النفس التي تخضع فجأة . أه للمال ، تنبئ عن مطالب أخرى ، تكون في البدء مفرطة ، ثم تضع نفسها في خدمة النظم . الرغبة في الفناء ، هي الصيحة التي تصدر عن الفكر الضمير من تمرداته الخاصة . حينئذٍ تكون المسألة مسألة انتحار فكري أقل جلالاً من انتحار السرياليين وأغنى بالمواقف . ليست السريالية ذات دلالة ، في ختام حركة التمرد هذه ، إلا لأنها حاولت إدامة رانبو الوحيد الذي يستحق الشفقة . فهي ، إذ تستخلص من الرسالة حول العرف ، ومن الطريقة التي تفترضها هذه الرسالة ، قاعدة 'نسك متهم' ، تظهر هذا الصراع الدائر بين إرادة الوجود والرغبة في الفناء ، بين الرفض والقبول ، وهو الصراع الذي رأيناه في حكل مراحل التمرد . لكل هذه الاسباب ، بدلاً من ان نكرر التعليقات الدائمة المحيطة بآثار رانبو ، يبدو من الأفضل ان نجد رانبو وان نتبعه لدى خلفه .

## أندريه بروتون

### الريالية وحركة دادا

تمردٌ مطلق ، عصيان تام ، تخريب منظم ، مزاجٌ هزلي ، عبادة العبث... هذه هي السريالية التي تعرف في مقصدها الاول على انها مقاضاة ككل شيء مقاضاةٌ "تستأنف في استمرار . إن رفض كل التحديدات واضح" ، بين ، مستفيز . « نحن أخصائيو التمرد » . السريالية في اعتقاد آراغون وسيلة لقلب الفكر ، وقد شقت طريقها أولاً في حركة « دادا » التي يجب التويه بمنشئها الروماني ، وصفتها الداندية الهزلية <sup>(١)</sup> . فاللامعنى والتناقض ينيان اذاتهما . « الدادويون الحقيقيون هم ضد دادا . الكل مرشد دادا ، أو أيضاً : « أي شيء خير ؟ أي شيء قبيح ؟ أي شيء عظيم ، قوي ، ضعيف ... لا أدري ، لا أدري » . إن عدَمي الصالونات هؤلاء كانوا طبعاً على وشك أن يمدوا أذيق المجتمعات التقليدية بالخدم . ولكن يوجد في السريالية ما هو أكثر من عدم الإذعان الاستراضي ، توجد فيها تركة رانبو التي يلخصها اندريه بروتون كما يلي : « هل علينا ان نتخلى هنا عن كل رجاء ؟ » .

### الريالية والقلق

إن دعوة عظيمة الى الحياة المفقودة تتسلح برفض كلي للعالم الحاضر ، كما يعبر بروتون عن ذلك بروعة : « غير قادر على الاستكانة الى مصيري المقرر لي ، ومجروحاً في صميم شعوري بسبب رفض الانصاف ، أتجنب تكييف حياتي مع الشروط التافهة لكل حياة في هذه الدنيا » . يعتقد بروتون أن الفكر لا يسهه أن يجد الاستقرار في الحياة ولا في العالم الآخر . وتريد السريالية ان تجيب على هذا القلق المضطرب . إنها « صرخة الفكر الذي ينقلب على ذاته ، ويعقد العزم

(١) يعتبر جاري Jarry ، احد انطاب حركة دادا ، التجسد الاخير للداندي الماورائي ، ولكنه تجسد أقرب الى الثرابة منه الى البغرية .



على أن يسحق هذه العقبات بياس . إنها تزجر الموت و « الديمومة التافهة لوضع غير مستقر » . فهي إذن تضع نفسها رهن أوامر الجزع وفقد الاصطبار . إنها تحيا في حالة من الجنون الجريح ، وبالتالي في الصرامة والتعنت الصلِّف اللذين يفترضان وجود أخلاق . ولئن كانت السريالية إنجيل الفوضى ، فلقد أُلْقَتْ نفسها منذ نشأتها مضطرة الى خاق نظام . ولكنها لم تفكر بادىء ذي بدء إلا في التهديم ، بالشعر أولاً على صعيد اللعن ، وبطارق مادية بعدئذ . إن مقاضاة العالم الحقيقي أصبحت منطقياً مقاضاة الخاق .

### السريالية والانتحار

إن النظرة السريالية المعادية للتأليه نظرة قياسية منهاجية . إنها توطد أركانها أولاً على فكرة البراءة المطلقة للانسان الذي يجدر أن تُرد إليه « كل القوة التي أمكنه أن يضعها في كلمة الله » . وكما في كل تاريخ التمرد ، تحولت فكرة التمرد المطلقة النابعة من اليأس ، ... نقول : تحولت هذه الفكرة شيئاً فشيئاً الى صكِّف بالعقاب . وإذا أشاد السرياليون بالبراءة الانسانية ، اعتقدوا انهم قادرون في الوقت نفسه على الاشادة بالقتل والانتحار ، فتحدثوا عن الانتحار حديثهم عن حل ؛ وإن كرفيل الذي اعتقد ان هذا الحل « صحيح ونهائي على أرجح احتمال » ، انتحر مثل ريغو وفاشيه . وقد أمكن لآراغون ان يسمي ثنائي الانتحار . ولكن هذا لا يمنع ان تمجيد الفناء وعدم التهافت عليه مع الآخرين ، لا بشرّف احدآ . في هذه النقطة ، حفظت السريالية من « الأدب » الذي كانت تكرهه ، أسوأ التنازلات ، وسوِّغت صرخة ريغو المغلقة : « أنتم جميعاً شعراء ، أما أنا فمن شعبة الموت » .

### الأولوية للرد ورفضه

لم تكتف السريالية بذلك . بل اصطفت لها بطلاً، فيوليت نوزير، أو مجرم الحق العام الغفل ، مؤكدة هكذا أمام الجريمة نفسها براءة الخلق . ولكنها تجرأت على القول ايضاً ، ( وهذه هي الكلمة التي منذ ١٩٣٣ لا بد أن أندويه

بروتون ندم على قولها) ، إن أبسط فعلٍ سريالي يكمن في النزول الى الشارع ،  
 والمسدس في قبضة اليد ، واطلاق النار على جماهير الناس ككيفها اتفق . من  
 يرفض كلَّ حكم غير حكم الفرد ورغبته ، كلَّ أولوية إلا أولوية اللاشعور ، عليه  
 في الحقيقة ان يتمرد في الوقت نفسه ضد المجتمع والعقل . إن نظرية « الفعل  
 بلا سبب » تتوج المطالبة بالحرية المطلقة. ولا أهمية اذا كانت هذه الحرية تتلخص  
 في العزلة التي يعرفها جاري Jerry كما يلي: « متى أخذت كل الفلوس (١) فسأقتل  
 الناس جميعاً ثم سأصرف » . المهم هو ان 'تنكر العقبات ، وان ينتصر  
 اللاعقلاني . والحقيقة هل يعني هذا التكريز للقتل سوى ان الرغبة في الكينونة  
 وحدها ، بكل اشكالها ، هي المشروعة ، في عالم خالٍ من المعنى والشرف .  
 إن اندفاع الحياة ، ودفعة اللاشعور ، وصيحة اللاعقلاني ، هي الحقائق المحضة  
 التي يجب تشجيعها . كل ما من شأنه معارضة الرغبة ، خاصة المجتمع ، يجب أن  
 يُهدم بلا شفقة . حينئذ نفهم ملاحظة بروتون بخصوص المركيز ساد : « حقاً  
 إن الانسان لا يعود يوافق هنا على الاتحاد بالطبيعة إلا في الجريمة ، ولكن  
 يبقى علينا ان نعرف أليس ذلك ايضاً أحد طرق المحبة الأكثر جنوناً ، الأكثر  
 يقيناً . نلاحظ ان المقصود هو الحب بلا موضوع ، وهو حب النفوس الممزقة .  
 ولكن هذا الحب الحاوي والتهميم ، هذا الشغف بالتملك هو الشغف الذي يعيقه  
 المجتمع لا محالة . لذلك ، أمكن لبروتون الذي ما زال يشعر بالارتباك من هذه  
 التصريحات ، تقول : أمكنه ان يثني على الحياة وان يصرح ( الأمر الذي  
 حاول السرياليون إثباته ) بأن العنف هو الوسيلة التعبيرية الوحيدة الملائمة .

#### السريالية والماركسية

ولكن المجتمع لا يتألف من اشخاص فحسب ، بل هو ايضاً نظام . إن  
 السرياليين انبل من ان يقتلوا الناس جميعاً . لذلك ، بموجب منطق موقفهم

(١) المعروف عن الفريد جاري انه يعتمد أحياناً تحريف الكلمات . ولد جاريناه في عبارته  
 فاستعملنا كلمة : اللوس ، التي يقصد بها بالطبع : المال . ( الناشر )

بالذات ، انتهوا الى الاعتقاد بأنه لتحرير الرغبة لا بد أولاً من قلب المجتمع .  
لقد اختاروا خدمة ثورة عصرهم . ومن البول والمركيز ساد ، وبتاسك  
يشحنل موضوع هذه الدراسة ، التحق السرياليون بهيلفيسيوس وماركس .  
ولكننا نرى ان دراسة الماركسية ليست هي التي قادتهم الى الثورة (١) .  
فبالعكس ، انصرف جهد السريالية الدائم الى التوفيق بين المتطلبات التي سارت  
بها الى الثورة وبين الماركسية . يمكننا ان نقول دون تناقض إن السرياليين التحقوا  
بالماركسية بسبب أفضى الأشياء اليهم فيها ، اليوم . وإذ نعرفُ كنه مطلبها  
ونبئله ، وحينما نكون قد اشتركنا في نفس التمزق ، نتردد في ان نُذكر  
أندريه بروتون بأن حركته جعلت من مبادئها إقامة « سلطة غاشمة » وحكم  
ديكتاتوري ، والتعصب السياسي ، ورفض حرية النقاش ، وضرورة عقوبة  
الاعدام . وتعتبرنا الدهشة ايضاً امام المفردات الغريبة لذاك العصر ( « تخريب » ،  
« واثي » الخ ) ، الذي هو عصر الثورة البوليسية . ولكن هؤلاء المجانين  
كانوا يريدون « ثورة أياً كانت » ، كانوا يريدون اي شيء يخرجهم من عالم  
الطائوتين ، ع . الم التسوية ، حيث كانوا مجبرين على العيش . وإذ عجزوا عن  
الحدول على ما هو افضل ، آثروا ما هو أسوأ . وفي هذا ، كانوا عديمين .  
لم يلاحظوا ان اولئك الذين كان عليهم ان يبقوا مخلصين بعد الآن للماركسية ،  
بقوا مخلصين في الوقت نفسه لعدميتهم الاولى . إن التهديم الحقيقي للغة ، والذي  
تمتته السريالية باصرار كبير ، لا يمكن في عدم التماسك أو في الآلية (٢) ،  
بل يكمن في الشعار . وعبثاً ابتداء آرغون بفضح « الموقف الذرائعي المشين » ،  
ففيه قد وجد في النهاية التحرر التام من الاخلاق ، حتى لو تطابق هذا التحرر  
مع عبودية اخرى . إن أعمق السرياليين تفكيراً في هذه المشكلة آنذاك ، بير

(١) الشيوعيون الذين آمنوا بالثورة نتيجة لدراسة الماركسية يمدون على اصابع اليد . للمرة  
يهندي اولاً . . . ثم يطالع كتب العقيدة .  
(٢) الانشاء الآلي . راجع صفحة ٢٩٨ من تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين .  
منشورات عريديات - المغرب -

نافيل، إذ بحث عن العامل المشترك بين العمل الثوري والعمل السريالي، وجدته في التشاؤم، أي: «الرغبة في مواكبة الانسان الى هلاكه، وفي عدم إهمال أي شيء لكي يكون هذا الهلاك الابدي مفيداً» هذا المزيج من الاوغسطينية والماكيافيلية يعرف حقاً ثورة القرن العشرين؛ ولا يسعنا ان نعطي تعبيراً اكثر جرأة عن عدمية العصر. ان مرتدّي السريالية كانوا أمينين للعدمية في معظم مبادئها. فبصورة ما، كانوا يريدون الموت. ولئن قطع اخبراً اندريه بروتون وغيره الصلة مع الماركسية، فلأنه كان عندهم شيء ما اكثر من العدمية. كانت عدم امانة ثانية لأصفي ما في اصل التمرد: انهم لم يكونوا يريدون الموت.

#### السريالية والثورة

صحيح ان السرياليين ارادوا ان يجاهروا بالمادية. «في اصل تمرد البارجة «بوتكين»، يطيب لنا ان نتوسم وجود قطعة اللحم الفظيعة هذه» (١). ولكن لا يوجد لديهم، كما لدى الماركسيين، تحمس، حتى عقلي، لقطعة اللحم هذه. إن الجيفة تمثل فقط العالم الحقيقي الذي يولد التمرد... ولكن ضده. ولئن بررت كل شيء، فانها لا تفسر شيئاً. لم تكن الثورة بالنسبة الى السرياليين غاية تحقق يوماً فيوماً، في العمل، ولكنها اسطورة مطلقة ومعزّية. لقد كانت الثورة «الحياة الحقة، كالحب»، التي كان يتحدث عنها الشاعر إيلوار. ولم يكن هذا الاخير يتصور آنذاك ان صديقه «كالندرا» سيهوت من هذه الحياة. كان يريد «شوعية العبقرية»، لا الشيوعية الأخرى. وكان هؤلاء الماركسيون الغريبيون يصرحون بأنهم في حالة عصيان ضد التاريخ، وكانوا يجدون الفرد البطل. «تتحكم بالتاريخ قوانين 'تكييفها نذالة الأفراد'». كان اندريه بروتون يريد في نفس الوقت، الثورة والحب،... وهما متنافيان. فالثورة تكمن في حب انسان ما زال غير موجود. ولكن ذلك الذي يجب كائناً حياً، اذا كان يحبه حقاً، فلا يسعه ان يموت إلا من اجله. الواقع ان

(١) يقصد بقطعة اللحم التفسير المادي (الحرب)

الثورة لم تكن بنظر بروتون سوى حالة خاصة من التمرد ، في حين ان العكس وحده هو الصحيح بنظر الماركسيين ، وبنظر كل فكرة سياسية بوجه العموم . لم يكن بروتون يسعى الى ان يحقق ، بالعمل ، المدينة الفاضلة التي ستتوج التاريخ . والحقيقة ان احدى النظرات الاساسية في السريالية تقول بعدم وجود خلاص . ليست مزية الثورة في انها تمنح البشر السعادة ، « الرفاهية الأرضية المقيتة » . بل عليها في اعتقاد بروتون ان تطهر وضمهم الفاجع وان توضحه . ولن تقدم الثورة العالمية وما تفترض من توضيحات فظيعة ، سوى حسنة واحدة : « منع التقليل المصطنع للوضع الاجتماعي من ان يحجب التقليل الحقيقي للوضع الانساني » . ولكن هذا التقدم كان بنظر بروتون غير ملائم . سواء اذن أن نقول إن على الثورة ان توضع في خدمة النسك الذاتي الذي بواسطته يتسنى لكل انسان ان يحول الواقع الى شيء عجيب ، « ثأر واضح تقوم به نخلة الانسان » . ان « العجيب » يحتمل لدى أندريه بروتون المقام الذي يجتله « العقلاني » عند هيجل . فلا يمكننا اذن ان نتصور تعارضاً أكمل مع الفلسفة السياسية في الماركسية . إن الترددات العلوية العادرة عن اولئك الذين كان آرتو يسميهم « آميلات »<sup>(١)</sup> الثورة ، تتوضح دون جهد . كانت السرياليون أكثر اختلافاً عن ماركس منهم عن الرجعيين مثل جوزيف دي ميستر . فهؤلاء الاخيرة يستخدمون مأساة الوجود لرفض الثورة ، أي لإبقاء وضع تاريخي . ويستخدمها الماركسيون لتبرير الثورة ، أي لخلق وضع تاريخي آخر . كلاهما يضع المأساة الانسانية في خدمة غاياته الذرائعية . أما أندريه بروتون فكان يستخدم الثورة لإتمام المأساة ، وكان يضع الثورة -- رغم عنوان مجلته -- فعلاً في خدمة المغامرة السريالية .

(١) اشتقاق من اسم الديبلوم الويري آميل الذي اشتهر بالجبل والقلق . آميلات الثورة : أي : للثورة (المغرب)

## مقارنة

تتوضح القطيعة النهائية أخيراً اذا تذكرنا ان الماركسية كانت تطالب بإخضاع اللاعقلاني ، في حين هب السرياليون للدفاع عن اللاعقلاني حتى الموت . وكانت الماركسية تسمى الى الفوز بالكلية والشمول ، أما السريالية فكانت ، ككل تجربة روحانية ، تسمى الى الفوز بالوحدة <sup>(١)</sup> . في وسع الشمول اذن أن يطالب بخضوع اللاعقلاني اذا كان العقلاني يكفي للتسلط على العالم . ولكن الرغبة في الوحدة هي اكثر تطلباً . فلا يكفيها أن يكون كل شيء عقلانياً ، بل تريد خاصة ان يوفق بين العقلاني واللاعقلاني عند نفس المستوى .

ليس من وحدة تفترض وجود اجزاء .

## الكلية مرحلة

يعتقد اندريه بروتون ان الشمول <sup>(٢)</sup> لا يسعه أن يكون سوى مرحلة على درب الوحدة، ولعل هذه المرحلة ضرورية ولكنها بلا شك غير كافية . نجد هنا موضوعة : « كل شيء أو لا شيء » <sup>(٣)</sup> . إن السريالية تسمى الى الكلي L'universel ، والمأخذ الغريب <sup>(٤)</sup> - ولكن العميق - الذي يأخذه بروتون على ماركس هو ان هذا الاخير ليس كلياً . كانت غاية السرياليين التوفيق بين شعار ماركس القائل بـ «تطوير العالم» وشعار رانبو القائل بـ «اصلاح الحياة» . ولكن الشعار الاول يؤدي الى الفوز بكلية العالم ، والثاني الى الفوز بوحدة الحياة . كل شمول ( كلية ) هو ، بحكم مفارقة عجيبة ، مقيد في نهاية المطاف .

- (١) بمعنى السجام (المعرب)
- (٢) لتعمل الشمول بمعنى الكلية Totalité . وهذه غير : الكلي Universel (المعرب)
- (٣) مرت معنا هذه الموضوع في الاسام الاول من الكتاب (المعرب)
- (٤) مأخذ غريب لأن الماركسية ، كما رأينا ، تسمى الى الفوز بالشمول والكلية . ولكن « الكلي » يوفق بين العقلاني واللاعقلاني ، أما الماركسية فتطالب بإخضاع اللاعقلاني لأنها نظرية عقلانية (المعرب)

وقد قسم هذان الشعاران العصبية السريالية . فاذا اختار بروتون رانبو ، أظهر أن السريالية ليست عملاً ، بل نكماً ونجربة روحية . لقد أعاد الى مرتبة الصدارة ما يشكل الأصالة العميقة في حركته ، وهو الوجه الثمين لكل تأمل حول التمرد ، ونعني : إحياء المقدسات والفوز بالوحدة . وكما عمق هذه الأصالة ، ازداد انقضاء الا عن رفاقه السياسيين ، وفي الوقت نفسه عن بعض مطالبه الأولية .

### الحل الأرفع

الحقيقة ان اندريه بروتون لم يتبدل قط في مطالبته بما فوق الواقع ، امتزاج الحلم والواقع ، تصعيد التناقض القديم بين المثل والواقع . اننا نعرف الحل السريالي : الاعتقالية المحسوسة ، والصدفة الموضوعية (١) . إن الشعر غزو ، الغزو الوحيد الممكن ، « للحل الأرفع » . « محل معين من الفكر ، يكف فيه العيش والموت ، الواقع والخيال ، الماضي والمستقبل ، عن ان يدرك بشكل متناقض » . ما هو اذن هذا الحل الأرفع الذي عليه ان يظهر « الفشل الأكبر للذهب الميغلي » ؟ انه نشدان « القمة الهوة » ، المألوفة من الصوفيين . والحقيقة ان المسألة مسألة تعرف بلا إله ، يهدى ويظهر تعطش التمرد الى المطلق . العقلانية هي العدو الاساسي للسريالية . وعلى كل ، ان تفكير بروتون يقدم المشهد الغريب وتفكير غربي يفضل فيه مبدأ التيجانس ، في استمرار ، على حساب مبدأ الهوة . بدأ استعجال اجتماع الكون وعدمه (٢) Principe de Contradiction . المقصود ، بالخبط ، هو تذويب التناقضات في نار الرغبة والحبة ، وادقها جدران الموت . إن السحر ، والحضارات البدائية أو الساذجة ، وعلم الحبل ، والزخارف اللغوية وليالي الأرق ، هي مراحل عجيبة على درب

(١) من الموضوعات السريالية (المعرب)

(٢) مذكور ما ذكره ليل ليل حول الحل الأرفع وذوات التناقضات فيه (المعرب)

الوحدة والحجرة الفلسفية (١) . فلئن لم تبدل السريالية العالم ، فقد أمده ببعض الاسطورات الغريبة التي تبرز جزئياً نيتشه الذي بشر بعودة الاغريق . جزئياً فقط ، لأن موضوع الكلام يونان الظلال ، يونان الالغاز والآلهة السرد . أخيراً ، كما ان تجربة نيتشه تتوجت بقبول النور ، كذلك تبلى السريالية الأوج في الاشادة بالديجور ، وعبادة العاصفة عبادة مصرّة قلقة . لقد أدرك بروتون ، على حد اقواله بالذات ، ان الحياة معطاة رغم كل شيء . ولكن لم يكن في وسع اذعانه ان يكون إذعان النور التام الذي نحتاج اليه . فقد قال : « في من ربح الشمال العاتية أكثر مما يسمح لي بأن أكون رجل الاذعان التام » .

روتون والاخلاق

على أن بروتون أنقص - ضد ذاته غالباً - نصيب الانكار ، ووضح المطالبة الايجابية للتمرد . فقد اصطفى الشدة بدل الصمت ، واستبقى فقط « الدعوة الاخلاقية » التي كانت في اعتقاد « باناي » تدفع السريالية الاولى : « إحلال أخلاق جديدة محل الاخلاق الدارجة ، سبب كل مصائبنا » . اذ لم يثق لم ينجح ، ولم ينجح أحد اليوم ، في هذه المحاولة لوضع الاخلاق الجديدة . ولكنه لم يقنط قط من القدرة على عمل ذلك . فإزاء قباحة عصره يلاقي فيه الانسان - الذي أراد بروتون أن يبعده - الذل والهوان بإصرار ، بإسم بعض المبادئ التي كانت السريالية قد تبنتها ، ... نقول : إزاء هذه القباحة وجد بروتون نفسه مضطراً الى ان يقترح الرجوع مؤقتاً الى الاخلاق التقليدية . لعل هذا التصرف يشكل وقفة ، ولكنها في الحقيقة وقفة العدمية ، والتقدم الحقيقي للتمرد . ومعلوم أن بروتون اصطفى الحب ، حينما عجز عن إعطاء الاخلاق والقيم التي أحسن احساساً واضحاً بضرورتها . ففي حساسة زمانه

(١) الحجرة الفلسفية : في اعتقاد اصحاب علم الحيل انها تحول المعادن الى ذهب .. وتشمل مجازياً اشارة الى الاهداف التي يستحيل تحقيقها (المعرب)



- وهذا لا يمكن نسيانه - ، كان الوحيد الذي تحدث عن الحب بعشق .  
الحب هو الاخلاق المرتعشة التي كانت بمثابة الوطن لهذا المنفي . ولا شك في  
أن الحاجة الى مقياس لا تزال ماسة . ليست الريالية سياسة ولا ديانة ، ولعلها  
ليست سوى حكمة مستحيلة . ولكن هذا دليل على عدم وجود حكمة مريحة .  
لقد هتف بروتون قائلاً بروعة : «نحن نريد ، نحن سنحصل على الحياة الاخرى  
في ايامنا هذه » . فلعل الليل البهي الذي يستكين اليه ، بينا ينتقل العقل الى  
العمل (١) ويزحف بجيوشه على العالم ، نقول : لعل هذا الليل يبشر بفجر  
لم يسطع نوره بعد ، وبصبيحات رنيه شار شاعر نهضتنا .

(١) يقصد الحركات السياسية الممارسة المستندة الى الفلسفات (المغرب)

## العدمية والتاريخ

الذرع الى القاعدة ،  
الهروب من التوتر

مائة وخمسون عاماً من التمرد الماورائي والعدمية Nihilism ، رأت نفس الوجه المحطم ، وجه الاحتجاج البشري ، يعود تحت أقنعة مختلفة . وقد أكد الجميع ، إذ تمردوا على الرضع وخالقه ، عزلة المخلوق ، وبُطلان كل أخلاق . ولكنهم سعوا جميعاً في الوقت نفسه الى بناء ملكوتٍ أرضيٍ محض ، تسود فيه القاعدة التي يصطفون . لقد انسقوا منطقياً ، وهم منافسو الخالق ، الى اعادة تشكيل الخلق<sup>(١)</sup> على حسابهم . أما الذين رفضوا كل قاعدة للعالم الذي خلقوه ، ما خلا قاعدة الرغبة والقوة ، فهرعوا الى الانتحار ، أو الى الجنون ، وتغنوا برؤيا الدمار الكلي . وأما الآخرون الذين ارادوا أن يخلقوا قاعدتهم بقوتهم الخاصة ، فقد اصطفوا التصنع العقيم ، التظاهر أو التفاهة ، أو ايضاً القتل والدمار . ولكن المر كيز ساد والرومانسيين ، كارامازوف أو نيتشه ، لم يدخلوا عالم الموتى إلاّ لأنهم ارادوا الحياة الحقة . بحيث اننا نرى ، بفعال معاكس ، أن النزوع الممزق الى القاعدة والنظام والاخلاق هو الذي يدوي في هذا الكون المجنون . ولم تصبح استنتاجاتهم مشؤومة أو قاضية على الحرية إلاّ منذ

(١) العالم .

نذوا عبء التمرد، وهربوا من التوتر الذي يفترضه هذا التمرد، واحطفوا رغد  
الطغيان أو رفاة المبودية .

معنى الاحتجاج

إن العصيان البشري ، في أشكاله العليا والفاجمة ، ليس - ولا يسعه ان  
يكون سوى احتجاج طويل ضد الموت ، واتهام حائق شديد لهذا الوضع  
الذي تتحكم به عقوبة الموت المعتم<sup>(١)</sup> . في كل ما سر بنا من حالات ، يتوجه  
الاحتجاج كل مرة الى كل ما هو في الخلق نشاز<sup>(٢)</sup> وغبشة<sup>(٣)</sup> وانقطاع . المسألة  
إذن هي ، اساساً ، مسألة مطالبة دائمة بالوحدة . أما وسائل كل هذا الجنون  
السامي أو الصياني فهي رفض الموت ، والرغبة في الديمومة والشفافية . هل  
يعني ذلك فقط رفض الموت رفضاً نذلاً وشخصياً ؟ كلا، لأن كثيراً من هؤلاء  
العصاة دفعوا الثمن اللازم<sup>(٤)</sup> كي يكونوا على مستوى مطلبهم . فالتمرد لا يطلب  
الحياة ، بل أسباب الحياة . انه يرفض النتيجة التي يأتي بها الموت . فاذا لم يكن  
هناك شيء دائم ، فلا شيء مبرر، وما يحل به الموت 'محرّم من المعنى . الصراع  
ضد الموت منناه المطالبة بمعنى الحياة ، والنضال من اجل القساعدة ومن اجل  
الوحدة .

البحث عن الشافية ،  
وعن مقدسات

إن الاحتجاج ضد الشر ، والكامن في صميم التمرد الماورائي ، هو ذو دلالة  
بهذا الصدد . ليس عذاب الطفل هو المثير في حد ذاته ، بل كون هذا العذاب  
بلا مبرر . مهما يكن من أمر ، فان المرء يرضى احياناً بالعذاب والنفي والحجر  
حينما يقنعه بها الطب أو العقل الرشيد . أما المتمرد فيعتقد ان ما يعوز عذاب  
الناس ، ولحظات سعادتهم ، هو مبدأ تفسيري . العصيان على الشر يظل ، قبل

(١) الموت الذي هو مصير الجميع (المعرب)

(٢) يلعد ضحوا ببياتهم (المعرب)

كل شيء ، مطالبة بالوحدة . إن التمرد يعارض دون كلل عالم المحكوم عليهم بالموت (١) ، وغُبِشَ الوضع المميتة ، بتطلبه الحياة والشفافية النهائيتين . انه يبحث ، من حيث لا يدري ، عن اخلاق أو عن مقدسات . التمرد 'نسك' ، وإن يكن اعمى . فلئن يجدف التمرد إذن ، فذلك أملاً منه بإله جديد . انه يهتز تحت صدمة اول الحركات الدينية وأعمقها ، ولكن المسألة مسألة حركة دينية خائبة . ليس التمرد في حد ذاته هو الشيء النبيل ، بل النبيل ما يتطلبه التمرد ، حتى لو كان ما يحصل عليه لا يزال خسيساً .

#### التمرد والقتل

على الأقل ، يجب ان نعرف كيف تتبين ما يحصل عليه من خسيس . فكما مجتد التمرد الرفض التام لما هو موجود ، كما مجتد « اللامطلقة » ، فانه يقتل . وكما قبل قبولاً اعمى بما هو موجود ، ونادى بـ « النعم المطلقة » ، فانه يقتل . إن كره الخالق قد يتحول الى كره الخلق ، أو الى حب ما هو موجود حباً متفرداً مسخطاً . ولكنه ، في كلتا الحالتين ، يصب في القتل ويفقد الحق في ان يسمى ترمداً . يمكننا ان نكون عديمين بطريقتين ، وكل مرة بشره الى المطلق . هناك في الظاهر المتوردون الذين يريدون ان يموتوا ، وأولئك الذين يريدون ان 'يموتوا' . ولكنهم هم هم ، محترقين بنار الرغبة في الحياة الحقة ، محرومين من الكينونة ، مفضلين حينئذ الجور المعتم على عدالة مشوهة . عند هذا الحد من السخط ، يصبح العقل جنوناً . فاذا صح ان التمرد الغريزي للقلب الانساني يسير تدريجياً على امتداد القرون نحو وعيه الاعظم ، فقد تعاضمت ايضاً ، كما رأينا ، جرأته العمياء تعاضماً مفرطاً بحيث اعتزم الرد على القتل الشامل بالفتك الماورائي .

#### تأنيج العدمية

إن « حتى لو » (٢) ، التي تبين لنا انها تشير الى اللحظة الرئيسية في التمرد

(١) عالم البشر (العرب)

(٢) راجع : « رفض الخلاص » ، المقطع الثاني من ص ٧٧ (العرب)

الماورائي ، تتم على كل في الدمار المطلق . ايس التمرد ولا نبه هما اللذان  
يسطعان اليوم على العالم ، بل العدمية . وينبغي لنا ان نرسم نتائجها ، دون ان  
تغيب عنا حقيقة اصلها . حتى لو كان الله موجوداً ، فلن يدعن له ايفان ، إزاء  
الجور اللاحق بالانسان . ولكن امعان النظر في هذا الجور امعاناً أطول ،  
والاحتراق بسعير أمر ، حولاً عبارة : « حتى لو كنت موجوداً » الى :  
« لا تستحق أن توجد » ، ثم الى : « لست موجوداً » . لقد التمس الضحايا  
قوة الجرعة النهائية <sup>(١)</sup> وأسبابها في البراءة التي توسمها في انفسهم . فإذ يسوا  
من خلودهم ، وتأكدوا من إدانتهم ، قرروا قتل الإله . اذا كانت من الخطأ  
القول إن مأساة الانسان المعاصر بدأت من هذا اليوم ، فليس صحيحاً ايضاً  
انها انتهت فيه . إن هذا التعدي بشير ، بالمعكس ، الى ذروة مأساة ابتدأت  
منذ نهاية العالم القديم ، ولما 'تدو' بعد' كلماتها الاخيرة . اعتباراً من هذه اللحظة ،  
قرر الانسان ان يجرم نفسه من العون <sup>(٢)</sup> ، وان يحيا بوسائله الخاصة . ومن  
المركيز ساد حتى يومنا هذا ، كمن التقدم في توسيع المحل المسيح <sup>(٣)</sup> توسيعاً  
متزايداً . وفي هذا المحل المسيح المرستع بسط الانسان سلطانه وفق قاعدته  
الخاصة ، بقسوة ودونما إله . وجرى توسيع حدود المعسكر المحصن بمتاريس  
ترسيعاً متزايداً امام الألوهية ، بحيث انهم جعلوا العالم كله حصناً ضد الإله  
المخدوع والمنفي . لقد لاذ الانسان بالخلوة في نهاية تمرد ، ومن قصر المركيز  
ساد الفاجع الى معسكرات الاعتقال <sup>(٤)</sup> ، ككنت حريره في بناء سجن جرائمه .  
ولكن حالة الحصار تتعمم تدريجياً ، والمطالبة بالحربة تزيد الامتداد الى الجميع .  
يجب اذن ان يبنى الملكوت الوحيد الذي يعارض ملكوت العون ، ونعني  
ملكوت العدالة ، وان 'تجمع' اخيراً الجماعة البشرية على انقراض الجماعة الإلهية .

(١) يقصد تال الإله (المرب)

(٢) العون الرائي

(٣) يقصد لمر المركيز ساد . راجع الصفحات الخاصة بساد ص ٤٥ (المرب)

(٤) يقصد معسكرات الاعتقال في القرن العشرين (المرب)

قتل 'الإله ... وبناء كنيسة (١) ، ... إنها حركة التمرد الدائمة والمتناقضة .  
إن الحرية المطلقة تصبح أخيراً سجنًا من الواجبات المطلقة ، 'نسيكاً جماعياً' ،  
وفي نهاية المطاف تاريخاً . إن القرن التاسع عشر ، قرن التمرد ، يصب في  
القرن العشرين ، قرن العدالة والاخلاق ، حيث يلطم كل فرد صدره . ومن  
قبل ، أتى شانفور ، اخلاقي التمرد ، بالمبدأ : « على المرء ان يكون عادلاً  
قبل ان يكون كريماً ، مثلما يقتني القمصان قبل اقتناء الدانتيل » .  
سنتخلى اذن عن اخلاق الترف في سبيل اخلاق البناء الصعبة .

التفاه التمرد الماورائي بالحركة  
الثورية - جرائم العقل الغازي

ينبغي لنا الآن أن نتصدى لهذا المسمى المحموم نحو التسلط على العالم، ونحو  
القاعدة الشاملة . لقد وصلنا الى هذه النقطة التي يعتزم فيها التمرد ، بعد ما طرح  
نير كل عبودية ، إلحاق الخلق كله به . وفي كل انكسار من هذه الانكسارات ،  
في السابق ، تراءت لنا معالم الحل السياسي الغازي . بعد الآن ، لن يستبقي  
التمرد ، مع العدمية الاخلاقية ، سوى إرادة القوة . لم يكن المتمرد يريد  
مبدئياً سوى الفوز بكيئوته الخاصة ، وتأكيدها في وجه الإله ، ولكنه يفقد  
ذكرى أصله . وما هوذا ، بحكم تسلطية روحية ، يسير نحو السيطرة على العالم  
خلال عمليات قتل لامتناهية . لقد طرد الإله من سمائه . ولكن المطالبة  
اللاعقلانية بالحرية ، إذ يلتقي روح التمرد الماورائي صراحة بالحركة الثورية ،  
ستتسلح بالعقل - بحكم مفارقة عجيبة - ، ستتسلح بهذه القدرة الوحيدة على  
الغزو التي تبدو لها انسانية محضة . لقد مات الإله ، وبقي البشر ، أي : التاريخ  
الذي يجب فهمه وبنائه . إن العدمية التي تغمر حينئذ ، في صميم التمرد ، قوة  
الخلق ، تضيف فقط قائلة إن بالامكان بناء هذه القوة بكل الوسائل . وسيضم

(١) يقصد مقدسات جديدة (العرب)

الانسان الى جرائم اللاعقلاني ، على ارض يعرف انها منفردة بعد الآن <sup>(١)</sup> ،  
جرائم العقل السائر نحو ملكوت البشر . والى : « أنا أتمرد ، إذن نحن  
موجودون » <sup>(٢)</sup> ، يضيف مضمراً نوايا عجيبة وموت التمرد بالذات - :  
« ونحن موجودون وحدنا » <sup>(٣)</sup> .

- (١) بلا إله (المغرب)
- (٢) فكرة المشاركة الانسانية والاتصال بالآخرين (المغرب)
- (٣) بلا إله (المغرب)

## الفصل الثالث

### التمرد التاريخي



## التمرد والثورة

العدالة ، الحرية ، الارهاب

الحرية ، « هذا الإسم الرهيب المكتوب على مركبة العواصف » (١) ، هي في مبدأ الثورات كلها . بدونها ، تترأى العدالة للعصاة غير قابلة للتصور . ومع ذلك ، ثمة وقت يجل ، تتطلب العدالة فيه إيقاف الحرية . حينئذ يتوج الارهاب الثورة ، بسيطاً كان أم كبيراً . كل تمرد حينئذ إلى البراءة ، ونزوع إلى الكينونة . ولكن الحنين يجعل السلاح ذات يوم ، وبأخذ على عاتقه الوزر التام ، أي : القتل والعنف . إن تمردات العبيد ، والثورات القاتلة للملوك ، وثورات القرن العشرين ، قبلت - عن علم - بوزرٍ متعاضم ، بقدر ما استهدفت إقامة حرية متعاضمة الكمال . هذا التناقض الذي أصبح ساطعاً ، حال دون ظهور معالم السعادة والأمل على رجالنا الثوريين ، هذه المعالم التي كانت ظاهرة في وجوه رجالنا التأسيسيين وفي خطبهم . هل هذا التناقض أمر لا مناص منه ، هل يميز أو يكشف قيمة التمرد ، ... انه السؤال الذي يطرح بصدد الثورة ، مثلما كان يطرح بصدد التمرد الماورائي . والحقيقة ان الثورة ليست سوى التتمة المنطقية للتمرد الماورائي . ولسوف نتابع ، في تحليل الحركة الثورية نفس المجهود اليأس والداامي لتأكيد الإنسان إزاء ما يُنكر الإنسان . فالروح الثوري يدافع عن هذا الجزء من الانسان ، عن هذا الجزء الذي لا يريد أن

.....  
Philothée O' Neddy (١)

ينحضع ، ويجاوب أن يقلده سلطانه في الزمان . إنه ، اذ يرفض الله ، يصطفي التاريخ بموجب منطقٍ لا مناص منه في الظاهر .

#### الثورة والفكرة

ان كلمة ثورة ، في حقل النظرية ، تحافظ على ما لها من معنى في حقل الفلك<sup>(١)</sup> . انها حركة تفعل الحلقة ، تنتقل من حكومة الى اخرى بعد دورة انتقالية تامة . ان تديلاً يطرأ على نظام الملكية دون أن يقابله تديل في الحكومة ، ليس ثورة بل إصلاحاً . ليس من ثورة اقتصادية ، سواء أكانت ديموية أم سلمية في وسائلها ، لا تبدو في الوقت نفسه ثورة سياسية . وبذلك تتميز الثورة عن حركة التمرد . إن الكلمة الشهيرة التالية : « كلا يا مولاي ، لسنأ أمام تمرد ، بل أمام ثورة » ، تركز على هذا الفارق الجوهرى . انها تعنى تماماً « اليقين بمجيء حكومة جديدة » . فحركة التمرد ، في الأصل ، تغير وجهتها بغتة<sup>(٢)</sup> انها ليست سوى شهادة مضطربة . أما الثورة فتبدأ اعتباراً من الفكرة . انها ، بالضبط ، ادخال الفكرة في التجربة التاريخية ، في حين ان التمرد هو فقط الحركة التي تقود من التجربة الفردية الى الفكرة . ان تاريخ حركة التمرد ، حتى لو كان تاريخاً جماعياً ، هو تاريخ ولوج في الوقائع بلا مخرج ، واحتجاج مبهم لا يستخدم مذاهب ولا أسباباً . أما الثورة فهي محاولة لتكييف الفعل على فكرة ، ولصياغة العالم في إطار نظري . لهذا السبب يقتل التمرد أناساً ، اما الثورة فتهلك أناساً وتهدم مبادئ في نفس الوقت .

#### الثورة والحكومة

لكن ، لنفس الأسباب ، يمكننا أن نقول إنه لم توجد بعد ثورة في التاريخ . ولا يمكن أن توجد سوى ثورة واحدة ستكون الثورة النهائية . فالحركة التي

(١) لفهم القسم الأول من هذا المقطع يجب أن نشير الى أن كلمة Révolution في اللغة الفرنسية تعني : ١ - ثورة ؛ ٢ - دورة كاملة يقوم بها الجرم السماوي (المرب) (٢) انظر في الصفحات التالية تحت عنوان : سبب التراجع (المرب)

تبدو أنها 'تنتهي الحلقة' ، تشرع في حلقة جديدة حالما تتشكل الحكومة . وقد لاحظ الفوضويون ، وفي طليعتهم فارليه ، ان الحكومة والثورة شيان متنافران بالمعنى المباشر . يقول برودون : « ثمة تناقض في أن تتمكن الحكومة في يوم من الأيام من أن تكون ثورية ، لا لشيء إلا لأنها حكومة » . فلنضف قائلين بناء على التجربة ، إن الحكومة ، لا يمكنها أن تكون ثورية إلا ضد حكومات أخرى . ان الحكومات الثورية تلزم نفسها في معظم الاحيان على أن تكون حكومات حربية . وكلما اتسع نطاق الثورة ، تعاظم مدار القتال الذي تفترضه الثورة . فالمجتمع المنبثق عن ١٧٨٩ ، أراد ان يحارب من اجل اوروبا . والمجتمع الذي نشأ عن ١٩١٧ ، حارب من أجل السيطرة العالمية . إن الثورة الشاملة تطالب إذن في النهاية -- وسنرى لماذا -- بالسلط على العالم .

#### التمردات والثورة النهائية

في انتظار تحقق ذلك -- إذا كان عليه أن يحدث -- ، يُعتبر تاريخ البشر ، بوجه ما ، مجموع تمرداتهم المتتالية . وبتعبير آخر ، ان الحركة الانتقالية التي نجد تعبيراً واضحاً في المكان ، ليست سوى تقدير تقريبي في الزمان . مما كان يُسمى في القرن التاسع عشر ، بصورة وريعة ، التحرر التدريجي للجنس البشري ، يتراءى من الخارج كسلسلة متصلة من التمردات تتجاوز ذاتها ، وتحاول أن تجد شكلها في الفكرة ، ولكنها لم تبلغ بعد الثورة النهائية التي تُسبب كل شيء في السماء وعلى الأرض . بدلاً من تأكيد تحرر حقيقي للانسان ، يخلص الفحص السطحي الى تأكيد الانسان بواسطة ذاته ، وهو تأكيد متزايد الاتساع ، ولكنه يظل ناقصاً دائماً . والحقيقة لو وُجدت ثورة مرة واحدة ، لما عاد هناك تاريخ ، وكوُجدت وحدة 'ميمونة وموت' قرير . لهذا السبب يستهدف كل الثوريين في النهاية وحدة العالم ، ويتصرفون كما لو كانوا يؤمنون بانتهاء التاريخ .

#### ثورة القرن العشرين

إن أصالة ثورة القرن العشرين تكمن في انها تدعي علانية ولأول مرة تحقيق

الحلم القديم الذي راود آنا كارميس ككوتس (١) ، وحدة الجنس البشري ، والترويج النهائي للتاريخ في الوقت نفسه . وكما أن حركة التمرد كانت تصب في شعار : « كل شيء أو لا شيء » ، وكما أن التمرد الماورائي كان يريد وحدة العالم ، كذلك نرى الحركة الثورية في القرن العشرين ، وقد وصلت الى اوضح نتائج منطقتها ، تطالب والسلاح في يدها بالكلية التاريخية . حينئذ يطالب التمرد بأن يصبح ثورياً ، وإلا تعرض لأن يكون تافهاً أو باطلاً . فالمسألة لا تعود بالنسبة الى المتمرد ان يجد ذاته مثل ستيرنر، أو أن ينقذ مجرد نفسه بواسطة الموقف (٢) ، بل ان يجد الجنس البشري مثل نيتشه ، ويتكفل بثله الاعلى في انسانية متفوقة لتأمين سلامة الجميع ، بحسب أمنية إيفان كارامازوف . ولأول مرة يظهر المأخوذون على المسرح ويظهرون حينئذ أحد أسرار العصر : تماثل العقل وإرادة القوة . لقد مات الإله ، ويجب تبديل العالم وتنظيمه بواسطة قوى الانسان . إن مجرد قوة اللعنة لم تمد كافية فيه ، ولا بد من اسلحة ولا بد من بسط السيطرة على العالم . ليست الثورة - حتى ، بل وخاصة الثورة التي تدعي انها مادية - سوى صليبية ماورائية مغالية .

هدف هذا التحليل

ولكن هل الكلية هي الوحدة ؟ هذا هو السؤال الذي يطلب من هذه الدراسة أن تجيب عليه . ولكننا نرى ان هدف هذا التحليل ليس وصف الطاهرة الثورية - هذا الوصف الذي 'كرر مرات ومرات - ، ولا أن يحصي - مرة اخرى ايضاً - الاسباب التاريخية أو الاقتصادية الكامنة وراء الثورات الكبرى ، بل هدفه ان يجد في بعض الوقائع الثورية التمه المنطقية والصور والموضوعات الثابتة للتمرد الماورائي .

إن معظم الثورات تكتسب شكلها وأصالتها في جريمة قتل . جميعها ، أو

(١) ثوري ليرلي من أصل بروسي . أحد مؤسسي ديانة العقل . المرء -

(٢) درسنا هذه الحالات في الاقسام السابقة ( المرء )

جميعها تقريباً ، كانت قاتلة بشر . ولكن بعضها مارس ، زيادة على ذلك ، قتل الملك وقتل الإله . وبما ان تاريخ التمرد الماورائي بدأ مع المركيز ساد ، لذلك يبدأ موضوعنا الحقيقي فقط مع قتل الملوكة ، مع معاصريه ، الذين هاجموا التجسد الإلهي (١) ، دون ان يملكوا بعدُ الجرأة على قتل المبدأ الخالد (٢) . ولكن تاريخ البشر ، آنفاً ، يظهر لنا ايضاً مثل أول حركة تمرد ، حركة العبد .

### تمرد سبارتاكوس

تمرد العبد على السيد

حينما يتمرد العبد على السيد، ثمة انسان يتمرد ضد انسان آخر، على الارض الباغية ، بعيداً عن سماء المبادئ . فتكون النتيجة فقط قتل انسان . إن فتن العبيد ، وانتفاضات الفلاحين، وحروب الصعاليك، وتمردات اهل الريف، تضع في الخط الاول مبدأ تعادل، حياة مقابل حياة ؛ وهو مبدأ سنجدده دائماً ، رغم كل الجسارات وكل التعميمات، في أصفى أشكال الروح الثورية، في الحركة الارهابية الروسية عام ١٩٠٥ مثلاً .

معنى تمرد سبارتاكوس

إن تمرد سبارتاكوس في نهاية العالم القديم، وقبل التاريخ المسيحي بعشرات السنين ، هو بهذا الخصوص أنموذجي . نلاحظ أولاً ان المسألة مسألة تمرد معارفين ، أي : تمرد عبيد نذروا للبارزات الفردية ، ومحكوم عليهم بأن يقتلوا . أو يقتلوا في سبيل متعة الاسياد . هذا التمرد الذي ابتداء بسبعين شخصاً ، انتهى بجيش جرار قوامه سبعون ألفاً من العصاة حطموا خيرة الفيالق الرومانية ، وتوغلوا في ايطاليا ليزحفوا نحو المدينة الخالدة (١) بالذات . مع ذلك ، لم يأت

(١) ملك الحق الإلهي (المعرب)

(٢) الله (المعرب)

(١) روما - المعرب -

هذا التمرد ، كما لاحظ اندريه برودومو<sup>(١)</sup> ، بأي مبدأ جديد في المجتمع الروماني . إن النداء الذي وجهه سبارتاكوس اكتفى بأن يعد العبيد بـ «حقوق متكافئة» . هذا الانتقال من الواقع الى الحق ، والذي حللناه في حركة التمرد الاولى ، هو في الحقيقة المكتسب المنطقي الوحيد الذي يمكننا أن نجد عند هذا المستوى من التمرد . فالعاصي يطرح العبودية ويؤكد نفسه مساوياً للسيد . إنه يريد أن يكون سيداً بدوره .

#### سبب التراجع

إن تمرد سبارتاكوس يوضح دائماً مبدأ المطالبة المذكور . فجيش العبيد يحرر العبيد، ويدخل فوراً اسيادهم القدماء تحت نير عبوديتهم . بل ثمة رواية ، مشكوك فيها في الحقيقة ، تذهب الى ان هذا الجيش نظم معارك مصارعة بين عدة مئات من المواطنين الرومانيين، وأجلس العبيد على المدرجات، وهم يهذون فرحاً وهيجاناً . ولكن قتل البشر لا يؤدي الى شيء، اللهم إلا الى قتل المزيد منهم . ولتأمين انتصار مبدأ ، يجب القضاء على مبدأ . إن المدينة الفاضلة التي كان يحلم بها سبارتاكوس ، ما كان بوسعها ان ترتفع إلا على انقاض روما الخالدة وآلهتها ونُظُمها . لقد زحف جيش سبارتاكوس في الحقيقة لتطويق روما التي أصابها الذعر ، إذ كان عليها ان تدفع ثمن ما اقترفت من جرائم . ومع ذلك ، في هذه اللحظة الحاسمة ، وامام الاسوار المقدسة ، تجمد الجيش ثم ارتد<sup>(٢)</sup> ، كما لو كان يتراجع امام المبادئ ، امام النظام ، امام مدينة الآلهة . والحقيقة ، بعد الانتهاء من تدمير المدينة ، ماذا يقام محلها ، ما خلا هذه الرغبة المتوحشة في العدالة ، وهذا القلب الجريح المستثار الذي جعل هؤلاء المساكين ينتصبون حتى الآن<sup>(٣)</sup> ؟ على كل ، انسحب الجيش ، دون ان يجارب ، وقرر اذن

(١) La Tragédie de Spartacus . Cahiers Spartacus

(٢) انظر في الصفحات السابقة تحت عنوان : الثورة والعكرة (المغرب)

(٣) ان تمرد سبارتاكوس يرجع في الحقيقة الى برنامج تمردات العبيد السابقة . ولكن هذا البرنامج يتلخص في تقسيم الاراضي والغاء العبودية . ولا يتم مباشرة آلهة المدينة .

- بحركة غريية - ان يعود الى منبت تمردات العبيد ، وان يمشي القهقري على طريق انتصاراته الطويل ، وان يرجع الى عقلية . حتى لكأن هؤلاء المحرومين ، وقد اصبحوا وحيدين بعد الآن وعزلاً امام المهام الكبرى التي كانت في انتظـارهم ، واصابهم القنوط امام هذه الساء الواجب مهاجتها ، عادوا الى اصفى تاريخهم وأدثته ، على ارض الصرخات الاولى حيث كان الموت سهلاً ميموناً .

حساب العبد  
وحساب السيد

حينئذ بدأ الانكسار والاستشهاد . وقبل المعركة الاخيرة ، صلب سبارتاكوس مواطناً رومانياً ليعيط رجاله علماء بما ينتظرهم من مصير . وخلال القتال ، وبحركة حائقة لا يسعنا ان لا نرى فيها رمزاً ، حاول هو نفسه دون انقطاع ان يبلغ كراسوس قائد الجحافل الرومانية . انه يريد ان يهلك ، ولكن في مبارزة فردية مع ذلك الذي يمثل ، في هذه اللحظة ، كل الالسياد الرومانيين . انه يقبل بالموت ولكن في أسى مساواة . انه لن يبلغ كراسوس : فالبادىء نحمـ ارب عن بُعد ، والقائد الروماني يظل منعزلاً . سيموت سبارتاكوس ، كما اراد ، ... ولكن تحت ضربات الجنود المرتزقة ، العبيد مثله ، والذين يقضون على حريتهم وعلى حريته . أما مقابل المواطن الروماني الوحيد المصلوب ، فيعذب كراسوس آلاف العبيد . ان الستة آلاف صلياً التي ، بعد الكثير من التمردات العادلة ، تمتد على طول الطريق من كابو الى روما ، تثبت لجمهرة العبيد ان لا وجود للتعاقد في عالم القوة ، وان الالسياد يقدرون ثمن دمهم الخاص اضعافاً مضاعفة .

دور الوسيط ،  
خلق التجرد

الصليب هو أيضاً عذاب المسيح . يمكننا ان نتصور ان المسيح ، بعد هذه الحادثة بضع سنوات ، لم يصطف عقاب العبد إلا ليختصر هذه المسافة الفظيعة

التي صارت بعد الآن تفصل مخلوق المهان عن وجه الإله الحقود . انه يقوم بدور الوسيط ، ويتعرض بدوره لأقصى ظلم ، كي لا يقسم التمرد العالم الى قسين ، وكي ينتقل الألم ايضاً الى السماء وينتشلها من لعنة البشر . فمن ذا الذي يدهش ان يكون الروح الثوري ، إذ اراد بعدئذ تأكيد فصل السماء والارض ، قد بدأ بخلع التجسد عن الألوهية ، وذلك بقتل ممثليها على الارض .

في عام ١٧٩٣<sup>(١)</sup> ، بصورة ما ، انتهت أزمته التمرد وابتدأت الازمنة الثورية ... على مقصلة<sup>(٢)</sup> .

- (١) عام اعدام الملك لويس السادس عشر (المغرب)
- (٢) بما ان هذه الدراسة لا تهتم بروح التمرد ضمن المسيحية ، لذلك لا مكان فيها لحركات الإصلاح الديني (لوثير وكالمان) ، ولا للتمردات العديدة السابقة ضد السلطة الكنسية . ولكن يمكننا ان نقول على الاقل ان حركات الإصلاح مهدت لديماغوجية دينية وانها بدأت ، بوجه ما ، ما سبقيه عام ١٧٨٩



## قتل الملوك

قلب مبدأ الحق الإلهي

لقد قتل ماوك قبل ٢١ كانون الثاني ١٧٩٣ بكثير ، وقبل قتل الملوك في القرن التاسع عشر . ولكن رافايك و داميان (١) وأقرانها ، كانوا يريدون إصابة شخص الملك ، لا المبدأ . كانوا يتبنون مملوكاً آخر ، أو لا شيء ، ولكنهم لم يكونوا ليتصوروا إمكان بقاء العرش شاغراً على الدوام . إن ١٧٨٩ تقع في مفرق الازمنة الحديثة ، لأن رجال ذلك الزمان أرادوا ، في جملة ما أرادوا ، أن يقبلوا مبدأ الحق الإلهي ، وأن يدخلوا في التاريخ قوة الانكار والتمرد التي تشكلت في الصراعات الفكرية في القرون الاخيرة ، فأضافوا الى القتل التقليدي للطاغية ، قتل الإله استناداً الى حجج ورايين . إن الفكر المسمى بالمحدد ، فكر الفلاسفة وفقهاء القانون ، مدّ هذه الثورة (٢) بالقوة المعنوية . وكما يصبح هذا المشروع ممكناً ، ويشعر بشرعيته ، وجب أن تقف الكنيسة وهذه هي مسؤوليتها اللامتناهية -- بجانب الأسياد ، آخذة

(١) رافايك : قتل الملك هنري الرابع ، وكان مصيره الاعدام .

داميان : ضرب الملك لويس الخامس عشر بالموسى ، وحكم عليه بالاعدام (المعرب)

(٢) ولكن الملوك اسهموا فيها ، بفرضهم السلطة السياسية على السلطة الدينية تدريجياً ، مهدمين . بهذه الصورة مبدأ شرعيتهم بالذات .

على عاتقها إزال العذاب ، وذلك بجرمة تفتحت في محاكم التفتيش واستمرت في الاشتراك في الذنب مع القوى الدينية . ولم يخطئ ميشليه عندما لم يشأ أن يرى في الملحمة الثورية سوى بطلين اثنين : المسيحية والثورة . ان ١٧٨٩ تفسر ، في نظره ، بالصراع بين العون والعدالة . وعلى الرغم من انه كان يميل ، مع عصره المتطرف ، الى التجريدات الكبرى ، فقد وجد هنا احد الاسباب العميقة للأزمة الثورية .

#### العدالة والعون

فلئ لم تكن ملكية النظام القديم دائماً استبدادية في حكمها ، فقد كانت ولا شك استبدادية في مبدئها . كانت ملكية تستند الى الحق الإلهي ، أي : لا مرجع بعدها فيما يتعلق بشرعيتها . بيد ان هذه الشرعية كثيراً ما أنكرت ، ولا سيما من قبل البرلمانات . ولكن ممارسي هذه الشرعية ، كانوا يعتبرونها ويقدمونها كحقيقة بديهية . فلويس الرابع عشر ، فيما نعلم ، كان حازماً حول هذا المبدأ<sup>(١)</sup> . وساعده في ذلك بوسويه الذي كان يقول للملوك : « انتم آلهة » . فالملك ، من احد وجوهه ، الوكيل الإلهي للشؤون الدينية ، وبالتالي للعدالة . انه ، كالله نفسه ، المرجع الاخير لأولئك الذين يعانون البؤس والظلم . أما الشعب فقبي وسعه مبدئياً ان يرجع الى الملك ضد مضطهديه . « آه لو كان الملك يعرف ... لو كان القيصر يعرف ... » . هذا هو في الحقيقة الشعور الذي غالباً ما عبّر عنه الشعبان الفرنسي والروسي في فترات البؤس . صحيح -- في فرنسا على الاقل -- ان الملكية عندما كانت تعلم ، كثيراً ما حاولت أن تدافع عن الجماعات الشعبية ضد اضطهاد العظماء والبورجوازيين . ولكن هل كانت هذه هي العدالة ؟ كلا ، من وجهة النظر المطلقة ، وهي وجهة نظر كتاب ذلك العصر . فاذا كان في وسع الفرد التقدم بشكوى الى الملك ، فليس في وسعه التقدم بشكوى ضده ، بوصفه مبدأ . لأنه بمنع مساعدته اذا أراد وحينما

(١) كان شارل الاول متمسكاً بالحق الإلهي لدرجة انه لم يكن يؤمن بلزوم العدل والانحلال ازاء منكري هذا الحق .

يريد . إن الارادة المطلقة احدى خصائص العون الرباني . والملكية في شكلها اللاهوتي حكمٌ يريد ان يضع العون فوق العدالة ، تاركاً له دائماً القول الفصل . أما إعلان عقيدة النائب الأسقفي السافوي<sup>(١)</sup> ، فليس فيه من أصالة سوى انه 'يخضع الله للعدالة ، ويدشن بالتالي بمخاوة ذلك العهد الساذجة بعض الشيء . - التاريخ المعاصر .

### مراع العدالة والعون

والحقيقة ، ما أن يجعل الفكر المالحد 'الله' موضوع البحث ، حتى يدفع مشكلة العدالة الى المقدم . ام الاول . على أن العدالة آنذاك كانت تختلط مع المساواة . إن الله بنرجرج ، أما العدالة فينبغي لها ، ككيا تؤكد ذاتها في المساواة ، أنت . تسدد اليه الضربة الاخيرة ، بمهاجتها بمثله على الارض هجوماً مباشراً . على كل ، إنه اتهديم' للحق الإلهي ان نعارضه بالحق الطبيعي ، وان نجبره على الساهل معه خلال ثلاث سنوات ، من ١٧٨٩ حتى ١٧٩٢ . فالعون لا يسعه ان ينساهل في النقطة الاخيرة . يمكنه ان يتنازل عن بعض النقاط ، ولكن لا يمكنه ابدأ ان يتنازل عن آخر نقطة . على ان هذا لا يكفي . يعتقد ويشليه أن ليس السادس عشر ، وهو في سجنه ، كان لا يزال يريد ان يكون ملكاً . وفي مكان ما ، في فرنسا المبادئ الجديدة ، كان المبدأ المقهور مستمرًا اذن بين جدران أحد السجون ، بمجرد قوة الوجود والايان . ان العدالة نقطة مشتركة مع العون وهذه النقطة فقط وهي انها تريد ان تكون تامة ، وان تسود سيادة مطلقة . وما ان يتنازعا، فانها يتصارعان حتى الموت . قال دانتون الذي لم يكن ملك لياقة الحقوقين الأدبية : « نحن لا نريد إدامة الملك ، بل نريد قتله » . فاذا ما أنكسر الله ، في الحقيقة ، ونجب قتل الملك . إن سان - بوسب ، وما يبدو ، أمر بقتل لويس السادس عشر ، ولكن عندما

(١) راجع : روسو ، حياته ، فلسفته . تأليف اندريه لريون . سلسلة « زدن علماء » رقم ٢٦ - نيويورك عويدات

هتف قائلاً : « إن تحديد المبدأ الذي بموجبه ربما سيموت المتهم ، معناه تحديد المبدأ الذي يقوم عليه المجتمع الذي يدينه » ، أثبت أن الفلاسفة هم الذين سيقتلون الملك : على الملك أن يموت بإسم العقد الاجتماعي<sup>(١)</sup> .  
ولكن هذا يتطلب التوضيح .

## ١ - الانجيل الجديد

العقد الاجتماعي والسلطة

العقد الاجتماعي<sup>(٢)</sup> هو قبل كل شيء بحث حول شرعية السلطة . واجبه كتاب يتناول الحق لا الوقائع<sup>(٣)</sup> ، لذلك لا يشكل مجموعة من الملاحظات الاجتماعية ، في أي وقت من الاوقات . انه يتكلم في المبادئ ، وبذلك بالذات ، يشكل إنكاراً . ويفترض ان الشرعية التقليدية ، المفترضة بأنها من أصل إلهي ، لم تصبح في حكم المكتسبة . ويبشر إذت بشرية اخرى وبمبادئ أخرى .

والعقد الاجتماعي هو ايضاً كتاب تعاليم ، له نبرة مثل هذا الكتاب ولغته المتمذهبة الجازمة . وبما ان ١٧٨٩ أكملت انتصارات الثورتين الانكليزية والاميركية ، فقد سار روسو بنظرية العقد التي نجدها عند هوبز ، الى نهايتها المنطقية . إن العقد يوسع ويسرد سرداً متمذهباً هذا الدين الجديد الذي جعل إلهه العقل ، المختلط مع الطبيعة<sup>(٤)</sup> ؛ واعتبر الشعب ممثله على الارض بدلاً عن

- (١) ما كان روسو يريد ذلك طبعاً . يجب ان نضع في بداية هذا التحليل ، كي نعطيه حده ، ما اعلنه روسو بحزم : « ليس من شيء على هذه الارض يستحق ان يشتري بدم البشر » .
- (٢) راجع تيارات الفكر الفلسفي ، ص ٢٤٧ - المغرب .
- راجع ايضاً : الادب الثوري في القرن الثامن عشر ، تأليف نهاد رضا ص ٦٩
- (٣) راجع : مقالة في التفاوت . « للنبأ اذن يزاوجة جميع الوقائع ، لأنها لا تمس الموضوع اطلاقاً » .
- (٤) يقصد التوحيد توحداً ذاتياً مع الطبيعة (القطرة) - المغرب -

الملك ، ناظراً الى الشعب من خلال مشيئته العامة .

مصدر السلطة

إن المهجوم ضد النظام التقليدي من الوضوح بحيث ان روسو يسعى ، منذ الفصل الاول ، لان يُثبت اسبقية ميثاق المواطنين ( الذي يوطد الشعب ) على ميثاق الشعب والملك ( الذي يوطد الملكية ) . حتى صدور العقد ، كان الله يصنع الملوك الذين كانوا بدورهم يصنعون الشعوب . واعتباراً من العقد الاجتماعي ، صارت الشعوب تصنع نفسها قبل ان تصنع الملوك . أما الله فلم يعد موضوع البحث ، موقتاً . لدينا هنا ، على الصعيد السياسي ، مثل ثورة نيوتون . لم يعد مصدر السلطة اذن في التحكم ، وانما في القبول العام . وبتعبير آخر ، لم تعد السلطة ما هي ، بل ما ينبغي لها ان تكون . ولحسن الحظ ، في اعتقاد روسو ، ما هو ، لا يمكن ان يفصل عما ينبغي له ان يكون . إن الشعب صاحب السيادة ، « لا لشيء إلا لأنه دائماً كل ما ينبغي له ان يكون » . إزاء هذه المحاكمة التي تفترض ما يُطلب برهانه... ، يمكننا ان نقول ان العقل الذي كان يُتذرع به آنذاك باصرار ، لا يوفى حقه . وواضح اننا ، مع العقد الاجتماعي ، نشهد ولادة نزعة صوفية ، لأن المشيئة العامة يسلم بها كالله نفسه . يقول روسو : « يضع كل واحد منا شخصه وكل قدرته مشاركة ، تحت الاشراف الأعلى للمشيئة العامة <sup>(١)</sup> ، وتتلقى بالجملة كل عضو ، كجزء لا يتجزأ من الكل » .

الإله الجديد : المشيئة العامة

هذه الذات السياسية ، وقد اصبحت صاحبة السيادة ، معرفة هي ايضاً كذات إلهية . وهي على كل ، تملك جميع خصائص الذات الالهية . انها معصومة في الحقيقة ، لأن صاحب السيادة لا يسعه ان يريد اساءة الاستعمال . « في ظل شريعة العقل ، لا شيء يُفعل بلا سبب » . وهي حرة تماماً ، اذا صح ان

(١) راجع تيارات الفكر الفلسفي ، ص ٢٤٨ « اساس النظرية » - المغرب

الحرية المطلقة هي الحرية نحو الذات . إن روسو يعلن بأنه أمر "مخالف" لطبيعة الهيئة السياسية أن يفرض صاحب السيادة على نفسه قانوناً لا يستطيع مخالفته . وهي أيضاً لا توهب ولا تتجزأ ، بل تستهدف أخيراً حل المشقة الكلاسيكية اللاهوتية الكبرى ، ونعني التناقض بين القدرة الكلية والبرائة الإلهية . إن المشيئة العامة ملزمة في الحقيقة ، وقوتها بلا حدود . ولكن العقاب الذي ستفرضه على من يرفض الامتثال لها ، ليس سوى طريقة لـ « إجباره على ان يكون حراً » . ويكتمل التأليه حينما يصل روسو ، إذ يفصل صاحب السيادة عن أصله بالذات ، الى تمييز المشيئة العامة عن مشيئة الجميع (١) . يمكننا استنتاج ذلك منطقياً من مقدمات روسو . فاذا كان الانسان صالحاً بالطبع ، واذا كانت الطبيعة فيه تتوحد ذاتياً مع العقل ، فيعبر عن كمال العقل ، ولكن بشرد واحد : ان يعبر عن أفكاره تعبيراً حراً طبيعياً . إنه إذن لا يعود قادراً على الرجوع عن قراره الذي سيحوم فوقه بعد الآن . المشيئة العامة هي أولاً التعبير عن العقل الكلي ، وهو مؤكد تأكيداً مطلقاً .

لقد وُلد الإله الجديد .

#### العقيدة المدنية

لهذا السبب نجد ان الكلمات التي كثيراً ما تتردد في العقد الاجتماعي هي كلمات : « مطلق » ، « مقدس » ، « مصون » . إن الهيئة السياسية المعروفة على هذه الصورة ، والتي يُعتبر قانونها بمثابة وصية مقدسة ، ليست سوى بديل عن الهيئة الصوفانية في المسيحية الدنيوية . على كل ، ينتهي العقد الاجتماعي في وصف ديانة مدنية ، ويجعل من روسو سباقاً الى التبشير بالمجتمعات المعاصرة التي لا تزيج المعارضة فحسب ، بل تزيج أيضاً الحياد . والحقيقة ان روسو هو الاول في الازمنة الحديثة الذي وضع إعلان العقيدة المدنية ، والاول الذي برر عقوبة الاعدام في مجتمع مدني ، وخضوع الفرد خضوعاً مطلقاً لسلطان صاحب

(١) راجع تيارات الفكر العلمي . ص ٢٤٩ : « مع المشيئة العامة » - المذهب

السيادة . « كي لا يذهب المرء ضحية قاتل ، فانه يرضى بالموت اذا اصبح في عداد القتلة » . إنه لتبرير "غريب" ، ولكنه يقرر تقريراً صارماً بأنه يجب على المرء ان يعرف كيف يموت اذا أمر بذلك صاحب السيادة ، وان عليه - اذا اقتضت الحال - ان يعطيه الحق ضد ذاته . هذا المفهوم الصوفاني يبرر صمت سان جوست منذ توقيفه حتى ساعة اعدامه على المقصلة . فاذا ما جرى توضيحه توضيحاً ملائماً ، فانه يفسر تصرف المتهمين المتحمسين خلال المحاكمات التي جرت في عهد ستالين .

دين جديد ...  
ومقاصد جديدة

نحن هنا في فجر ديانة جديدة لها شهادتها ونسائها وقد تبسوها . فكما نحن الحكم على تأثير هذا الانجيل الجديد ، وجب ان نملك فكرة عن الالهجة المستوحاة من إعلانات ١٧٨٩ . ان الأب فوشيه وقف امام عظام الموتى التي اكتشفت في الباسنيل وهتف قائلاً : « لقد أزفت ساعة الكشف والتعجب ، ... إن العظام نهضت لدى سماع صوت الحرية الفرنسية . انها تشهد ضد قرون الاضطهاد والموت ، وتنبئ بتجدد الطبيعة البشرية وحياة الامم » . وتكهن حينئذ قائلاً : « لقد بلغنا وسط الزمان . وقد اينعت رؤوس الطغاة » . إنها لحظة الايمان المدهش ، الحير ، اللحظة التي يقلب فيها شعب عظيم رافع المقصلة ودولاب التعذيب في فرساي<sup>(١)</sup> . فالمقاصد تبدو كمعابد الدين والظلم . لذلك لا يمكن المدين الجديد ان يتحملها . ولكن ثمة لحظة تحل ، وحينئذ نرى الدين الجديد ينصب - اذا ممسأ أصبح متمدناً بدوره - معابده الخاصة ويتطلب العبادة غير المشروطة . إذ ذاك تعود المقاصل الى الظهور . وعلى الرغم من المعابد والحرية ، وعلى الرغم من عهود العقل واعياده ، لا بد من إقامة قداسات الدين الجديد في الدماء . وفي كل الاحوال ، كي تشير ١٧٨٩ الى بداية سلطات

(١) رأينا نفس الظاهرة في روسيا عام ١٩٠٥ حين طاف المراد سوفيات سان بطرسبرغ بلافتات مطالبين بالقضاء على عقوبة الاعدام ، وفي عام ١٩١٧ ايضاً .

« الانسانية المقدسة »<sup>(١)</sup> و « سيدنا الجنس البشري »<sup>(٢)</sup> ، يجب أولاً ان يختفي صاحب السيادة الخاوع . إن قتل الملك ... الكاهن<sup>(٣)</sup> سيثبت العصر الجديد الذي ما يزال قائماً .

## ٢ - إعدام الملك

سان جوست ومحور برهانه

لقد أدخل سان جوست آراء روسو في التاريخ . فخلال محاكمة الملك ، كان المحور الأساسي لبرهانه يقوم على ما يلي : ليس الملك مصنوعاً ، ويجب ان يحاكم من قبل المجلس ، لا من قبل محكمة . أما حججه فمدن بها لروسو . لا يجوز لمحاكمة ما ان تقوم بدور القاضي بين الملك وصاحب السيادة . ولا يجوز مقاضاة المشيئة العامة أمام قضاة عاديين . إنها فوق الاشياء جميعاً . لقد أعلنت إذن حرمة هذه المشيئة ورفعتها . ومعلوم ان الفكرة الكبرى في المحاكمة كانت ، بالعكس ، حرمة الذات الملكية . وقد تجلى الصراع بين مبدأي العون والعدالة في أقوى صورة له عام ١٧٩٣ ، حيث تقابل حتى الموت مفهومان في الحرمة والرفعة . مهما يكن من أمر ، فقد لاحظ سان جوست عظم المدار ، قال : « الروح التي سيدان الملك بموجبها ، ستكون نفس الروح التي ستبنى بموجبها الجمهورية » .

نظريته الاتهامية

إن الخطاب الشهير الذي ألقاه سان جوست يملك إذن كل مظاهر الدراسة اللاهوتية . « لويس غريب بيننا » ، تلك هي نظرية المتهم الشاب . لو كان هناك عقد ، طبيعي أو مدني ، لا يزال قادراً على ان يربط الملك وشعبه ، لكان هناك التزام متبادل ، ولما أمكن لمشيئة الشعب ان تدعي بأنها قاضٍ

(١) فيرجيليو ، سياسي فرنسي اعدم عام ١٧٩٣

(٢) آنا كارستيس كلوتس ، ثوري فرنسي من اصل بروسي . احد مؤسسي ديالة العقل .

(٣) يقصد : ملك الحق الإلهي (المعرب)



مطلق ، لتصدر الحكم المطلق (١) . المقصود إذن هو اثبات عدم وجود صلة تربط الشعب بالملك . ولإقامة البرهان على ان الشعب هو في حد ذاته الحقيقة الخالدة ، لا بد من اظهار الملكية على انها في حد ذاتها جريمة خالدة . يفترض سان جوست إذن كحقيقة بديهية ان كل مَلِك هو عاصٍ أو مغتصب . إنه عاصٍ على الشعب ، ويغتصب منه سيادته المطلقة . الملكية ليست ابدأ مَلِكاً ، « انها الجريمة » . انها ليست جريمة ، بل ... الجريمة ، فيما يقول سان جوست ، أي انها الانتهاك المطلق . إنه المعنى الدقيق والاخير في الوقت نفسه لكلمة سان جوست ، هذه الكلمة التي 'وسّع مدلولها توسيعاً مفرطاً' (٢) . « لا احد يستطيع أن يتقلد الملك ببراءة » . كل ملك مذنب ، وبمجرد ما يدعي المرء بأنه ملك ، يُنذر للموت في الحال .

لويس لويس مواطناً

إن سان جوست يقول تماماً نفس الشيء حينما يثبت بعدئذ ان سيادة الشعب « شيء مقدس » . المواطنون هم فيما بينهم مصونون ومقدسون ، ولا يسعهم ان يجبروا بعضهم بعضاً إلا بواسطة القانون ، المعبر عن المشيئة المشتركة. لويس ، وحده ، لا يستفيد من هذه الحرمة الخصوصية ومن مساعدة القانون ، لأنه واقع خارج نطاق العقد . إنه ليس ابدأ طرفاً في المشيئة العامة ، لأنه ، بالعكس ، بحكم وجوده بالذات ، يهدف هذه المشيئة القادرة على كل شيء . انه ليس « مواطناً » ، ... الوسيلة الوحيدة للاسهام في الألوهية الناشئة . « ما الملك إزاء أحد الفرنسيين ؟ ا » .

يجب اذن ان يحاكمكم ، وان يحاكمكم فقط .

.....

(١) يقصد الاعداد (المرب)

(٢) أو ، على الاقل ، الكلمة التي حدد معناها مسبقاً . وعندما لفظ سان جوست هذه الكلمة ، لم يكن بعد ليعرف انه يتكلم سلفاً من اجل نفسه .

ولكن من سيفسر هذه المشيئة وسيصدر الحكم ؟ المجلس ، الذي يملك بحكم نشأته تفويضاً عن هذه المشيئة ، والذي يُسهم - وهو المجمع الملائم - في الألوهية الجديدة . هل سيجري بعدئذ الحصول على مصادقة الحكم من قبل الشعب ؟ معلومٌ ان معنى الملكيين في المجلس تناول في النهاية هذه الناحية . بهذه الصورة ، كان بالإمكان انقاذ حياة الملك من منطلق الحقوقيين - البورجوازيين ، لتُسلم على الاقل لأهواء الشعب العفوية ولشفقته . ولكن سان جوست ، هنا ايضاً ، سار بمنطقه حتى نهاية الشوط واستخدم التضاد الذي ابتدعه روسو بين « المشيئة العامة » و « مشيئة الجميع » . حتى لو صفح الجميع ... فان المشيئة العامة لا تستطيع ذلك . الشعب بالذات لا يستطيع ان يمسح جريمة الطغيان . ألا تستطيع الضحية ، قانوناً ، ان تسحب شكواها ؟ نحن لسنا في حقل القانون ، بل في حقل اللاهوت . جريمة الملك هي في نفس الوقت جريمة ضد النظام الأسمى . الجريمة تُرتكب ، ثم تلاقي الغفران أو العقاب أو النسيان . ولكن جريمة المملوكية دائمة . انها مرتبطة بشخص الملك ، بوجوده . ولئن كان المسيح بالذات قادراً على الصفح عن المذنبين ، فانه لا يستطيع ان يغفر للآلهة المزيفة . على هؤلاء أن يزولوا أو ان ينتصروا . واذا ما صفح الشعب اليوم ، فانه واجدٌ غداً الجريمة كاملة غير منقوصة ، حتى لو كان المجرم نائماً في هدأة السجون .

ليس هناك إذن سوى مخرج واحد : « الذبح أو لمقتل الشعب ، يموت الملك » .

#### زوال الآلهة

لم يستهدف خطاب سان جوست سوى سد جميع المنافذ على الملك ، واحداً فواحداً ، إلا المنفذ المؤدي الى المقصلة . فاذا ما قبلت مقدمات العقد الاجتماعي ، في الحقيقة ، فهذه الأمثلة تكون حتمية منطقياً . وبعده ، أخيراً ، « سيهرب الملوك الى الصحراء ، وستستعيد الطبيعة حقوقها » . عبنياً صوتت حكومة

الاتفاق على تحفظ ، وزعمت انها لا ترى رأياً مسبقاً اذا ما أدانت لويس السادس عشر أو اذا اصدرت لإجراء أمن . كانت آنذاك تتهرب من مبادئها الخاصة ، وكانت تحاول ان تخفي ، بنفاق منكرد ، مشروعها الحقيقي ، ونعني إرساء أسس الحكم المستبد الجديد . إن جاك رو كان على الاقل بماشياً لحقيقة الساعة إذ سمى الملك بـ «لويس الاخير» ، مدلاً بهذه الصورة على ان الثورة التي سبق لها ان جرت على مستوى الاقتصاد ، كانت تتم آنذاك على مستوى الفلسفة ، وانها زوال الآلهة .

لقد هوجمت حكومة ظل الإله عام ١٧٨٩ في مبدئها ، وقضي عليها عام ١٧٩٣ في تجسدها (١) . وصدق بريسو (٢) إذ قال : « الفلسفة ارسخ صرح في ثورتنا » (٣) .

على مفرق التاريخ

في ٢١ كانون الثاني ، بقتل الملك الكاهن ، انتهى ما سمي تسمية ذات دلالة ، عذاب لويس السادس عشر . حقاً انه لمن العار أن يكون القتل العلني لانسان ضعيف طيب ، قد صور على انه لحظة كبرى في التساريخ الفرنسي . هيات ان تشير هذه المقصلة الى قمة . ولكن هذا لا يمنع ان الحكم على الملك ، بحيثياته ونتائجها ، يقع على مفرق تاريخنا المعاصر . انه يمثل نزع القدسية عن هذا التاريخ ، ورفع التجسد عن الإله المسيحي . حتى الآن ، كان الله يتدخل في التاريخ بواسطة الملوك . ولكن بمثله التاريخي قد قتل ، ولم يعد هناك ملك . لم يعد هناك إذن سوى صورة إله معزول في سماء المبادئ (٤) .

موت لويس الحق الإلهي

في وسع الثوريين أن ينتسبوا الى الانجيل . ولكنهم في الواقع سددوا الى

(١) أي : باعدام ملك الحق الإلهي (المغرب) .

(٢) بريسو : احد رؤساء الجيروديين ، ضربت عنقه عام ١٧٩٣ (المغرب) .

(٣) حرب مقاطعة الفندة ، الحرب الدينية ، اعطته الحق ايضاً .

(٤) سيكون إله كسط و يعقوب و فنته .

المسيحية ضربة فظيعة لم تنهض منها بعد . يبدو حقاً أن اعدام الملك المتبوع ،  
 فيما نعلم ، بمشاهد انتحار وجنون عصبية ، قد جرى بتامه في وعي للأحداث .  
 ويبدو أن لويس السادس عشر شك أحياناً في حقه الإلهي ، وإن رفض كل  
 مشاريع القوانين التي كانت تمس اعتقاده . ولكن ما ان قدر أو عرف مصيره ،  
 حتى توحد ذاتياً فيما يبدو - وان كلامه ليبن ذلك - مع مهته الإلهية ، كي  
 يقال ان الاعتداء على شخصه يستهدف الملك - المسيح ، التجسد الإلهي ،  
 لا جسد الانسان المذعور . كان كتابه المفضل في سجنه كتاب الاقتداء  
 بالمسيح <sup>(١)</sup> L'Imitation . إن هدوء وكإل هذا الانسان ، ذي الحساسية  
 المتوسطة مع ذلك ، في لحظاته الاخيرة ، وملحوظاته العادية حول كل ما له  
 علاقة بالعالم الخارجي ، واخيراً خوره القصير على المقصلة ، امام هذا الطبل  
 الرهيب الذي كان يغطي صوته ، بعيداً جداً عن هذا الشعب الذي كان يأمل  
 ان يسمع نداءه ، ... كل ذلك يدفع الى الاعتقاد ان هذا الذي يموت ، ليس  
 كابيت <sup>(٢)</sup> ، بل لويس الحق الإلهي ، ومعه بصورة ما المسيحية الدنيوية . وكما  
 يؤكد معلم الاعتراف هذا الرباط المقدس بشكل افضل ، دعم لويس في وهنه ،  
 مذكراً إياه بـ « شبهه » مع إله الألم <sup>(٣)</sup> . حينئذ تماثل لويس السادس عشر  
 نفسه ، عائداً الى كلام هذا الإله ، قال : « سأتجرع كأس الآلام حتى الثمالة » .  
 ثم استسلم مرتجفاً ليدي الجلاد اللثيمين .

### ٣ - دين الفضيلة

التبشير بهاد حديد

ولكن الدين الذي يقضي بهذه الصورة على صاحب السيادة القديم ، عليه

- .....
- (١) كتاب غفل من اسم المؤلف ، مكتوب باللغة اللاتينية (المغرب)
  - (٢) اطلق هذا الاسم على لويس السادس عشر رسمياً بعد انهاء الملكية (المغرب)
  - (٣) المسيح (المغرب)

الآن ان يبنى سلطان الجديد . انه يفتق ابواب الكنيسة ، الأمر الذي يدفعه الى السعي الى بناء معبد . إن دم الآلهة ، الذي يلطخ لحظة كاهن لويس السادس عشر ، يبشر بعهد جديد . كان دي ميستر ينعت الثورة بأنها شيطانية . ونحن ندرك لأي سبب ، وبأي معنى . بيد ان ميشليه كان أقرب الى الحقيقة إذ سمى الثورة مَطْهَرًا . ثمة عصرٌ يدخل في هذا النفق بصورة عمياء ليكتشف نوراً جديداً ، وسعادة جديدة ، ووجه الإله الحقيقي .

ولكن من سيكون هذا الإله الجديد ؟ فلنتوجه بالسؤال الى سان جوست أيضاً .

من الإله القديم  
الى الإله الجديد...

١٧٨٩ ما زالت لا تؤكد ألوهية الانسان ، بل ألوهية الشعب ، بقدر ما تتطابق مشيئته مع مشيئة الطبيعة والعقل . فاذا ما عبرت المشيئة العامة عن رأيها بشكل حر ، فلا يسعها ان تكون سوى التعبير الشامل عن العقل . واذا كان الشعب حرّاً ، فهو معصوم . لقد مات الملك ، ونحطت سلاسل الطغيان القديم ، لذلك سيعبر الشعب عن الحقيقة كما كانت وتكون وستكون في كل زمان ومكان . انه الهاتف بالغيب ، الذي يجب استشارته لمعرفة ما يتطلبه النظام الابدي للعالم . صوت الشعب ، صوت الطبيعة . ثمة مبادئ خالدة تتحكم بمسلكنا : الحقيقة ، العدالة ، العقل اخيراً . هوذا الإله الجديد . إن الكائن الاسمي الذي كانت تعبده جموع الفتيات إذ يحتفلن بالعقل ، ليس سوى الإله القديم ، وقد خلع عنه تجسيده ، وقطع فجأة عن كل ارتباط بالارض ، وأرسل كالبالون في السماء الفارغة ، سماء المبادئ الكبرى . إن إله الفلاسفة والمحامين ، المحروم من مثليه ، ومن كل وسيط شفيع ، ليس له سوى قيمة برهات . إنه ضعيف جداً في الحقيقة ، لذلك ندرك لماذا اعتقد روسو .. وهو الذي كان يبشر بالتسامح .. انه يجب الحكم مع ذلك على الملحدن بالموت . فكّي

تُعبد إحدى النظريات ردها طويلاً من الزمن ، لا يكفي مجرد الإيمان ، بل لا بد أيضاً من وجود شرطة . ولكن مثل هذا الأمر سيصبح ضرورياً فيما بعد . أما في ١٧٩٣ فكان الدين الجديد لا يزال بعدُ سليماً ، وحسبنا - على حد قول سان جوست - ان نسوس بحسب العقل . اعتقد سان جوست ان فن الحكم لم يُنجب سوى مسوخ ، لأن الناس ، حتى بحبيء سان جوست ، لم يرغبوا في ان يسوموا بحسب الطبيعة . لقد انتهى زمان المسوخ مع زمان العنف . « إن القلب البشري يسير من الطبيعة الى العنف ، ومن العنف الى الاخلاق » . فليست الاخلاق إذن سوى طبيعة استرجعت اخيراً بعد قرون من الانحراف (١) . فلنمنح الانسان قوانين « بحسب الطبيعة وبحسب قلبه » فقط ، فانه لا يعود حينئذ بائساً وفساداً . إن الاقتراع العام ، اساس القوانين الجديدة ، سيجلب لا محالة اخلاقاً شاملة . « إن هدفنا ايجاد وضع ، بحيث يتحقق ميل عام نحو الخير » .

#### الاخلاق الصورية

إن دين العقل يُرسمي أسس جمهورية القوانين بشكل طبيعي . أما المشيئة العامة فيعبر عنها بقوانين يجمعها يمثلوها . « الشعب يصنع الثورة ، والمشرع يصنع الجمهورية » . إن النظم « الحالدة ، الثابتة ، البعيدة عن مغامرة البشر ، ستسوس بدورها حياة المجتمع ، في وفاق شامل ، ودون تناقض ممكن ، لأن الجميع في امتثالهم للقوانين لا يمثلون إلا لذواتهم . قال سان جوست : « خارج نطاق القوانين ، كل شيء عقيم وفان » . لأنها الجمهورية الرومانية ، الصورية ، القانونية . ونحن نعرف ككلف سان جوست بالعمود القديمة الرومانية . فهذا الشاب المنحط الذي كان في مدينة (ريمس) يقضي ساعات وساعات ، مغلماً مصراعياً النافذة ، في غرفة ذات بسط سوداء ، مزينة بلطخ بيضاء ، كاث يمني النفس بجمهورية اسبارطية . كان سان جوست ، مؤلف « أورغانيت » القصيدة الطويلة

(١) أو الضيقة .

الخليعة ، بحس بالحاجة الى العفة والفضيلة . وكان يمنع في نظامه اللحم على الطفل حتى السادسة عشرة من عمره ، وكان يحلم بأمة نباتية وثورية . وكان يهتف قائلاً : « منذ الرومان والعالم فارغ » . ولكن أزمته بطولية ذرّ قرنهما ، واصبح مجيء اشخاص امثال كاتون وبروتوس وسكافولا أمراً ممكناً . لقد عادت بلاغة الاخلاقيين اللاتينيين الى الازدهار . وصارت كلمات امثال « الرديلة ، الفضيلة ، الفساد » تتردد في استمرار في خطابات العصر ، واكثر ايضاً في خطب سان جوست فتثقلها دائماً . أما سبب ذلك فبسيط . إن هذا الصرح الجميل . . وقد أدرك مونتسكيو ذلك من قبل - لم يكن في وسعه الاستغناء عن الفضيلة . وإذ زعمت الثورة الفرنسية بأنها تبني التاريخ على مبدأ طهارة مطلقة ، دشنت الازمنة الحديثة وعصر الاخلاق الصورية في الوقت نفسه .

الفضيلة وظهور مبدأ القمع

ما الفضيلة في الحقيقة ؟ إننا ، بنظر الفيلسوف البورجوازي آنذاك ، المطابقة مع الطبيعة (١) ، أما في السياسة فهي الامتثال للقانون الذي يعبر عن المشيئة العامة . يقول سان جوست : « الاخلاق اقوى من الطغاة » . فها هي ذي في الحقيقة قد قتلت لويس السادس عشر . كل عصيان على القانون لا ينشأ إذن عن نقص ، يُفترض انه مستحيل ، في هذا القانون ، وإنما عن نقص في الفضيلة لدى المواطن المذتق . لذلك ، ليست الجمهورية مجلس الشيوخ فحسب ، كما يقول سان جوست بقوة ، بل هي الفضيلة . كل فساد اخلاقي هو في الوقت نفسه فساد سياسي والعكس بالعكس . ثمة مبدأ قمع يستقر حينئذ ، نابغاً من العقيدة نفسها . ليس من شك في ان سان جوست كان صادقاً في رغبته في الحب الشامل . لقد حلم حقاً بجمهورية 'نساك' ، بإنسانية يسودها التعافي ، مستسلمة للبراءة الاولى ، تحت رعاية هؤلاء الشيوخ الحكماء ، الذين كانت يُزينهم سلفاً

(١) ولكن الطبيعة كما نجدتها عند برناردان دي سان بيير هي نفسها مخاطبة لفضيلة معينة سلفاً . الطبيعة ايضاً هي مبدأ تحريدي .

بوشاحٍ مثلث الالوان<sup>(١)</sup> ، وبريشة بيضاء . ومعلوم أيضاً ان سان جوست كان منذ بداية الثورة يتبنى موقفاً ضد عقوبة الاعدام، مع روبسيير . كان يطالب فقط باللباس القتل لباساً أسود طيلة حياتهم . وكانت يريد قضاءً لا يسمى الى « اعتبار المتهم مذنباً ، بل الى اعتباره ضعيفاً » ، وهذا لعمرى شيء رائع . وكان يحلم أيضاً بجمهورية غفران ، 'تقر بأنه اذا كانت شجرة الجريمة قاسية فان جذرها ليتن . إن احدى صيحاته على الاقل صادرة عن الجنان ، ولا يلفها النسيان : « انه لشيء رهيب ان يتعرض الشعب للعذاب » . أجل ، إن هذا رهيب ، ولكن القلب يستطيع أن يستشعر ذلك ، وأن يخضع مع ذلك لمبادئ تفترض أخيراً عذاب الشعب .

#### الاحلاق المترسة

حينما تكون الاخلاق صورية فإنها تلتهم وتفترس . وتفسيراً لسان جوست نقول: لا احد يكون فاضلاً ببراءة. فاعتباراً من اللحظة التي لا 'تحقق فيها القوانين' الوثام، وتتحل الوحدة التي كان على المبادئ، ان توجدنا، اعتباراً من هذه اللحظة من المذنب ؟ جماعة العصاة<sup>(٢)</sup> . من هم العصاة ؟ أولئك الذين ينكرون الوحدة الضرورية ، بنشاطهم بالذات . إن جماعة العصاة تقسم صاحب السيادة . انها اذن بجدفة ومجرمة . يجب محاربتها ، ووحدها فقط . ولكن اذا كانت هناك جماعات كثيرة من العصاة ؟ ستحارب جميعاً بلا هوادة . إن سان جوست يهتف قائلاً . « إما الفضائل أو الارهاب » . يجب تصفيح الحرية بالبرونز ، وإن مشروع الدستور في حكومة الاتفاق يذكر حينئذ عقوبة الاعدام . الفضيحة المطلقة مستحيلة ، وجمهورية الغفران تستدعي لا محالة جمهورية المقاصل . لقد نددت موتسكيو بهذا المنطق من قبل ، متهماً إياه بأنه احد اسباب انحطاط المجتمعات ، قائلاً إن سوء استعمال السلطة يصبح اشد حينما لا تنص عليه القوانين . إن

(١) العلم الفرنسي (العرب)  
(٢) منسبها ايضاً الشيخ (العرب)



قانون سان جوست المجرّد لم يأخذ بعين الاعتبار هذه الحقيقة القديمة قِدَم التاريخ نفسه ، ألا وهي ان القانون بحكم ماهيته منذور للانتهاك .

#### ٤ - الاوهاب

اضواء على سان جوست

إن سان جوست ، معاصر الماركيز ساد ، انتهى الى تبرير الجريمة ، رغم انطلاقه من مبادئ مختلفة . ليس من شك في ان سان جوست هو تقيض الماركيز ساد ، ولو أمكن لشعار الاخير ان يكون : « افتحوا ابواب السجون أو اثبتوا طهركم » ، لكان شعار الاول : « أثبتوا طهركم أو ادخلوا السجون » . كلاهما مع ذلك يبرر إرهاباً ، فردياً لدى الماركيز ساد الفاسق ، وحكومياً لدى سان جوست كاهن الفضيحة . اذا ما وضعنا المنطق اللازم ، في الخير المطلق أو الشر المطلق ، فانها يتطلبان نفس الفورة . حقاً إن هناك التباساً في حالة سان جوست . فالرسالة التي كتبها الى فيلان دوبيني عام ١٧٩٢ تتضمن شيئاً مخالفاً للحواب . إن هذا الاعلان للعقيدة الصادر عن معذب معذب ينتهي باعترافٍ عصبي . « اذا لم يقتل بروتوس قطّ الآخرين ، فيقتل نفسه » . إن شخصاً جهماً بإصرار . جامداً بتصميم ، منطقياً ، ثابت الجنان ، يدفعنا الى افتراض كل الاختلالات والبلبلات . لقد ابتدع سان جوست نوعاً من الجدّ يجعل تاريخ القرنين الاخيرين رواية سوداء عملة جداً . قال : « من يهزل في رئاسة حكومة ، ينجح الى الطغيان » . انها لحكمة مذهشة ( ولا سيما اذا فكرنا ماذا كان آنذاك ثم مجرد الاتهام بالطغيان ) تمهد على كل لعهد المستبدن المتبجحين . كانت سان جوست قدوة ، ولهجة نفسها بآفة . هذا السيل من التأكيدات الجازمة ، وهذا الاسلوب الآتي بالحكم والحقائق البديهة ، يرسمانه خيراً من الصور الأمينة . إن الامثال تهرّ كحكمة الامم ، والتعاريف المشكّلة للعلم تتعاقب كوصايا جامدة واضحة . « على المبادئ أن تكون معتدلة ، والقوانين مقبلة ، والعقوبات نهائية » .

إنه أسلوب المقصلة .

## الوحدة والشيء

على أن مثل هذا التصلب في المنطق يفترض وجود هوى عميق . هنا أيضاً ، كما في المجالات الأخرى ، نجد الكلف بالوحدة . كل تمرّد يفترض وحدة . إن تمرّد ١٧٨٩ يطالب بوحدة الوطن . وسان جوست يحلم بالمدينة الفاضلة ، حيث سيظهر الآداب ، وقد تطابقت أخيراً مع القوانين ، براءة الإنسان وتماثل طبيعته تماثلاً ذاتياً مع العقل . فاذا ما اعاقت الشيعة هذا الحلم ، فان الهوى سيبالغ في منطقته . وحينئذ لا يدور بخلدنا ان المبادئ . بما ان الشيعة موجودة -- ربما كانت مخطئة . ان هذه الشيعة مجرمة ، لأن المبادئ تظل غير قابلة للمس . « آت الاوان كي يعود الناس جميعاً الى الاخلاق ، وان تعود الارستوقراطية الى عهد الازهاب » . ولكن الشيعة الارستوقراطية ليست بالوحيدة ، بل يجب ان نحسب حساب الجمهوريين ، وحساب كل اولئك الذين بوجه عام ينتقدون عمل الجمعية التشريعية وحكومة الاتفاق . اولئك ايضاً هم مذنبون ، لأنهم يهددون الوحدة . إن سان جوست يعلن حينئذ المبدأ الاكبر للحكومات المستبدة في القرن العشرين . « الوطني هو ذلك الذي يدعم الجمهورية جملة ، ومن يجارها بالتفصيل فهو خائن » . من ينتقد فهو خائن . من لا يدعم الجمهورية علانية فهو محط الشبهة . وحينئذ لا يتمكن العقل ولا التعبير الحر للأفراد من ان يرسي دعائم الوحدة ، يجب عقد العزم على إزاحة الاجسام الدخيلة . وعليه ، يصبح الساطور مدلياً بحجج وبراهين ، ووظيفته ان يدحض . « إن المحتال الذي تحكم عليه المحكمة بالاعدام ، يزعم بأنه يريد مقاومة الاضطهاد ... لأنه يريد مقاومة المقصلة ا » . إن سحق سان جوست لا يفهم جيداً ، لأن المقصلة حتى مجيئه لم تكن إلا رمزاً من أوضح رموز الاضطهاد . ولكن ضمن هذا المذيان المنطقي ، في نهاية اخلاق الفضيلة هذه ، تصبح المقصلة حرة . إنها تؤمن الوحدة العقلانية ، والانسجام في المدينة . إنها تطهر ( والكلمة صحيحة ) الجمهورية ، وترزح العيوب التي تخالف المشيئة العامة والعقل

العام . لقد هتف مارا قائلاً : « ينكرون عليّ لقب محب البشر ، ولكن من طرازي مختلف تمام الاختلاف . آه ! يا له من ظلم ! من ذا الذي لا يرى انني أريد أن أقطع عدداً محدوداً من الرؤوس لأنقذ عدداً اكبر ؟ » . عدد محدود ، شيعة من الشيع ؟ لا شك في ذلك ، وكل عمل تاريخي يتطلب هذا الثمن . ولكن مارا ، إذ أجرى حساباته النهائية ، طالب بـ ٢٧٣ و ٠٠٠ رأس . ولكنه أفسد الوجه العلاجي للعملية إذ نادى بالبطش والتنكيل : « ادمغوم بالحديد الحامي ، اقطعوا إبهاماتهم ، شقوا لسانهم » . هكذا كان محب البشر يكتب في أرتب كلام ممكن ، ليل نهار ، حول ضرورة القتل من أجل الخلق . وكان ما يزال مكباً على الكتابة في ليالي ايلول ، في أعماق قبوه ، على ضوء شمع ، حين كان القتلة يضعون في ساحات السجون مقاعد النظارة ، الرجال على البين ، والنساء على اليسار ، ليقدموا لهم ذبح الارستوقراطيين الفرنسيين كأنموذج ظريف عن محبة البشر .

#### الفضيلة والمصلحة

لا نخلطن ابدأ ، ولو لحظة واحدة ، شخصية سان جوست العظيمة مع مارا اللافه ، مقلد روسو ، كما يقول ميشليه بحق . ولكن مأساة سان جوست تكمن في انه ، لأسباب عليا ، وبدافع حاجة أعمق ، تناغم احياناً مع مارا .

الشيع تنضم للشيع ، والأقليات للأقليات ، وليس بالمؤكد اخيراً ان المصلحة تعمل في خدمة مشيئة الجميع . إن سان جوست سيؤكد على الأقل ، وحتى النهاية ، أنها تعمل من أجل الفضيلة . « إن ثورة كثورتنا ليست محاكمة ، بل صاعقة تنزل بالأشرار » . الخير يصعق ، والبراءة تصبغ بريقاً يفتح الحق . حتى المستمعون ، ولا سيما المستمعون ، هم معادون للثورة . إن سان جوست الذي قال إن فكرة السعادة فكرة جديدة في أوروبا ( والحقيقة انها كانت جديدة ولا سيما بالنسبة الى سان جوست الذي كان يوقف التاريخ عند برونوس ) ،

فطن الى ان لدى البعض « فكرة رهيبة عن السعادة ، ويخلطونها مع اللذة » .  
 بهؤلاء ايضاً يجب إززال العقاب. أخيراً، لم تعد المسألة مسألة أكثرية ولا أقلية .  
 إن فردوس البراءة الشاملة المفقود والمرغوب دائماً ، يتعد ؛ وعلى الارض  
 التعبية ، المتلثة بصيحات الحرب الاهلية والوطنية ، حكم سان جوست ، خلافاً  
 لذاته ولمبادئه ، بأن الناس جميعاً مذنبون حينما يكون الوطن مهدداً . إن  
 سلسلة التقارير حول الشيع الموجودة في الحارج ، والقانون الصادر في الثاني  
 والعشرين من الشهر التاسع من التقويم الثوري ، وخطاب ١٥ نيسان ١٧٩٤  
 حول ضرورة الشرطة ، ... تشير الى مراحل هذا التحول . فهذا الرجل الذي  
 كان بكثير من العظمة يعتبر إلقاء السلاح عاراً ما دام هناك ، في مكان ما ،  
 سيد وعبد ، هو نفسه الذي رضي بأن يبقى دستور ١٧٩٣ معطلاً ، وأن يمارس  
 التحكم المستبد . وفي الخطاب الذي ألقاه دفاعاً عن روبسيير ، أنكر الشهرة  
 والبقاء ، ولم يركن إلا الى عناية إلهية مجردة . واعترف بالتالي ان الفضيلة التي  
 كان يعتبرها ديناً ، ليس لها من مشوبة سوى التاريخ والحاضر ، وان عليها بأي  
 ثمن كان أن ترسي أركان سلطتها الخاص . إنه لم يكن يجب السلطة « الباغية  
 الشريرة » التي ، كما قال ، « تسيّر نحو الاضطهاد ، لولا القاعدة » . ولكن  
 القاعدة هي الفضيلة ، وتصدر عن الشعب . فاذا ما عجز الشعب ، احوالكت  
 القاعدة ، وتعاضم الاضطهاد . حينئذ يكون الشعب هو المذنب ، لا السلطة ،  
 التي يلزم أن يكون مبدؤها بريئاً . إن مثل هذا التناقض العظيم الدامي ما كان  
 ليذول إلا بواسطة منطق اكثر تطرفاً ، وبالقبول النهائي للهادىء في الصت  
 وفي الموت . إن سان جوست على الأقل بقي في مستوى هذا المطلب . هنا ،  
 أخيراً ، كان لا بد له من أن يجد عظيمته ، وهذه الحياة المستقلة في الأحقاب  
 وفي السموات والتي تحدث عنها بكثير من الانفعال .

الصت والموت

لقد شعر في الحقيقة ومنذ زمن طويل ان مطلبه يفترض تضحية تامة دون

تحفظ ، قائلاً هو نفسه إن أولئك الذين يصنعون الثورات في العالم ، « أولئك الذين يفعلون الخير » ، لا يسعهم النوم إلا في القبر . وإذ أيقن أن علي مبادئه ، كي يكتب لها الظفر ، أن تبلغ ذروتها في فضيلة شعبه وسعادته ، وإذ أحس أنه ربما كان يروم المستحيل ، سدَّ على نفسه طريق الانسحاب سلفاً ، معلناً على رؤوس الأشهاد أنه سيطعن نفسه يوم يحل به اليأس من هذا الشعب . وما هو ذا يحل به اليأس مع ذلك ، لأنه يشك في الإرهاب نفسه . « لقد تجسدت الثورة ، ووهنت كل المبادئ ، ولم تبق سوى قبعات حمراء تعتمر بها المكيدة . إن ممارسة الإرهاب تخدرت الجريمة ، منما تخدرا المشروبات القوية حاسة الذوق . إن الفضيلة بالذات « تتعد مع الجريمة في اوقات الفوضى » . لقد قال إن الجرائم كلها صادرة عن الطغيان ، أول الجرائم جميعاً ؛ وأمام عناد الجريمة الذي لا يكل ، كانت الثورة تهرع نحو الطغيان وتصبح مجرمة . فلا يمكننا إذن أن نقهر الجريمة ، ولا الشيع ؛ ولا روح التمتع الرهيبية . يجب أن نقنط من هذا الشعب وأن نخضعه . ولكن لا يمكننا أيضاً أن نسوس الناس ببراءة . يجب إذن أن نتحمل الشر أو أن نخدمه ، أن نسلّم بأن المبادئ على خطأ أو أن نعترف بأن الشعب والبشر مذنبون . إذ ذاك يُشيع سان جوست بوجهه المستغلق البهي : « اننا لا نفارق شيئاً ثميناً إذ نفارق حياة يجب أن نكون فيها شركاء الشر ، أو شهداء عليه صامتين » . إن بروتوس الذي كان سيقتل نفسه إذا لم يقتل الآخرين (١) ، بشرع بقتل الآخرين . ولكن الآخرين 'كثُر' ، ولا يمكن قتل الكل . عليه إذن أن يموت ، وأن يثبت مرة أخرى أيضاً أن التمرد حينما يَحْتَمِل يتحول من إفناء الآخرين إلى إفناء الذات . هذه المهمة هي ، على الأقل ، سهلة . حسبنا مرة أخرى أيضاً أن نتبع المنطق حتى نهاية الشوط . ففي الخطاب الذي ألقاه دفاعاً عن روبسيير ، قبل موته بقليل ، أكد سان جوست ثانية المبدأ الكبير في عمله ، وهو المبدأ الذي سيدينه . « لا أمتُّ بالصلة إلى أية

(١) نذكر بالجملة التي وردت تحت عنوان : أخواه على سان جوست (المرب)

شيعة ، وسأحارب الشيعة جميعاً . لقد اعترف إذن سلفاً بقرار المشيئة العامة ، أي بقرار المجلس ، وقبيلَ بأن يمضي نحو الموت حياً بالمبادئ ، وخلافاً لكل حقيقة واقعة ، لأنه لا يمكن الحصول على رأي المجلس إلا بفصاحة وتمصب احدى الشيعة . ولكن يا للعجب ا متى وهنت المبادئ ، فليس لدى البشر سوى وسيلة واحدة لانقاذها ، وانقاذ اعتقادهم ، وهي ان يموتوا في سبيلها . هكذا ، في حر باريس الخائق في شهر تموز ، إذ أنكر سان جوست الحقيقة الواقعة والعالم علانية ، اعترف بأنه يضع حياته رهن قرار المبادئ . وحينئذ استشف فيما يبدو حقيقة أخرى بشكل عابر ، وانتهى الى تنديد معتدل بـ « بيتو فارين » و « كولوب ديريوا »<sup>(١)</sup> . « أود لو يبرئنا نفسها ، ولو نصبح أكثر تعقلاً » . لقد توقف الاسلوب والمقصلة هنا لحظة . ولكن الفضيلة ليست الحكمة ، لأنها مفرطة في الكبرياء . ان المقصلة ستهبط على هذا الرأس الجميل الجامد كالاخلاق . ومنذ أذان المجلس سان جوست الى ان مد رأسه للساطور ، أخذ الى الصمت . هذا الصمت الطويل أهم من الموت بالذات . لقد اشتكى من ان الصمت ينجم على العروش ، ولهذا السبب اراد ان يتكلم كل هذا الكلام الحسن الوافر . ولكنه ، إذ ازدري الطغيانَ ولغزَّ شعباً لا يتكيف مع العقل المجرد ، عاد هو نفسه الى الصمت . إن مبادئه لا يسعها ان تتلاءم مع ما هو موجود ، والاشياء ليست ما كان ينبغي لها ان تكون . المبادئ هي اذن وحيدة ، صامتة ، ثابتة . والركون اليها معناه الموت في الحقيقة ، معناه الموت بحجبٍ مستحيلٍ هو عكس الحب .

لقد مات سان جوست ، ومات معه الامل بدين جديد .

★

(١) الاول من الاتفاقيين وقد أسهم في اسقاط روبسيير ، والثاني عضو لجنة السلامة العامة وقد اشتهر بمآلاته الديماغوجية (المعرب)

## تصية المبدأ الالهي

قال سان جوست : « كل الحجارة قد انمحت من أجل صرح الحرية .  
بنفس الحجارة تستطيعون ان تبثوا للحرية مبعداً ... أو قبرا » . ان مبادئ  
العقد الاجتماعي نفسها هيمنت على بناء القبر الذي جاء نابليون بونابرت ليرسخه .  
ولم يكن روسو يعدم الدراية ، لذلك أدرك جيداً ان مجتمع العقد لا يصلح  
إلا للآلهة . وقد رضي خلفاؤه باقتراحه فوراً ، وسعوا الى وضع أسس ألوهية  
الانسان . إن العلامه الاحمر ، رمز الحكم العرفي ، وبالتالي رمز السلطة التنفيذية  
في ظل العهد القديم ، اصبح رمزاً ثورياً في ١٠ آب ١٧٩٢ . إنه تحول له  
دلالتة ، وقد علق عليه جوريس<sup>(١)</sup> بالصورة التالية : « نحن الشعب ، نحن نمثل  
الحق ... لسنا متبردين . المتبردون هم في قصر التويلاري » . ولكننا لا نصبح  
آلهة بمثل هذه السهولة . إن الآلهة القديمة بالذات لا تموت من اول ضربة ، وعلى  
ثورات القرن التاسع عشر ان تنهي تصفية المبدأ الالهي . لقد تمردت باريس ،  
والحالة هذه ، لتعيد الملك تحت قانون الشعب ، ولتمنعه من اعادة سلطة مبدأ .  
وهذه الجثة<sup>(٢)</sup> التي جرتها ثوار ١٨٣٠ عبر ردهات قصر التويلاري ، وأجلسوها  
على العرش ليقدموا لها آيات التبهيل المضحكة ، ليس لها مدلول آخر . كان  
لا يزال في وسع الملك آنذاك ان يكون « قائماً بالاعمال » محترماً ، ولكن  
مصدر تفويضه اصبح الآن ككامنأ في الأمة ، أما شريعته فأصبحت كامنة في  
الوثيقة . انه لم يعد صاحب الجلالة . وبما ان النظام القديم زال نهائياً في فرنسا ،  
لذلك بعد ١٨٤٨ ، يجب ان يتوطد النظام الجديد . وإن تاريخ القرن التاسع  
عشر حتى ١٩١٤ هو تاريخ إحياء السیادات الشعبية ضد ملكيات النظام القديم ،  
تاريخ مبدأ القوميات . وقد انتصر المبدأ القديم في اوروبا<sup>(٣)</sup> . وفي كل مكان ،

(١) جان جوريس ، احد زعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي . مثل في باريس عام ١٩١٤

(٢) بالحقن الجازمي (المرب)

(٣) باستثناء الملكية الاسبانية . ولكن الامبراطورية الالمانية انهارت ، وهي التي قال عنها  
غليوم الثاني انها « الدليل على اننا نحن آل هوهنزرن ، تتلقى ثابنا من السماء وحدها ،  
واننا لا نهدم الحساب إلا للسماء وحدها » .

حلّت سيادة الأمة قانوناً وعقلاً محلّ الملك المعظم . حينئذ فقط اممكن لنتائج  
١٧٨٩ ان تتجلى . ونحن الاحياء اول من يستطيع الحكم على ذلك  
بوضوح .

التميد للمدنيين المعاصرين

لقد حجّر اليعقوبيون المبادئ الاخلاقية الخالدة ، بنسبة ما ازاحوا من  
دعامة هذه المبادئ . وأرادوا ، وهم وعظاظ 'بشرى' ، ان يُرسوا أسس الاخوة  
على الحقوق الرومانية التجريدية ، فأحلوا محلّ الوصايا الإلهية ، القانون الذي  
لا يد من ان يعترف به الجميع ، فيما افترضوا ، لأنه المعبر عن المشيئة العامة .  
كان القانون مجداً تبريره في الفضيلة الطبيعية ، وكان يبررها بدوره . ولكن ما  
أن تظهر شيعة واحدة ، حتى تنهار أسس المحاكمة ، وحينئذ نلفظن الى ان الفضيلة  
تحتاج الى تبرير كي لا تكون أبداً فضيلة مجردة . وبالتالي ، إذ سحقت الحقوق  
البورجوازيون تحت وطأة مبادئهم انتصارات شعبيهم العادلة الخيرة ، مهدوا  
للمدنيين المعاصرين : عدمية الفرد ، وعدمية الدولة .

القانون

يمكن للقانون ان يسود ، في الحقيقة ، ما دام قانون العقل العام (١) .  
ولكنه ليس كذلك أبداً ، وان تبريره يزول اذا لم يكن الانسان صالحاً  
بالطبع . وذات يوم تصطدم العقائد بالنفسيات . فلا تعود توجد حينئذ  
سلطة شرعية . ان القانون يتطور إذن حتى يختلط مع التشريع ومع إرادة مطلقة  
جديدة . الى أين توجه حينئذ ؟ ها هو ذا القانون قد فقد اتجاهه ؛ وهو ، إذ  
يفقد دقته ، 'يصبح أكثر فأكثر بعداً عن الأحكام ، لدرجة انه يعتبر ككل  
شيء جرمية . إن القانون يظل سائداً ، ولكن لا تعود له حدود ثابتة . كان  
سان جوست قد توقع مثل هذا الاستبداد يجري بإسم الشعب الصامت .

(١) لقد ادرك هيجل ان فلسفة الانوار ارادت ان تحرر الانسان من الاعمال . ان العقل  
يجمع البشر الذين يفرقهم الاعمال .



« الجريمة البارعة تنصب نفسها ديناً ، ويصبح المختالون في المركب المقدس » .  
ولكن ذلك أمر لا مفر منه . فاذا لم تكن المبادئ الكبرى صائبة ، واذا لم  
يكن القانون معبراً إلا عن اجراء مؤقت ، فانه لا يعود يُسن حينئذ إلا كي  
يكون موضع تلاعب ، أو كي يُفرض فرضاً . فالمرکز ساد أو الدكتاتورية ،  
الارهاب الفردي أو ارهاب الدولة ، كلاهما يبررات بنفس انعدام التبير ،  
وان هذا احد الاصطفااءات المحتومة في القرن العشرين ، وذلك حالما ينفصل  
التمرد عن جذوره ، ويحرم نفسه من كل اخلاق واقعية .

#### فساد البورجوازية

ان حركة العصيان التي انبثقت عام ١٧٨٩ لا يسعها مع ذلك ان تقف عند  
هذا الحد . فانه لم يمض تماماً بالنسبة الى اليقوبيين ولا بالنسبة الى الرومانسيين .  
انهم ما زالوا محتفظين بالكائن الأسمى . وما زال العقل وسيطاً بصورة ما .  
انه يفترض نظاماً سابق الوجود . ولكن ، على الاقل ، رُفع عن الله تجسيده ،  
واقصر بوجوده على الوجود النظري لمبدأ اخلاقي . ولم تسد البورجوازية خلال  
القرن التاسع عشر كله إلا بكونها الى هذه المبادئ التجريدية . ولكنها كانت  
أقل جدارة من سان جورست ، لذلك استخدمت هذا المرجع كذريعة ، بممارسة  
في كل سانحة قبيحاً معاكسة . فساعدت بفسادها الجوهري وريائها المثبط ، على  
إزالة حظوة المبادئ التي كانت تنادي بها . إن إثمها بهذا الخصوص  
لامتناه .

#### تحرك العقل الغازي

ما ان توضع المبادئ الخالدة موضع الشك مع الفضيلة الصورية ، وما ان  
تزل حظوة كل قبية ، حتى يشرع العقل بالحركة ، ولا يعود يركن إلا الى  
نجاحاته . إنه يود أن يبسط سلطانه ، منكرأ كل ما كان ، مؤكداً كل ما  
سيكون . إنه سيصبح غازياً . وإن الشيوعية الروسية ، بنقدها العنيف لكل  
فضيلة صورية ، أنهت العمل التمردى للقرن التاسع عشر ، منكرة كل مبدأ

علوي . وتلا قتل الملوك (١) في القرن التاسع عشر ، قتل الآلهة في القرن العشرين . وقد مضى هؤلاء الى نهاية الشوط في المنطق المتسرد ، وأرادوا أن يجعلوا من الارض الملوكوت الذي سيصبح فيه الانسان الها . لقد ابتداء سلطان التاريخ ، أما الانسان المتوحد توحداً ذاتياً مع تاريخه فقط ، وغير الامين لتورده الحقيقي ، فسيف نفسه بعد الآن لثورات القرن العشرين العدمية ، هذه الثورات التي ، إذ تنكر كل اخلاق ، تسعى سعياً يائساً وراء وحدة الجنس البشري ، خلل تراكم مرهق في الجرائم والحروب . هكذا تلت الثورة اليقوية التي حاولت أن تضع دين الفضيلة كي تقيم فيه الوحدة ، الثورات المزدربة للقيم التقليدية ، سواء أكانت ثورات يمينية أم يسارية ، والتي ستحاول ان تفوز بوحدة العالم لتقيم اخيراً دين الانسان .

كل ما كان لله سيرجع بعد الآن الى قيصر .

(١) يمكن ان يكون عنوان القسم : قتل الملوك ، بدلاً من : قتل الملوك (المرب)

## قتل الآلهة

استبدال العقل العام

العدالة ، العقل ، الحقيقة ، ... كانت لا تزال ساطعة في السماء اليقظية . وكان في وسع هذه النجوم الثابتة ان تقوم مقام العلامات الهادية . وقد أراد الفكر الالمانى في القرن التاسع عشر ، وخاصة هيغل ، ان يتابع عمل الثورة الفرنسية (١) ، بجذفه اسباب الفشل . وخيل لهيغل انه ابصر جيداً ان الارهاب موجود سلفاً في تجريد المبادئ اليقظية . كانت على الحرية المطلقة المجردة ، بنظره ، ان تؤدي الى الارهاب . ان سلطان الحق المجرد يتطابق مع سلطان الاضطهاد. يلاحظ هيغل مثلاً ان الفترة الزمنية الممتدة من الامبراطور الرومانى أوكتافيوس الى الامبراطور امكندر القاسي ( ٢٣٥ بعد الميلاد ) ، هي فترة ازدهار علم القانون ، ولكنها كانت ايضاً فترة أحقد طغيان . فكان لزاماً إذن ، لتجاوز هذا التناقض ، ابتغاء مجتمع واقعي ، ينشط مبدأ غير صوري ، وحيث توفى الحرية مع الضرورة . لقد استبدل الفكر الالمانى إذن العقل العام ولكن المجرد ، عقل سان جوست وروسو ، بمفهوم ابعده عن الاصطناع ولكنه أكثر التباساً : الكلي الملموس . حتى الآن ، كان العقل يحوم فوق الظواهرات

(١) وان يتابع ايضاً عمل الاصلاح الدينى ، ثورة الالمان في اعتقاد هيغل .

التي كانت متعلقة به . وهما هو ذا بعد الآن وقد أدمج بمجرى الاحداث التاريخية ، ينيرها بقبسه ويتلقى منها هيكله في الوقت نفسه .

القيم غايات لا علامات

يمكننا ان نقول طبعاً ان هيجل جعل حتى من اللاعقلاني شيئاً عقلياً . ولكنه في الوقت نفسه منع العقل نبرة مخالفة للصواب ، واسبغ عليه إفراطاً نرى نتاجه ماثلة أمام أعيننا . كما أن الفكر الالماي ادخل دفعة واحدة في فكرة عصره الثابتة حركة لا تقاوم . فتجسدت الحقيقة والعقل والعدالة فجأة في صيرورة العالم . ولكن العقائدية الالمانية اذ ألتت بهذه القيم في تسارع دائم ، خلطت كينونتها بحركتها ، وحددت اكتمال هذه الكينونة في نهاية الصيرورة التاريخية ، اذا كانت هناك نهاية ... فلم تعد هذه القيم علامات هادية ، بل اصبحت غايات . أما وسائل بلوغ هذه الغايات ، أي : الحياة والتاريخ ، فلا يمكن لأية قيمة موجودة سابقاً ان تنيرها وتهديها . إن قسماً كبيراً من البرهان الهيجلي ، بالعكس ، يكمن في اثبات ان الوجدان الاخلاقي ، في ثقافته ، هذا الوجدان الذي يمثل للعدالة والحقيقة كما لو كانت هذه القيم موجودة خارج العالم ، ... يعيق بالضبط مجيء هذه القيم . إن قاعدة السلوك اصبحت إذن السلوك نفسه الذي ينبغي له ان يجري في الظلمات (١) بانتظار الإشراق النهائي . لم يعد العقل الذي ألحقته هذه الرومانسية بها ، سوى هوى ثابت .

الانسان مقامرة

لقد ظلت الاهداف هي هي ، وتعاضم الطموح وحده . اصبحت الفكر حركياً ، والعقل صيرورة وغزواً . لم يعد العمل سوى حساب يجري تبعاً للنتائج لا للباديء ، وبالتالي اختلط مع حركة دائمة . وبالصورة نفسها ، انصرفت العلوم في القرن التاسع عشر عن الثبات والتصنيف اللذين كانا يميزان فكر القرن الثامن عشر . وكما حل داروين محل لينيه (٢) ، كذلك حل فلاسفة الجدلية

(١) لعدم وجود علامة هادية (المعرب)

(٢) عالم سويدي . اعطى تصنيفاً للنباتات (المعرب)

الدائمة محل بناء العقل المنسجمين العقيمين<sup>(١)</sup> . الى هذا العهد يرجع تاريخ الفكرة ( هذه الفكرة المعادية لكل الفكر القديم الذي كان بالعكس يلتقي جزئياً في الفكر الثوري الفرنسي ) القائلة إن الانسان لا يملك طبيعة بشرية معينة بشكل نهائي ، وانه ليس مخلوقاً كاملاً ، بل مغامرة يمكنه ان يكون صانعها جزئياً . مع نابليون وهيجل ، الفيلسوف النابليوني ، يبدأ زمان الفعالية .

حتى مجيء نابليون ، اكتشف البشر مجال الكون . واعتباراً من نابليون ، اكتشفوا زمن العالم والمستقبل . ونتيجة لذلك سيتحول الفكر المتمرد تحولاً عميقاً .

اضواء على تفكير هيجل

من الغريب ، على كل ، ان نجد إنتاج هيجل في هذه المرحلة الجديدة من روح التمرد . والحقيقة ان كل انتاجه يعبر ، بوجه ما ، عن النفور من اختلاف الآراء : فقد أراد ان يكون الفكر الموفق . ولكن ذلك ليس سوى احد وجوه مذهب ، يُعتبر بطريقته أعمق ما في الانتاج الفلسفي . وبقدر ما اعتقد هيجل ان كل ما هو وجود فهو معقول ، برز كل مجازفات المفكر حول الوجود . ان ما سُمي النظرية المنطقية الجامعة عند هيجل ، هو تبرير للأمر الواقع . ولكن نظريته المساوية الجامعة تمجد أيضاً الدمار في ذاته . كل شيء يوفق ويأتلف في الجدلية . ولا يمكننا ان نفترض قضية دون ان تنبجس القضية الأخرى المناقضة لها . يوجد لدى هيجل - كما في كل فكرة عظيمة - ما يلزم لتقويم هيجل . ولكن فلما يقرأ الناس الفلاسفة بالعقل وحده ، وغالباً ما يقرأون بالقلب والأهواء ، وهذه لا توفق شيئاً .

نوريو القرن التاسع عشر

عن هيجل ، على كل ، استمد نوريو القرن التاسع عشر العدة التي هدمت المبادئ الصورية للفضيلة تديماً نهائياً . لقد استبقوا منها القول بتاريخ بلا

(١) أي : حل فلاسفة امثال هيجل وماركس على فلاسفة امثال كمنط (المرب)

استشراف ، يتلخص في انكار دائم وفي صراع إرادات القوة . إن حركة عصرنا الثورية هي أولاً ، من وجهها الانتقادي ، تنديدٌ عنيف بالرياء الصوري الذي يتحكم بالمجتمع البورجوازي . هذا وإن ادعاء الشيوعية الحديثة المعقول جزئياً ، كادعاء الفاشية الأتفه ، هو التنديد بالتعمية التي تفقد الديموقراطية البورجوازية ومبادئها وفضائلها . كان الاستشراف الإلهي حتى عام ١٧٨٩ يفيد في تبرير الاستبداد الملكي . وبعد الثورة الفرنسية ، صار استشراف المبادئ الصورية - العقل أو العدالة - ، يفيد في تبرير تسلط غير عادل وغير معقول . هذا الاستشراف هو إذن قناعٌ يجب رفعه . لقد مات الإله ، ولكن مثلما تكهن ستينور - يجب القضاء على اخلاق المبادئ حيث لا تزال ذكرى الإله باقية . إن كره الفضيلة الصورية ، الشاهدة المنحطة على الأوهية ، شاهدة الزور في خدمة الظلم ، ظلّ إحدى وسائل التاريخ الحالي . لا شيء طاهر ، ... هذه الصيحة تلبل العصر . الدّيس ، ... وبالتالي التاريخ ، سيصبح القاعدة وستسلم الأرض المقفرة للقوة المجردة التي ستحكم ، أولاً ، على أروية الانسان . وحينئذ ندخل في الكذب وفي العنف ، مثلما ندخل في الدين ، وبنفس الحركة المؤثرة .

سان جوست وهيجل

ولكننا مدينون لهيجل بأول انتقاد أساسي للوجدان الصالح ، ومدينون له بالتنديد بالنفس السامية وبالمواقف غير الفعالة . هذا وقد اعتبره - أندية الحق والجمال والخير ديانةً من ليس لهم دين . وفي حين نرى ان وجود الشيع يدعش سان جوست ، ويخالف ما يؤكد من نظام مثالي، نرى هيجل لا يدعش للأمر . ليس ذلك فحسب ، بل يؤكد ان الجماعة المخالفة هي في مستهل الفكر . كل الناس فاضلون بنظر اليعقوبي . أما الحركة التي انطلقت من هيجل وتنتصر اليوم ، فتفترض بالعكس ان ليس من فاضل ، ولكن الجميع سيصبحون فاضلين . في البدء ، كل شيء حبٌّ بريء بنظر سان جوست ، وكل شيء مأساة بنظر هيجل .

ولكن ذلك يعني نفس الشيء في النهاية . يجب تحطيم أولئك الذين يهدمون الحب البريء، أو يجب ان نهدم في سبيل خلق الحب البريء . في كلتا الحالتين، يغطي العنف كل شيء .

إن مجاوزة الارهاب التي شرع بها هيجل تؤدي فقط الى توسيع الإرهاب .

تكييف الوجه الفلسفي

ليس هذا كل ما في الأمر . فالعالم الحالي لم يعد في وسعه ان يكون ، على ما يظهر ، سوى عالم سادة وعبيد . ذلك ان العقائديت المعاصرة ، العقائديت التي تبدل وجه العالم ، تعلمت من هيجل ان تتصور التاريخ تبعاً لديالكتيك : « سلطة السيد » و « العبودية » . فاذا لم يكن هناك تحت السماء المقفرة ، في صبيحة العالم الاولى ، سوى سيد وعبد ، بل اذا لم يكن هناك من الله العلي الى البشر، سوى علاقة سيد بعبد، فلا يمكن ان يكون هناك في العالم سوى قانون القوة. ولم يكن في وسع أحد سوى إله أو مبدأ فوق السيد والعبد، أن يتوسط حتى الآن ، وان يجعل تاريخ البشر لا يختصر فقط في تاريخ انتصاراتهم أو اندحاراتهم . ولكن مجهود هيجل ، ثم الهيجليين ، انصرف متزايداً الى تهديم كل استشراف وكل شوق الى الاستشراف Transcendence . وعلى الرغم من اننا نجد عند هيجل اكثر بكثير مما عند الهيجليين اليساريين الذين تغلبوا عليه في النهاية ، فانه مع ذلك يقدم ، عند مستوى ديالكتيك السيد والعبد ، التبرير الحاسم لروح القوة في القرن العشرين . إن المنتصر بحق دائماً، وهذه هي احدى العبر التي يمكن استخلاصها من اكبر مذهب فلسفي ألماني في القرن التاسع عشر. طبعاً هناك في البناء الهيجلي العجيب ما يلزم لمناقضة هذه المعطيات جزئياً . ولكن عقائدية القرن العشرين لا ترتبط بما يسمى اصطلاحاً مثالية استاذ جامعة إيندا<sup>(١)</sup> . إن وجه هيجل ، الذي يعود الى الظهور في الشيوعية الروسية ، قد أعيد تكييفه تبعاً من قبل دافيد شتراوس ، برونو باور، فورباخ ، ماركس ،

(١) عين هيجل استاذاً في جامعة ايندا عام ١٨٠١ (المغرب)

وكل اليسار الهيفلي . ولا يهمننا احد سواه هنا ، لأنه هو وحده الذي جثم على تاريخ عصرنا . فلئن استخدم نيتشه وهيجل ككذريعة لسادة (١) داشو و كاراغنده (٢) ، فان ذلك لا يدين فلسفتها كلها . ولكن ذلك يدفع الى الظن بأن احد وجوه افكارهما أو منطقتها كان في وسعه ان يؤدي الى هذه النهايات الرهية .

## فينومينولوجيا الذهن

نظرة عامة

العدمية النيتشوية منهجية (٣) ، وفينومينولوجيا الذهن (٤) لها ايضاً طابع تربوي . فهي ، عند نقطة التقاء قرنين (٥) ، تصف تهذيب الشعور - في مراحلها - وهو يسير نحو الحقيقة المطلقة . إنها إميل (٦) ما ورائي (٧) . ككل مرحلة هي خلال ، وتكون مقرونة بعقوبات تاريخية تكاد تكون دائماً شؤماً ، إما على الشعور ، أو على الحضارة حيث ينعكس . إن هيجل يرد ان يبين ضرورة هذه

(١) لقد وجدوا نماذج الالفلسفة ... في الشرطة البروسية والتابليوية والبيعية ، او في المسكرات الانكليزية في الفريديا الجنوبية .

(٢) يقصد حكام المانيا النازية ، وروسيا ، لأن داشو هي مدينة المانية كانت معسكر اعتقال اثناء الحرب العالمية الثانية ، اما كاراغنده فهي مدينة في قازانستان (المغرب)

(٣) اشرنا الى هذه النقطة في القسم الخامس بنيتشه (المغرب)

(٤) كتاب هيجل . ولما يلي لذكر ما جاء في كتاب الاستاذ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ٢٦٤ ، حول فينومينولوجيا الذهن . قال : اول كتبه فينومينولوجيا الذهن « اي : وصف الظواهر الذهنية وآثارها في حياة الانسان ، يصف فيه تطور الفرد وتطور النوع ، اي علم النفس وتاريخ المدينة متداخلين حتى ليصعب احياناً كثيرة التمييز بينها ؛ والكتاب بمثابة مدخل الى « مذهب هيجل » (المغرب)

(٥) عام ١٨٠٧

(٦) إميل : كتاب روسو في التربية (المغرب)

(٧) ان مقارنة هيجل بروسو ذات مدلول . كان حظ الفينومينولوجيا في نتائجها كحظ « المد الاجتماعي » . فقد كيفت الفكر السياسي في زمانها . وان نظرية المشيئة العامة عند روسو موجودة ، على كل ، في المذهب الهيفلي .



المراحل المؤلمة . والفينومينولوجيا هي ، من احد وجوهها ، تأمل حول اليأس والموت . ويدعي هذا اليأس انه منهجي ، لأن عليه ان يتجلى في نهاية التاريخ في الرضا التام والحكمة المطلقة . بيد ان هذه التربية يؤخذ عليها انها لا تقترض سوى وجود تلامذة ومتفوقين ، وقد فهمت فهماً حرفياً في حين انها بالكلمة أرادت فقط ان تبسء عن الروح . هذه هي الحال فيما يخص التحليل الشهير لسلطة السيد ، والعبودية (١) .

الاسان شعور بالذات

يعتقد هيجل ان الحيوان يملك شعوراً مباشراً بالعالم الخارجي ، احساساً بالذات ، ولكنه لا يملك الشعور بالذات ، هذا الشعور الذي يميز الانسان . فلا يؤكد الانسان حقاً إلا 'مذ يشعر بنفسه بوصفه شخصاً عارفاً . انه اذن جوهرياً شعوراً بالذات . والشعور بالذات ، كما يؤكد نفسه ، عليه ان يتميز عما ليس هو . فالانسان هو المخلوق الذي 'ينكسر' ، لكي يؤكد كينونته واختلافه .

الرغبة تميز الشعور بالذات

إن ما يميز الشعور بالذات عن العالم الطبيعي ليس مجرد التأمل ، حيث يتوحد هذا الشعور بالذات مع العالم الخارجي وينسى نفسه . وانما يتميز بالرغبة التي يستطيع ان يحس بها ازاء العالم . وهذه الرغبة تذكره بنفسه ، إذ 'يظهر هو للانسان ان العالم الخارجي شيء مختلف .

(١) الكلمات التالية هي شرح مبسط للديالكتيك : سيد . عبد . ولا يهنا هنا سوى نتائج هذا التحليل . لذلك تراءت لنا ضرورة شرح جديد يظهر بعض الاتجاهات بدلاً من غيرها . وفي الوقت نفسه ، يزيح هذا كل شرح تالذ . ولكن لن يكون صعباً ان نرى ان المحاكاة اذا كانت تنتم منطقياً ، بواسطة بعض الوسائل المصطنعة ، فلا يسما ان تصبو الى وضع علم ظاهرات ، وذلك بقدار ما تستند المحاكاة الى سيكولوجيا اعتبارية . ان منفعة ولعالية النقد الذي وجهه كيركغارد الى هيجل هو انه يستند غالباً الى السيكولوجيا . مهما يكن من أمر ، فان هذا لا يقلل من قيمة بعض تحليلات هيجل الرائنة .

الشعور بالذات إنكار

وفي رغبته ، يتراءى له العالم الخارجي كشيء موجود وليس في حياته ، ولكنه يريد أن يمتلكه كما يوجد هو ، وان لا يعود العالم موجوداً . إن الشعور بالذات هو إذن بالضرورة رغبة . ولكن ينبغي له ان يرتوي كما يوجد ، ولا يسعه ان يرتوي إلا بإرواء رغبته . انه يقوم إذن بعمل لإرواء نفسه ، وإذ يفعل ذلك ، 'ينكر' ويزيل الشيء الذي به يرتوي . إنه إنكار .

الآخرون يولدونا

القيام بعمل ، يعني الإفناء في سبيل توليد حقيقة الشعور الروحية . ولكن إفناء غرض فاقد الشعور ، كاللحم مثلاً ، في فعل الأكل ، هو عمل يقوم به الحيوان أيضاً . عملية الاستهلاك لا تعني بعداً اننا بصدد شعور . يجب ان تتوجه رغبة الشعور الى شيء غير الطبيعة فاقدة الشعور . والشيء الوحيد في العالم ، الذي يتبني عن هذه الطبيعة ، هو بالضبط الشعور بالذات . يجب إذن أن يرتوي الشعور بالذات بشعور آخر بالذات . ومعنى ذلك ان الانسان لا يعترف به ولا يعرف نفسه كالإنسان ، ما دام يكتبني بأن يعيش عيشة الحيوان . انه بحاجة الى اعتراف الآخرين به . كل شعور هو ، في مبدئه ، رغبة في ان يعترف به كشعور من قبل الشعور الأخرى . إن الآخرين هم الذين 'يولدونا' . وفي المجتمع فقط ، نكتسب قيمة انسانية أعلى من القيمة الحيوانية .

المغامرة بالحياة

بما أن أسى قيمة بنظر الحيوان هي المحافظة على الحياة ، لذلك على الشعور أن يتسامى الى ما فوق هذه الغريزة كما يكتسب القيمة الانسانية . عليه ان يكون قادراً على المغامرة بالحياة . على الانسان كما يعترف به شعور آخر ، أن يكون مستعداً للمغامرة بحياته ، وان يقبل باحتمال التعرض للموت . إن العلاقات الانسانية الاساسية هي بالتالي علاقات نفوذ محض ، وصراع ابدى يرضى بالموت ، في سبيل اعتراف الواحد بالآخر .

اعتراف الجميع بالجميع

في المرحلة الاولى من جدالته ، يؤكد هينغل ما يلي : بما ان الموت عامل مشترك بين الانسان والحيوان ، لذلك يتميز الاول على الثاني بقبوله الموت ، بل بإرادته إياه . في صميم هذا الصراع الأولي من أجل الاعتراف ، يتوحد الانسان إذن توحداً ذاتياً مع الموت العنيف . « موتاً و 'كن' » ، هذه الحكمة التقليدية قد رجعت اليها هينغل . ولكن « 'كن' ما انت » ، افسحت المجال لـ « 'كن ما لست بعد' » . إن هذه الرغبة الأولية والمجنونة في الاعتراف ، والتي تختلط مع ارادة الوجود ، لن تشفي غلتها إلا باعتراف يتوسع توسعاً تدريجياً حتى يشمل اعتراف الجميل . وبما ان كل واحد يريد ان يعترف به الجميع ، لذلك ان يتوقف الصراع من أجل الاعتراف إلا باعتراف الجميع من قبل الجميع ، والذي يعين نهاية التاريخ . ان الكينونة التي يسمى الشعور الهينغلي للحصول عليها ، تولد في مجد مرافقة جماعية لا تتنازل إلا بصعوبة .

الصراع من اجل السلطان

يجدر بنا ان نشير الى ان الخير الأسمى ، في الفكر الذي أهم ثوراتنا ، لا يتطابق إذن مع الكينونة ، وانما مع تظاهر مطلق . مها يكن من أمر ، فليس تاريخ البشر كله سوى صراع طويل حتى الموت ، من أجل الحصول على النفوذ الكلي والسلطان المطلق . انه ، بذاته ، تسلطي . نحن الآن بعيدون عن المتوحش الصالح الذي تحدث عنه القرن الثامن عشر ، وبعيدون عن العقد الاجتماعي . ففي جلبة القرون وفورتها ، أصبح كل شعور يود موت الآخر ، كما يوجد هر . أضف الى ذلك ان هذه المأساة الختودة عبثية . ففي حالة إفناء شعور ، يظل الشعور المظفر غير معترف به ، لأنه لا يمكن ان يعترف به من قبل شعور لم يعد موجوداً . والحقيقة ان فلسفة التظاهر (١) تجد هنا نهايتها .

(١) رأينا في الصلحات السابقة ان الآخرين م المرأة (الحرب)

شعور السيد وشعور العبد

لو أنه لم يوجد منذ الاصل ، بحكم ترتيب يمكن اعتباره ميموناً بالنسبة الى المذهب الهيجلي ، نوعان من الشعور احدهما لا يملك الجرأة على التخلي عن الحياة ، ويرضى إذن بأن يعترف بالشعور الآخر ، دون ان يعترف هذا الاخير بالأول ، ... نقول : لو ان ذلك لم يوجد ، لما وُلدت إذن أية حقيقة انسانية واقعة . إنه إذن يوافق على أن يُعتبر كشيء . هذا الشعور الذي يتخلى عن الحياة المستقلة ، حفاظاً على الحياة الحيوانية ، هو شعور العبد . أما الشعور الذي يُعترف به وينال الاستقلال ، فهو شعور السيد . انها يتميزان عن بعضها بعضاً ساعة يتجاهاان ويرضخ احدهما قبل الآخر . ولا يعود حدًا الحيار في هذه المرحلة : الحرية أو الموت ، بل القتل أو الاستعباد . وسينعكس هذا الحيار على باقي التاريخ ، على الرغم من ان العبيّة لا تزال إذ ذاك غير محفّفة .

تخليل

لا جرم ان حرية السيد تامة إزاء العبد أولاً ، لأن هذا الاخير يعترف بالسيد اعترافاً كلياً ؛ وإزاء العالم الطبيعي بعدئذ ، لأن العبد يحول بميله هذا العالم الى اشياء تمتع يستهلكها السيد في تأكيد مستمر لذاته . بيد أن هذا الاستقلال ليس مطلقاً . فالسيد ، لسوء حظه ، يعترف به في استقلاله شعوراً لا يعترف به هو نفسه كشعور مستقل . لذلك لا يمكنه ان يروي غلته ، وليس استقلاله سوى استقلال سلبى . إن سلطة السيد طريق مورّطة . فبما انه لا يستطيع ايضاً ان يتخلى عن السيادة وان يعود عبداً ، لذلك يكون مصير السادة الأبدى القتل أو العيش دون إرواء الغلة . إن السيد لا يفيد شيئاً في التاريخ ، اللهم إلا لإحداث شعور العبودية ، الشعور الوحيد الذي يضع التاريخ حقاً . فالعبد ، والحق يقال ، ليس مقيّداً بوضعه ، بل يريد تبديله . في وسعه إذن ان يهذب نفسه ، بعكس السيد . وما يسمى التاريخ ، ليس

سوى سلسلة الجهود الطويلة المبدولة للحصول على الحرية . وبالعمل ، وبتحويل العالم الطبيعي الى عالم تقني ، يجر العبد نفسه من هذه الطبيعة التي كانت علة عبوديته لأنه لم يعرف كيف يتسامى عليها بقبول الموت (١) . وحتى كربة الموت التي يشعر بها في ذل الكينونة كلها ، تسبو بالعبد الى مستوى الشمول الانساني . انه يعرف بعد الآن ان هذا الشمول موجود ، ولا يبقى عليه سوى أن يفوز به ختل سلسلة طويلة من الصراع ضد الطبيعة وضد السادة . فالتاريخ يتوحد إذن توحداً ذاتياً مع تاريخ العمل والتمرد . وليس عجيباً ان تستخلص الماركسية - اللينينية من هذا الديالكتيك المثل الأعلى المعاصر : الجندي - العامل .

وجه آخر من الجدلة

اننا سنهمل وصف مراقف شعور العبودية ( الرواقية ، التشكك ، الشعور البائس ) ، هذه المراقف التي نجدها من بعد في فينومينولوجيا الذهن . ولكن لا يمكننا ان نهمل -- من حيث نتائجها - وجهاً آخر من وجوه هذا الديالكتيك ، ونعني تشبيه العلاقة : ( السيد - العبد ) بعلاقة الإله القديم بالإنسان . إن أحد شراح هيجل (٢) يلاحظ ما يلي : لو كان السيد موجوداً حقاً لكان إلهاً . وان هيجل بالذات يسمي سيد العالم بالإله الحقيقي . ويبين في وصفه للشعور البائس ان العبد المسيحي ، اذا اراد انكار مضطهديه ، التجأ الى ما وراء العالم ، واعطى نفسه بالتالي إلهاً جديداً في شخص الإله . وفي موضع آخر ، يوحد هيجل الرب الأعلى توحيدياً ذاتياً مع الموت المطلق . إن الصراع يحدث إذن ثانية على صعيد أعلى ، بين الإنسان المستعبَد والإله الظالم ، إله ابراهيم . أما حل هذا التمزق الجديد بين الإله الكلي والذات الشخصية فيقدمه يسوع المسيح الذي يوفق بين

(١) الحقيقة ان الابهام عميق لأننا لنا بعدد لفس الطبيعة . قبل نزيح مجيء العالم التمني الموت او الخوف من الموت في العالم الطبيعي ؟ تلك هي المسألة الحقيقية التي يترسكها هيجل معلقة .

(٢) جان هيبوليت : تكوير وبنيان فينومينولوجيا الذهن ، ص ١٦٨

الكلي والمفرد . ولكن المسيح هو ، بوجه ما ، جزء من العالم المحسوس . وقد امكنت رؤيته بالعين ، وعاش ، ومات . فهو اذن ليس سوى مرحلة على درب الكلي . هو ايضاً يجب ان ينكسر جديلاً . يجب ان لا يُعترف به إلا كإنسان -- إله لتحصل على وحدة تركيبية عليا . وبتجاوز الدرجات الوسيطة ، يكفي ان نقول ان هذه الوحدة التركيبية ، بعدما تجسدت في الكنيسة و العقل ، ستنتهي بالدولة المطلقة التي سيبنها الجنود - العمال ، وحيث سينعكس روح العالم بذاته في اعتراف الجميع بكل فرد اعترافاً متبادلاً ، وفي التوفيق الشامل لكل ما وُجد تحت الشمس . في هذه اللحظة « حيث تتطابق عين الروح وعين الجسم » ، لن يكون كل شعور سوى مرآة تعكس مرايا أخرى ، هي نفسها معكوسة الى ما لا نهاية في صور منعكسة . وستطابق مدينة الانسان مع مدينة الرب ؛ وان التاريخ العام ، محكة العالم ، سيصدر حكمه حيث سيرز الحير والشر . وستصبح الدولة قنطرة وسيعلن الرضا بكل حقيقة واقعة في « يوم الحضرة الروحي » (١) .



### تهديم الاستشراف الشاقولي

إن هذا يلخص الافكار الاساسية التي -- على الرغم من التجريد المفرط في الشرح ، أو بسببه -- حركت الروح الثورية في اتجاهات متباينة ظاهراً ، والتي علينا الآن ان نجد لها في عقائدية عصرنا . وإذ حلت اللاأخلاقية والمادية العلمية والإلحاد ، نهائياً محل نظرة المتمردين القدامى المعادية للتأليه ، انضمت تحت تأثير هيغل الى حركة ثورية لم تنفصل قط حتى مجيء هذا الفيلسوف عن أصلها الاخلاقي والانجيلي والمثالي . فلئن كانت هذه الاتجاهات بعيدة عن ان تكون خاصة بهيغل ، فقد نشأت عن إلهام فكرته وعن تقده للاستشراف . لقد هدم هيغل

(١) القطع غامض بعض الشيء بسبب الاقتراب في التجريد (المغرب)

نهایتاً كل استشراف شاقولي (١) ولا سيما استشراف المبادئ . تلك هي أصلته المؤكدة . ليس من شك في انه أعاد حلولة الروح الى صيرورة العالم . ولكن هذه الحلولة ليست ثابتة ، ولا تملك أية نقطة مشتبكة مع الأحادية Panthéisme القديمة . الروح موجود ، وغير موجود ، في العالم . فيه يحدث ، وفيه سيوجد . لقد أرجئت القيمة إذن الى نهاية التاريخ . ومن الآن الى ذلك الزمان ، ليس من معيار قادر على بناء حكم قيمي ، يجب التصرف والعيش تبعاً للمستقبل . كل اخلاق تصبح موقته . إن القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، في ميلها الصيبي ، قرنان حاولا العيش بلا استشراف .

الإذعان والمطابقة مع روح العصر

إن اسكندر كوخيف ، أحد شراح هيغل - وهو من اليساريين والحق يقال ، ولكنه تقليدي في هذه النقطة المعينة يلاحظ كره هيغل للأخلاقين ، وأن مبداه الوحيد هو العيش وفق آداب أمته وعاداتها . انما حكمة اذعان اجتماعي أعطى عنها هيغل أكثر البراهين بعداً عن القيم . على ان كوخيف يضيف قائلاً إن هذا الاذعان ليس مشروعاً إلا بمقدار مطابقة هذه الأمة لروح العصر ، أي ما دامت راسخة وما دامت تقاوم الانتقادات والحملات الثورية . ولكن من سببت في هذا الرسوخ ، ومن سيحكم على هذه الشرعية ؟ منذ مائة عام والنظام الرأسمالي في الغرب يقاوم هجمات عنيفة . فهل علينا مع ذلك ان نعتبره مشروعاً . ومن جهة اخرى ، هل كان على من اخلصوا لجمهورية وايمار ان يتخلوا عنها ، وان يعدوا هتار بولايمهم عام ١٩٣٣ لأن الجمهورية انهارت تحت ضرباته ؟ وهل كان لزاماً خيانة الجمهورية الاسبانية ساعة كتب النجاح لنظام الجنرال فرانكو ؟ إنها استنتاجات يبررها التفكير الرجعي التقليدي في منظوره الخاص . ولكن وجه الجدة - التي لا يمكن حساب نتائجها - يكمن في ان الفكر الثوري قد تمثل هذه الاستنتاجات . إن إلغاء المبادئ وكل قيمة اخلاقية

(١) الاستشراف الإلهي واستشراف المبادئ المبردة (الحقيقة مثلاً) - المغرب -

واستبدالها بالأمر الواقع ، الملك الموقت ولكن الفعلي ، لم يؤد -- وقد رأينا ذلك جيداً - إلا الى سفاهة سياسية ، سواء أكانت صادرة عن الفرد أم عن الدولة - وهذا ما هو أخطر... إن الحركات السياسية أو السياسية المستلهمة من هيغل تلتقي جميعاً في التخلي عن الفضيلة تخلياً بيئياً .

البراءة غريبة عنا

ما كان في وسع هيغل في الحقيقة ان يمنع أولئك الذين قرأوا إنتاجه بقلق غير منهجي ، في أوروبا بمزقة بالظلم ، من ان يروا أنفسهم في عالم بلا براءة ولا مبادئ ، في هذا العالم الذي قال عنه هيغل انه في حد ذاته خطيئة ، لأنه منفصل عن الروح . ليس من شك في ان هيغل يصفح عن الخطايا في ختام التاريخ . ولكن من الآن الى ذلك الزمان ، ستكون كل عملية أئمة . لا تمثل البراءة إذن إلا في انعدام الفعل ، في كينونة حَجَرة ، حتى ولا في كينونة طفل . إن براءة الحجارة هي إذن غريبة عنا . بلا براءة : ما من علاقة ، ما من عقل . بلا عقل : القوة المجردة ، السيد والعبد ، ... في انتظار أن تُكتب السيادة للعقل ذات يوم . بين السيد والعبد ، يكون العذاب منفرداً ، والابتهاج بلا جذور ، وكلاهما غير مستحقين . كيف العيش إذن ، كيف التحل ، اذا كانت الصداقة في نهاية الزمان ؟ المخرج الوحيد هو ان نخلق القاعدة والسلاح في يدنا .

الحد الاول : القتل

«القتل أو الاستعباد» . أولئك الذين طالعوا هيغل بنزوتهم الرهبة وحدها ، لم يستبقوا حقاً سوى الحد الاول من الخيار . فقد اخذوا عنه فلسفة ازدراء وبأس ، معتبرين انفسهم عبيداً ، وعبيداً فقط ، مرتبطين بالسيد المطلق ( الله ) بواسطة الموت ، وبالسيادة الأرضيين بواسطة السوط . إن فلسفة الشعور الحبيث هذه علمتهم فقط ان كل عبد ليس عبداً إلا بالقبول ، ولا يتحرر إلا برفضه يتطابق مع الموت . إن اكثرهم كبرياء ، إذ ارتضوا التحدي ، توحدوا تماماً



مع هذا الرفض ونذروا أنفسهم للموت . مها يكن من أمر ، فان القول بأن الإنكار هو في حد ذاته فعل ايجابي ، كان يورد بلفاً كل انواع الإنكار ويبشر بصرخة باكونين و نيتشائيف : « إن مهمتنا التهديم ، لا البناء » . فالعدمي ، بنظر هيغل ، كان فقط المتشكك الذي لم يكن له مخرج سوى التناقض أو الانتحار الفلسفي . ولكنه ولد هو بالذات نوعاً آخر من العدميين الذين ، إذ جعلوا من الملل مبدأ عمل ، وحدوا انتحارهم توحيداً ذاتياً مع القتل الفلسفي<sup>(١)</sup> . هنا ولد الارهابيون الذين قرروا انه يجب القتل والموت في سبيل الوجود ، لأن الانسان والتاريخ لا يسعها ان 'يخلقا' إلا بالتضحية والقتل . هذه الفكرة العظيمة القائلة إن كل مثالية هي جوفاء ما لم يكن ثمنها المغامرة بالحياة ، سيسير بها نحو نهاية الشوط فتية<sup>٢</sup> لم يعلموها من فوق كرسي جامعي من قبل ان يدركهم الموت وهم في سريرهم ، بل خلكل دوي القنابل وحتى تحت اعداء المشائق . بذلك ، وفي أخطائهم بالذات ، قوّموا معلمهم وبينوا ، خلافاً لرأيه ، أن ثمة ارسوقراطية ، على الاقل ، أعلى من ارسوقراطية النجاح البشعة التي أشاد بها هيغل . هذه الارستوقراطية هي ارستوقراطية التضحية .

الحد الثاني : الاستعباد

ثمة نوع آخر من الورثة ، قرأوا هيغل بشكل اكثر جدية ، واصطفوا الحد الثاني من الخيار ، واعلنوا ان العبد لا يتحرر إلا اذا استعبد بدوره . إن المذاهب الما بعد - هيغلية ، إذ نسبت الوجه الصوفي لبعض اتجاهات المعلم ، سارت بهؤلاء الورثة الى الإلحاد المطلق والى المادية العالمة . ولكن لا يمكن تصور هذا التطور دون اختفاء كل مبدأ تفسيري استشرافي اختفاء مطلقاً ، ودون تهديم المثل الأعلى العقوي تهديماً تاماً . ليس من شك في ان الحلولية ليست الإلحاد . ولكن الحلولية في حالة الحركة هي ، ان جاز القول ، 'الإلحاد'

(١) هذه العدمية هي ، رغم الظواهر ، عدمية بالمعنى النيتشوي ، بحدار ، هي اقتراء على الحياة الحاضرة في صالح آخرة تاريخية يسعى الى الايمان بها .

موقنت (١) . ولن يكون من الصعب طمس وجه الإله المبهم الذي ما زال ، عند هيجل ، ينعكس في روح العالم ، ومن كلمة هيجل المبهمة القائلة : « الله بلا الانسان ليس اكثر وجوداً من الانسان بلا إله » ، ... تقول : من كلمة هيجل هذه سيدستخلص خلفه نتائج حاسمة . إن دافيد شتراوس في كتابه : « حياة يسوع » ، يعزل نظرية المسيح باعتباره كإله إنسان . أما برونو باور فيضع نوعاً من المسيحية المادية بتركيزه على انسانية يسوع ، في كتابه : « نقد التاريخ الانجيلي » . أخيراً ، نرى فورباخ ( الذي اعتبره ماركس مفكراً كبيراً واعترف بأنه تلميذه الناقد ) في « جوهر المسيحية » يستبدل كل علم اللاهوت بديانة الانسان والنوع ، وهي ديانة استألت قسماً كبيراً من الفكر المعاصر .

#### ديانة فورباخ

إن مهمتها ان تبين ان التمييز بين « الإنساني » و « الإلهي » مجرد وهم ، وانه ليس سوى التمييز بين جوهر الانسانية ، أي : الطبيعة الانسانية ، والفرد . « ليس لغز الإله سوى لغز حب الإنسان لذاته » . وحينئذ تنصاعد نغمات نبوءة جديدة وغريبة : « لقد حلت الذاتية الفردية محل الايمان ، والعقل محل الكتاب المقدس ، والسياسة محل الدين والكنيسة ، والارض محل السماء ، والعمل محل الصلاة ، والبؤس محل الجحيم ، والانسان محل المسيح » . لم يعد هناك اذن سوى جحيم واحد ، وهو في هذا العالم . ومن واجبنا ان نناضل ضد هذا الجحيم . السياسة دين ؛ أما المسيحية الاستشرافية ، مسيحية الحياة الابدية ، فتترطد سادة الارض بواسطة زهد العيد ، وتولّد سيداً آخر في قلب السموات . لهذا السبب ، ليس الاحلاد والروح الثورية سوى وجهي نفس الحرية التحررية .

(١) مها يمكن من امر ، فان انتقاد كبير كفارد هول . ان إقامة الالهية على التاريخ تعني بصورة مفارقة ، إقامة قيمة مطلقة على معرفة تمريضية . ما هو « تاريخي الابد » يشكل تناقضاً في اللفاظ .

الأسل العدمي لأفكاره

هذا هو الرد على السؤال المطروح دائماً : لماذا توحدت الحركة الثورية توحداً ذاتياً مع المادية وليس مع المثالية ؟ لأن استعباد الله واستخدامه معناه القضاء على الاستشراف العلوي الذي يحافظ على السادة القدماء ، ومعناه - مع صعود السادة الجدد - التمهيد لأزمة الإنسان-الملك . بعد انتهاء البؤس ، وحل التناقضات التاريخية ، « ستصبح الدولة هي الإله الحقيقي ، الإله البشري » . أما شعار : « الانسان ذئب على الانسان » فيصبح حينئذ : « الانسان إله الانسان » هذه الفكرة هي في أصل العالم المعاصر . مع فورباخ ، نشاهد ولادة تقاؤل فظيع لا تزال نراه يعمل الآن ، ويبدو انه يختلف اختلافاً تاماً عن اليأس العدمي . ولكن ذلك ليس سوى مظهر . يجب ان نعرف استنتاجات فورباخ الأخيرة في كتابه : «نَسَب الآلهة» ، كي نلاحظ الأصل العدمي لأفكاره المضطربة . والحقيقة ان فورباخ يؤكد ، خلافاً لهيغل ، ان الانسان ليس سوى ما يأكل ، ويلخص فكرته والمستقبل على الصورة التالية : « الفلسفة الحقة هي إنكار الفلسفة . ما من دين هو ديني ، وما من فلسفة هي فلسفتي » .

حينما يولد التاريخ القيم

ان التحال من القيم ، وتآليه التاريخ والمادة ، والارهاب الفردي أو جرمية الدولة ، ... كل هذه النتائج المتطرفة سننشأ ، شاكية السلاح ، عن نظرة مبهمة الى العالم تعهد الى التاريخ وحده بمهمة توليد القيم والحقيقة . فاذا استحال تصور أي شيء بوضوح قبل ان يمحص الحق في ختام الزمان ، غدا كل عمل اعتباطياً ، وكتبت السيادة للقوة اخيراً . لقد هتف هيغل قائلاً : « اذا كانت الحقيقة لا تدرك ، وجب علينا وضع مفاهيم لا تدرك » . إن مفهوماً لا يدرك ، يحتاج ، كالضلال ، لأن يُبتدع ابتداءً . ولكن ، كما يلقي القبول ، لا يمكنه ان يعمل على الاقناع الذي هو من مصاف الحقيقة ، ولا بد له إذن من ان يفرض فرضاً في النهاية . إن موقف هيغل يكمن في قول ما يلي :

« هذه هي الحقيقة التي تترأى لنا مع ذلك انها ضلال ، ولكنها حقة لأنها عرضة للضلال ، . أما البرهان فما انا ، بل التاريخ هو الذي سيدلي به ، في نهايته . مثل هذا الادعاء لا يمكنه ان يولد الا مرقفين : إما توقيف كل تأكيد ريثما يدلي بالبرهان ، أو تأكيد كل ما يبدو في التاريخ انه منذور للنجاح ، والقوة في الطبيعة . وفي كلتا الحالتين ، لا يمكنه ان يولد إلا العدمية . مهما يكن من أمر ، فاننا لا نفهم الفكر الثوري في القرن العشرين اذا اهملنا ان هذا الفكر ، بفعل حظ عاثر ، قد استمد جزءاً كبيراً من إلهامه من فلسفة إذعانية انتهازية . ان التمرد الحقيقي لا يوضع موضع اللوم والالتهام بسبب فساد هذا الفكر .

حاج هينغل الحاطيء

ولكن ما سمح لهينغل بهذا الادعاء ، هو الذي يجعله فكرياً والى الابد محط الشبهة . فقد اعتقد ان التاريخ قد انتهى عام ١٨٠٧ بمجيء نابليون وبهيمته هو ، وان التأكيد صار بالإمكان والعدمية في خذلان . إن فينومينولوجيا الذهن ، هذا الكتاب المقدس الذي لم يتنبأ إلا بالماضي ، وضمت حداً للزمان . في عام ١٨٠٧ شملت الخطايا بالغفران ، وانتهت العصور والازمان . ولكن التاريخ استمر ... ومنذئذ تمه خطايا اخرى تصرخ في وجه العالم وتبرز خزي الجرائم القديمة التي غفرها الفيلسوف الالماني الى ابد الدهر . ان تأليه هينغل لنفسه ، بعد تأليه نابليون الذي أصبح بريئاً لأنه نجح في تثبيت التاريخ ، لم يدم في الحقيقة سوى سبع سنوات . وبدلاً من التأكيد الكلي ، غطت العدمية العالم . إن للفلسفة معاركها الخاسرة ، حتى لو كانت فلسفة عبودية .

استمرار ارادة الألهية

ولكن لا شيء يستطيع ان يشبط ارادة الألهية في قلب الانسان . ثمّة آخرون جاءوا وما زالوا يجيئون ، وإذ ينسون المعارك الخاسرة ، يزعمون دائماً لإنهاء التاريخ . ان ألوهية الانسان ما زالت سائرة ، ولن تصبح معبودة إلا في

ختام الزمان . يجب خدمة هذه الرؤيا ؛ ونظراً لعدم وجود إله ، يجب بناء الكنيسة على الأقل . مها يكن من أمر ، فان التاريخ الذي لم يتوقف بعد ، يشف عن أفق قد يكون أفق المذهب الميغلي ، لا لشيء إلا لأن أبناء هيغل الروحيين يجرونه موقتماً ان لم يكونوا يوجهونه . لما فتكت الكوليرا بهيغل وهو في أوج مجده ، كان كل شيء مرتباً في الحقيقة لما سينتو من أحداث . فالسما فارغة ، والارض مسلّمة للقوة المجردة من المبادئ .

الذين اصطفوا القتل ، والذين اصطفوا الاستعباد ، سيحتلون قباعاً واجهة المسرح بإسم تمردٍ حُويل عن حقيقته .

## الارهاب الفردي

ضال المتفدين

لاحظ بيزاريف ، فيلسوف العدمية الروسية ، أن الاطفال والشباب اكثر الناس تعصباً . وهذا صحيح ايضاً فيما يتعلق بالأمم .

كانت روسيا آنذاك أمة فتية أظهرها الى حيز الوجود ، منذ حوالي قرن ، قيصر كان لا يزال على حد كاف من السذاجة بحيث كان يقطع هو بالذات رؤوس المتمردين . فليس عجيبياً انها سارت بالفكر الالمانى الى حدود التضحية والدمار ، هذه الحدود التي لم يتمكن الاساتذة الألمان من بلوغها إلا بالذهن . لقد تراءى لستاندال اختلاف أول بين الالمان والشعوب الاخرى ، ألا وهو أن التأمل يدفعهم الى التحمس بدلاً من ان يدفعهم الى السكينة . وهذا صحيح ايضاً ، ولكن بشكل أكثر ، بالنسبة الى روسيا . ففي هذه البلاد الناشئة التي لم تكن تملك تقاليد فلسفية (١) ، ثمة فتية ، بمثابة اخوة لطلاب لوترياموت الداميين ، تمسكوا بالفكر الالمانى ، وجسدوا نتائجه في الدماء . فقد تسلمت

(١) يلاحظ بيزاريف نفسه ان الحضارة ، في عدتها العقائدية، قد استوردت في روسيا دائماً . راجع : ارمان كوكار ، بيزاريف وعقائدية العدمية الروسية .

« بروتارييا من حملة البكالوريا »<sup>(١)</sup> حركة تحرير الانسان العظمى لتكسيها وجهاً أكثر انفعالاً . وحتى نهاية القرن التاسع عشر ، لم يتجاوز عدد هؤلاء الشبان بضعة آلاف . ومع ذلك ، بمفردهم ، تجاه أهلك لحكم استبدادي آنذاك ، استزموا تحرير أربعين مليوناً من الفلاحين المعدمين ( الموجيك ) ، وبصورة موقنة اسهموا حقاً في تحريرهم . وقد دفع معظمهم ثمن هذه الحرية بالانتحار أو الاعدام أو السجن أو الجنون . إن كل تاريخ الارهاب الروسي يمكن أن يتلخص في نضال حفنة من المثقفين ضد الطغيان ، بمشهد من الشعب الصامت . وقد تعرض ظفرهم المنهوك للخيانة في نهاية المطاف . ولكنهم ، بتضحيتهم ، وحتى بمواقفهم المفرطة في الإنكار ، جسدوا قيمة أو فضيلة جديدة لم تكف حتى في يومنا هذا عن مجابهة الطغيان ، وعن مؤازرة التحرير الحقيقي .

جرمنة روسيا

لم تكن جرمنة روسيا في القرن التاسع عشر حادثاً منعزلاً . فقد كانت الفكر الالمانى آنذاك ذا تأثير راجح ، ونحن نعرف مثلاً معرفة كافية ان القرن التاسع عشر في فرنسا ، مع مبشليه و كينه ، كان قرن الدراسات الالمانية . ولكن هذا الفكر لم يصادف في روسيا فكرة مكونة في السابق ، بينما اضطر في فرنسا الى مغالبة الاشتراكية المتحزبة للحرية المطلقة والى التوازن معها . في روسيا ، كان هذا الفكر في ارض مفتحة مقهورة . فأول جامعة روسية ، جامعة موسكو ، التي أسست عام ١٧٥٠ ، كانت ألمانية . إن استعمار روسيا استعماراً بطيئاً من قبيل المربين والموظفين والعسكريين الالمان ، بدأ في عهد بطرس الأكبر ، ثم تحول بفضل نقولا الاول الى جرمنة منهجية . وقد تحمس المثقفون لشيئغ وللفرنسيين معاً في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، ولهيغل في العقد الخامس ، وللإشتراكية الالمانية المنبثقة عن هيغل في النصف الثاني من

(١) ستويسكي .

القرن<sup>(١)</sup> . ونفثت الشيبية الروسية في هذه الافكار التجريدية قوة الهوى الجامع الذي تتميز به ، وعاشت حقاً هذه الافكار الجامدة . صحيح ان الاساتذة الالمان وضعوا صيغة ديانة الإنسان ، ولكن هذه الديانة كانت لا تزال مفترقة الى الحارابين والشهداء . وقد قام بهذا الدور المسيحيون الروس الذين انحرفوا عن استعدادهم الاصيلي . وفي سبيل ذلك ، رضوا بأن يعيشوا بلا استشراف ولا فضيلة .

### ١ - التخلي عن الفضيلة

نوار كانون الاول

حوالي ١٨٢٠ ، كانت الفضيلة لا تزال موجودة لدى ثوريي كانون الثاني ، أول الثوريين الروس . ولم تكن المثالية يعقوبية بعد ، قد قُومت لدى هؤلاء النبلاء . بل كانت فضيلتهم فضيلة واعية . قال احدهم ، بيير فياسمكي : « كان آباؤنا من محبي الذات ، أما نحن فمن أهل التقشف » . يضاف الى ذلك ، الرأي الذي سنجدده حتى عند باكونين والاشتراكيين الثوريين عام ١٩٠٥ ، ألا وهو ان الألم مجدّد . إن نوار كانون يذكر وناهمؤلاء النبلاء الفرنسيين الذين تحالفوا مع الشعب وتخلوا عن امتيازاتهم . كانوا من النبلاء المثاليين ، لذلك كانت لهم ليلة ٤ آب<sup>(٢)</sup> ، واصطفوا التضحية بالذات في سبيل تحرير الشعب . وعلى الرغم من ان رئيسهم بيستيل كان صاحب فكرة سياسية واجتماعية ، فان مؤامرتهم الفاشلة لم تكن ذات برنامج ثابت ، بل ليس مؤكداً أنهم كانوا يؤمنون بالنجاح . قال احدهم عشية العصيان : « أجل ، سنموت ، ولكنها ستكون مية جميلة » . ولقد كانت كذلك حقاً . ففي كانون الاول عام ١٨٢٥ ، دمرت منطقة الثوار بالمدافع في ساحة مجلس الشيوخ في مدينة بطرسبرغ . أما الناجون فيجري

(١) ترجم رأس المال الى الروسية عام ١٨٧٢  
(٢) إشارة الى ليلة ٤ آب ١٧٨٩ ، وهي اللية التي الت خلالها الجمعية التأسيسية الامتيازات الاقطاعية (المعرب)



إبعادهم ، ولكن بعدما أعدم خمسة منهم بصورة خرقاء دفعت الجلادين الى تكرار العملية مرتين . لذلك نفهم دونما صعوبة ان هؤلاء الضحايا غير الفعالين ظاهراً ، كانوا موضع التمجيد في حماسة ورعشة من قبيل كل روسيا الثورية . لقد كانوا انموذجيين ، إن لم يكونوا فعالين . وقد اشاروا في مستهل هذا التاريخ الثوري الى حقوق والى عظمة النفس التي سماها هيغل بسخرية النفس النبيلة ، هذه النفس التي سيتحدد مع ذلك بالنسبة اليها الفكر الثوري الروسي .

اول رد فعل

في هذا الجو من الحماس ، جاء الفكر الالماني يجارب التأثير الفرنسي ويفرض سحره على أذهان يتنازعها الحس بعزلتها ، والرغبة في الانتقام والعدالة . فاستقبله المثقفون في البدء استقبال الكلام المنزّل نفسه ، ووضعوه مثله موضع التمجيد والتعليق . بل ذهبوا الى حد نظم منطق هيغل شعراً . وقد استخلص معظم المثقفين الروس من المذهب الهيغلي في البدء تبريراً لنظرة اجتماعية متصوفة . فكان الشعور بعقلانية العالم كافياً ، لأن الروح سيتحقق على كل حال في ختام الزمان . كان هذا أول رد فعل صدر عن ستانكيفتش<sup>(١)</sup> وباكونين وبيلسكي مثلاً . ولكن الهوى الروسي تراجع فيما بعد أمام هذه المشاركة الفعلية في الإثم مع الحكم المستبد ، ( إن لم تكن هذه المشاركة مقصودة ) . وارتمى فوراً في الموقف المناقض .

تطور بيلسكي

لا شيء اكثر دلالة بهذا الخصوص من تطور بيلسكي الذي يعتبر من أبغ المفكرين في العقدين الرابع والخامس واكثرهم تأثيراً . فقد انطلق من مثالية غامضة متحزبة للحرية المطلقة ، ثم اكتشف هيغل فجأة . وفي غرفة نومه ، في منتصف الليل ، اغرورقت عيناه بالدمع ككباسكال ، بتأثير صدمة الإلهام ، وكفر بذاته دومة واحدة : « لا وجود للاعتباط ولا للصدقة » ، لقد ودّعت

(١) « ينظم العالم روح الغل ، وهذا ما يعلمني حول الباقي » .

الفرنسيين . وهذا هو ذا قد أصبح محافظاً ومن انصار النظرة الاجتماعية المتصوفة . كتب ذلك دونما تردد ، ودافع عن موقفه بشجاعة كما يحس به . ولكن هذا القلب الشجاع ، ألقى نفسه واقفاً بجانب الظلم ، أبغض الأشياء إليه في هذا العالم . اذا كان كل شيء منطقياً (١) ، فكل شيء مبرر . ينبغي لنا إذن أن نقول : نعم للوسط ، للعبودية ، لسيبيريا . وقد تراءى له لحظة ان قبول العالم وآلامه سيل' العظيمة ، لأنه كان يتصور فقط تحمل عذابه الخاص وتناقضاته . ولكن اذا كان المقصود ايضاً قول : نعم لعذاب الآخرين ، فان شجاعته تخونه دفعة واحدة . حينئذ يعضي في منحى معاكس . اذا كنا لا نستطيع الرضا بعذاب الآخرين ، فثمة شيء في العالم لا يبرر ؛ وفي احدى تقاطعه على الاقل ، لا يعود التاريخ متطابقاً مع العقل . ولكن يجب ان يكون كله معقولاً ، أو انه ليس معقولاً إطلاقاً . إن الاحتجاج المنعزل الصادر عن الانسان الذي تهدئه لحظة' الفكرة' القائلة بإمكان تبرير كل شيء ، ... ان هذا الاحتجاج سينفجر ثانية في كلمات حادة . وحينئذ يتوجه بيلنسكي بكلامه الى هيجل بالذات : « مع كل الاحترام اللائق بفلسفتك البورجوازية ، لي الشرف بأن أحيطك علماً بأنني سأسألك الحساب عن كل ضحايا الحياة والتاريخ اذا أتيت لي فرصة الارتقاء الى أعلى درجات التطور . انني لا اريد السعادة حتى لو كانت مجانية ، اذا لم اكن مستريح البال بخصوص كل اخوتي في الدم » (٢) .

انموذج اتعال

أدرك بيلنسكي ان ما يريد ليس « مطلق العقل » بل « كمال الكينونة » . إنه يأبى ان يوحد بينها توحيداً ذاتياً ، ويريد خلود الانسان كله ، منتصباً في شخصه الحي ، لا الخلود التجريدي للنوع وقد أصبح روحاً . إنه يدافع بنفس

(١) إشارة الى قول هيجل : كل ما هو وجود فهو معقول (المعرب)

(٢) Bakounine et le panslavisme révolutionnaire . Rivière .

الحماس ضد خصوم جُدد ، ومن هذه المداولة الذاتية العظمى يستخلص نتائج يدين بها هيغل ولكنه يقلبها ضده .

هذه الاستنتاجات ستكون نتائج الفردانية المتمردة . فالفرد لا يسعه قبول التاريخ كما هو سائر . ينبغي له أن يحطم الحقيقة الواقعة كي يؤكد ما هو ، لا ان يتعاون معها . « أصبح الإنكار إلهي ، مثلما كانت الحقيقة الواقعة<sup>(١)</sup> من قبل . إن أبطالي هم محطو القديم: لوثير ، فولتير ، الموسوعيون ، الارهابيون ، بيرون في قابيل . هكذا نجد كل موضوعات التمرد الماورائي ، دفعة واحدة . صحيح ان تقاليد الاشتراكية الفردانية الفرنسية بقيت حية دائماً في روسيا . فسان سيمون وفورييه اللذان اقبل الناس على قراءتها في العقد الثالث من القرن ، وبرودون الذي دخلت كتبه روسيا في العقد الرابع ، أوحوا لهيرزن بتفكيره العظيم ، وليير لافروف فيما بعد . ولكن هذا التفكير الذي بقي متعلقاً بالقيم الاخلاقية قهر أخيراً ، على الأقل بصورة مؤقتة ، في منازعاته الكبرى مع الافكار المتحللة من القيم . أما بيلنسكي فوجد ، مع هيغل وضده ، نفس اتجاهات الفردانية الاجتماعية ، ولكن من زاوية الإنكار ، وذلك في رفض القيم الإستشرافية . ولما مات عام ١٨٤٨ كان تفكيره ، على كل ، قريباً جداً من تفكير هيرزن . ولكنه ، في مقابله مع هيغل ، عرف بدقة موقفاً أصبح موقف العدمين ، وموقف الارهابيين الى حد ما . هكذا قدم أنغونجاً انتقالياً بين كبار نبلاء ١٨٢٥ المثاليين ، وطلاب ١٨٦٠ « اللاشئيين » .

. Rienistes

(١) أو : الوجود (المرب)

## ٢ - ثلاثة ممسوسين

تمديد

عندما كتب هيرزن - مدافعاً عن الحركة العدمية بمقدار ما رأى فيها مزيداً من التحرر إزاء الافكار التافهة - ، عندما كتب قائلاً : « إن إزالة القديم تعني إحداث المستقبل » ، استأنف اقوال بيانسكي . وعندما تحدث كوتديارفسكي عن أولئك الذين سموا أنفسهم بالراديكاليين ، عرفهم على انهم حواريون « اعتقدوا ان من الواجب التغلبي تماماً عن الماضي ، وبناء الشخصية الانسانية استناداً الى طراز آخر » . إن مطالبة ستيرنر<sup>(١)</sup> تعود الى الظهور مع طرح كل تاريخ والعزم على بناء المستقبل تبعاً للفرد -- الملك لا تبعاً للروح التاريخية . ولكن الفرد -- الملك لا يستطيع الارتقاء الى السلطة بمفرده . انه بحاجة الى الآخرين ، ويدخل حينئذ في تناقض عدمي سيحاول كل من بيزاريف وباكونين ونيشاييف حله بتوسيع ساحة الدمار والإنكار قسط ما ، ريثما يقضي الإرهاب على التناقض نفسه ، في التضحية والقتل الواقعين في وقت واحد .

### بيزاريف Pissarov

تعريف العدمية

إن عدمية سنوات العقد السابع من القرن بدأت في الظاهر بأتم إنكار ممكن ، طارحة كل عمل ليس أنانياً صرفاً . ومعلوم ان كلمة عدمية ابتدعها تورغونيف في قصة عنوانها : « والد وأبناء » ، يمثل بطلها بازاروف هذا الطراز من البشر . وإذ كان علي بيزاريف أن ينتقد هذه القصة ، أعلن ان العدميين يعترفون ببازاروف انموذجاً لهم . يقول بازاروف : « ما علينا ان نتباهى إلا

(١) راجع ما ذكر تحت عنوان : الأوحاد ص ٨٩ (المغرب)

بشعورنا العقيم بفهمنا ، الى حد ما ، نُعقم ما هو موجود . — هل هذه هي  
العدمية ؟ — أجل ، هذه هي العدمية . وقد امتدح بيزاريف هذا الاندوج  
وعرفه ، في سبيل المزيد من الوضوح ، على الوجه التالي : « لا علاقة لي بنظام  
الاشياء القائم ، ما عليّ ان اتدخل فيه » .  
القيمة الوحيدة تكمن إذن في الأناية العقلانية .

إنكار بيزاريف

إن بيزاريف ، إذ أنكر كل ما ليس لإرضاء الذات ، أعلن الحرب على  
الفلسفة ، على الفن المعتبر كعبث ، على الأخلاق الكاذبة ، على الدين ، وحتى  
على العرف والمجاملة . وبني نظرية إرهاب عقلي تذكرنا بإرهاب السرياليين  
الفرنسيين . فقد رُفِع التحدي إلى مصاف العقيدة ، ولكن بعقبي أعطى عنه  
راسكولنكوف فكرة صحيحة . في قمة هذه الوثبة الرائعة ، طرح بيزاريف بجد  
السؤال التالي : هل يستطيع المرء أن يقتل أمه ، ثم أجاب قائلاً : « لم لا ،  
إذا كنت أريد ذلك وأجده مفيداً ؟ » .

العدمية : خلاصة عقلانية

إعتباراً من هذا الحد ، تمرينا الدهشة بأن لا نجد عدميين مشغولين بجمع  
ثروة أو الارتقاء إلى منصب ، وبالاستمتاع بكل ما يسمح لهم استمتاعاً متحللاً  
من القيم . والحقيقة ان عدميين موجودون في كل مراتب المجتمع العلي .  
ولكنهم لا يضعون نظرية حول تحللهم من القيم ، ويفضلون في كل فرصة  
أن يقدموا في الظاهر آيات التكريم للفنية ، دونما تبعة . أما هؤلاء الذين نحن  
بصددهم فكانوا يناقضون أنفسهم في تحديهم للمجتمع ، هذا التحدي الذي كان في  
حد ذاته تأكيداً لقيمة . وكانوا يدعون . بأنهم ماديون ، وكان كتابهم المفضل  
« القوة والمادة » لبوخر . ولكن أحدهم اعترف قائلاً : « كل فرد منا كان  
مستعداً للنهي إلى المشتقة ، ولتقديم رأسه في سبيل مولييسكوت (١) وداروين »

(١) عالم هولندي من المداعين عن المادية .

'مَبَوِّثًا' العقيدة مقاماً أسمى من مقام المادة . عن هذه الدرجة ، كان للعقيدة سياء الدين والتعصب . فقد اعتقد بيزاريف ان لامارك نحاتن لأن داروين على صواب . وأي امرىء في هذا الوسط يهتم بالحديث عن خلود النفس كان يُحْكَم عليه بالحرمان . لذلك ، 'حق لو ايديلي' (١) أن يُعرف العدمية على انها ظلامية Obscurantisme عقلانية . كان العقل عندهم يضم اليه بصورة غريبة أحكام الدين الاعتبارية ، ولم يكن أبسط تناقض عند هؤلاء الفراديين اصطفاً أتفه علموية (٢) Scientisme أنموذجاً للعقل . كانوا ينكرون كل شيء ، ما عدا أكثر القيم قبولاً للجدال ... قيم السيد هومييه (٣) M. Homais .

حاملة بيزاريف

مع ذلك ، قدم العدميون أنموذجاً لخلْفِهِم باتخاذهم العقل الضيق عقيدة جوهرية . لأنهم لم يؤمنوا بشيء ، اللهم إلا بالعقل والمصلحة . ولكنهم اصطفوا أعباء الرسالة بدلاً من التشكك ، واصبحوا اشتراكيين . وهنا كمن تناقضهم ، فككل الأذهان الفتية ، أحسوا في الوقت نفسه بالشك وبال الحاجة إلى الإيمان وقد كمن حلهم الشخصي في إكساب إنكارهم تشدد الإيمان وهواه . ما الغريب ، مع ذلك ؟ لقد استشهد وايديلي بجملة الفيلسوف سولوفيف المحقيرة ، مندداً بهذا التناقض : « الانسان منحدر من القرده ، لذلك علينا ان نحب بعضنا بعضاً » . ومع ذلك ، في هذا التمزق كمنت حقيقة بيزاريف . فاذا كان الانسان صورة مصغرة عن الإله ، فليس مهماً أن يُجرم من الحب البشري ، وسيأتي يوم يروي فيه غلته . أما إذا كان مخلوقاً أعمى يخبط يخبط عشواء في ظلمات وضع قاسٍ ومحدود ، فانه بحاجة إلى أنداده وإلى حبهم الفاني . مهما يكن من أمر ، فأين

(١) La Russie absente et présente. Gallimard

(٢) راجع : تيارات الفكر الفلسفي ص ٣٨٩

(٣) أنموذج يمثل أنصاف المثقفين السخفاء خلفه فلويير في قصته : مدام بوهاري ( صدرت في منشورات عويدات ) في صورة صيدلي ومفكر حر يمثل الحماة البورجوازية . - المرء

يمكن أن تلجأ المحبة ، إن لم يكن ملجأها في عالم بلا إله ؟ ففي العالم الآخر ، يتدارك العون الرباني كل شيء ، ويُعنى حتى بأمر المنعمين . إن الذين ينكرون كل شيء يدركون على الأقل أن الإنكار شقاء. لذلك ، في وسعهم أن يفتحوا على شقاء الآخرين ، وان ينكروا ذاتهم في النهاية. إن بيزاريف لم يكن ليتراجع ذهنياً أمام قتل أم (١) ، ولكنه وجد مع ذلك نبواتٍ صحيحةً للتحديث عن الظلم . لقد أراد أن يتمتع تمتعاً أنانياً بالحياة ، ولكنه كابد مرارة السجن ثم أصبح مجنوناً ، هذا المقدار من التحلل من القيم دفعه أخيراً إلى معرفة الحب ، وإلى أن يُبعد عنه ويتألم منه إلى حد الانتحار، ملتقياً بالإنسان العجوز البائس المذبذب الذي ينير التاريخ بعظمته وحدها ، بدلاً من الالتقاء بالفرد - الملك الذي أراد هو أن يخلقه .

## باكونين Bakounine

بذرة جديدة

لقد جسد باكونين نفس التناقضات ، ولكنه بصورة ملحوظة أخرى . ومات عشية الملحمة الإرهابية (٢) . مهما يكن من أمر ، فقد استنكر سلفاً الاعتداءات الفردية ، وندّد بـ «بروتوسات عصره» (٣) . ولكنه كان يشعر نحوه بالاحترام ، فقد أنقى باللائمة على هيرزن لأنه انتقد جهراً اعتداء كاراكوزوف الفاشل على القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٦٦ . هذا الاحترام كانت له أسبابه . إن باكونين أثر على سلسلة الأحداث ، بنفس الصورة التي أثر فيها بيلنسكي والعميون ، في منحى التمرد الفردي . ولكنه أتى بشيء آخر : بذرة تحلل قيسمي سياسي تبلور بعدئذ في مذهب لدى نيتشايف وأفقد الحركة الثورية صبرها .

(١) مر ذلك تحت عنوان : إنكار بيزاريف ص ٢٠١ (المعرب)

(٢) ١٨٧٦

(٣) جمع بروتوس .

التحسس لهيغل  
والانصراف عنه

لم يكذب باكونين يودع سن الفتوة ، حتى هزته الفلاسفة الهيغلية كما لو بفعل  
رجة عجيبة . فانعس فيها ليل نهار « حتى الجنون » كما قال . « لم تكن عيني  
لترى إلا مقولات هيغل » . ولما انتهى من تعلم المبادئ ، كان متحمساً حماسة  
الحديثين في الايمان . « ماتت أناي الشخصية الى الأبد . ان حياتي هي الحياة  
الحقة . لقد توحدت ، بشكل ما ، توحداً ذاتياً مع الحياة المطلقة » . ولكنه  
لم يحتاج إلا الى قليل من الزمن كي يدرك مخاطر الركون الى هذا الموقف  
المربح . فمن فهم الحقيقة الواقعة ، فإنه لا يثور عليها ، بل يتسبح بها ، ...  
ها هوذا من أهل الإدعان . ليس من شيء لدى باكونين كان مهتبه سلفاً افلسفة  
« الكلب الحارس » . من الممكن أيضاً ان رحلته الى ألمانيا والرأي المحزن الذي  
كوته عن الألمان قد منعه من أن يسلم ، مع هيغل المعجوز ، بأن الدولة  
البروسية هي الأمينة المفضلة التي استودعت غابات الروح . مهما يكن من أمر ،  
فلم يكن في وسعه - وهو الروسي أكثر من قيصر بالذات ... رغم أحلامه  
العالية - أن يرضى بالدفاع عن بروسيا حينما يقوم هذا الدفاع على منطق من  
الحدة بحيث يؤكد : « ليس لمشينة الشعوب الأخرى أي حق ، لأن الشعب  
الممثل لارادة [الروح] هو الذي يسود العالم » . وفي العقد الخامس من القرن ،  
من جهة أخرى ، اكتشف باكونين الاشتراكية والفوضوية الفرنسية اللتين حمل  
منهما معه بعض الميول . مهما يكن من أمر ، فقد نبذ باكونين الفكر الألماني  
بعظمة . هكذا مضى الى المطلق كما الى الدمار التام ، بنفس الحركة المندفعة ،  
في الكاف بـ « كل شيء » أو « لا شيء » ، والذي نجده عنده في الحالة الخالصة .

ماوية باكونين

بعدها يمدح باكونين الوحدة المطلقة ، يرمي في أبسط ماوية (١) . إنه ،

(١) ماوية أو إنثينية . سنرى بعد قليل انه يقول بتحكم مبدأين بالتاريخ - المررب



ولا شك ، يريد « كنيسة الحرية ، الكنيسة العالمية الديمقراطية حقاً » . هنا تكمن ديانته . إنه إذن من أهل عصره . مع ذلك ، ليس مؤكداً ان إيمانه بهذا الخصوص كان تاماً . ففي اعترافه لتقولا الأول ، تبدو لهجته صادقة حينما يزعم بأنه لم يؤمن قط بالثورة النهائية « إلا بعد بذل جهد خارق مؤلم ، خائفاً بالقوة الصوت الذاتي الذي كان يهوس لي بمعية أحلامي » . أما لأخلاقته النظرية فهي أكثر رسوخاً ، واننا لنراه دائماً يتقلب فيها براحة وبهجة حيوان وثاب . التاريخ لا يتحكم به سوى مبدأين : الدولة والثورة الاجتماعية ، الثورة والثورة المعاكسة اللتين يجب ان لا يوفتق بينهما ، وهما مثبتتان في صراع حتى الموت . الدولة هي الجريمة . « إن أصغر دولة وأبعدها عن الأذى هي أيضاً مجرمة في أحلامها » . الثورة هي إذن الخير . هذا الصراع الذي يتخطى السياسة ، هو أيضاً صراع المبادئ الإبلسية ضد المبدأ الإلهي . إن باكونين يدخل ثانية إحدى موضوعات التمرد الماورائي ، على وجه صريح ، في العمل المتمرد . وسبق لبرودون ان حاكم بأن الله هو الشر ، وصرخ قائلاً : « تعال أيها الشيطان ، يا من يتجنى عليه الصغار والملاك » . وإن باكونين ينه أيضاً الى مدى عمق تمرد ، هو في الظاهر تمرد سياسي . « الشر هو التمرد الشيطاني على السلطان الرباني ، تمرد نرى فيه ، بالعكس ، البذرة المولدة لكل الانعتاقات البشرية . ان الاشتراكيين الثوريين ، مثل « أخوة بوهيميا » في القرن الرابع عشر (?) يتعارفون اليوم بهذه الكلمات : « باسم ذلك الذي ألقنا به أذى كبيراً » (١) .

تمرده ونفاذه المنضلة

الصراع ضد الخلق سيكون إذن صراعاً لا رحمة فيه ولا اخلاق، والخلص الوحيد هو في الإبادة . « الكلف بالدمار كلف مبدع » . إن صفحات باكونين الملتهبة حول ثورة ١٨٤٨ (٢) تصخب بهجة الدمار . قال : « عيد لا بداية له

(١) يقصد الشيطان (المعرب)

(٢) اعتراف ص ١٠٢

ولا نهاية . والحقيقة ان الثورة ، بنظره وبنظر جميع المضطهدين ، هي العيد ، بالمعنى المقدس للكلمة . هنا نتذكر الفوضوي الفرنسي كورديروا<sup>(١)</sup> الذي دعا قبائل الشمال في كتابه : « الثورة بواسطة القوزاق » الى تدمير كل شيء . وذلك ايضاً اراد ان « يحمل المشعل الى بيت الوالد » . وصرخ قائلاً انه لا يأمل إلا بالطوفان البشري وبالخواء . ان التمرد يؤخذ في الحالة الحالصة خلكل هذه التجليات ، في حقيقته البيولوجية . لذلك ، كان باكونين الوحيد في زمانه الذي انتقد حكومة العلماء بعمق استثنائي . و ضد كل تجريد ، دافع عن الانسان كله ، المتوحد توحداً ذاتياً مع التمرد . واثن مجّد الشقي ، وقائد الفلاحين العصاة ، ولئن كانت نماذجه المفضلة تتمثل في ستنكا رازين وبوغاتشيف<sup>(٢)</sup> ، فذلك لأن هؤلاء الاشخاص حاربوا بلا عقيدة ولا مبادئ ، من أجل مثل أعلى من الحرية الحالصة ، لقد أدخل باكونين مبدأ التمرد المجرد في صميم الثورة . « العاصفة والحياة ، هذا ما نحتاج اليه . عالم جديد ، بلا قوانين ، وبالتالي عالم حر » .

باكونين والدكتاتورية

ولكن العالم المتحرر من القوانين هل هو عالم حر ، هذا هو السؤال الذي يطرحه كل تمرد . لو لزم أن نسأل باكونين الرد ، لما كان جوابه ملتبساً . فعلى الرغم من أنه عارض في كل الظروف ، وبمنتهى الوعي ، الاشتراكية المستبدة ، فما أن يُعرف هو نفسه مجتمع المستقبل ، حتى يصوره على انه مجتمع دكتاتوري ، دون أن يهتم بالتناقض . إن نظام « الأخوة الأمية » ( ١٨٦٤ - ١٨٦٧ ) الذي ألفه هو نفسه ، شرع تبعية الفرد تبعية مطلقة للجنة المركزية ، خلال العمل . وكذلك هي الحال بالنسبة الى الفترة الزمنية التي تلي الثورة . انه يأمل

(١) تاريخ الفوضوية ، الجزء الاول . كلود هارميل وآلان سيرجان .

(٢) دجال روسي ادعى انه البصر بطرس الثالث ، ثم كسرت جيوشه وقتل في موسكو .

(المرب)

لروسيا المتحررة « سلطة دكتاتورية قوية ... ، سلطة محاطة بالانصار ، مستنيرة  
بنصائحهم ، معززة بمعاونتهم الحرة ، ولكن لا يجدها شيء ولا شخص » .  
إن باكونين أسهم ، بقدر خصه ماركس ، في العقيدة اللينينية . مهما يكن  
من أمر ، فإن حلم الامبراطورية السلافية الثورية ، كما ذكره باكونين امام  
القيصر ، هو نفس الحلم الذي حققه ستالين ، حتى في تفاصيل الحدود . هذه  
الأفكار الصادرة عن رجل عرف أن المحرك الأساسي لروسيا القيصرية هو  
الخوف ، ورفض النظرية الماركسية القائلة بدكتاتورية حزب ... تقول :  
لعل هذه الافكار تبدو متناقضة . ولكن هذا التناقض يدل على ان أصل  
المعتقدات المستبدة هو عدمي جزئياً . إن بيزاريف يبرر باكونين . صحيح  
ان هذا الاخير أراد الحرية التامة ، ولكنه سعى اليها ختمل الدمار التام . إن  
تهديم كل شيء معناه الانصراف إلى البناء دونما أسس ؛ بعدئذ يجب إبقاء الجدران  
قائمة بدعم الذراع . من ينبذ كل الماضي ، دون أن يستبقي منه ما من شأنه  
أن يفيد في تقوية الثورة ، يحكم على نفسه بأن لا يجد تبريراً إلا في المستقبل ، ..  
وفي انتظار ذلك ، يكلف الشرطة بتبرير الوقت . لقد بشر باكونين  
بالدكتاتورية ، لا ضد رغبته في التهديم ، بل وفقاً لها ، ما من شيء في الحقيقة  
كان في وسعه أن يوقفه على هذا الدرب لأن القيم الأخلاقية كانت قد ذابت  
أيضاً في جمر الإنكار المطلق . فباعترافه للقيصر ، هذا الاعتراف الجامل  
جهداً والذي ألقه ليطلق القيصر سراحه أدخل بصورة ملحوظة المداهنة في  
السياسة الثورية . وبتعاليم الثوري هذه ، والتي يُظن أنه ألقها في سويسرا  
مع نيتشايف ، أعطى صورة عن السفاهة السياسية - حتى لو اضطر فيما بعد  
إلى إنكارها - أعطى صورة عن هذا التحرر من القيم الذي لن يكف عن التأثير  
في الحركة الثورية ، والذي مثله نيتشايف نفسه بصورة تدعو إلى السخط .

بنتشايف الثاني

إن نيتشايف أقل شهرة من باكونين ، وأكثر غموضاً ، ولكنه وجه أكثر دلالة فيما يخص الموضوع . فقد سار بمنطق العدمية إلى أبعد ما يمكن ، ويكاد يكون خالياً من التناقض . ظهر حوالي ١٨٦٦ في أوساط المثقفين الثوريين ، ومات في ظروف غامضة عام ١٨٨٢ . وفي هذه الفترة القصيرة ، ما فتىء يأخذ بجامعة القلوب : الطلاب من حوله ، باكونين بالذات والثوريون المهاجرون ، أخيراً حرّاس سجنه الذين نجح في إشراكهم في مؤامرة هوجاء . منذ ظهوره ، كان راسخ المعتقد . فلئن افتتن به باكونين لدرجة أنه وافق على تكليفه بتفويضات وهمية ، فذلك لأنه توسم في هذا الوجه الحقود ما يطابق توصياته ويوجه ما ، ما كان سيؤول إليه هو نفسه لو تسنى له الشفاء من قلبه .

انجماه العنكرية

لم يكتب نيتشايف بأن يقول ان من الواجب الانضمام « الى عالم الأشقياء المتوحش ، هذا الوسط الثوري الحقيقي والوحيد في روسيا » ، ولا بأن يكتب ، مرة أخرى أيضاً ، كباكونين ، قائلاً إن السياسة بعد الآن ستصبح الدين ، والدين السياسة . بل صيّر نفسه الكاهن الطاغوي لثورة يائسة ، وكان أوضح ما يصبو إليه أن يضع النظام الخطر الذي يسمح بنشر وبإنجاح الألوهية السوداء التي اعترم بذل نفسه في خدمتها .

إنه لم يتحدث فقط عن الدمار الكلي ، بل طالب أيضاً بإباحة كل شيء للذين يقفرون أنفسهم للثورة ، وأباح لنفسه كل شيء في الحقيقة ، وفي هذا كنت أصالته . « الثوري انسان محكوم عليه سلفاً . يجب أن لا يرتبط بأية علاقات عاطفية ، وأن لا تكون له أشياء أو كائنات محبوبة . عليه أن يتجرد حتى من

اسمه . كل شيء فيه يجب أن يتركز في هوى واحد : الثورة . والحقيقة  
إذا كان التاريخ ، خارج نطاق كل مبدأ ، لا يقوم إلا على الصراع بين الثورة  
والثورة المضادة ، فليس من مخرج آخر المرء سوى أن يتبنى إحدى هاتين  
القيمتين قنباً كلياً ، كي يموت أو يُبعث فيها . ان نيتشاييف يسير بهذا المنطق  
الى نهايته . ولأول مرة معه ، ستبتعد الثورة بشكل صريح عن الحب  
والصداقة .

#### مناقشة

إننا نرى لديه نتائج السيكولوجيا الاعباطية التي نقلها تفكير هيجل . مع  
ذلك سلم هذا الأخير بأن اعتراف الشعورات<sup>(١)</sup> ببعضها بعضاً قد يحدث في  
مجاهة الحب<sup>(٢)</sup> . ولكن نيتشاييف امتنع عن وضع هذه « الظاهرة » في صدر  
تحليله . فقد اعتقد انها « لا تملك قوة السليبي و صبره و فعله » . وآثر إظهار  
الشعورات في معركة سراطين فاقدة البصر ، تتحسس طريقها في الظلمة على رمال  
البحر كي تتماسك أخيراً بالخالب في صراع حتى الموت ؛ وأهمل طوعاً هذه  
الصورة الاخرى ، الشرعية أيضاً ، صورة منارات تسمى بشق الأنفس للتعارف  
في الظلام ، وتلتقي أخيراً في سبيل المزيد من الضياء . إن الاصفياء والاصدقاء  
والاحباء يعلمون ان الحب ليس لإعاضة فحسب ، بل هو أيضاً صراع طويل مؤلم  
يجري في الظلمات من اجل الاعتراف والتوفيق النهائيين . على كل ، اذا كانت  
الفضيلة التاريخية تُعرّف بأنها تُظهر الصبر ، فان الحب الحقيقي هو أيضاً صبور  
صبر الكره . مهما يكن من أمر ، فان المطالبة بالعدالة ليست وحدها هي التي  
تبرر الهوى الثوري على امتداد العصور ، هذا الهوى الذي يستند ايضاً الى  
مطالبة مؤلمة بالصداقة للجميع ، حتى ولا سيما تجاه سماء معادية . الذين يضحون  
بأرواحهم في سبيل العدالة ، دائماً سموا أنفسهم « أخوة » . فالعنف ، بنظرهم

(١) باللغة البسيطة : الكائنات البشرية . (المعرب)

(٢) قد يحدث الاعتراف ايضاً في الإعجاب حيث تكسب كلمة « سيد » [معلم] حيثئذ معنى  
عظيماً : الذي يتفرد دون ان يهدم .

جميعاً ، مخصص للعدو ، في خدمة جماعة المضطهدين . ولكن اذا كانت الثورة هي القيمة الوحيدة ، فانها تتطلب كل شيء ، تتطلب حق السعاية والوشاية ، وبالتالي التضحية بالصديق . بعد الآن ، سيرجئه العنف ضد الجميع ، في خدمة فكرة مجردة . كان لا بد من مجيء المسوسين ، كي يقال دفعة واحدة ان الثورة في ذاتها مقدمة على من تريد انقاذهم ، وان الصداقة التي كانت حتى الآن تبدل وجه الانكسارات ، يجب ان يُضحى بها وان تُرجأ الى يوم الظفر الذي لا يزال غير منظور .

#### حق القادة

وعليه ، تكمن أصالة نيتشايف في تبرير العنف اللاحق بالأخوة . لقد حدد التعاليم مع باكونين . ولكن ما ان عهد اليه هذا الاخير، في ضرب من الغي ، بأن يمثل في روسيا «اتحاداً ثورياً» اوروبياً لا وجود له إلا في مخيلته ، حتى مضى نيتشايف حقاً الى روسيا ، وأسس «جمعية الفأس» وحدد هو نفسه نظامها . واننا واجدون فيه كشيء ضروري ، دون ريب ، لكل عمل عسكري أو سياسي ، «اللجنة المركزية» السرية التي ينبغي للجميع ان يعاهدوها على الولاء المطلق . ولكن نيتشايف فعل اكثر من القيام بتنظيم الثورة تنظيمياً عسكرياً ، وذلك منذ سلّم بأن القادة يملكون الحق في استعمال العنف والكذب في سبيل قيادة المرؤوسين . والحقيقة انه سيكذب حينما سيزعم بأنه مندوب من قبيل هذه اللجنة السرية التي ما زالت غير موجودة ، وحينما سيصف هذه اللجنة بأنها تلك نحت تصرفها موارد غير محدودة ، وذلك كي يدفع المترددين الى العمل الثوري الذي يعتمز الشروع به . بل سيفعل اكثر من ذلك ، بتمييزه فئات من بين الثوريين ، مع العلم بأن ثوريي الفئة الاولى ( القادة ) يحتفظون بحق اعتبار الآخرين كـ «رأسمال يجوز إنفاقه» . لعل كل قادة التاريخ فسكروا على هذه الصورة ، ولكنهم لم يجهروا بفكرتهم . حتى مجيء نيتشايف ، على كل حال ، لم يجرؤ أي قائد ثوري على ان يجعل من ذلك قاعدة سلوكه . ولم تضع

أية ثورة حتى الآن في رأس لوحة قوانينها جواز اعتبار الإنسان كأداة .. كان تجنيد الانصار يتوجه تقليدياً بالنداء الى الشجاعة والى روح التضحية . ولكن نيتشايف قرر جواز إرهاب المترددين وتهديدهم بالتشهير ، وجواز التعزيز بالوائتقين . حتى الثوريون الموهومون يمكنهم ايضاً ان يفيدوا اذا ما دُفعوا دفعاً منظماً الى القيام بأخطر الاعمال . أما المضطهدون ، فبما ان المقصود هو انتقاذهم نهائياً ، لذلك يجوز لنا ان نزيد في اضطهادهم . ان ما يفقده المضطهدون الحاليون في هذه العملية ، سيربجه المضطهدون في المستقبل . ان نيتشايف يضع كبدأ ان من الواجب دفع الحكومات الى اتخاذ إجراءات زجرية ، وان من الواجب ايضاً عدم مس الممثلين الرسميين الاكثر تعرضاً لكره الشعب ، وان على الجمعية السرية اخيراً ان تبذل كل نشاطها كي تزيد آلام الجماهير وشقاءها .

فضية الطالب إيفانوف

على الرغم من ان هذه الافكار اكتسبت كل معناها اليوم ، لم يتسن لنتشايف ان يرى مبادئه مظفرة . ولكنه على الاقل سعى الى تطبيقها بقتل الطالب إيفانوف ، الامر الذي أهب نخلة العصر لدرجة دفعت دوستويفسكي الى ان يجعل من هذا القتل احدى موضوعات «المأخوذون»<sup>(١)</sup> . كان خطأ إيفانوف الوحيد ، فيما يبدو ، ان بعض الشكوك ساورته حول اللجنة المركزية التي ادعى نيتشايف بأنه مندوبها . لقد عارض الثورة إذن لأنه عارض ذلك الذي توحد توحداً ذاتياً معها ، فصار موته لازماً . «أي حق لنا في ان نقتل إنساناً؟ سأل أوسبنسكي ، أحد رفاق نيتشايف . - المسألة ليست مسألة حق ، بل مسألة واجبنا في ان نزيح كل من يلحق الضرر بالقضية ، . حينما تكون الثورة هي القيمة الوحيدة ، لا تعود هناك حقوق ، في الحقيقة ، بل ثمة واجبات فقط . ولكن بانتقلا بـ فوري ، بإسم هذه الواجبات ، تؤخذ كل الحقوق . بإسم القضية نرى إذن نيتشايف الذي لم يعتد على حياة أي طاغية ، يقتل إيفانوف في

(١) أو الموسون ، أو الشياطين - قصة لدوستويفسكي .

كبين ، ثم يغادر روسيا ويذهب للقاء باكونين . ولكن هذا ينصرف عنه ويستنكر هذه « الوسيلة المقرزة للنفس » . كتب باكونين : « توصل تدريجياً الى ان يقنع المرء نفسه بأنه ، لإقامة مجتمع بمتنع الفناء ، يجب أن نعتد سياسة ماكيافيل كأساس ، وان تتبنى طريقة اليسوعيين <sup>(١)</sup> . من اجل البدن : العنف وحده . ومن اجل النفس : الكذب » . إن هذا واضح . ولكن بإسم ماذا نقرر ان هذه الوسيلة مقرزة للنفس اذا كانت الثورة هي الخير الوحيد كما يزعم باكونين ؟ ان نيتشايف هو حقاً في خدمة الثورة . انه لا يخدم نفسه ، بل يخدم القضية . فاذا مثل امام القضاة ، لم يسلم لهم بشيء . واذا حكم عليه بالسجن ٢٥ عاماً ، بقي مهيناً على السجون ، ونظم السجانين في جمعية سرية ، واعتزم قتل القيصر ، فحكم عليه مرة ثانية . اخيراً في قلب احد الحصون بعد اثني عشر عاماً من الانزواء ، طوت المنون صفحة هذا المتمرذ الذي دشّن ذرية مستخفة ، ذرية من كبار اقطاب الثورة .

#### النبلاء التائبون

إذ ذاك ، وداخل الثورة بالذات ، يصبح كل شيء مباحاً ، ويجوز إقامة القتل كبداً . ولكن مع تجدد الحركة الشعبية عام ١٨٧٠ ، خيل للأذهان ان هذه الحركة الثورية المنبثقة عن الاتجاهات الدينية والاخلاقية التي نجدتها عند ثوار كانوت ، وفي اشتراكية لافروف وهيرزن ، ستوقف الإنزلاق نحو السفاهة السياسية التي مثلها نيتشايف . فقد توجهت الحركة بالنداء الى « ذوي النفوس الحية » ، وطالبهم بأن يقصدوا الشعب وان يهذبوه كي يمضي هو نفسه نحو التحرر . وصار « النبلاء التائبون » يغادرون أسرمم ويرقدون ثياباً رثة ويطوفون في القرى ليعظوا الفلاح . ولكن الفلاح كان يلزم جانب الحيطة والصمت . وعندما لم يكن يلزم الصمت ، كان يشي بالداعية عند الدركي . إن اغتيال ذوي النفوس السامية كان من شأنه السير بالحركة نحو سفاهة نيتشايف

(١) راجع : باسكال ، حياته ولسفته (منشورات عويدات) .



أو ، على الأقل ، نحو العنف . فبقدر ما عجزت الفئات المثقفة عن اجتذاب الشعب إليها ، أحست بنفسها ثانية منفردة أمام الحكم المستبد المطلق ، وثانية تراءى لها العالم في صورة السيد والعبء . إن زمرة «إرادة الشعب» ستجعل إذن من الإرهاب الفردي مبدأ ، وستدشن سلسلة عمليات القتل التي استمرت حتى ١٩٠٥ ، مع الحزب الاشتراكي الثوري . عند هذه النقطة ، يولد الإرهابيون ، منصرفين عن الحب ، منتصبين ضد إثم السادة ، ولكن وحيدين مع بأسهم ، وجهاً لوجه مع تناقضاتهم . ولن يتمكنوا من حل هذه التناقضات ، إلا في التضحية بالبراءة والحياة .

### ٣ - القتل الودعاء

اعمال اعتداء وقع

سنة ١٨٧٨ هي سنة ميلاد الإرهاب الروسي . ففي ٢٤ كانون الثاني ، غداة محاكمة ١٩٣ شخصاً من انصار الحركة الشعبية ، اغتالت الفتاة فيرا زاسوليتش الجنرال ترييوف حاكم مدينة سان بطرسبرغ . وقد برأها المحلفون ، ثم أفلتت من شرطة القيصر . إن طلقة المسدس هذه دشنت سلسلة متقابلة من اعمال القمع والاعتداء ، لا يستطيع ان يضع لها حداً إلا السأم .

وفي نفس السنة ، قام احد افراد «إرادة الشعب» بوضع الإرهاب كبداً ، في رسالته الهجائية المسماة : «الضحية بالضحية» . وسرعان ما قلت النتائج المبادئ . ففي أوروبا ، ذهب امبراطور المانيا وملك ايطاليا وملك اسبانيا ضحايا اعتداءات . وفي ١٨٧٨ ايضاً ، ألسا اسكندر الثاني «الأوخرافا» (١١) ، أنجع سلاح لإرهابية الدولة . اعتباراً من ذلك تتوج القرن التاسع عشر بأعمال القتل في روسيا والغرب . وفي ١٨٧٩ ، جرى اعتداء جديد على ملك اسبانيا ،

١١ جهاز قمع .

واعتداء فاشل على القيصر . وفي ١٨٨١ ، ذهب القيصر ضحية لإرهابيي « إرادة الشعب » ، وشنت السلطات صوفيا بيروفسكايا وجيليايوف واصدقاءهما . وفي ١٨٨٣ ، جرى اعتداء على امبراطور ألمانيا، وأعدم قاتله بالفأس . وفي ١٨٨٧ ، أعدم شهداء شيكاغو ، وعُقد مؤتمر « فالانس » (بلنسية) للفوضويين الاسبانيين الذين وجهوا الانذار الإرهابي التالي : « اذا لم يستسلم المجتمع فيجب أن يلغى الشر والرزيلة ، حتى لو هلكنا جميعاً معها » . وقد اشار العقد العاشر من القرن في فرنسا الى ذروة ما سمي بالدعاية بالفعل . ومهدت اعمال رافاشول و فابيان وهنري لقتل الرئيس كارنوت<sup>(١)</sup> . وفي عام ١٨٩٢ وحده ، أحصي أكثر من الف اعتداء بالديناميت في اوروبا ، وزهاء خمسمائة في اميركا . وفي ١٨٩٨ ، قُتلت اليزابيت امبراطورة النمسا . وفي ١٩٠١ ، اغتيل ماك كيني رئيس الولايات المتحدة . وفي روسيا ، حيث استمرت الاعتداءات على ممثلي النظام الثانويين ، وُلدت « منظمة الكفاح » للحزب الاشتراكي الثوري عام ١٩٠٣ ، وضمت غرب وجوه الحركة الارهابية الروسية . وقد اشار مقتل الوزير بليف وسازونوف والدوق سرج الاكبر من قبيل كاليايف عام ١٩٠٥ ، الى ذرى هذه الاعوام الثلاثين من الرسالة الدامية ، واختتم عصر الشهداء بالنسبة الى الدين الثوري .

عجالة الخروج من التناقض

إن العدمية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمرحلة ديانةٍ أُصيبت بالحية ، قد انتهت إذن بالإرهاب . ففي عالم الإنكار المطلق ، بالقنبلة والمسدس ، وايضاً بالشجاعة التي كانوا يسرون بها الى المشنقة ، كان هؤلاء الشبان يسمعون الى الخروج من التناقض والى خلق القيم التي كانوا اليها يفتقرون . فحتى مجيئهم ، كان الناس يموتون بإسم ما كانوا يعلمون أو ما كان يخيل اليهم انهم يعلمونه . واعتباراً منهم ،

(١) اتحب رئيساً للجمهورية الفرنسية عام ١٨٨٧ ، وقته احد الفوضويين عام ١٨٩٤ في مدينة ليون .

اكتسبت عادة جديدة اصعب ، عادة التضحية بالذات في سبيل أمر لم يكن يُعلم عنه أي شيء ، اللهم إلا انه لا بد من الموت كي يوجد هذا الامر . الى ذلك الوقت ، كان الذين يريدون الموت يتكلمون على الله ضد عدالة البشر . ولكن حينما نطالع تصريحات المحكوم عليهم في هذه الفترة ، ندهش إذ نرى ان الجميع دونما استثناء كانوا يتكلمون ضد قضائهم على عدالة أناس آخرين سيأتون في المستقبل ، ويظلون ملاذهم الاخير في حالة عدم وجود قيم عليا . المستقبل هو الاستشراف الوحيد لمن كان بلا إله . ليس من شك في ان الارهابيين ارادوا التهديم أولاً ، وزعزعة اساس الحكم المستبد تحت تأثير القنابل . ولكنهم ، بموتهم على الاقل ، سعوا الى إعادة خلق رابطة عدل وعفة ، وبالتالي الى استئناف رسالة خاتمتها الكنيسة . لقد ارادوا في الحقيقة ان يوجدوا «كنيسة»<sup>(١)</sup> ينبثق عنها الإله الجديد ذات يوم .

ولكن هل هذا كل شيء ؟ لو ان إقبالهم الإختياري على الإثم والموت لم يصدر عنه سوى الوعد بقيمة مستقبلية ، لأجاز لنا تاريخ اليوم ان نؤكد حالياً ، على كل ، بأنهم ماتوا سُدى ، وما زالوا عديمين . القيمة المستقبلية هي تناقض في الألفاظ ، لأنها لا تستطبع ان تتغير عملاً ، ولا أن تقدم مبدأ اصطفاً ما دامت هذه القيمة غير مبلورة . ولكن أناس ١٩٠٥ ، الممزقين بالتناقضات ، كانوا بإنكارهم وموتهم بالذات يخلقون قيمة أصبحت 'ملحة' . وكانوا يؤكدها معتقدين فقط انهم إنما يبشرون ببعثها . وكانوا طاهراً وعلانية يضعون فوق جلاذيتهم وفوق أنفسهم هذا البشير الاسمي والمؤلم الذي وجدناه سابقاً في أصل التمرد .

فلنقف على الأقل عند هذه القيمة انفسها حينما يصادف روح التمرد روح الشفقة والتضامن لآلهم مرة في التاريخ .

(١) يعني : قيم ومقدسات جديدة (المعرب)

وساوس حتى في المعتك

هتف الطالب كاليايف قائلاً : أيجوز للمرء ان يتحدث عن العمل الثوري دون أن يشترك فيه ؟ إن رفاقه الذين اجتمعوا اعتباراً من ١٩٠٣ في « منظمة الكفاح » التابعة للحزب الاشتراكي الثوري ، تحت قيادة آزييف ، ثم بوريس سافنكوف ، كانوا جميعاً على مستوى هذه الكلمة العظيمة . لقد كانوا من أهل الإلحاح ، وكانوا الأخيرين في تاريخ التمرد لم يرفضوا شيئاً من وضعهم ولا من مأساتهم . فلئن عاشوا في الإرهاب ، و « اثن آمنوا به » (بوكوتيلوف) ، فما فتروا قط عن التمزق فيه شر بمرزق . إن التاريخ لا يقدم إلا قليلاً من الأمثلة عن اشخاص متعصين عانوا وساوس حتى في المعتك . ولكن أشخاص ١٩٠٥ على الأقل لم تعوزهم الشكوك . وأعظم ما نستطيع ان نقدم إليهم من آيات التكريم ، هو ان نقول ما يلي : لا يسعنا في ١٩٥٠ (١) ان نطرح عليهم سؤالاً واحداً إلا سبق لهم أنهم طرحوه على أنفسهم ، وأجابوا عليه جزئياً في حياتهم... أو بموتهم .

مرور خاطف

غير أنهم سرعان ما دخلوا في التاريخ . فعندما قرر كاليايف مثلاً ، عام ١٩٠٣ ، أن يسهم مع سافنكوف في العمل الإرهابي ، كان عمره ٢٦ عاماً . وبعد عامين سُتق «الشاعر» كما كان يُلقب . إنها حياة قصيرة . ولكن كاليايف في مروره الخاطف ، يتراءى لذلك الذي يفحص تاريخ هذه الفترة بشيء من الهوى على أنه الوجه الإرهابي الأكثر دلالة .

إن سازونوف وشوايتزر وبوكوتيلوف وفواناروفسكي ومعظم الآخرين ظهروا على هذه الصورة في تاريخ روسيا والعالم ، منتصين لحظة ، منذورين للانفجار ، شهوداً عابرين وخالدي الذكر على تمرد يزداد تمزقاً يوماً بعد يوم .

جميعهم تقريباً كانوا ملحدين . كتب بوريس فواناروفسكي الذي لقي حتفه

(١) صدرت الطبعة الأولى من «الإنسان التمرد» عام ١٩٥١ . - العرب -

وهو 'يلقي قبلكه على الاميرال دوباسوف : « أذكر اني ، حتى قبل دخولي المعهد الثانوي ، كنت أبشر أحد أصدقاء الطفولة بالإلحاد . ثمة سؤال واحد كان يجيرني . من اين جاء هذا ؟ ذلك انني لم اكن املك أبسط فكرة عن الحياة الأبدية » . اما كاليايف فكان يؤمن بالله . فقبل بضع دقائق من اعتداء باء بالفشل ، رآه سافنكوف في الشارع مسرراً امام أيقونة ، مسكاً القبلة بيد ورأساً إشارة الصليب بالأخرى . ولكنه نبذ الدين ظهرياً ، ورفض عونه في الزنزانة قبيل الإعدام .

عزلة .. وتضامن تام

لقد اضطرتهم السرية الى العيش في العزلة . لانهم لم يعرفوا ، الا بصورة مجردة ، هذه البهجة العارمة التي يشعر بها كل رجل عمل يعيش على تماس مع جماعة انسانية واسعة . ولكن الرابطة التي تجمع بينهم تقوم بالنسبة اليهم مقام كل التعلقات . «فروسية ا» ، كتب سازونوف الذي قال معلقاً بالصورة التالية : «كانت فروستينا مشبعة بروح بلغت من القوة مبلغاً بحيث ان كلمة «أنخ» لا تعبر أيضاً بوضوح كاف عن ماهية علاقاتنا المتبادلة» . وفي السبعين ، كتب سازونوف الى اصدقائه قائلاً : « اما من جهتي ، فالشرط الذي لا بد منه في سبيل السعادة هو ان احافظ الى الابد على شعوري بتضامني التام معكم » . اما فواروفسكي فاعترف من جهته ان امرأة محبوبة اغاقتة عن الذهاب ، فقال لها هذه الجملة التي يعترف بأنها «مضحكة بعض الشيء» ، ولكنها فيما يعتقد تدل على حالته الذهنية : «اذا وصلت متأخراً عند الرفاق فسألئك» .

احترام حياة الآخرين ،  
وتضحية بالذات ...

هذه الزمرة الصغيرة من الرجال والنساء ، الضائعين في الجمهور الروسي ، المتراصين المتضامنين ، اصطفوا مهنة الجلادين ، وهي مهنة كانت أبعد ما تكون عن استعداداتهم . انهم يجيئون على نفس التناقض ، جامعين في أنفسهم احترام

الحياة الإنسانية بوجه العموم ، واحتقار حياتهم الخاصة ، حتى ليصل بهم ذلك الى حد الحنين الى التضحية العظمى<sup>(١)</sup>. كانت دورا بريليان تعتقد ان مسائل البرنامج غير ذات اهمية . فالعمل الثوري كان يتجمل اولاً بتضحية الارهابي . قال سافنكوف : « ولكن الارهاب كان يثقل عليها كالحقنة » . اما كالييف فكان مستعداً في كل لحظة للتضحية بحياته . « بل اكثر ، فقد كان ينشد هذه التضحية بجماع النفس » . وخلال إعداد الاعتداء على الوزير بليف ، اقترح ان يرمي بنفسه تحت اقدام الحيل وان يهلك مع الوزير . ولدى فواناروفسكي ايضاً ، كانت الميل الى التضحية يتطابق مع فتنة الموت . وبعد توقيفه ، كتب لأهله قائلاً لهم : « كم مرة خطر بيالي وانا في شرح الشباب ان أقتل نفسي ... » .

#### الصغير الإرهابي

هؤلاء الجلادون الذي كانوا يغامرون بحياتهم ، وبشكل تام ، كانوا في الوقت نفسه لا يقاربون حياة الآخرين الا بوجودان مفرط في التشدد . فالاعتداء على الدوق سرج الأكبر فشل اول مرة لأن كالييف - الذي صوبه كل رفاقه في رأيه - ابي ان يقتل اطفالاً كانوا في عربة الدوق الاكبر . وحوّل لارهابية اخرى ، راشيل لورييه ، كتب سافنكوف قائلاً : « كانت مؤمنة بالعمل الثوري ، وكانت تعتبر الاسهام فيه كشرف وكواجب ، ولكنها لم تكن أقل تأثراً بالدماء من دورا بريليان » . وقد عارض سافنكوف نفسه في اعتداءه على الاميرال دوباسوف في قطار (بطرسبورغ - موسكو) السريع : « لأدنى غفلة وأبسط تهور ، كان في وسع الإنفجار ان يحدث في العربة وان يقتل اشخاصاً غرباء » . وفيما بعد انكر سافنكوف إنكاراً حاتقاً ، « باسم الضمير الإرهابي » ، ان يكون قد اشترك فتي في السادسة عشرة في اعتداء . وساعة الهرب من احد السجون القيصريّة ، قرر اطلاق النار على الضباط الذين قد يعترضون طريق هربه ، ولكنه قرر ان يقتل نفسه بالأحرى بدلا من ان يوجه سلاحه

(١) الاشارة .

ضد الجنود . اما فواناروفسكي ، هذا القاتل الفتاك الذي اعترف بأنه لم يتصيد قط «لأنه كان يعتبر هذا العمل همجياً» ، فصرح ايضاً بدوره قائلاً : «إذا كان دوباسوف مع قرينته فلن ألقى القنبلة» .

موقفهم ...

وموقف النفوس التافهة

مثل هذا التكرات للذات ، مقروناً بمثل هذا الاهتمام الشديد بحياة الآخرين ، يسمح لنا بأن نفترض ان هؤلاء القتلة الودعاء عاشوا المصير التبردي في منتهى تناقضه . ويمكننا ان نفترض انهم هم ، مع اعترافهم بطابع العنف المحتوم ، كانوا يقرون مع ذلك بأن العنف هو بلا مبرر . لا بد منه ... ، ولا معذرة فيه ... ، هكذا كان يتراءى لهم القتل . ان النفوس التافهة ، اذ تعترضها هذه المشكلة الرهيبة ، تستطيع ان تستكين الى نسيان احمد الحدين . فباي اسم المبادئ الصورية ، تكتفي بأن تعتبر كل عنف فوري لا معذرة فيه ، وتسمح اذن بهذا العنف المنتشر في أوجه شتى على صعيد العالم والتاريخ . او انها باي اسم التاريخ ، تعزي نفسها بأن العنف لا بد منه ، وبالتالي تضيف القتل الى القتل ، بحيث لا تجعل من التاريخ سوى انتهاك واحد مديد لكل ما هو في الانسان احتجاج على الظلم .

إن هذا يعرف وجهي' العدمية المعاصرة ، البورجوازي والثوري .

الانتحار يبرر ما لا مبرر له

ولكن هذه النفوس المتطرفة التي نحن بصدددها لم تكن لتنسى شيئاً . وبالتالي ، إذ عجزت عن تبرير ما كانت تعتبره شيئاً لا بد منه ، تصورت ان تهب نفسها كمبرر ، وأن ترد بالتضحية الشخصية على السؤال الذي كانت تطرحه على ذاتها . بالنسبة الى هؤلاء ، وبالنسبة الى كل المتمردين حتى مجيئهم ، توحد القتل توحداً ذاتياً مع الانتحار . إذ ذاك تقدم حياة مقابل حياة أخرى ، ومن هاتين التضحيتين ينبع الوعد بقية . إن كاليايف و فواناروفسكي والآخرين

يؤمنون بالتكافؤ بين حياة وأخرى . إنهم إذن لا يضعون أية فكرة فوق الحياة الإنسانية ، رغم أنهم يقتلون في سبيل الفكرة . أنهم يحيون تماماً على مستوى الفكرة . ويبررونها أخيراً في تجسيدهم إياها حتى الموت . نحن لا نزال إذن تجاه نظرة في التمرد ، إن لم تكن دينية ، فعلى الأقل ماورائية .

قيمة أخرى للحياة

ثمة اشخاص آخرون<sup>(١)</sup> سيأتون بعد أولئك ، يجدونهم نفس الإيمان الشديد ، سيعتبرون مع ذلك هذه الطرق 'طرقاً عاطفية' ، وسيرفضون التكافؤ بين حياة وأخرى . وبالتالي ، سيضعون فكرة 'بجردة' فوق الحياة البشرية ، حتى لو سموا هذه الفكرة تاريخياً . وإذا يخضعون سلفاً لهذه الفكرة ، سيعقدون العزم ، اعتباطاً ، على إخضاع الآخرين أيضاً . حينئذ لا تعود مشكلة التمرد تُحل بالرياضيات<sup>(٢)</sup> ، بل بحساب الاحتمالات . فإزاء تحقق الفكرة في المستقبل ، يجوز أن تكون الحياة كل شيء ... أو لا شيء . كلما تعاضم إيمان الحاسب بتحقيق هذه الفكرة ، تناقصت قيمة الحياة الإنسانية . وفي النهاية ، لا يعود لها أية قيمة ...

تأكيد البراءة

لسوف نفحص هذه النهاية ، ونعني زمان الجلادين الفلاسفة وإرهابية الدولة . ولكن ، في انتظار ذلك ، نرى أن متمردي ١٩٠٥ ، عند الحد الذي يلزمون ، يعاموننا وسط دوي القنابل أن التمرد لا يسعه أن يؤدي إلى العزاء والراحة العقائدية دون أن يكف عن أن يكون متمرداً . إن انتصارهم الوحيد البيّن هو في التغلب على العزلة والانكار ، على الأقل . فوسط عالم يقابلونه بالإنكار ويقابلهم بالعزل والنبذ ، يحاولون الواحد بعد الآخر أن 'يعيدوا الأخوة' ،

(١) يقصد ثوريي القرن العشرين الاشتراكيين - العرب -

(٢) أي بالتكافؤ بين حياة وحياة - العرب -



شأنهم في ذلك شأن جميع النفوس العظيمة . إن تحاييهم الذي يُعتبر سبب سعادتهم حتى في قعر السجن ، والذي يشمل الجاهير الواسعة من إخوتهم المستعبدين الصامتين ، يُظهر مدى شقاوتهم وأملهم . في سبيل خدمة هذا الحب ، يحتاجون أولاً الى القتل . وفي سبيل تأكيد سلطان البراءة ، يحتاجون الى قبول بعض الإثم . ولن يُحل هذا التناقض بالنسبة اليهم إلا في اللحظة الأخيرة . العزلة والفروسية ، الإهمال والألم ، لن يمكن التغلب عليهما إلا في القبول الحر بالموت . إن جليابوف الذي نظم عام ١٨٨١ الاعتداء على اسكندر الثاني ، والذي أوقف قبل القتل بثمان وأربعين ساعة ، طالب بأن يُعدم مع المرتكب الفعلي للاعتداء . قال في رسالة الى السلطات : « إن جُبِن الحكومة وحده يُفسر نصب مشنقة واحدة بدلاً من اثنتين » ...

لقد نُصبت خمس مشاتق ، إحداها للمرأة التي كان يجب . ولكن جليابوف مات مبتسماً . أما ريساكوف الذي تخاذل اثناء الاستجواب فقد جُرَّ جراً على منصة الأعدام ، نصف مجنون من الرعب ...

#### الموت المطهر

ذلك أن هناك نوعاً من الإثم لم يكن جليابوف ليريد ، وكان يعلم انه سيتلقاه ، مثل ريساكوف ، اذا ظل وحيداً بعد ارتكاب القتل أو بعد دفع الغير الى ارتكابه . وهكذا قبيل تنفيذ الإعدام عانفت صوفيا بيروفسكايا حبسها وصديقيه ، ولكنها صدت عن ريساكوف الذي مات وحيداً ، ملعوناً من الدين الجديد . بنظر جليابوف ، كان الموت وسط اخوته يتطابق مع تبريره . من يقتل فلا يكون مذنباً إلا اذا ظل موافقاً على البقاء ، أو اذا خان إخوته كي يبقى . أما الموت فيمحو الإثم والجريمة بالذات .

ومن قبل ، صاحت شارلوت كورداي بفوكيه - تانفيل<sup>(١)</sup> : « يا للوحش ،

(١) شارلوت كورداي : قتلت مارا انتقاماً للجيروندان ، وأعدمته في ١٧ تموز ١٧٩٣ .  
لوكيه تانفيل : المتهم العام في المحكمة الثورية ، أعدم عام ١٧٩٥ (العرب)

يجسني قاتلة ا . . . إنه الإكتشاف الممزق العابر لقيمة انسانية قائمة بين البراءة والإثم ، الرشاد والغي ، التاريخ والحلود . ساعة هذا الاكتشاف ، وفي هذه الساعة فقط ، تحمل بالنسبة الى هؤلاء اليائسين سكينه غريبة ، سكينه الانتصارات النهائية . قال بوليفانوف : إن الموت بالنسبة اليه سيكون « سهلاً وعذباً » . وكتب فواناروفسكي انه تغلب على الخوف والموت ، « دون ان تختليج عضلة واحدة من عضلات وجهي ، دون أن أنبس ببنت شفة ، سأصعد الى منصة الإعدام ... ولن يكون ذلك عنفاً يمارس علي » ، بل سيكون النتيجة الطبيعية لحياي . وفيما بعد ، كتب الملازم شميدت قبل ان يعدم ركباً بالرصاص : « إن موتي سينهي كل شيء ، وإن قضيتي إذ تتزوج بالعذاب ستكون تامة لا مأخذ عليها » . أما كاليايف الذي حكم عليه بالاعدام بعدما وقف موقف المتسهم أمام المحكمة ، والذي أعلن قائلاً : « أعتبر موتي بمثابة احتجاج عارم على عالم الدموع والدماء » ، ... تقول : أما كاليايف فكتب هو نفسه قائلاً : « منذ صرت خلف القضبان ، لم تخالجي في أية لحظة الرغبة في البقاء بصورة ما على قيد الحياة » . ولقد استجيت أمنيته . وفي ١٠ أيار ، في الثانية بعد منتصف الليل ، مشى نحو التبرير الوحيد الذي يقره هو ، وصعد الى منصة الاعدام ، موشحاً بالسواد ، دون معطف ، مكسو الرأس بلبادة . ولما مد له الأب فلورنسكي يسوع المصلوب ، أجابه وهو يعرض عن يسوع : « قلت لك سابقاً إنني نفضت يدي من الحياة ، وتأهبت للمهات » .

طهورة القيمة التضامن

أجل ، إن القيمة القديمة تولد ثانية هنا ، في نهاية العدمية ، على عتبة المشنقة بالذات . إنها انعكاس لشعار « نحن موجودون » (١) ، والذي وجدناه في نهاية تحليل روح التمرد ؛ ولكنه انعكاس تاريخي هذه المرة . انها حرمان وبقين

(١) اشارة الى القيمة الاولى ، قيمة التضامن ، : « أنا التمرد ، اذن نحن موجودون » .  
(العرب)

ملهم في الوقت نفسه ، وهي التي تألفت بوميض خاطف على وجه دورا بريليان المضطرب ، إذ خطر ببالها ذلك الشخص الذي مات في سبيل نفسه وفي سبيل الصداقة الدائمة . وهي التي دفعت سازونوف الى الانتحار في السجن احتجاجاً ، وكي « يُحتَرَم إخوته » . وهي التي بررت حتى نيتشايف يوم طلب اليه احد الجنرالات ان يشي برفاقه ، فطرحة بلطمة واحدة .

من خلال هذه القيمة ، كان هؤلاء الارهابيون يؤكدون عالم البشر ، ويضعون انفسهم في الوقت نفسه فوق هذا العالم ، مبرهنين لآخر مرة في تاريخنا على ان التمرد الحق مبدع قيم .

نوريو القرن العشرين

١٩٠٥ ، بفضلهم ، أشارت الى قمة التوثب الثوري . ومنذ هذا التاريخ بدأ الانحطاط . فالشهداء لا يصنعون « الكنائس » : إنهم وثاقها أو ذريعتها . بعدئذ يأتي الكهان والمتطرفون في التقوى والايان . إن الثوريين المقبلين لن يطالبوا بمقايسة حياة بجماعة . انهم سيرضون بخطر الموت ، ولكنهم سيقبلون ايضاً باستبقاء انفسهم أكثر ما يمكن للثورة ولخدمتها . لذلك سيقبلون بالإثم الكلي لأنفسهم . الرضا بالمهانة ، ... هذه هي الميزة الحقيقية لثوريي القرن العشرين الذين يضعون الثورة وكنيسة البشر فوق انفسهم .

هل يكفي اعتراف الآخرين ؟

أما كاليبايف فيثبت ان الثورة ، الوسيلة اللازمة ، ليست بالغاية الكافية . وبذلك يتسامى بالانسان بدلاً من أن يحبط من قدره . إن كاليبايف وإخوته الروس أو الالمان هم الذين ، في تاريخ العالم ، يعارضون هيغل حقاً<sup>(١)</sup> ، لأنهم يقرون بأن الاعتراف الشامل<sup>(٢)</sup> لازم<sup>(٢)</sup> أولاً ، وغير كافٍ بعدئذ . لم يكن

(١) اوعان من البشر : نوع يقتل مرة واحدة ويدلع حياته ثمناً ، ونوع يبرر آلاف الجرائم

ويقبل بتلقي آيات التكريم .

(٢) بحث هذه النقطة سابقاً .

كاليبايف ليكتفي بمجرد التظاهر<sup>(١)</sup> ، حتى لو اعترف به الناس جميعاً ، لبقى الشك يخامر نفسه لأنه بحاجة الى موافقة الخاصة ، ولما كَفَتِ الموافقات كلها لإسكات هذا الشك الذي توكله في نفس كل انسان حقيقي مشات التهليلات الحماسية. لقد شك كاليبايف حتى النهاية ، ولكن هذا الشك لم يصرفه عن السعي. وفي ذلك يعتبر أنقى صورة عن التمرد . من يرض بالموت ، وبدفع حياة مقابل حياة ، فانه يؤكد في الوقت نفسه قيمة "تخطاه هو نفسه بوصفه فرداً تاريخياً ، وذلك مها تكن مواقفه الإنكارية .

ان كاليبايف ينذر نفسه للتاريخ حتى الموت ، وفي ساعة الموت ، يضع نفسه فوق التاريخ . بصورة ما ، صحيح انه يفضل نفسه على التاريخ ، ولكن ماذا يفضل : أنفسه التي يوردها مورد الردى دونما تردد ، أم القيمة التي يجسدها وينفخ فيها الحياة ؟

الرد لا لبس فيه ولا اشتباه . لقد قلب كاليبايف واخوته على العدمية .

#### ٤ - الشيغاليفية<sup>(٢)</sup>

من طريقة الى اخرى

بيد أن هذا الظفر سيكون بلا غد ، لأنه يتطابق مع الموت . وهكذا تبقى العدمية ، مؤقتاً ، بعد قاهرها . وفي قلب الحزب الاشتراكي الثوري بالذات ، تستمر السفاهة<sup>(٣)</sup> السياسية في السير نحو النصر .

إن الرئيس آزيف الذي أرسل كاليبايف الى الموت ، يمارس اللعب المزدوج ، يشي بالثوريين الى المباحث ... ويقتل الوزراء والنبلاء في الوقت نفسه . إن

(١) فلنذكر ان الآخرين هم المرآة بالنسبة الى اهل التظاهر (المعرب)

(٢) اشتقاق من شيغاليف . يقصد استعباد البشر ... حباً بهم (المعرب)

(٣) تستعمل الكلمات التالية بنفس المعنى : السفاهة ، الحرور من القيم ، الحطية (المعرب)

التحدي يعيد شعار « كل شيء مباح » الى محله ، ويوحد التاريخ والقيمة المطلقة  
توحيداً ذاتياً .

هذه العدمية ، بعدما أثرت في الاشتراكية الفردانية ، تنتقل عدواها الى  
الاشتراكية المسماة بالعامة ، والتي ظهرت في العقد التاسع من القرن التاسع عشر  
في روسيا<sup>(١)</sup> . وإن تركة نيتشايف وماركس المشتركة ستولد ثورة القرن  
العشرين المطلقة . وبينما كان الارهاب الفردي يطاردهم بمثلي الحق الإلهي  
الآخرين<sup>(٢)</sup> ، كانت إرهابية الدولة تأخذ عدتها كي تحطم هذا الحق تحطيماً  
نهائياً في منشآت المجتمعات . إن طريقة تسلّم زمام السلطة لتحقيق الغايات النهائية ،  
تتقدم على التأكيد الانموزجي لهذه الغايات<sup>(٣)</sup> .

بين العدمية والاشتراكية العسكرية

الحقيقة ان لينين سيأخذ عن تقاتشيف ، وهو رفيق وأخ روحي لنيشايف ،  
نظرية في تسلّم السلطة كالت يعتبرها « عظيمة » ، وكان يلخصها هو نفسه كما  
يلي : « تكتم صارم ، اصطفاء الاعضاء اصطفاءً دقيقاً ، إعداد الثوريين  
المحترفين » . إن تقاتشيف الذي مات مجنوناً ، يشكل حلقة الانتقال بين العدمية  
والاشتراكية العسكرية . فقد أراد ايجاد يعقوبية روسية ، ولم يأخذ عن  
اليعقوبيين سوى طريقتهم في العمل ، لأنه كان ينكر هو ايضاً كل مبدأ وكل  
فضيلة . إنه ، وهو عدو الفن والاخلاق ، لم يوفق بين العقلاني واللاعقلاني إلا  
في الوسيلة . وان هدفه تحقيق المساواة الانسانية بتسلّم ، سلطة الدولة . تنظيم  
سري ، حلقات من الثوريين ، سلطة دكتاتورية للقادة ، ... هذه الموضوعات  
تعرف مفهوم « الجهاز » الذي سيلاقى نجاحاً عظيماً وفعالاً ، إن لم تعرف  
حقيقة هذا الجهاز . أما الطريقة نفسها فنسكوّن عنها فكرة صحيحة حينما نعلم

(١) ان اول زمرة اشتراكية ديموقراطية ، زمرة ييلخاوف ، ظهرت عام ١٨٨٣

(٢) يقصد اشتباة الارهابيين للوك (المرب)

(٣) يقصد نغلب طريقة الاشتراكيين على طريقة الارهابيين الفرديين (المرب)

ان تقاتشيف كان يقترح القضاء على كل الروس الذين يتجاوز عمرهم الخامسة والعشرين ، بوصفهم عاجزين عن تقبل الافكار الجديدة . انها لطريقة بارعة في الحقيقة ، وكان من المرجح ان تتغلب في فن الدولة الحديثة المتفوقه ، حيث تجري تربية الطفل المجنونة وسط يافعين مدعورين .

صحيح أن الاشتراكية المطلقة ستستنكر الارهاب الفردي بقدر ما يُحیی قيساً لا تتفق وهيئة العقل التاريخي . ولكنها ستعيد الارهاب الى صعيد الدولة ، ومبررها الوحيد في ذلك بناء الانسانية التي ترفع أخيراً الى مرتبة الألوهية .

استعباد البشر ... حباً بالبشر

ثمة دورة تنتهي هنا . فقد انفصل التمرد عن جذوره الحقة ، ولم يعد أميناً للبشر ، لأنه خضع للتاريخ . وما هوذا الآن بعزم إخضاع الكون كله . فيبدأ ، والحالة هذه ، عصر الشيغالية الذي مجده (المسوسون) (١) فرخوفنسكي العدمي الذي يطالب بالحق في الحزبي . إنه ، وهو المفكر التعيس الحقود (٢) ، يصطفي إرادة القوة . فهي وحدها تستطيع في الحقيقة أن تسود على تاريخ ليس له من مدلول سوى ذاته . إن شيغاليف سيكون ضامنه وكفيله . بعد الآت سيكون حباً البشر مبرراً لاستعبادهم . إن شيغاليف الكلف بالمساواة (٣) خلص بيأس ، وبعد تأملات طويلة ، إلى انه ثمة نظام واحد يمكن ، رغم انه في الحقيقة نظامٌ مقنط . «انطلقت من الحرية المطلقة ، وانتهيت إلى الإستعباد المطلق» . فالحرية التامة التي هي إنكار لكل شيء ، لا يسعها أن تحيا وان تبرر إلا بخلق قبة جديدة متوحدة توحيداً ذاتياً مع الإنسانية كلها . فاذا ما تأخر هذا الخلق فان الانسانية تتناطح وتتفانى حتى الموت . إن أقصر طريق نحو هذه القيم الجديدة

(١) المسوسون ، أو الماخوذون ، أو الشياطين ، قصة لدستوينسكي .

(٢) «كان يتصور الإنسان على منواله ، وبعده ، لا يعود يتغلى عن فكرته» .

(٣) «القتل والإفراء في أقصى الحالات ، ولكن لا سيما المساواة» .

ير بالدكتاتورية التامة . «عشر البشر سيملكون حقوق الشخصية ، وسيمارسون سلطة مطلقة على الأعمار التسعة الباقية . أما هؤلاء الآخرون فيفقدون شخصيتهم ، وسيصبحون كقطيع . وإذا تخضعون للطاعة السلبية ، سيُعادن إلى البراءة الأولى والبرِّ الأصلي ، وإن جاز القول ، إلى الفردوس الأولي حيث سيعملون ، على كل حال» . إنها حكومة الفلاسفة التي حلم بها المفكرون الطوباويون . ولكن هؤلاء الفلاسفة لا يؤمنون بشيء . لقد جاء الملوكوت ، ولكنه يُنكر التمرد الحقيقي ، والمسألة هي فقط مسألة سيطرة «القديسين»<sup>(١)</sup> العنيفين ، على حد قول أديب متحمس بمجد حياة رافاشول وبمساته . قال فرخوفنسكي بغصة : «الخبز الأعظم من فوق ، ونحن من حوله ، والشيغالية من تحتها» .

#### السادة الجدد

هكذا بُشر بحكومات القرن العشرين المستبدة وبإرهابية الدولة . إن السادة الجدد ، وكبار المقتشين<sup>(٢)</sup> يسودون اليوم على جزءٍ من تاريخنا ، مستخدمين تمرد المضطَّهدين . إن حكمهم طاغٍ ، ولكنهم يبررون طغيانهم بثقل العبء ، شأنهم في ذلك شأن الشيطان الروماني . « نستبقي لأنفسنا الرغبة والألم ، أما العبيد فلم الشغالية» .

#### ثن الألوية

حينئذ تولدُ ذرية من الشهداء جديدة وفضيعة بما فيه الكفاية . إن عذابهم الشديد يكمن في إيلام الآخرين . إنهم يستبدون انفسهم . . . لسلطان سيادتهم الخاصة . فكيف يُصبح الإنسان إلهاً ، يجب ان تتدنى الضحية لأن تُصبح . . . جلاداً . لهذا السبب ، يكون الجلاد والضحية يائس على حدٍ سواء . ولا يعود السلطان ولا العبودية متطابقين مع السعادة ويصبح السادة شرسين ، والعبيد

(١) في النص الفرنسي : المسيح ، بصيغة الجمع .

(٢) أو كبار الباحثين .

عابسين. وصدق سان جوست إذ قال إن تعذيب الشعب شيء رهيب . ولكن كيف نتجنب تعذيب البشر إذا كنا قد قررنا أن نجعلهم آلهة ؟ فكما أن كيريلوف الذي انتحركي يكوّن إلهاً ، رضي بأن تستفيد «مؤامرة» فرخوفنسكي من انتحاره ، كذلك فإن تأليه الإنسان لذاته يُعظم الحدّ الذي أظهره التمرد مع ذلك ، ويمشي قُدُماً في الدروب الموحلة ، دروب الوسيلة والإرهاب التي لما يتخلص منها التاريخ بعدُ .



## إرهابية الدولة و الإرهاب اللاعقلاني

نمو الدولة

كل الثورات الحديثة أدت الى تعزيز الدولة (١) ؛ ١٧٨٩ جاءت بنابليون ؛ ١٨٤٨ بنابليون الثالث ؛ ١٩١٧ بستانين ؛ الاضطرابات الايطالية في العقد الثالث .. بموسوليني ، وجمهورية وايمار بهتار . وقد استهدفت هذه الثورات بجرأة متعاضمة بناء ملكوت الانسانية وإقامة الحرية الحقيقية ، ولا سيما بعدما صفت الحرب العالمية الأولى آثار الحق الالهي . ان جبروت الدولة المتعاضم ثبت كل مرة هذا الطموح . من الخطأ القول ان ذلك كان لا بد من حدوثه . ولكن من الممكن ان نفحص كيف حدث ذلك ، اما العبرة فلعلها آتية .

بجانب عدد محدود من التعليقات التي لا تشكل موضوع هذه الدراسة ، يمكننا ان نعتبر نمو الدولة الحديثة الغريب الرهيب كنتيجة منطقية لمطامح تقنية وفلسفية مفرطة ، غريبة عن روح التمرد الحقيقية ، ولكنها مع ذلك ولدت

---

(١) المواطن والدولة . تأليف روبرت ييلو ، ترجمة هاد رضا . سلسلة : زدي علا  
منشورات عويدات

الروح الثورية في عصرنا . ان 'حلّم مار كس النبوي وتكهنات هيجل او نيته الجبارة ولدت في النهاية ، بعد ما قوضت ملكوت الرب ، دولة عقلانية او لاعقلانية ، ولكنها اراهية في كلتا الحالتين .

هل الفاشية ثورة ؟

والحقيقة ان ثورات القرن العشرين الفاشية لا تستحق لقب ثورة . فقد اعوزها الطموح الشامل . ليس من شك في ان موسوليني وهتار سعيا الى خلق امبراطورية ، وان المفكرين الوطنيين الاشتراكيين فكروا ، على وجه صريح ، في الامبراطورية العالمية . ووجه اختلافهم مع الحركة الثورية التقليدية انهم اصطفوا من التوركة العدمية تأليه اللاعقلاني ، واللاعقلاني وحده ، بدلاً من تأليه العقل . وبذلك تخلوا من الكلي . هذا لا يمنع ان موسوليني ينتسب الى هيجل ، وهتار الى نيته ، وهما يمثلان على صعيد التاريخ بعض نبوءات الفكر الألماني . وبهذا الصدد ، يخصان تاريخ التمرد والعدمية . وكانا أول من بنى دولة على الفكرة القائلة بأن ليس لشيء معنى ، وان التاريخ ليس سوى عرض القوة . وسرعان ما ظهرت النتائج ...

★

دين هتار

منذ ١٩١٤ بشر موسوليني بـ « دين الفوضوية المقدس » ، وأعلن بأنه عدو كل المذاهب المسيحية . أما هتار فإن دينه كان يضع الإله العناية جنباً الى جنب مع الوهالا (١) . والحقيقة ان إلهه كان حجة وبرهاناً في الإجماعات ، ووسيلة لإثارة النقاش في ختام الخطابات . لقد آثر ان يعلن بأنه 'ملهم' ، ما لقي النجاح . وعند الإنكسار ، ادعى بأن شعبه قد خانه . وبين الحالتين ، لم يظهر ما يعلن للأهلاً انه استطاع في يوم من الايام ان يعتبر نفسه مذنّباً امام

(١) هيكسل لظله الرجال في ألمانيا .

(٢) مثنوى الابطال القتلى في الميتولوجيا الساندينافية .

أي مبدأ . إن إرنست يونغر ، الرجل الوحيد ذا الثقافة الرفيعة الذي اضفى على النازية مظهر فلسفة ، اصطفى على كل صيغ العدمية بالذات : « ان خير رد على خيانة العقل للحياة ، خيانة العقل للعقل . وان إحدى المتع الكبرى في هذا الزمان هو الإسهام في هذا العمل التخريبي » .

#### اخلاق العصابات

إن رجال العمل ، حينما لا تكون قلوبهم عامرة بالإيمان ، لا يؤمنون ابدأ إلا بجمرة العمل . اما المفارقة الواهية الاساس والتي وقع فيها هتلر ، فتكمن في انه اراد ان يؤسس نظاماً مستقراً ، على حركة مستمرة وإسكار . وصدق راوشنغ في كتابه «ثورة العدمية» ، إذ قال ان الثورة الهتلرية حركية محضة . ففي ألمانيا التي زعزت أركانها حرب لم يسبقها مثل ، وهزتها كارثة الإنكسار والضائقة الاقتصادية ، لم تعد أية قيمة قائمة . ولئن وجب اعتبار ما سماه الشاعر غوته « قَدَر الشعب الألماني في ان يصعب كل الامور على نفسه » فإن وباء الانتحار الذي نزل بالبلاد كلها ، في الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، ينبىء كثيراً عن تشوش الازهان . من تيؤس قلوبهم من كل شيء ، فلا يرتد إليهم إيمانهم عن طريق المحاكات المنطقية ، بل عن طريق الهوى وحده ؛ وفي هذه الحالة المعنية ، عن طريق نفس الهوى الذي كان يجثم في اعماق هذا اليأس ، ونعني الهوان والكره . لم تعد هناك قيمة ، مشتركة بين البشر وأعلى منهم في الوقت نفسه ، يستطيعون بإسمها ان يحكموا على بعضهم بعضاً . لذلك قبلت ألمانيا ١٩٣٣ بتبني القيم المنحطة التي جاء بها نفر محدود، وحاولت ان تفرضها على حضارة بأسرها .

بدلاً من اخلاق غوته ، اصطلت اخلاق العصابات وخضعت لها ...

صراع دائم ... ومنهبات دائمة

اخلاق العصابات ... انتصار وانتقام ، انكسار وغل ، بلا نقاد .  
عندما أشاد موسوليني بـ «قوى الفرد الاولية» بشر بتمجيد قوى الغريزة

والدم الغامضة ، وبالتبرير البيولوجي لاسوء ما 'تنتج غريزة' التحكم . وفي محاكاة نورمبرغ ، نوه فرانك بـ « كراهية الشكل » التي كانت تعتمل في نفس هتار . صحيح ان هذا الرجل لم يكن إلا قوة في حالة حركة ، تقومها وتعززها حسابات الكيد وبراعة الدهاء . حتى شكله الجسماني ، العادي التافه ، لم يكن لبشكل عائقاً ، بل كان يسنده ويدعمه لدى الجماهير (١) . كان العمل (٢) قوامه والسعي عماده . وكانت الكينونة هي العمل ، في اعتقاده . لهذا السبب ، لم يكن في وسع هتار وجماعة نظامه الاستغناء عن الاعداء . لم يكن في وسعهم ، وهم من اهل التظاهر (٣) المجنونين ، ان 'يعرفوا' أنفسهم الا بالنسبة الى هؤلاء الأعداء ، وأن يتبلور شكاهم إلا في المعركة الحامية الوطنية التي ستطرح هؤلاء الاعداء . اليهود ، الماسونيون ، الرأسماليون المسيطرون ، الانغلو ساكسون ، السلافيون البهيميون ، ... كل هؤلاء تتلوا في الدعاية وتعاقبوا في التأريخ كي يسيروا 'صعداً' بالقوة العمياء الماضية الى حدها ومنتهاها .

الصراع الدائم ... كان يتطلب منبهات دائمة

#### الحركة النائية

كان هتار التاريخ في الحالة الحالصة . «السيرورة» كما قال يونغر ، خير من العيش . لقد بشر إذن بالتوحيد الذاتي التام مع تيار الحياة ، عند أخفض مستوى ، وضد كل حقيقة واقعة عليا . إن النظام الذي ابتدع السياسة الخارجية البيولوجية كان يسير خلافاً لمصلحة البديهية ، ولكنه كان يمثل على الأقل لمنطقه الخصوصي . هكذا كان روزنبرغ يتحدث عن الحياة بألفاظ فخمة : «أسلوب طاوور يسير ، ولا يهم نحو أية جهة وإلى أية غاية يسير» . بعد ذلك ، سينشر هذا الطاوور الدمار في التاريخ ، وسيخرب بلاده بالذات ، ولكنه يكون قد

(١) L'homme du néant . Max Picard

(٢) العمل - السعي - الحركة .

(٣) لعل ان اهل التظاهر يعرفون انفسهم بالنسبة الى الآخرين .

عاش على الاقل . كانت المنطق الحقيقي لهذه الحركة : إما الخذلان التام ، او السير من غزو الى غزو ومن عدو الى عدو نحو إقامة «امبراطورية» الدماء والعمل . فلما يُحتمل ان يكون هتلر قد تصور هذه الامبراطورية ، على الاقل في الاصل . فلا في الثقافة ، وحتى لا في الغريزة او الدماء ، لم يكن على مستوى مصيره . لقد انهارت المانيا لانها خاضت صراعاً توسعياً مسلحة بفكرة سياسية اقليمية . ولكن يونغر كان قد لاحظ هذا المنطق ، واعطى صيغته . فقد تصور «امبراطورية عالمية وتقنية» ، «لديانة تقنية معادية للسيحية» ، اوفياؤها وجنودها العمال انفسهم لان - وهنا كان يونغر يلتقي بباركس - العامل العالمي<sup>١</sup> بهيكله الإنساني . «قانون نظام قيادة جديدة» ، يقوم مقام تبديل العقد الإجتماعي<sup>(١)</sup> . إن العامل يُنتشل من دائرة المفاوضات والشفقة والكلام المرصوف ، ويُرفع إلى مرتبة العمل<sup>(٢)</sup> . وتتحول الالتزامات الحقوقية إلى التزامات عسكرية . «الامبراطورية» ، كما نرى ، هي في الوقت نفسه المعمل والشكنة العالمين ، حيث يسود الجندي - العامل الذي تحدث عنه هينغل ، كالعبد . لقد أوقف هتلر في وقت مبكر نسبياً على طريق هذه الامبراطورية . ولكن حتى لو اتبع له السير إلى مدى أبعد ، لما رأينا إلا انتشاراً متزايد الإتساع لحركة لا تقاوم ، وتعزيزاً متزايد العنف للمبادئ الكلية التي كانت وحدها قادرة على خدمة هذه الحركة .

#### حقيقة الفاشية

إن روشنينغ تحدث عن مثل هذه الثورة فقال إنها لم تعد تحرراً وعداءً وازدهاراً للعقل . إنها «موت الحرية وتسلط العنف وعبودية العقل» . الفاشية هي الإحتقار، في الحقيقة . وبالعكس ، كل شكل من أشكال الإحتقار إذا تدخل في السياسة فانه يهدد للفاشية أو يقيسها . يجب ان نضيف قائلين إن الفاشية لا يسعها أن تكون شيئاً آخر دون أن تُنكر ذاتها . إن يونغر كان يستخلص من

(١) يقصد هنا العقود المبرمة بين العمال وأرباب العمل - الحرب -

(٢) العمل = السعي = الحركة .

مبادئه الخامة انه خيرٌ للمرء أن يكون مجرمًا من أن يكون بورجوازيًا .  
أما هتلر الذي كان أثقل موهبة أدبية واكبر منطلقاً بهذا الخصوص ،  
فكان يعلم بأنه سيان للمرء أن يكون مجرمًا أو بورجوازيًا ، ما دام لا يؤمن  
إلا بالنجاح . لذلك ، أجاز لنفسه ان يكون كلا الاثنين . قال موسوليني :  
« الأمر الواقع هو كل شيء » . وقال هتلر : « متى تعرض العرق لخطر  
الإضطهاد... فإن مسألة الشرعية لا تعود تلب سوى دور ثانوي » . على كلٍ ،  
بما أن العرق يحتاج دائماً إلى أن يكون مهدداً كما يوجد ، لذلك لا وجود  
أبدًا للشرعية . «لاني مستعد للتوقيع على كل شيء ، للرضا بكل شيء... وفيما  
يتعلق بي ، انني قادرٌ ، بكل حسن نية ، على أن أوقع معاهدات هذا اليوم  
وعلى أن أفسخها بكل برود غدًا ، إذا كان لمستقبل الشعب الألماني علاقة  
بالأمر » . على كلٍ ، قبل أن يشرع الفوهرر هتلر بالحرب ، أعلن لقواده أن  
المنتصر لن يُسأل في المستقبل هل قال الحقيقة أم لا . أما اللازمة التي كانت  
تكرر في دفاع غورنغ اثناء محاكمة نورمبرغ فتراجع إلى الفكرة التالية :  
«المنتصر سيكون دائماً القاضي ، والمغلوب دائماً المتهم» . ليس من شك في ان  
هذا الكلام يقبل النقاش . ولكننا حينئذ لا نفهم روزنبرغ اذ قال في محاكمة  
نورنبرغ إنه لم يكن ليتوقع أن تؤدي هذه الأسطورة إلى القتل . وعندما  
لاحظ النائب العام الإنكليزي ان «الطريق من كتاب هتلر «كفاحي» ، كانت  
تؤدي مباشرة إلى غرف الغاز في ميديك» لمس بالمعكس موضوع المحاكمة  
الحقيقي ، موضوع المسؤوليات التاريخية للمدعية الغربية ، الموضوع الوحيد الذي  
لم يُناقش حقاً في نورنبرغ ، لأسباب واضحة . فلا يجوز ترؤس محاكمة بإعلان  
التجريم العام لحضارة بأسرها . لقد جرى الحكم بناء على الأفعال وحدها ، هذه  
الأفعال التي كانت على الاقل تصرخ في وجه جميع من في الأرض .

سيد واحد ... وملايين العبيد

مهما يكن من أمر ، فإن هتلر ابتدع حركة الغزو الداعمة التي لولاها ما كان

شئناً . ولكن وجود العدو الدائم معناه وجود الإرهاب الدائم ... على مستوى الدولة هذه المرة . إن الدولة تتوحد توحداً ذاتياً مع «الجهاز» ، أي مع مجموع آليات الغزو والقمع . الغزو الموجّه إلى الداخل يُسمى دعابةً ( «أول خطوة نحو الجحيم» على حد قول فرانك) ، أو قمعاً . وإذا ما توجه نحو الخارج فإنه يخلق الجيش . كل المشكلات تُنظّم إذن تنظيمياً عسكرياً ، وتُطرح بعبارات القوة والفعالية . القائد العام يُحدد السياسة ، ويُعين على كلِّ جميع المشكلات الإدارية الأساسية . هذا المبدأ الذي لا يُدخّل من حيث فن القيادة الحربية ، يُعمّم في الحياة المدنية . قائد واحد ، شعب واحد ، ... معناه سيد واحد وملايين العبيد . إن المؤسسات السياسية الوسيطة <sup>(١)</sup> التي تشكل ضمانات الحرية في كل المجتمعات ، تختفي كي تفسح المجال لإله حقود بطاش <sup>(٢)</sup> يسود على الجماهير الصامتة ، أو - والأمراث سيان - الهاتفة بالشعارات . فلا توضع بين القائد والشعب مؤسسة تتكفل بالتوفيق أو بالتوسط بينهما ، بل يوضع الجهاز ... أي : الحزب الذي هو فيضٌ عن القائد وأداةٌ لإرادته المضطّيدة . هكذا يُولد المبدأ الأول والوحيد في هذه العبادة الوضيعة ، مبدأ الزعامة ، الذي يقوي في عالم العدمية الصنّيبية والمقدّمات المنحطة .

هتلر الرب

إن موسوليني العالم بالحقوق اللاتينية اكتفى بداعي المصلحة العليا في الدولة ، وحوّله فقط إلى مطلق ، بكثير من البلاغة . « لا شيء خارج نطاق الدولة ، فوق الدولة ، ضد الدولة . كل شيء للدولة ، من أجل الدولة ، في الدولة » . أما ألمانيا الهتلرية فأعطت هذا الداعي الباطل لغته الحقيقية ، لغة الدين . كتبت إحدى الصحف النازية خلال مؤتمر عقده الحزب ، فقالت : « كان قرّضنا الكنسي أن نعيد كل واحد إلى الأصول ، إلى «المصادر» ، والحقيقة أن ذلك كان عبادة وخدمة للرب » .

(١) المجلس هو مثلاً مؤسسة سياسية وسيطة بين الحاكم والرعية . تلاحظ تأثر كامو بـ «موتسكيو» . المررب

(٢) في النص المرربي : يهوه (الإله الحقود) ، لابس الجزمة ، عسكري (بطاش)

الأصول هي إذن في الصرخة الأولى. فما هو هذا الإله المقصود هنا؟ ثمة تصريح رسمي صادر عن الحزب يحيطنا علماً بذلك: «نحن جميعاً في هذه الدنيا نؤمن بأدولف هتلر، قائدنا... ونعلن بأن الاشتراكية الوطنية هي الديانة الوحيدة التي تسيّر بشعبنا نحو الخلاص»

من القاتل؟

إن أوامر القائد المنتصب بين لهب الأنوار، على قمة من المنصّات والأعلام، هي بمنزلة الشريعة والفضيلة. فإذا ما صدرت الأوامر مرة واحدة فقط بالجريمة، فحينئذ من رئيس إلى مرؤوس تهبط الجريمة حتى العبد الذي، من جهته، يتلقى الأوامر دون أن يأمر أحداً. إن أحد جلادي «داسو» ينتحب بعدئذ في سجنه: «لم أفعل سوى تنفيذ الأوامر». الفوهرر ورايخ الفوهرر هما اللذان جاءا بهذا كله ثم ذهباً. إن غلاك تلقى الأوامر من كالتبرونر، وأخيراً، صدرت إلي الأوامر بأن أعدم الضحية بالرصاص. لقد سلموني الحبل كله، لأنني لم أكن سوى مأمور بسيط، ولم يكن في وسعي أن أتنازل عن حملي لمن هو أدنى مني مرتبة. والآن، يدعون أنني القاتل». إن غورنغ تذرّع في المحاكمة بإخلاصه للزعيم، وانه «لا يزال هناك مسألة شرف في هذه الحياة الملعونة». كان الشرف في الطاعة التي تختلط أحياناً مع الجريمة. إن القانون العسكري يعاقب العصيان بالموت، وشرفه عبودية. وحينما يكون الجميع عسكريين، تكون الجريمة في امتناع المرء عن القتل إذا كان النظام يتطلب ذلك.

أناشيد الحرية في معسكرات الموت

لسوء الحظ، فلما يتطلب النظام عمل الخير. فالحركية العقائدية الخالصة لا يمكن أن تتوجه نحو الخير، وإنما نحو الفعالية فقط. ما دام هناك أعداء فسيكون هناك إرهاب، وسيكون هناك أعداء ما دامت الحركة ستوجد كي يوجد النظام.. «كل القوى النافذة الكفيلة بإضعاف سيادة الشعب التي يمارسها الزعيم بمساعدة الحزب، يجب أن تزاح». يجب أن يُهدى الأعداء الهراطقة بالموعظة أو الدعاية، يجب أن يبادوا بالبأسح أو القتاو. النتيجة هي أن



الانسان اذا كان من الحزب ، فإنه لا يعود سوى اداة في خدمة الزعيم ، سوى جزء من الجهاز ؛ وإذا كان عدواً للزعيم ، فإنه لا يعود سوى سلعة يستهلكها الحزب . إن الوثبة اللاعقلانية ، الناشئة عن التمرد ، لا تعود تستهدف سوى إخضاع هذا الذي لا يجعل من الإنسان جزءاً من آلة ، ونعني إخضاع التمرد ذاته . أخيراً ترتوي الفردانية الرومانسية للثورة الألمانية في عالم الأشياء . فالإرهاب اللاعقلاني يُشَيِّه<sup>(١)</sup> البشر ، «العُصَيَّات الجراثومية الكوكبية» على حد تعبير هتار . إنه لا يستهدف إفناء الشخص فحسب ، بل أيضاً إفناء امكانيات الشخص العامة : التفكير ، التضامن ، النزوع إلى المطلق . إن الدعاية والتعذيب هما وسائل مباشرة للتخميم . بل أكثر ، فالحرمان المنهجي من الحقوق ، والخلط مع المجرم المتحلل من القيم ، والإشراك القسري في الإثم ، هي أيضاً من الوسائل . من يقتل او يعذب فإنه لا يعرف سوى نقيصة واحدة في انتصاره . إنه لا يستطيع أن يشعر بأنه بريء . لذلك يحتاج إلى خلق الإثم لدى الضحية بالذات ، كي لا يبرر الإثم العام سوى ممارسة القوة ، وكي لا يكرس سوى النجاح ، في عالم يسير على غير هدى . وحينما تختفي فكرة البراءة لدى البريء نفسه ، تسود قيمة القوة في عالم يائس . لهذا السبب ، يهيم العقاب الدنيء القاسي على هذا العالم ، حيث لا بريء إلا الحجارة . إن المدانين يُكروهون على شتى بعضهم بعضاً . ويُقضى حتى على صرخة الأمومة الخالصة ، كما فعل مع هذه الأم اليونانية التي أجبرها أحد الضباط الألمان على اختيار أحد أبنائها الثلاثة كي يُعدم رمياً بالرصاص . هكذا نُصبح أخيراً أحراراً . إن القدرة على القتل والإذلال تنتشل النفس الذليلة من برائن العدم . وحينئذ تُرتل أناشيد الحرية الألمانية على نغم جوقة من السجناء ... في معسكرات الموت .

مأساة يديس

لا مثيل في التاريخ للجرائم الهتلرية ، لان التاريخ لا يسوق اي مثال عن

(١) اشتقاق من : شيه .

عقيدة دمار شاملة يمثل هذه الصورة ، تمكنت في يوم من الايام من السيطرة على قياد أمة متحضرة. فوجه خاص ولأول مرة في التاريخ ، ثمة رجال رسميون استخدموا قواهم الواسعة لإقامة عبادة خارج نطاق كل اخلاق . هـ . هذه المحاولة الاولى لبناء كنيسة على العدم ، 'دفع ثمنها بالثناء نفسه . ان تدمر قرية ليديس يبين بوضوح ان مظهر الحركة الهتلرية المنهاجي العلمي يغطي في الحقيقة اندفاعاً هوجاء ، لا يمكن ان تكون الا اندفاعاً اليأس والكبرياء . فتجاه قرية افترض انها شقت عصا الطاعة ، لا يمكن ان يتصور المرء حتى الآن سوى موقفين للفتاح . إما القمع المحسوب وإعدام الضحايا بلا مبالاة ، او الانقضاضة الوحشية ، والقصيرة بالضرورة ، يقوم بها جنود حاققون . ولكن ليديس 'دمرت بكلتا الطريقتين . انها تمثل تخريبات هذا العقل في اللاعقلاني ، القيمة الوحيدة التي يمكن ان نجدها في التاريخ . فلم 'يكتف بحرق البيوت ، وبإعدام رجال القرية ، وبإبعاد نساءها ، وبنقل اطفالها كي 'يربوا على دين هتار ' ' ، بل قامت ايضاً بعض الفرق الخاصة بعمل عدة أشهر لتسوية الارض بالديناميت ، ولاخفاء الحجارة ، وغمر بحيرة القرية ، وتحويل منحى الطريق وجرى النهر .

بعد ذلك ، لم تعد ليديس شيئاً ، لم تعد سوى ذكرى مجردة ، بموجب منطق الحركة . وفي سبيل المزيد من الاحتراس ، أفرغت المقبرة من الموتى ، لانهم كانوا ما زالوا 'بذكرون بأنه ثمة شيء كان في هذا المكان .

وجه هند الحفيقي

ان الثورة العدمية التي تجلت تاريخياً في الديبابة الهتلرية ، لم توأد اذن سوى ولع شديد بالعدم ، وانقلبت في النهاية على ذاتها. في هذه المرة على الاقل ورغم هيفل ، لم يكن الإنكار 'مبدعاً . لعل هتار يمثل الحالة الوحيدة في التاريخ عن طاعة لم 'يخلف اي شيء في رصيده . فلنفسه ، ولشعبه ، وللعالم ، لم يكن سوى انتحار وقتل . سبعة ملايين اوروبي اُبعدوا عن ديارهم او 'قتلوا ، عشرة ملايين ضحية حرب لعلمها ما زالت غير كافية للتاريخ ليُحتم عليه ، لأنه ألف القتلة . ولكن القضاء على مبررات هتار الاخيرة ، ونعني القضاة ساء على الأمة

الألمانية ، سيجعل بعد الآن من هذا الرجل الذي سبَّحُ وجوده التاريخي خلال سنوات على ملايين البشر ، .. نقول : سيجعل منه ظلًا مضطرباً بانساً . ان إفادة «سير» في محاكمة نورنبيرغ دلت على ان هتلر ، في حين كان في وسعه إيقاف الحرب قبل حلول الكارثة التامة ، أراد الانتحار العام وفناء الأمة الألمانية المادي والسياسي . فالنجاح بقي حتى النهاية القيمة الوحيدة في نظره . بما ان المانيا خسرت الحرب ، لذلك هي نذلة خائنة ، ويلزم لها ان تموت . « اذا كان الشعب الألماني عاجزاً عن الانتصار ، فليس جديراً بالحياة » . لقد قرر هتلر اذن ان يجره الى الدمار وان يجعل من انتحاره تمجيداً وتأليهاً ، عندما كانت المدافع الروسية تدك جدران القصور البرلينية . ان هتلر ، وغورنغ الذي كان يريد ان يرى رفاقه في تابوت من مرمر ، وغوبلز ، وهملر ، ولاي ، ... انتحروا في أنفاق او في زنانات . ولكن هذه الميتة هي من اجل لا شيء ، انها كحلُم مزعج ، كدخان يتبدد . انها غير فعالة وغير أنموذجية ، وتكرس بطلات العدمية الدامي . لقد صاح فرانك بجنون : « كانوا يحسبون انفسهم احراراً ، ألم يكونوا يعرفون ان لا خلاص من الهتارية ! » . ما كانوا يعرفون ذلك ، وما كانوا يعرفون ان إنكار كل شيء عبودية ، وان الحرية الحققة خضوع داخلي لقيمة تواجه التاريخ ونجاحاته .

#### مباراة

ولكن الفلسفات الفاشية ، على الرغم من انها سمعت تدريجياً الى قيادة العالم ، لم تطمح قط في الحقيقة الى امبراطورية عالمية . اكثر ما هنالك ان هتلر ، وقد اعترته الدهشة من انتصاراته الخاصة ، تحول عن اصل حركته الأقليمي نحو حلم غامض بامبراطورية المانية لا علاقة لها بالامبراطورية العالمية . اما الشيوعية الروسية فتطمح علنا ، بأصلها بالذات ، الى امبراطورية عالمية . هنا سر قوتها ، وعمقها البصير ، واهميتها في تاريخنا . فرغم المظاهر ، كانت الثورة الألمانية بلا مستقبل . لم تكن سوى اندفاعة بدائية ، تخريباتها اكبر بكثير من طموحها الحقيقي .

أما الثورة الروسية فتكفلت بالطموح الماورائي الذي تصفه هذه الدراسة، وبنناء ملكوت الانسان وقد تأله في النهاية ، بعد موت الاله . ليس في وسع المغامرة الهتارية ان تطمح في لقب الثورة ، ولكن الشيوعية الروسية استحققت هذا اللقب . وعلى الرغم من انها لم تعد تستحقه في الطاهر ، فانها تدعي بأنها تستحقه ذات يوم والى الأبد . لأول مرة في التاريخ ، نرى عقيدة وحرارة مستندتين الى امبراطورية مسلحة ، تضعان نصب اعينها الثورة النهائية والتوحيد النهائي للعالم . ويبقى علينا ان نفحص هذا المطمح بالتفصيل .

في ذروة جنونه ، ادعى هتلر تثبيت التاريخ لألف عام . وكان يعتقد انه يكاد يحقق ذلك . وكان الفلاسفة الواقعيون في الامم المقهورة يتهاونون للملاحظة الامر ولتبريره ، فاذا بمعركتي بريطانيا وستالينغراد تلقيان به الى الموت ، ونسيران بالتاريخ الى الامام مرة أخرى . ولكن إرادة الألوهية عند البشر ، كالتاريخ الصامد ، تعود الى الظهور ، وبمزيد من الجد والفعالية ، في ضرورة الدولة العقلانية ، مثلما يجري بناؤها في روسيا .

## إرهابية الدولة و الإرهاب العقلائي

تمهيد

في انكلا ترا القرن التاسع عشر ، وسط العذاب والبؤس الرهيب الناشين عن الانتقال من الرأسمال العقاري الى الرأسمال الصناعي ، كان ماركس يملك كثيراً من العناصر لتحليل الرأسمالية الاولية تحليلاً رائعاً . اما الاشتراكية - باستثناء الدروس التي كان في وسعه استخلاصها من الثورات الفرنسية ، والمخالفة لمبادئه على كل - فكان مضطراً الى التحدث عنها بصيغة المستقبل وبصورة مجردة . فليس عجيباً اذن ان يكون قد استطاع ان يجمع في مذهبه الطريقة الانتقادية الأكثر صحة وشرعية ، والآمال الخيالية الأكثر قبولاً للجدال . المصيبة ، لسوء الحظ ، ان الطريقة الانتقادية قد تتكيف ، بالتعريف ، مع الحقيقة الواقعة ؛ ولكنها ابتمدت ابتمعاداً متزايداً عن الوقائع ، بمقدار ما ارادت ان تظل امينة للنبوءة . وقد ساد الاعتقاد - وهذا بحكم الاشارة - ان ما قد نسلّم به للحقيقة الواقعة ، 'ينتزع من الآمال . هذا التناقض لوحظ منذ عصر ماركس .

فعميقة «البيان الشيوعي» لم تعد صحيحة صحة تامة بعد عشرين عاماً، عندما صدر «رأس المال». مها يكن من امر، فقد ظل «رأس المال» ناقصاً، لان ماركس انصرف في ختام حياته الى مجموعة جديدة وعجيبة من الوقائع الاجتماعية والاقتصادية، كان لا بد من تكيف المذهب ثانية معها. كانت هذه الوقائع تتعلق خاصة بروسيا التي كان قد استخف بها من قبل. غير خاف اخيراً أن معهد ماركس - انجاز في موسكو قد اوقف عام ١٩٣٢ نشر مؤلفات ماركس الكاملة، مع انه بقي اكثر من ثلاثين مجلداً للنشر.

لم يكن محتوى هذه المجلدات، ولا شك، ... «ماركسيا» بقدر كاف...

على كل، منذ وفاة ماركس بقيت أقلية من التلامذة امينة لطريقته. اما الماركسيون الذين صنعوا التاريخ فتمسكوا بالنبوءة، وبما في المذهب من رؤيا، لتحقيق ثورة ماركسية... في ظروف تكهن ماركس بعدم امكان حدوث ثورة فيها. يمكن القول عن ماركس ان معظم تكهناته اصطدمت بالوقائع، بينما كانت نبوءته موضع إيمان متزايد. وسبب ذلك بسيط: فالتكهنات كانت لأمد قصير، وأمكن التحقق منها. اما النبوءة فلأمد طويل، وثقل ما يعزز رسوخ الديانات: استحالة اقامة الدليل. فعندما كانت التكهنات تنهار، كانت النبوءة تظل الأمل الوحيد. وعن ذلك ينجم ان النبوءة هي الوحيدة التي تسود على تاريخنا.

في هذه الدراسة، لن نخصص الماركسية وورثتها إلا من زاوية النبوءة.

## ١ - النبوءة البورجوازية

نبي بورجوازي ونوري

ماركس نبي بورجوازي ونبي نوري في وقت واحد. ولئن كان الثاني أبعد صيتاً واكثر شهرة من الأول، فان هذا الاخير يفسر اشياء كثيرة في مصير الثاني. ثمة آمال من اصل مسيحي وبورجوازي، تاريخية وعلوية في وقت

واحد ، أثرت لديه على الآمال الثورية المنبثقة عن الفكر الالمانى والثورات الفرنسية .

#### الصبورة والتاريخ

إن وحدة العالم المسيحي والعالم الماركسي تبرز للعيان ، خلافاً للعالم القديم . فالعقيدتان تشتركان في نظرة الى العالم تفصلهما عن الموقف اليوناني . ويُعرف ياسبرس هذه النظرة تعريفاً جيداً : « انه لتفكير مسيحي ان نعتبر تاريخ البشر كتاريخ وحيد تماماً » . فالمسيحيون كانوا اول من اعتبر الحياة الانسانية وسلسلة الأحداث كتاريخ يجري اعتباراً من بداية نحو نهاية ، خلاله يفوز الانسان بالخلاص او يستحق العقاب . ان فلسفة التاريخ نشأت عن تصور مسيحي 'يدهش' المفكر الاغريقي . فلا يملك مفهوم 'الصبورة' الاغريقي اية نقطة مشتركة مع تصورنا للتطور التاريخي . الاختلاف بين الاثنين هو الاختلاف بين دائرة وخط مستقيم . كان اليونانيون يتصورون سير العالم كسير دوري . وكي نعطي مثالاً معيناً ، لم يكن ارسطو ليعتقد انه لاحق " في الزمان لحرب طروادة . وفي سبيل الانتشار في عالم البحر الابيض المتوسط ، اضطرت المسيحية الى التأثر بالهلينية ، وبالتالي اصبحت عقيدتها اكثر مرونة . ولكن أصلها تكمن في انها ادخلت الى العالم القديم مفهومين لم يجمع بينهما قط من قبل ، ونعني مفهومى التاريخ والعقاب . المسيحية يونانية بفكرة الوساطة ، ويهودية بمفهوم التاريخية ، وستوجد في الفكر الالمانى .

#### الموقف من الطبيعة

نلاحظ هذا الانقطاع بشكل افضل ، اذ نوه بعداء المذاهب التاريخية للطبيعة ، المعتبرة من قبل هذه المذاهب كموضوع تحويل لا موضوع تأمل . فننظر المسيحيين كما ننظر الماركسيين يجب إخضاع الطبيعة . اما اليونانيون فيعتقدون انه خير للمرء أن يطيعها . لم يكن الحب القديم للكون معروفاً عند المسيحيين الاولين الذين كانوا ، على كل ، ينتظرون نهاية العالم الوشيكة بفارغ

الصبر . هذا وسنقدم بعدئذ الهيلينية المشتركة مع المسيحية الإزدهار الآلي (١) الرائع من جهة ، والقديس فرنسوا من جهة أخرى . ولكن الكنيهة ، بمحاطم التفتيش وتحطيم المرطقة الألية ، انفصلت ثانية عن العالم وعن الجمال ، وأعدت الى التاريخ اولويته على الطبيعة . وصدق ايضاً ياسبرس اذ قال : « الموقف المسيحي هو الذي افرغ العالم شيئاً فشيئاً من جوهره ... لان الجوهر كان يستند الى مجموعة من الرموز » ؛ هذه الرموز هي رموز المأساة الإلهية التي تجري خلال الزمان . ولم تعد الطبيعة سوى إطار هذه المأساة التزيني . التوازن الحسن بين « الانساني » والطبيعة ، الرضا الانساني بالعالم ، ... هذا الامر الذي كان يحرك كل الفكر القديم ويجعله يتألق بسناه ، قد حطته المسيحية أولاً لصالح التاريخ . وسارع في هذه الحركة دخول ' الشعوب (٢) الشمالية في هذا التاريخ ، وهي شعوب لم تكن تملك تقاليد صداقة مع العالم . و'مذ' أنصكرت الوهية المسيح ، ومذ - بفضل الفكر الالماني - لم يعد المسيح يمثل سوى الانسان الاله ، اختفى مفهوم الوساطة ، وانبعث عالم يهودي . فساد إله الجيوش الحقود ثانية ، وأهين كل جمال بوصفه مصدر متع فارغة ، واستعبدت الطبيعة بالذات . من هذه الناحية ، 'يعتبر ماركس إرميا (٣) Jérémie الإله التاريخي ، وقديس أوغسطينوس الثورة . ولأن يُفسر هذا الامر 'النواحي الرجعية في مذهبه ، فهذا ما تكفي للاشعار به مقارنة بسيطة بنجرها مع معاصره جوزيف دي ميستر ، فيلسوف الرجعية النيه .

(١) نسبة الى مدينة آلي الواقعة في جنوب فرنسا ، وقد انتشرت في منطقتها نزعة دينية منذ

القرن الحادي عشر . ويعتبر اصحابها من هراطقة اللارون الوسطى . المغرب .

(٢) سيكولوجيا الشعوب ، تأليف آيل ميروغليو ، ترجمة نهاد رضا . سلسلة زدي علم مشورات عويدات

(٣) احد انبياء بني اسرائيل .



## جوزيف دي ميستر

هدف دي ميستر

ان دي ميستر يدحض العقوبية والكالفينية ، المذهبين اللذين يلخصان بنظره « كل ما جال في الخواطر من تفكير آثم خلال ثلاثة قرون » ، وذلك بإسم فلسفة مسيحية تاريخية .

ضد كل حركات المروق والمهرطقة ، اراد دي ميستر ان يجدد ثوب الكنيسة ، بحيث تصبح اخيراً كاثوليكية بكل معنى الكلمة . ان هدفه هو المجتمع المسيحي العالمي ، ونلاحظ ذلك وقت مغامراته الماسونية (١) . انه يحلم بآدم فابر دوليفيه (٢) ، او الانسان العالمي ، مصدر النفوس المتباينة ؛ وبآدم القبّالين (٣) ، الذي وجد قبل السقطة والذي يجب إعادة خلقه الآن . عندما ستغطي الكنيسة العالم ، فسوف تجدد آدم المذكور ، الأول والأخير . هذا الصدد ، نجد في « أمسيات سان بطرسبرغ » (٤) صيغاً كثيرة ذات شبه ملحوظ مع صيغ هيغل وماركس النبوية . ففي اورشليم (٥) التي يتصورها دي ميستر ، اورشليم الارضية والسموية في وقت واحد ، يكون « كل السكان متشعبين بنفس الروح ، وسينفذون الى سريرة بعضهم بعضاً ، وسيعكسون سعادتهم » . ان دي ميستر لا يصل الى حد انكار الذات الشخصية بعد الموت ، بل يحلم فقط بوحدة غامضة استرجعت ثانية ، وحيث لا يعود هناك هوى ولا مصلحة

(١) لعله يقصد الصوفية العرب

E. Dermenghen. Joseph de Maistre mystique.

(٢) اديب فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٢٥)

(٣) في الاصل جماعة دينية يهودية .

(٤) راجع : ليارات الفكر الفلسفي ص ٢٨٢ - العرب -

(٥) بمعنى المجتمع الفاضل المقبل - العرب -

شخصية ، بعدما فني الشره ، وحيث «سيتوحد الانسان مع ذاته بعدما انطس قانوناه ، واختلط مركزاه» . (١)

دي ميستر وماركس

في مجتمع المعرفة المطلقة ، حيث تختلط عيون الروح بعيون البدن ، كان هينغل ايضاً يوفق بين التناقضات . ولكن نظرة دي ميستر تلتقي ايضاً بنظرة ماركس الذي بشر بـ « نهاية النزاع بين الجوهر والوجود ، بين الحرية والضرورة» . وما الشر في اعتقاد دي ميستر سوى انفصام الوحدة (٢) . ولكن يجب على الانسانية ان تستعيد وحدتها ثانية على الارض وفي السماء .

بأية طريقة ؟

ان دي ميستر، الرجعي التابع للنظام القديم، هو اقل وضوحاً من ماركس حول هذه النقطة . ولكنه كان يأمل مع ذلك بثورة دينية عظمى لم تكن ثورة ١٧٨٩ سوى «مقدمتها الرهيبه» . وكان يستشهد بالقدس يوحنا الذي طلب إلينا ان «نصنع» الحقيقة ، وهذا هو بالضبط برنامج الفكر الثوري الحديث . كما كان يستشهد بالقدس بولس الذي اعلن ان «الموت هو آخر عدو يجب تخطيه» . ان الانسانية ، من خلال الجرائم والعنف والموت ، تسير نحو هذه النهاية التي ستبور كل شيء . ليست الارض في اعتقاد دي ميستر «سوى مذبح واسع يجب ان يُنحر فيه كل ما هو ذو حياة ، دونما نهاية ، دونما اعتدال ، دونما انقطاع ، حتى فناء الاشياء ، حتى انقراض الشر ، حتى موت الموت» .

ولكن قدرته إيجابية ، مع ذلك . «على الانسان ان يعمل كأنه قادر على كل شيء» ، وان يسلم امره لله كأنه عاجز عن اي شيء» . واننا نجد نفس النوع من القدرة المبدعة لدى ماركس . ليس من شك في ان دي ميستر يبرر النظام القائم . ولكن ماركس يبرر النظام الذي كان آخذاً في القيام في زمانه . ان ابلغ ثناء على

(١) الروح والبدن - المغرب -

(٢) الوحدة بين انجم - المغرب -

الرأسمالية صاغه أعدى أعدائها. ليس ماركس عدواً للرأسمالية الا بمقدار ما هي نظام باطل. ثمة نظام آخر يجب ان يقوم، وسيتطلب بإسم التاريخ اذعانية جديدة. اما الوسائل فهي بالنسبة الى ماركس ودي ميستر: الواقعية السياسية، الانضباط، القوة. وحينما يرجع دي ميستر الى فكرة بوسويه القوية والقائلة «ان الهرطوقي هو ذلك الذي يملك افكاراً شخصية»، وبتعبير آخر، افكاراً لا تستند الى معتقدات تقليدية، اجتماعية او دينية، ... نقول: حينما يرجع الى هذه الفكرة، يعطي صيغة أقدم المواقف الإذعانية وأجدتها.

ان نائب المدعي العام، المرتل المتشائم للجلاد، يبشر حينئذ بالنائب العام اللبق في زماننا.

النبوءة التاريخية عند كليها

بديهي ان وجوه الشبه هذه لا تجعل من دي ميستر ماركسياً، ولا من ماركس مسيحياً تقليدياً. الإلحاد الماركسي مطلق. ولكنه، مع ذلك، يعيد الكائن الاسمي على مستوى الانسان. «ان انتقاد الدين يؤدي الى هذا المبدأ القائل ان الانسان هو الكائن الاسمي بالنسبة الى الانسان». من هذه الزاوية، تكون الاشتراكية اذن محاولة لتأليه الانسان، وقد اخذت بعض الصفات من الديانات التقليدية<sup>(١)</sup>. هذه المقارنة هي، على كل، مفيدة من جهة الاصل المسيحي لكل آمال تاريخية، حتى لو كانت ثورية. اما الفارق الوحيد فيمكن في تبديل القرينة. فعند دي ميستر كما عند ماركس، نرى ان ختام الزمان يرضي حلم الشاعر فيني: مصالحة الذئب والحمل، سير المجرم والضحية الى نفس المذبح، اعادة افتتاح - او افتتاح - جنة ارضية. يعتقد ماركس ان قوانين التاريخ تعكس الحقيقة الواقعة المادية، اما دي ميستر فيعتقد انها تعكس الحقيقة الواقعة الالهية. الاول يعتقد ان المادة هي الجوهر، اما الثاني فيعتقد ان جوهر الهه قد تجسد في هذه الدنيا.

(١) لقد أثر سان سيون بماركس، وتأثر هو نفسه بدي ميستر وبوالد.

ان الابدية تفصل بينها من حيث المبدأ ، ولكن التاريخية تجمع بينها اخيراً  
في نتيجة واقعية .

دي ميستر والفكر الاعريقي

كان دي ميستر يكره اليونان (التي كانت تزعم ماركس البعيد عن كل  
جمال مشرق) . وكان يقول انها افسدت اوروبا اذ نقلت اليها فكرها المجزىء .  
ولكن كان من الاصح ان يقال ان الفكر الاعريقي كان فكر الوحدة ، تماماً  
لانه لم يكن يستطيع الاستغناء عن الوسطاء ، ولأنه بالعكس كان يكره فكر  
الكلية التاريخية ، هذا الفكر الذي ابتدعه المسيحية ، والذي يهدد اليوم بالقضاء  
على اوروبا بعدما انفصل عن جذوره الدينية . « هل من حكاية أو حماقة أو  
رذيلة ليس لها اسم ، رمز ، قناع اعريقي ؟ »  
فلنهمل فورة المفكر المفرط في الطهر .

ان هذا الاشتمزاز الشديد يعبر في الواقع عن روح الجدة المنقطع عن كل  
العالم القديم ، والمتصل اتصالاً وثيقاً بالاشتراكية المستبدة التي ستخلع عن  
المسيحية قدسيتها لتأجقها بكنيسة غازية .

★

آمال ماركس العلمية

أما آمال ماركس العلمية فمن أصل بورجوازي .

التقدم ، مستقبل العلم ، عبادة التقنية والانتاج ، ... هي اختلافات  
بورجوازية ، اكتسبت شكل عقيدة في القرن التاسع عشر. نلاحظ أن « البيان  
الشيوعي » صدر عام صدور « مستقبل العلم » بقلم رينان. إن هذا الإشهار الأخير  
للعقيدة يبدو مدهشاً جداً في عين القارئ المعاصر ، ولكنه يعطي مع ذلك  
أصح فكرة عن الآمال شبه الصوفية حركها في القرن التاسع عشر ازدهار  
الصناعة وتقدم العلوم المدهش ، هذا الأمل هو أمل المجتمع البورجوازي  
بالذات ، المستفيد من التقدم التقني .

## التقدم ودوره

إن مفهوم التقدم معاصر للثورة البورجوازية وعصر الانوار . ليس من شك في أننا نستطيع أن نجد له ملهين في القرن السابع عشر . ذلك ان خصومه القداسي والمجددين سبق لهم انهم ادخلوا إلى الفكر الأوروبي مفهوم تقدم فني ، وهو غير معقول البتة . وبشكل أكثر جدية ، نستطيع ان نستنبط من فلسفة ديكارت مفهوم علم يتزايد في استمرار . ولكن تورغو كان أول من اعطى تعريفاً واضحاً عن العقيدة الجديدة عام ١٧٥٠ . إن بحثه حول تقدم الفكر البشري يستأنف في الحقيقة تاريخ بوسويه العام . ولكن فكرة التقدم تحل محل المشيئة الربانية . «إن المجموعة الكلية للجنس البشري ، بتناوب في الهدوء والاضطراب ، وفي النعم والمصائب ، تسير دائماً نحو كمال متعظيم ، وان يكن بخطى وثيدة» . انه تفاؤل سيقدم لباب أفكار كوندورسيه<sup>(١)</sup> البلاغية . كان كوندورسيه المفكر الرسمي للتقدم ، وكان يربطه بتقدم الدولة؛ ثم ذهب ضحية شبه رسمية لها ، لأن دولة الأنوار اجبرته على أن يسم نفسه . وأصاب سوريل<sup>(٢)</sup> تماماً إذ قال إن فلسفة التقدم هي بالضبط الفلسفة التي تلائم مجتمعاً ولعماً بالتمتع بالبحبوحة المادية الناشئة عن التقدم التقني . فحينئذ نتأكد أن غدأ ، في نظام العالم بالذات ، سيكون أفضل من اليوم ، يمكننا حينئذ ان نلهو في دعة . وعليه ، بحكم مفارقة عجيبة ، يمكن للتقدم ان يفيد في تبرير الموقف المحافظ . انه حوالة مسحوبة على المستقبل بلا حذر ، ويُمهد إذن لصفاء طوية السيد .

للعبد ، والذوي الحاضر البائس والذين لا عزاء لهم في السماء ، نوكد ان المستقبل ، على الأقل ، هو لهم ...  
المستقبل هو النوع الوحيد من الملكية يتنازل عنه السادة ، بطيبة خاطر ، للعبد .

(١) راجع : تيارات الفكر الفلسفي : من ٢٥٩ - ٢٧٣ - المغرب .

(٢) Les Illusions du Progrès ، أوام التقدم .

التقدم في الفكر الثوري

إنها لأفكار راهنة ، كما نرى . ولكنها كذلك ، لأن الفكر الثوري رجع إلى فكرة التقدم المبهمة والملازمة .

صحيح انه لا يُقصد نفس النوع من التقدم . ذلك ان ماركس يسخر ايما سخوية من تفاؤل البورجوازيين العقلاني ، وإن عقله مختلف ، كما سنرى . ولكن السير الشاق نحو مستقبل منسجم يُعرّف ، مع ذلك ، فكرة ماركس . إن هيجل وماركس هدمما القيم الصورية ، هذه القيم التي كانت تنير لليعقوبيين الطريق المستقيم في هذا التاريخ السعيد . ولكنها استبقيا فكرة السير إلى الأمام ، إنما كانا يخلطانه مع التقدم الاجتماعي ويؤكدان بأنه محتم . فكانا بالتالي يواصلان الفكر البورجوازي في القرن التاسع عشر .

والحقيقة ان تركليل<sup>(١)</sup> ، الذي ناوبه بيكور في الحماسة (علماً بأن هذا الأخير أثر في ماركس) ، كان قد أعلن بأن «نمو المساواة التدريجي والمطرّد هو ، في وقت واحد ، ماضي ومستقبل تاريخ البشر» . وللحصول على الماركسية ، يجب ان نستبدل كلمة مساواة بمستوى الانتاج ، وأن نتصور ان تحولاً كفيلاً يحصل في آخر درجة من الانتاج ، ويحقق المجتمع المنسجم<sup>(٢)</sup>

حنية التطور عند ا . كوت

أما حتمية التطور فيعطي عنها أوغست كونت أدق تعريف في قانون الأحوال الثلاثة<sup>(٣)</sup> الذي وضعه عام ١٨٢٢ . ان استنتاجات أ . كونت تشبه الاستنتاجات التي ستسلم بها الاشتراكية العلمية شياً غريباً . فالوضعية positivisme تُظهر بكثير من الوضوح انعكاسات ثورة القرن التاسع الفكرية التي يُعتبر ماركس أحد ممثليها . وتكمن في أنها جعلت اللجنة والوحى في نهاية

(١) صحافي وسياسي فرنسي (١٨٠٥ - ١٨٥٩)

(٢) الخالي من التناقض - العرب - .

(٣) راجع : نيارات الفكر الفلسفي ، ص ٣١٩ - العرب -

التاريخ ، بينما كانت المعتقدات التقليدية تضعها في بدء العالم . إن العصر  
الوضعاى الذى سبتوه لا محالة العصر' الماورائى والعصر اللاهوتى ، إن هذا العصر  
سبشر إلى مجىء ديانة الإنسانية . هذا وبعرف هنرى غوهيه مشروع  
أ . كونت تعريفاً صائباً إذ يقول إن المقصود بالنسبة إليه هو اكتشاف الإنسان  
لا يحل آثار الإله . كان هدف أ . كونت الأول إحلال النسبى محل المطلق ،  
فى كل مكان ، وسرعان ما تحول هذا الهدف ، بحكم طبيعة الأشياء ، إلى تأليه  
لهذا النسبى ، وإلى تبشير بديانة عالمية وغير علوية فى وقت واحد . وكان  
أ . كونت يعتبر عبادة العقوبيين للعقل تسيقاً للوضعاىة ، ويعتبر نفسه ، بحق ،  
الوارث الحقيقى لثوربى ١٧٨٩ . وكان يواصل ويوسع هذه الثورة بحذفه  
استشراف المبادئ ، وبقامة ديانة النوع بشكل منهاجى . إن عبارته : «إبعاد  
الإله بإسم الدين» ، لم تكن لتعنى شيئاً آخر . وإذ دشن هوى غريباً كُتب له  
النجاح مذ ذاك ، أراد أن يكون بمثابة قديس بولس هذه الديانة الجديدة ، وأن  
يستبدل كثلركة روما بكثلركة باريس . ولا يخفى انه كان يأمل أن يربى فى  
الكاتدرائيات «تمثال الإنسانية المؤلثة» ، على مذبح الإله القديم» . وكان بحسب  
بدقة انه سببشر بالوضعاىة فى كنيسة نوتردام قبل عام ١٨٦٠ . ولم يكن هذا  
الحساب مضحكاً بقدر ما يبدو .

أما نوتردام المحاصرة فبقيت تقاوم دائماً . وإمكن فى أواخر القرن التاسع  
عشر ، بشّر فعلاً بديانة الإنسانية . وكان ماركس أحد أنبيائها ، رغم انه لم  
يقراً مؤلفات أ . كونت دون شك .

ديانة أ . كونت  
وديانة النفر الأخر

لقد أدرك ماركس ان الديانة غير العلوية ، تسمى سياسة . ولكن  
أ . كونت كان يعرف ذلك ، أو على الأقل كان يدرك أن ديانته هي أولاً

عبادة للمجتمع ، وأنها تفترض الواقعية السياسية <sup>(١)</sup> ، وإنكار الحق الفردي ، وإقامة الإستبداد .

مجتمع علماءه كهنته ، يرى فيه ألفا مصرفي وتقني يبسطون سيادتهم على أوروبا مؤلفة من ١٢٠ مليون نسمة ، وحيث تتوحد الحياة الخاصة توحداً ذاتياً مطاقاً مع الحياة العامة ، وسبب يُطاع الحبرُ الأعظم المهيمن على كل شيء طاعةً مطلقةً في الفعل والفكر والقلب ،... هوذا النظام الحيالي بصوره أ . كونت الذي بشر بما يمكن أن يسمى بالديانات الأفقية <sup>(٢)</sup> لرومانا . إنها ديانات طوباوية في الحقيقة ، لأن أ . كونت إذ آمن بسلطان العلم المنبر ، نسي أن يأخذ للأمر أهبة الكاملة ... نسي الشرطة .

تمة آخرون... سيكونون أكثر واقعية ، وستقام ديانة الإنسانية فعلاً ،... إننا على دماء الشر والآلام .

العبء ماركس

إذا أضفنا إلى هذه الملاحظات ان ماركس مدمن الاقتصاديين البورجوازيين بالفكرة الوحيدة التي بتحورها عن الانتاج الصناعي في تطور الانسانية ، وأنه أخذ لِبُـباب نظريته في القيمة عمل عن ريجو ساردو ، اقتصادي الثورة البورجوارية والصناعية ، اعترف لـ . ا بحق التكلم عن نبوءته البورجوازية . إن هذه المقارنات لا تستهدف سوى ان تبين ان ماركس ماركس ، بدلا من أن يكون البداية والنهاية <sup>(٣)</sup> - كما يورد ماركس-كسينو محررا المشركين ، هو بالعكس من طينة البشر : إنه وارث قبل أن يكون السباق المبشر . أما عقيدته التي أراد لها أن تكون واقعية ، فقد كانت كذلك في الحقيقة ، إننا في

(١) «كل ما ينمو نمواً عضوياً هو شرعي لا محالة ، سلال فرة من الزمن» .

(٢) يقصد الديانات غير العلوية ، غير الإستشرالية العرب

(٣) الماركسية هي بنظر إيدانوف «فلسفة معتلة اختلافاً نوعياً عن كل المذاهب السابقة» . الأمر الذي يمي : إما ان الماركسية مثلاً ليست فلسفة ديكرت . وهذا مـ لا يمكن أحد في انكاره ، أو أنها جوهرياً غير مدينة لفلسفة ديكرت بنه ، وهذا غير معقول .



عصر ديانة العلم ، والتطورية الداروينية ، والآلة البخارية ، والصناعة النسيجية .  
ولكن بعد مائة عام اكتشف العلم النظرية النسبية ، والتقلب والصدفة ،  
ووجب على الاقتصاد ان يدخل في حساب الكهرباء والانتاج الذري ...  
ان فشل الماركسية الحاصلة في دمج هذه الاكتشافات المتتالية هو أيضاً فشل  
التفاؤل البورجوازي في عصر ماركس .

ويدفع إلى السخرية من طموح الماركسيين إلى إبقاء حقائق ، ترجع إلى مائة  
عام ، في حالة الجرد ، دون أن تكف عن أن تكون حقائق علمية . إن آمال  
القرن التاسع عشر ، سواء أكانت ثورية أم بورجوازية ، لم تقاوم التطورات  
المتتالية في هذا العلم وفي هذا التاريخ اللذين ألهتهما بدرجات مختلفة .

## ٢ - النبوءة الثورية

الجدلية عند ماركس وعند هيغل

ان نبوءة ماركس هي كذلك ثورية في مبدئها . بما ان كل الحقيقة الواقعة  
الانسانية ناشئة عن علاقات الانتاج ، لذلك فالصيرورة التاريخية ثورية لان  
الاقتصاد ثوري . عند كل مستوى انتاجي ، يولد الاقتصاد تناقضات تحطم  
المجتمع المقابل لها ، لصالح مستوى انتاجي اعلى . والرأسمالية هي آخر مراحل  
الانتاج هذه لانها 'توجد' الشروط التي 'يجلث' فيها كل تناقض ، ولا يعود هناك  
اقتصاد . يومئذ يصبح تاريخنا فترة ما قبل التاريخ . هذا الوصف النظري  
هو ، من زاوية اخرى ، وصف هيغل . انما تؤخذ الجدلية من زاوية الانتاج  
والعمل ، بدلاً من ان تؤخذ من زاوية الروح . ليس من شك في ان ماركس  
لم يتكلم قط شخصياً عن المادية الجدلية . بل ترك لورثته مهمة تمجيد هذا  
المسخ المنطقي . ولكنه قال في الوقت نفسه ان الحقيقة الواقعة جدلية وانها  
اقتصادية .

الحقيقة الواقعة صيرورة دائمة تقطعها صدمة خصية ، هي صدمة تناقضات

'تحل' كل مرة في تركيبة 'مختصة عليا، تولد هي بالذات نقضها، وتدفع عجلة التاريخ الى الامام ثانية. فما أكد هينغل عن الحقيقة الواقعة السائرة نحو الروح، يؤكد ماركس عن الاقتصاد السائر نحو مجتمع بلا طبقات. كل شيء هو هو، ونقيضه في وقت واحد. ويدفعه هذا التناقض الى ان 'يصبح شيئاً آخر. والرأسمالية، لانها بورجوازية، تنكشف عن الثورة وتمهد للشيوعية.

نقد مادية ماركس

تكمُن أصالة ماركس في انه أكد ان التاريخ دبالكتيك واقتصاد في وقت واحد. اما هينغل فأكد ان التاريخ مادة وروح في وقت واحد. على كل، ما كان في وسع التاريخ ان يكون مادة الا بمقدار ما هو روح، والعكس بالعكس. ان ماركس ينكر الروح كجوهر اخير، ويؤكد المادية التاريخية. ويمكننا، مع برديف، أن 'نظهر في الحال استحالة توفيق الجدلية والمادية. فلا يمكن ان تكون هناك جدلية سوى جدلية الفكر. ولكن المادية بالذات هي مفهوم 'مبهم. فلتكوين هذه الكلمة فقط، يجب ان نقول سابقاً ان هناك في العالم شيئاً ما اكثر من المادة. وينطبق هذا النقد بالأحرى على المادية التاريخية. فالتاريخ، بالضبط، يتميز عن الطبيعة في انه يحولها بوسائط الارادة والعلم والهوى. ليس ماركس اذن بالمادي البحت، وذلك للسبب البسيط التالي: المادية البحتة المطلقة لا وجود لها. بل وصلت به الحال انه اعترف بما يلي: ان كان السلاح يحقق النصر للنظرية، فإن النظرية تستطيع ايضاً ان تدفع الى حل السلاح. وبشكل اصح، يمكن ان نسبي موقف ماركس تقيدية تاريخية. انه لا ينكر الفكر، بل يفترض انه يتحدد تحديداً مطلقاً بالحقيقة الواقعة الخارجية. «اما انا فأعتقد ان حركة الفكر ليست سوى انعكاس الحركة الواقعية محوَّلة ومنتقلة الى دماغ الانسان». ليس من معنى لهذا التعريف، الفج بوجه خاص. فكيف وبمّ يمكن لحركة خارجية ان 'تنقل الى دماغ الانسان». اصف الى ذلك ان هذه الصعوبة ليست شيئاً بجانب الصعوبة التي

تكن في تعريف «انتقال» هذه الحركة ، بعدئذ . ولكن ماركس كان ذا فلسفة حاصرة مقيدة . اما مراده فيمكن ان يُعرف على مستويات اخرى .

نقد التبعية الاقتصادية

يعتقد ماركس ان الانسان ليس سوى تاريخ ، وخاصة ، تاريخ وسائل الانتاج . والحقيقة انه يلاحظ ان الانسان يتميز عن الحيوان في انه ينتج وسائل معاشه . فاذا لم يأكل اولاً ، واذا لم يلبس ولم يأو ، فانه لا يوجد . ان اولوية العيش هذه تشكل العامل المحدد الاول . وما يحول في ذهنه من تفكير بسيط وقتئذ ، هو على علاقة مباشرة مع هذه الضرورات التي لا بد منها . بعدئذ يثبت ماركس ان هذه التبعية ثابتة وعتمة . « ان تاريخ الصناعة هو الكتاب الذي نطالع فيه ملكات الانسان الاساسية » . ويكمن تعميم ماركس الشخصي في انه استخلص من هذا التأكيد . المقبول في الخلاصة - ان التبعية الاقتصادية وحيدة وكافية ؛ الامر الذي يحتاج الى اقامة الدليل . يمكننا ان نسلّم بأن العامل المحدد الاقتصادي<sup>(١)</sup> يقوم بدور رئيسي في تكوين الأفعال والأفكار البشرية ، دون ان نخلص مع ذلك ، مثلما يفعل ماركس ، الى القول إن تمرد الألمان على لوبليون يُفسّر فقط بنقص السكر والقهوة . . على كل ، إن التقيدية البحتة هي أيضاً غير معقولة . لو لم تكن كذلك ، لكفى تأكيد صحيح واحد كي نضمد من نتيجة الى أخرى ونصل الى الحقيقة التامة . بما ان ذلك غير كائن ، لذلك إما اننا لم نتفوه قط بتأكيد واحد صحيح ، حتى التأكيد الذي يجعل التقيدية مبدأ ؛ وإما اننا قد نؤكد تأكيداً صحيحاً ، إنما دون نتيجة ، وحينئذ تكون التقيدية باطلة . ولكن ، لكي يقوم ماركس بمثل هذا التبسيط الاعتباري ، كانت له مبرراته البعيدة عن المنطق البحت .

«الاجتماعي» وإزاحة الاستشراق

ان جعل المحدد الاقتصادي في أساس الانسان ، معناه تليخيص الانسان في

(١) النظرية العامة في الاقتصاد . تأليف ج. م. كينز ، ترجمة : نهاد رضا - الحرب -

## علاقاته الاجتماعية .

الانسان المنفرد لا وجود له . هوذا الاكتشاف المؤكد الذي اهتدى اليه القرن التاسع عشر . حينئذ استنتاج اعتباطي يقود الى القول ان الانسان لا يشعر بأنه منفرد في المجتمع إلا لأسباب اجتماعية . والحقيقة اذا وجب تفسير الذهن المنفرد ، بشيء موجود خارج الانسان ، أصبح هذا الاخير على طريق الاستشراف . أما «الاجتماعي» فلا فاعل له سوى الانسان . فاذا أمكننا أيضاً أن نؤكد ان «الاجتماعي» هو في الوقت نفسه صانع الانسان ، اعتقدنا اننا عثرنا على التفسير التام الذي يسمح بازاحة الاستشراف . حينئذ يصبح الانسان «عامل وفاعل تاريخه الخاص ، كما يريد ماركس . ان نبوءة ماركس ثورية . ذلك انه ينهي حركة الإنكار التي بدأتها فلسفة الانوار . يعقوبيون يهدمون استشراف الإله الشخصي ، ولكنهم يستبدلونه باستشراف المبادئ . أما ماركس فيقيم الإلحاد المعاصر بتهديمه أيضاً استشراف المبادئ . في عام ١٧٨٩ استبدل الدين بالعقل . ولكن هذا العقل بالذات استشرافي» ، في ثبوته . إن ماركس يهدم استشراف العقل بصورة أتم مما فعل هيغل ، ويرمي به في التاريخ . لقد كان عقلاً منظماً ، فاذا به غازياً . ويذهب ماركس أبعد من هيغل فيتظاهر بأنه يعتبر هذا الاخير كفيلسوف مثالي (مع العلم بأن هيغل لم يكن كذلك ، أو على الأقل لم يكن في مثاليته أكثر من ماركس في ماديته) وذلك بمقدار ما ترجع سيطرة الروح قيمة ما فوق-تاريخية . إن كتاب ماركس « رأس المال» يستأنف ديالكتيك السيادة العبودية<sup>(١)</sup> ، ولكنه يجعل الاستقلال الذاتي الاقتصادي محل الشعور بالذات ، ويستبدل سيطرة الروح المطلق النهائية بمجيء الشيوعية . «الإلحاد هو مذهب تأليه الانسانية قائمٌ بواسطة إلغاء الدين ، والشيوعية هي مذهب تأليه الانسانية قائمٌ بواسطة إلغاء الملكية الخاصة » . للانحراف<sup>(٢)</sup> الديني والانحراف الاقتصادي نفس المصدر . ولا تتفاح من الدين

(١) بحث هذه النقطة في الصفحات السابقة العرب

(٢) يقصد المعنى العلمي . (الاعتلاف ، الصيغة) العرب

إلا بتحقيق حرية الانسان المطلقة إزاء محدّداته المادية .  
الثورة تتوحد توحداً ذاتياً مع الاحاد وسيطرة الانسان .

فضح اليم البورجوازية

لهذا السبب 'دفع' ماركس الى التركيز على العامل الاقتصادي والاجتماعي .  
وكان أجدى مساعيه إظهار الحقيقة الواقعة المتخفية وراء القيم الصورية التي كانت  
تتشدد بها بورجوازية عصره . ولا تزال نظريته في التعمية مقبولة ، لأنها مقبولة  
بوجه العموم والحق يقبل ، وتنطبق ايضاً على التعميات الثورية . فأما الحرية التي  
كان 'يجلها السيد تير' (١) ، فكانت حرية الامتياز الموّطد بالشرطة . وأما  
الأسرة التي كانت تشيد بهم - الصحف المحافظة ، فكانت تستمر قائمة على حالة  
اجتماعية أصبح الرجال والنساء فيها ينزلون داخل المناجم ، نصف عراة ، مربوطين  
بنفس الحبل . وأما الاخلاق أخيراً فكانت تزدهر على البغاء العالي . فلأن تكون  
متطلبات الفضل ومستلزمات العقل قد سخرها رباؤ مجتمع نأفه جشع في سبيل  
غايات أنانية ، فتلك مصيبة 'عمل' ماركس ، المهذب الذي لا مثيل له ، على  
التشهير بهما تشهيراً قوياً لم 'يعرف' قبله . وقد جر هذا التشهير الساخط الى  
تجاوزات أخرى تتطلب تشهيراً آخر . ولكن ، قبل كل شيء ، يجب ان  
نعرف وان نبين ، أين 'ولد' هذا التشهير ، في دماء العصيان الذي 'سحق' عام  
١٨٣٤ ، في مدينة ليون ، وعام ١٨٧١ في قسوة اخلاقي مرساي الدينية .  
'الانسان الذي لا يمتلك شيئاً ، ليس اليوم شيئاً' . لئن يكن هذا القول باطلاً ،  
في الحقيقة ، فلقد كان صحيحاً تقريباً في مجتمع القرن التاسع عشر ، المتفائل .  
ان الانحطاط الزائد الناجم عن اقتصاد البجوحة ، أجبر ماركس على ان يجعل  
العلاقات الاجتماعية والاقتصادية في المقام الأول ، وعلى أن يزيد من الإشادة  
بنبوءته بسيطرة الانسان .

(١) رحل دولة وهؤرح فرنسي. عين رئيساً للجمهورية عام ١٨٧١ . يقصد في النص : الحرية  
البورجوازية المرعب -

حينئذ نفهم بشكل افضل تعلييل ماركس للتاريخ تعليلاً اقتصادياً محضاً .  
فاذا كانت المبادئ باطلة ، فان حقيقة البؤس والعمل الراقمة وحدها هي الصحيحة .  
واذا استطعنا بعدئذ ان نثبت ان هذه الحقيقة الراقمة تكفي لتفسير ماضي  
الانسان ومستقبله ، فستهدم المبادئ الى الأبد مع المجتمع المستفيد منها ،  
المعتر بها .

وهذا ما سيشرع به ماركس .

نشوء التناقضات ونهايتها

'ولد الانسان مع الانتاج ومع المجتمع . وسرعان ما أدى عدم تكافؤ  
الأراضي ، والتعدين السريع في وسائل الانتاج ، وتنازع البقاء ، نقول : سرعان  
ما أدى ذلك الى تفاوتات اجتماعية تباورت في تناقضات بين الإنتاج والتوزيع ،  
وبالتالي في صراع بين الطبقات . هذه النزاعات وهذه التناقضات هي محركات  
التاريخ . وقد كان الرق القديم والقنانة الاقطاعية مرحلتين في طريق طويل  
أفضى الى الصناعة الحرفية في العصور الكلاسيكية (١) حيث كان المنتج صاحب  
وسائل الانتاج . آنذاك ، تطلب افتتاح الطرق العالمية واكتشاف اسواق  
تصريف جديدة انتاجاً أقل اقلبية (٢) . وقد بشر التناقض القائم بين اسلوب  
الانتاج وضرورات التوزيع الجديدة ، بنهاية نظام الانتاج الزراعي والصناعي  
الصغير . وان الثورة الصناعية واختراع الآلات البخارية والتنافس على اسواق  
التصريف ، نقول ان هذه الامور أدت الى نزاع الملكية عن صغار الملاكين والى  
بناء مصانع كبيرة . حينئذ تركزت وسائل الانتاج في ايدي الاشخاص الذين  
تمكنوا من شرائها . ولم يعد في حوزة الشغيلة ، المنتجين الحقيقيين ، سوى قوة  
ذراعهم التي يستطيعون بيعها لأصحاب رؤوس الأموال . فالرأسمالية تتحدد ادن  
بالفصل بين المنتج ووسائل الانتاج . وعن هذا التناقض ستصدر سلسلة من النتائج

(١) يقصد المرحلة التي تلت الفرون الوسطى .

(٢) راجع : اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط ، تأليف هوبير ديروفيل ، ترجمة نهاد رضا

سلسلة : زدي علماً ، منشورات عويدات - المغرب -

المحنة التي ستسمح لماركس بأن يبشر بنهاية التناقضات الاجتماعية .

لأول وهلة ، وهذا ما يجب ان نلاحظه منذ الآن ، ليس من سبب لأن نرى مبدأ صراع الطبقات الجدلي والثابت برسوخ ، يكف فجأة عن ان يكون مبدأ صحيحاً . انه صحيح دائماً ، او انه لم يكن قط صحيحاً .

يقول ماركس ان الطبقات ستزول بعد الثورة ، مثلما زالت الارماط بعد

١٧٨٩ ... (١)

ولكن الأرماط اختفت ولم تختف الطبقات ... ولا شيء بين لنا ان الطبقات لن تتخلى عن مكانها لتناقض اجتماعي آخر . مع هذا كله ، يصح من لباب النبوءة الماركسية في هذا التأكيد .

#### الصورة الوصفية الماركسية

إن الصورة الوصفية الماركسية معروفة . فبعد آدم سميت وريكاردو ، يُعرف ماركس قيمة كل سلعة، بكيفية العمل المنتجة لهذه السلعة . وان كمية العمل يبيعها العامل للرأسمالي ، هي بالذات سلعة تُعرف قيمتها بقيمة السلع الاستهلاكية اللازمة لمعاشه . فاذا يشتري الرأسمالي هذه السلعة ، يلتزم اذن بدفع الأجر الكافي كي يتمكن العامل من التغذية والبقاء . ولكنه في الوقت نفسه يتلقى الحق في تشغيل العامل أطول زمن ممكن . وهو يستطيع أن يفعل ذلك مدة طويلة ، واكثر بما هو لازم لتأمين معاش العامل . فاذا اشتغل هذا الأخير اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، وكانت نصف هذه المدة كافيلاً لانتاج قيمة معادلة لقيمة السلع الاستهلاكية اللازمة لمعاشه ، فان الساعات الست الباقية ساعات غير مدفوعة الأجر . انها قيمة فائضة ، وتشكل ربح الرأسمالي . فصلحة هذا الأخير تقتضي اذن إطالة ساعات العمل الى اقصى حد ، او - حينها لا يعود قادراً على ذلك - ان يزيد مردود العامل الى اقصى حد . اما المطلب الأول فمسألة شرطة

(١) يقصد ان الطبقات ستزول بعد حدوث الثورة البروليتارية، مثلما زالت الارماط (كقولنا رمط النبلاء ، رمط الكهنوت) بعد الثورة البورجوازية عام ١٧٨٩ . - الحرب -

وظلم . وأما المطلب الثاني فمسألة تنظيم عمل ، ويؤدي الى تقسيم العمل أولاً ،  
وبعدئذ الى استعمال الآلة ، الأمر الذي يعري العامل من إنسانيته . هذا وان  
المنافسة على الأسواق الخارجية ، والحاجة الى توظيفات متزايدة في المدمات  
الجديدة 'تولد' ظاهري التمرجيز والتراكم . ذلك ان كبار الرأسماليين  
يستطيعون مثلاً ان يبيعوا منتجاتهم بأسعار خاسرة خلال زمن طويل ، ويتمكنون  
بالتالي من إزاحة صغار الرأسماليين . كما ان جزءاً من الأرباح يُوظف  
في آلات جديدة ، وينزاع بالتالي في القسم الثابت من رأس المال . هذه الحركة  
المزدوجة 'تسارع' أولاً في خراب الطبقات المتوسطة التي تنضم الى البروليتاريا ،  
وتتركز بعدئذ الثروات التي ينفرد العمال بإنتاجها . . . في أيدي متناقصة العدد .  
وعليه ، تتزايد الطبقة العاملة كلها تزايد حرمانها . ولا يعود رأس المال يتركز  
الا في أيدي نفر من السادة يقرم سلطانهم المتعاظم على السرقة . وإذ يززع  
هؤلاء السادة 'تعاقب' الأزمات ، ويتغلب عليهم ما في النظام من تناقضات ،  
يصبحون عاجزين حتى عن تأمين معاش عبيدهم الذين يصيرون معلقين بمؤسسات  
الإحسان العامة والخاصة .

ثم يأتي يوم ، لا محالة ، 'يصبح فيه جيش العبيد المضطهدين امام حفنة من  
السادة السافلين . هذا اليوم هو يوم الثورة .

«ان انهيار البورجوازية وانتصار البروليتاريا عتمة على حد سواء» .

لدخل مفهومين جديدين

إن هذا الوصف الشهير لا يقصر نهاية التناقضات . فبعد انتصار الطبقة العاملة ،  
قد يتدخل تنازع البقاء و'يولد' تناقضات جديدة . ثمة مفهومان يتدخلان والحالة  
هذه ، أحدهما اقتصادي : نمائل تطور الانتاج وتطور المجتمع ، والآخر مذهبي  
بحث : رسالة البروليتاريا . ويلتقي هذان المفهومان فيما يمكن تسميته : قدرة  
ماركس الايجابية .



تطور الاقتصاد ودور البورجوازية

إن التطور الإقتصادي الذي يركز رأس المال في أيدي قليلة ، هو بالذات يجعل التناقض في وقت واحد أشد قسوة ووهياً بوجه ما . وحينما يبلغ تطور القوى الانتاجية مستوى الذروة ، يبدو وكأن دفعة واحدة تكفي لتصبح الطبقة العاملة المالكة الوحيدة لوسائل الانتاج ، علماً بأن هذه الوسائل سبق لها ان اغتصبت من الملكية الخاصة وتمركزت في كتلة واحدة ضخمة أصبحت بعد الآن مشتركة . حينما تكون الملكية الخاصة متمركزة في يد مالك واحد ، لا تكون مفصولة عن الملكية الجماعية إلا بشخص واحد . والنهاية المحتمة للرأسمالية الخاصة نوع من رأسمالية الدولة . يكفي بعدئذ أن توضع في خدمة الجماعة كي ينشأ مجتمع يختلط فيه رأس المال والعمل ، ويولد كلاهما بنفس الحركة الوفرة والعدالة .

مراعاة لهذه النهاية الميمونة ، أشاد ماركس دائماً بالدور الثوري الذي تقوم به البورجوازية بصورة لاشعورية ، في الحقيقة . لقد تكلم عن «الحق التاريخي» للرأسمالية ، ينبوع التقدم ومصدر البؤس في وقت واحد . إن مهمة رأس المال التاريخية وتبريره ، في نظر ماركس ، تهيئة شروط أسلوب انتاجي أعلى . هذا الأسلوب الانتاجي ليس ثورياً بالذات ، وإنما سيكون فقط تتويجاً للثورة . إن أسس الانتاج البورجوازي وحدها هي الثورية . وحينما يؤكد ماركس ان الإنسانية لا تطرح على نفسها إلا ألغازاً تستطيع ان تحلها ، يبين في الوقت ذاته ان حل المشكلة الثورية موجود أصلاً في النظام الرأسمالي نفسه ، لذلك يوصي بتحمل الوضع البورجوازي وبالمساعدة على بنائه ، بدلاً من العودة إلى انتاج أقل تصنيعاً . إن الطبقة العاملة «في رسعها ومن واجبها أن تقبل بالثورة البورجوازية كشرط للثورة العمالية» .

لماذا دافع ماركس عن ريكاردو ؟

ماركس هو إذت نبي الانتاج . ويُسمح لنا بالاعتقاد انه عند هذه النقطة

المعينة ، لا في غيرها ، قدم المذهب على الحقيقة الراقعة . وهو لم يكن قط عن الدفاع عن ريكاردو ، اقتصادي رأسمالية مانشيستر ، ضد أولئك الذين انهوه بأنه يريد الانتاج الانتاج ( « و بحق » كما يقول ماركس ) ، ودوناً اكتشافات بالبشر . إن ماركس يجيب قائلاً بنفس خفة هيغل : « هذا بالضبط مزية ريكاردو » . والحقيقة ما قيمة التضحية بالبشر اذا كانت هذه التضحية ستفيد في خلاص الإنسانية كلها ! إن التقدم يشبه « هذا الإله الوثني الرهيب الذي ما كان ليريد أن يتجرع السلسيل إلا في جمجمة الأعداء المقتولين » . وليكنه ، على الأقل ، تقدم " إن يولد العذاب ، بعد الرؤيا الصناعية ، يوم زوال التناقض .

هيغل وسمان الصالح العام

وايكن اذا كانت الطبقة العاملة لا تستطيع أن تتجنب هذه الثورة ، ولا أن تتجنب ملك وسائل الانتاج ، فهل ستعرف على الأقل كيف تستفيد منها اصالح الجميع ؟ أين الضمان ان لن تظهر في صحنها بالذات ، أرهاط وطبقات وتناقضات ؟ الضمان عند هيغل . فالطبقة العاملة مجبرة على ان تستخدم ثروتها للاصالح الكلي العام . انها ليست البروليتاريا ، وانما هي الكلي العام نقيض الجزئي الخاص ، أي : نقيض الرأسمالية . إن تناقض الرأسمال والبروليتاريا آخر مرحلة في الصراع بين الخاص والعام ، كما تحركه مأساة السيد والعبد التاريخية وفي نهاية الوصف التصوري الذي يعطيه ماركس ، تكون الطبقة العاملة قد ضمت إليها كل الطبقات ولم تترك خارجها سوى حفنة من السادة ، بمثلي الجريمة الصريحة ، الذين ستفنيهم الثورة بعدل و صواب .

زوال العددات ، وتأكيذ الذات

أضف إلى ذلك ان الرأسمالية إذ تسير بالعمل إلى منتهى الحرمان ، تحرره تدريجياً من كل العوامل المحددة التي كان في وسعها أن تفصله عن سائر البشر . ليس في حوزته شيء ، ... لا ملكية ، لا أخلاق ، لا وطن . انه إذن لا يتمسك بأي شيء ، لا يتمسك إلا بالنوع الوحيد الذي أصبح هو بعد الآن

بمنه المجرّد الحقود. إنه يؤكّد كل شيء والجميع، إذ يؤكّد ذاته؛ لا لان العمال آلهة، وإنما... لأنهم تردوا إلى أبشع وضع. «إن العمال الذين حرّموا حرماناً تاماً من تأكيد شخصيتهم هم وحدهم قادرون على تحقيق تأكيد ذاتهم تأكيداً تاماً» .

#### رسالة البروليتاريا

هذه هي رسالة الطبقة العاملة : تفجير منتهى الكرامة من منتهى الخزي . إنها ، بعدائها ونضالها ، المسيح الإنساني الذي يكفر عن خطيئة الانحراف الجماعية . إنها حاملة الإنكار التام أولاً ، والمبشرة بالتأكيد النهائي بعدئذ . «لا يمكن أن تتحقق الفلسفة دون زوال البروليتاريا ، ولا يمكن أن تتحرر البروليتاريا دون تحقق الفلسفة» . وأيضاً : «لا يمكن أن توجد البروليتاريا إلا على صعيد التاريخ العالمي... ولا يمكن أن يوجد العمل الشيوعي إلا بوصفه حقيقة واقعة تاريخية عالمية» . ولكن هذا المسيح هو في الوقت نفسه ذو انتقام ، وينفذ بنظر ماركس - الحكم الذي قضته الملكية الخاصة على نفسها . «كل المنازل في أيامنا هذه مرسومة بصليب أحمر غامض . القاضي هو التاريخ ، ومنفذ الحكم هو العامل» . إن القضاء محتّم إذن . فالأزمات ستتلو الأزمات<sup>(١)</sup> وستتفاقم حرمان الطبقة العاملة ، وسيتزايد عددها حتى وقوع الأزمة العامة حيث سيختفي عالم التبادل<sup>(٢)</sup> ، وسيكفّ التاريخ بمنتهى العنف عن أن يكون عنيفاً . حينئذ سيتحقق ملكوت الغابات .

#### منطق الموقف القدري

إننا ندرك أن يكون قد أمكن لبعض الماركسيين السير بهذه القدرية (كما حدث للفكر الهينلي) إلى نوع من السلبية السياسية ، فاعتقد كAUTSكي مثلاً، أن العمال عاجزون عن إحداث الثورة عجزاً البورجوازيين عن منعها . حتى لينين الذي سيصطفي الوجه الإيجابي في العقيدة ، كتب عام ١٩٠٥ في أسلوب بات :

- (١) تكهن ماركس بمحدوثها كل عشرة أعوام ، أو أحد عشر عاماً . ولكن دورية الدورات «ستتناقص بالتدريج» .
- (٢) يقصد العالم الرأسمالي .

«إن التماس خلاص الطبقة العاملة في شيء آخر غير نمو الرأسمالية الضخم ، ضرب من التفكير الرجعي» . الطبيعة الاقتصادية ، عند ماركس ، لا تقفز قفزا ، ويجب تجنبها عدم المرور في مراحل . من الخطأ تماماً أن نقول إن الاشتراكيين الإصلاحيين ظلوا أميين لماركس في هذه النقطة . فالقدريّة ، بالعكس ، تزيح كل الإصلاحات بمقدار ما تلطف هذه الإصلاحات وجه التطور المقجع ، وبالتالي بمقدار ما قد تؤخر النهاية المحتمة . إن منطق مثل هذا الموقف يقتضي الموافقة على كل ما من شأنه زيادة بؤس العمال .

يجب أن نحرم العامل من كل شيء ... كي يتمكن ذات يوم من الحصول على كل شيء .

دكتاتورية العمال وبجيء المكوت

هذا لا يمنع أن ماركس أحس بخطورة هذه السلبية . فالسلطة لا تنتظر ... وإلا فإنها تنتظر إلى ما لا نهاية له . ثمة يوم يحل ، ويجب استلام السلطة فيه . هذا اليوم هو الذي يبقى ساجداً في وضوح مريب بالنسبة إلى كل من يقرأ كتب ماركس . فهذا الأخير ما فتىء يناقض نفسه حول هذه النقطة . لقد لاحظ أن المجتمع «مجبور» تاريخياً على المرور بدكتاتورية العمال . أما فيما يتعلق بطابع هذه الدكتاتورية ، فتعريفاته متناقضة<sup>(١)</sup> . من المؤكد أنه ذم الدولة بممارات واضحة ، قائلاً إن وجودها ووجود العبودية متلازمان . ولكنه احتج على ملاحظة - وهي ملاحظة أريية مع ذلك - باخونين الذي رأى أن مفهوم «دكتاتورية مؤقتة» يخالف ما هو معلوم عن الطبيعة الإنسانية . والحقيقة أن ماركس اعتقد أن الحقائق الجدلية أعلى من الحقائق النفسانية . فماذا قالت الجدلية ؟ لقد قالت إن «إلغاء الدولة ليس له من معنى إلا عند الشيوعيين

(١) إن ميشيل كولينيه في كتابه : مأساة الماركسية ، أظهر لدى ماركس ثلاثة أشكال لاستلام البروليتاريا زمام السلطة : جمهورية بقوية في البيان الشيوعي ، دكتاتورية متبذة في كتابه : ١٨ رومير (من التعويم الثوري) ، حكومة اتحادية ومنتشرة في كتابه : الحرب الأهلية في فرنسا .

كنتيجة محتمة لزوال الطبقات التي يفضي زوالها آلياً إلى زوال الحاجة إلى سلطة منظمة تمتلكها طبقة من أجل اضهاد «الطبقة الأخرى» . إن حكم الأشخاص ، بحسب التعبير المقرر ، سيفسح المجال حينئذ لإدارة الأشياء. فالجدلية كانت صريحة إذن ، ولم تبرر وجود الدولة البروليتارية إلا خلال الزمن اللازم لتحطيم الطبقة البورجوازية أو لدبجها . ولكن ، لسوء الحظ ، كانت النبوءة والقدرية تسمحان بتعليقات أخرى . فاذا كان مجيء الملكوت مؤكداً ، فما قيمة السنين ؟ ليس العذاب أبداً بالموت بالنسبة إلى ذلك الذي لا يؤمن بالمستقبل . ولكن مائة عام تكون سريعة الزوال بنظر ذلك الذي يؤكد مجيء المجتمع النهائي في العام الذي يلي هذه المدة . في توقع النبوءة ، لا أهمية لشيء . على كل ، ما أن تزول الطبقة البورجوازية حتى يقيم العامل سلطان الإنسان العالمي في ذروة الانتاج ، بحكم منطق التطور الانتاجي بالذات . فما هم ان يكون ذلك بواسطة الدكتاتورية والعنف ؟ في أورشليم<sup>(١)</sup> الصاخبة بالآلات العجيبة ، من ذا الذي سيتذكر صرخة الذبيح ؟

الأمل بالمستقبل  
ولسيان المشكلات

إن العصر الذهبي المرجأ الى نهاية التاريخ والمتطابق مع الرؤيا ، يُبرر إذن كل شيء . يجب ان نؤمن النظر في طموح الماركسية العجيب ، وان نقدر بشارتها المفرطة ، كي ندرك أن مثل هذا الأمل يجبر على نسيان مشكلات تبدو حينئذ ثانوية . « إن الشيوعية بوصفها تملكاً حقيقياً للجوهر الانساني من قبل الانسان وللانسان ، وبوصفها عودة الانسان الى ذاته بصفة انسان اجتماعي ، أي بصفة انسان إنساني ، عودة تامة ، واعية ، حافظة لكل غنى الحركة الداخلية ، ... نقول : إن هذه الشيوعية ، بما أنها طبيعية تامة ، لذلك تتطابق مع مذهب تأليه الانسانية . انها النهاية الحقيقية للنزاع بين الانسان

(١) سنشرح معنى هذه الكلمة في الصفحات القادمة . - المغرب -

والطبيعة ، بين الانسان والانسان ... بين الجوهر والوجود ، بين التشيؤ وتأكيذ الذات ، بين الحرية والضرورة ، بين الفرد والنوع . إنها تحمل لغز التاريخ ، وتعلم أنها تحله . اللغة وحدها قد تدعي ها أنها علمية . أما فيما يتعلق بالمضمون فما الفارق مع فورييه الذي يبشر بـ « الصحاري الحصبية ، وماء البحر الصالح للشرب وبطعم البنفسج ، والشباب الدائم... » ؟ اتنا 'نبشر بشباب البشر الدائم في لغة منشور بابوي . الانسان بلا إله . - اتنا يروم ويأمل ، اللهم إلا ملكوت الانسان ؟ إن هذا يفتر رعشة التلامذة . قال أحداهم : « في مجتمع نخلي من القلق ، يسهل على المرء نسيان الموت » . مع ذلك وهذه هي الادانة الحقيقية لمجتمعنا - فالقلق الشديد من الموت ترفيمس العاطل اكثر بكثير مما يمس العامل المختق بعمله الخاص . ولكن كل اشتراكية نظام طوباوي ، وفي طبيعتها الاشتراكية العلمية . إن النظام الطوباوي يستبدل الإله بالمستقبل . وحينئذ يوحد توحيداً ذاتياً بين المستقبل والاخلاق ، والقيمة الوحيدة هي ما يخدم هذا المستقبل . لذلك كان دائماً تقريباً فاسراً ومستبدأ (١) .

إن ماركس ، بوصفه مفكراً طوباوياً ، لا يختلف عن اسلافه الرهيين ، وان قسماً من تعاليمه يبرر خلفاءه .

#### المطلب الاخلاقي عند ماركس

لا جرم ، 'حق للمرء ان يركز على المطلب الاخلاقي الموجود في الحلم الماركسي (٢) . يجب ان نقول قبل تفحص فشل الماركسية ، ان هذا المطلب يشكل عظمة ماركس الحقيقية . فقد جعل العمل وحرمانه وكرامته التامة في صميم تأمله . ووقف ضد تحويل العمل الى سلعة ، والعامل الى غرض . وذكر أصحاب الامتيازات ان امتيازاتهم ليست الهية ، وان الملكية ليست حقاً خالداً . وافترض سوء الطوية لدى أولئك الذين لم يكن لهم الحق في ان يحافظوا على

(١) ان ورييل ، نابوف ، غودوين ، يصمون في الحقيقة بمنعمات محاكم تعئيس .

(٢) ماكسييليان روييل : صععات مختارة من أصل اخلاق اشتراكية .

الملكية في طابنينة . وشهر ، في عمق لا يجارى ، بطبقة لا تكمن جريبتها في انها نالت السلطة ، بقدر ما تكمن في انها استخدمت هذه السلطة لغايات يجتمع تافه ، محروم من النبل الحقيقي . ونحن مدينون له بهذه الفكرة التي تسبب ياس عصرنا -- ولكن اليأس هنا خير من كل أمل - والقائلة : حينما يكون العمل حرماناً ، فليس بالحياة ، مع انه يغطي كل ايام الحياة . فعلى الرغم من مزاعم هذا المجتمع ، من دا الذي يستطيع ان ينام فيه في سكينه ، بعد ما علم انه يستمد متعمه التافهه من كد ملايين النفوس الميتة ؟ فلئن طالب ماركس للعامل بالنعنى الحق ، وهو غير غنى المال بل غنى التفرغ والخلق ، فإنما طالب في الحقيقة ورغم المظاهر بصفة الانسان . وبذلك - ويمكن التشديد على هذا القول -- لم يرد الذل الاضافي الذي 'فرض على الانسان بإسحه . نمة جملة قالها - واضحة وحاسمة للمرة الاولى - 'تتكر الى الأبد على تلامذته المنتصرين العظمة والانسانية اللتين تميز بهما : «الهدف الذي يحتاج الى وسائل غير صحيحة ، ليس بالهدف الصحيح» .

#### الطوباوية وخدمة الكلية

ولكن مأساة نيتشه تتكرر هنا<sup>(١)</sup> . فالطموح والنبوة خيران وعامان . اما العقيدة فكانت حاصرة مقيدة . وان حصر كل قيمة بالتاريخ وحده كان يسمح بأقصى النتائج . لقد اعتقد ماركس ان غايات التاريخ ، على الاقل ، ستكشف عن الاخلاق والعقلانية . وفي هذا يكمن نظامه الطوباوي . ولكن النظام الطوباوي - وكان ماركس يعرف ذلك - مصيره خدمة الكلية التي لم يكن ماركس يريد لها . ان هذا الاخير يهدم كل استشراف ، ثم يحقق من ذاته الانتقال من الأمر الواقع الى الواجب . ولكن هذا الواجب ليس له من مبدأ الا في الامر الواقع . ان المطالبة بالعدالة تؤدي الى الظلم اذا لم تكن هذه المطالبة قائمة اولاً على تبرير اخلاقي للعدالة ، وإلا فإن الجريمة ايضاً تصبح ذات

(١) يقصد اساءة استعمال افكاره .

يوم واجباً . حينما يُدمج الخير والشر ثانية في الزمان ، وبالأحداث 'مخلطان' ، فلا شيء يعود صالحاً أو طالحاً ، بل يكون فقط حادثاً قبل أوانه أو بعده . من ذا الذي سيبت بالملاءمة اللهم الا الانتهازي ؟ يقول التلامذة : فيما بعد ستحكمون . ولكن الضحايا لن يكونوا موجودين كي يحكموا . بالنسبة الى الضحية : الحاضر هو القيمة الوحيدة ، والتمرد هو العمل الوحيد . كما تتحقق الآمال ، يجب ان تُبنى على الضحايا . لعل ماركس لم يُرد ذلك ، ولكن تلك هي تَبِعَتُهُ التاريخية التي يجب فهمها . انه ، بإسم الثورة ، يبرر المقاومة الدامية لكل أشكال التمرد بعد الآن .

### ٣ - فشل النبوءة

حيما يئيب الأمل بالنبوءة

لقد أنهى هيجل التاريخ بعظمة في عام ١٨٠٧<sup>(١)</sup> ، واعتبر السان-سيمونيون الاضطرابات الثورية التي حدثت في ١٨٣٠ و ١٨٤٨ آخر اضطرابات ، وتوفي أ. كونت بَشَرًا رجوعاً أخيراً عن ضلالمهم وارعروا عن غيهم<sup>(٢)</sup> . وبدوره، وبنفس الرومانسية العمياء ، تنبأ ماركس بالمجتمع الخ... الي من الطبقات وبجمل اللغز التاريخي . ولكنه كان اكثر فطنة ، لذلك لم يحدد موعداً . لسوء الحظ ، وصفت نبوءته سير التاريخ حتى ساعة الرخا ، وبشرت باتجاه الاحداث . ولكن الاحداث والوقائع لم تنتظم تحت هذه النظرة المركزية . وإن هذا يُفسر دفعها الى الانتظام تحت هذه النظرة بالقوة . وابتدأت النبوءات ، بوجه خاص ، ما أن تم عبر عن الأمل الي الذي يخسر نفوس ملايين البشر ، فلا يسعها ان تبقى بلا نهاية ، دون ان تولد بعض المحاذير . ثمة وقت يجيء ، 'تحوّل

(١) راجع ما جاء حول هيجل في الصفحات السابقة - المعرب

(٢) راجع بهذا الصدد ، نيارات الفكر العدمي - المعرب



فيه الحية الآمال الصابرة الى اندفاعه فائرة ؛ ونرى فيه نفس الغاية المؤكدة  
بضراوة عنيدة والمطلوبة بقساوة متزايدة ، 'تجبر' على البحث عن وسائل أخرى .

تنائي الرجة  
وتنظيم العبدة

إن الحركة الثورية في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ،  
عاشت كالمسيحين الأولين ، في انتظار نهاية العالم وظهور (١) «المسيح البروليتاري» .  
ونحن نعرف استمرار هذا الشعور في كنف الطوائف المسيحية الأولية . وفي  
نهاية القرن الرابع أيضاً ، كانت احد اساقفة افريقيا الرومانية بقدر انه لم يبق  
للحياة في العالم سوى مائة سنة . وفي ختام هذه الفترة ، سيأتي ملكوت السماء ،  
وما على المرء إلا ان يبادر الى استحقاق هذا الملكوت . وقد كان هذا الشعور  
عاماً في القرن الاول من تاريخنا (٢) ، ويفسر لامبالاة المسيحين الأولين إزاء  
المسائل اللاهوتية البحتة . فاذا كانت رجعة المسيح قريبة ، وجب وقف كل  
شيء للايمان المضطرب بدلاً من الأعمال والعقائد الجهرية . حتى عجيء كليات  
وترتوليان ، خلال أكثر من قرن ، لم يهتم الانتاج المسيحي بمشكلات اللاهوت ،

(١) يستعمل أيضاً كلمة «رجمة» .

(٢) حول قرب وقوع هذا الحدث نسوق ما يلي :

في انجيل مرقس :

- وقال لهم الحق اقول لكم ان من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت  
الله قد أتى بقوة .

في انجيل متى :

- ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا الى الأخرى . فاني الحق اقول لكم لا تكلمون  
مدن اسرائيل حتى يأتي ابن الانسان .

في انجيل لوقا :

- حقاً اقول لكم إن من القيام ههنا قوماً لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله .

- العرب -

ولم يفرط في الاعتناء بالأفعال. ولكن ما ان تئات رجعة المسيح ، حتى  
وجب على المرء أن يجيا بإيمانه . إذ ذاك ظهرت التقوى ونشأت التعاليم . لقد  
تئات الرجعة الانجيلية ، فجاء القديس بولس ليؤسس العقيدة الجوهرة . وقد  
جسدت الكنيسة هذا الايمان الذي لم يكن سوى نزوع محض نحو الملكوت  
المقبل . لقد وجب تنظيم كل شيء ، حتى الاسنم اذ الذي ستهكون الجمعيات  
الرهبانية من شهوده الدنيويين ، حتى التبشير الذي سيصبح نحت مسوح محققي  
محاكم التفتيش .

### لنابي الرجعة الثورية

ثمة حركة مجانة نشأت عن فشل الرجعة الثورية<sup>(١)</sup> . إن نصوص مار كس  
التي استشهدنا بها سابقاً تعطي فكرة صحيحة عن الأمل المضطرم الذي كان  
آنذاك أمل الفكر الثوري. ورغم الحيات الجزئية ، لم يكف هذا الايمان عن  
الازدياد الى ان ألقى نفسه عام ١٩١٧ أمام احلامه وقد تحققت تقريراً .  
« نحن نناضل من أجل أبواب السماء » ، هكذا هتف ليكنخت . في عام ١٩١٧ ،  
خيل للعالم الثوري انه وصل حقاََ أمام هذه الابواب . كانت زهوة روزا  
لو كسنبورغ تتحقق . « ستهب الثورة غداً منشاعة بجلبة ، وستعلن والفرع في  
قلوبكم بكل أبراقم . ا : « كنت ولا أزال وسأكون » . لقد خيل لحركة  
سبارتاكوس<sup>(٢)</sup> انها بلغت الثورة النهائية ، لأن هذه الثورة في اعتقاد مار كس  
بالذات ستمر بالثورة الروسية المصيحة بثورة نربية<sup>(٣)</sup> بعد ثورة ١٩١٧ ،  
كان في وسع ألمانيا سوفيائية ان تفتح ابواب السماء ، في الحقيقة . ولكن  
سبارتاكوس غلب ، وفشل الاضراب الفرنسي عام ١٩٢٠ ، وانحدرت الحركة  
الثورية الايطالية ، حينئذ اعترف ليكنخت ان الثورة لم تينع . « الأزمته لم

(١) اي : عدم ظهور المسيح البروليتاري .

(٢) بالمعنى الجازي .. العرب .

(٣) مقدمة الترجمة الروسية لـ « البيان الشيوعي » .

'تُكْمَل' . ولكن ايضاً - وحينئذ ندرك كيف يمكن للانكسار ان ينبه الايمان المدحور ، حتى درجة الرعدة الدينية - : « على دوي الانهيار الاقتصادي الذي يقرب دويه منذ الآن ، ستتبه جحافل العمال كما لو على بوق يوم الحشر ، وستهب جثث المكافحين الصرعى لتحاسب اولئك الذين بلغوا منتهى اللعنة » . في غضون ذلك ،... 'قتل هو نفسه ، وقتلت روزا لو كسنبورغ ، وهوت المانيا في العبودية . اما الثورة الروسية فبقيت وحدها ، تجمها ضد مذهبها الخاص ، بعيدة عن ابواب السماء ، مضطرة الى تنظيم رؤيا . ان الرجعة تبتعد . اما الايمان فسلم ، ولكنه يوهن تحت مجموعة ضخمة من المشكلات والاكتشافات التي لم تتوقعها الماركسية وها هي ذي الكنيسة الجديدة ثانية امام غاليليه (١) : انها ، في سبيل الحفاظ على ايمانها ، ستنكر الشمس وستنزل الهوان بالانسان الحر .

بدييات ماركس  
والتطور الاقتصادي

الحقيقة ماذا قال غاليليه إذ ذاك ؟ ما هي أخطاء النبوءة ، هذه الاخطاء التي اثبتتها التاريخ بالذات ؟ غير خاف ان التطور الإقتصادي للعالم المعاصر يكذب أولاً عدداً من بدييات ماركس . فاذا كان على الثورة ان تحدث في نهاية حركتين متوازيتين : التمركز غير المحدود في رأس المال وتكاثر البروليتاريا غير المحدود ، فانها لن تحدث أو ما كان عليها أن تحدث . لقد كان رأس المال والبروليتاريا غير أمينين لماركس على حد سواء . إن الاتجاه الذي لوحظ في انكلترا الصناعية إبان القرن التاسع عشر ، قد انقلب في بعض الحالات ، وتعمد في بعض الحالات الأخرى . فالأزمات الاقتصادية التي كان عليها أن تتسارع ، قد تباعدت ، بالعكس . ذلك أن الرأسمالية تعلمت أسرار التخطيط ، وأسهمت

(١) بالمعنى المجازي . غاليليه : عالم ايطالي ، رياضي ، فيزيائي ، فلكي ، دفعته ملاحظاته الى الايمان بنظام كوبرنيك الفائل ان الشمس لا الارض هي مركز العالم الكوكبي . وقد اعتبر مذهب كوبرنيك من الهرطقة .

من جهتها في نمو « الدولة . الطاغوت » . هذا وإن رأس المال بدلاً من أن يتركز ، ولقد - بفضل تأسيس الشركات المساهمة - زمرة جديدة من صفار الملاكين آخيراً هم لهم وأيم الحق تشجيع الإضرابات . صحيح أن المشاريع الصغيرة قضت عليها المنافسة في كثير من الحالات كما توقع ماركس . ولكن تعقد الإنتاج ولد كثيراً من المصانع الصغيرة بجانب المشاريع الكبيرة . ففي عام ١٩٣٨ ، أمكن للصناعي فورد أن يعلن بأن ٥٢٠٠ ورشة مستقلة تعمل من أجله . وقد ازداد الاتجاه وضوحاً منذ ذلك التاريخ . صحيح أن فورد ، بحكم ضرورة الأشياء ، يُلغى مشاريعه . ولكن الشيء الأساسي هو أن هؤلاء الصناعيين الصفار يشكلون طبقة اجتماعية متوسطة تعقد المخطط الذي تصوره ماركس . أخيراً ، إن قانون التمرکز تكشف عن قانون باطل تماماً فيما يتعلق بالاقتصاد الزراعي ، هذا الاقتصاد الذي عاجله ماركس بنقطة . إن النقص هنا على جانب من الأهمية . فتاريخ الاشتراكية في عصرنا ، يمكن أن يُعتبر من أحد وجوه كبحراع للحركة البروليتارية ضد طبقة الفلاحين . إن هذا الصراع يواصل على صعيد التاريخ ذاك الصراع الفجسري الذي كان موجوداً في القرن التاسع عشر بين الاشتراكية المستبدة والاشتراكية المتعسبة للحرية ، وذات الأصل الف . لاجي والحرفي الواضع . كانت ماركس يملك اذن في جملة زمانه انعمائده عناصر تأمل حول المشكلة الفلاحية . ولكن ارادة التمذهب بسطت كل شيء . وقد اقتضى هذا التبسيط ثناً غالباً دونه الفلاحون الكولاك الذين كانوا يشكلون أكثر من خمسة ملايين حالة تاريخية استثنائية . . . سرعان ما أعيدت الى خط القاعدة بالقتل والنفي .

#### اهمال الطامحة القومية

نفس التبسيط صرف ماركس عن الظل اهرة القومية ، في عصر القوميات بالدات . فقد اعتقد ان الحواجز ستماوى بالتجارة والتبادل وبالتحول الى الحالة البروليتارية . ولكن الحواجز القومية هي التي هوت بالمثل الأعلى البروليتاري .

فقد تكشف صراع القوميات عن انه على الأقل يملك نفس الاهمية التي لصراع الطبقات في تفسير التاريخ . ولكن الأمة لا يمكن ان تفسر كلها بالاقتصاد ، لذلك اهملها المذهب .

#### النبوة والبروليتاريا

كما ان البروليتاريا ، من جهتها ، لم تنتظم في الخط ، فقد تحققت في البدء مخاوف ماركس ، وتمكن النشاط الاصلاحى والعمل النقابى من الحصول على ارتفاع في مستويات الحياة ، وعلى تحسين في اوضاع العمل . صحيح ان هذه التحسينات لا تشكل حلاً عادلاً للمشكلة الاجتماعية ، ولكن وضع عمال النسيج الانكليز البائس الذي كان سائداً في عصر ماركس لم يتعمم ولم يتفاهم كما اراد له هذا الأخير ، بل بالعكس سار نحو التلاشي . مها يكن من أمر ، فإن ماركس لن يتشكى اليوم من ذلك ،... لأن التوازن عاد بفضل خطأ آخر ارتكبه ماركس في تكهناته . فقد أمكن لنا في الحقيقة ان نلاحظ أن أنجع عمل ثوري أو نقابى ، انما قامت به دائماً نخبة من العمال لم يشلها الجوع . أما البؤس والانحطاط فظلاً مثلما كانا عليه قبل ماركس ، ونعني عوامل عبودية لا ثورة - الأمر الذي لم يردده ماركس لها ، خلافاً لكل ما تُظهره المشاهدة . ففي عام ١٩٣٣ ، كان ثلث العمال في المانيا عاطلين عن العمل . وكان المجتمع البورجوازي آنذاك مضطراً إلى إعالة عاطليه ، محققاً اذن الشرط الذي تطلبه ماركس من أجل الثورة . ولكن لا يليق بثوربي المستقبل أن يضطروا إلى انتظار قوتهم من الدولة . وقد جرت هذه العادة القسرية عادات أخرى أقل قسرية ، وضعها هتار في مذهب (١) .

#### تو الطبقة المتوسطة

أخيراً ، لم تتزايد الطبقة البروليتارية إلى ما لا نهاية له . إن شروط الانتاج الصناعى الذي كان على كل ماركسي أن يشجعه ، إن هذه الشروط بالذات قد

(١) يشير إلى عادات لم تمكن من معرفتها ، الامر الذي يترك في النص بعض الغموض .  
- المعرب -

عُتت الطبقة المتوسطة<sup>(١)</sup> بصورة بالغة ، بل وخلقّت فئة اجتماعية جديدة هي فئة الفنين . مهما يكن من أمر ، فإن المثل الأعلى العزيز على لينين لمجتمع يكون فيه المهندس في الوقت نفسه عاملاً عادياً ، قد اصطدم بالوقائع . الواقع الرئيسي هو ان التقنية كالعلم تعقدت لدرجة أصبح من المستحيل معها على انسان واحد ان يحيط بمجموع مبادئها وتطبيقاتها . يكاد يستحيل مثلاً على الفيزيائي في يومنا هذا ان يملك نظرة كاملة عن العلم البيولوجي في عصره . وداخل الفيزياء بالذات ، لا يسعه ان يطمح الى الإلمام بكل أقسام هذا العلم على حد سواء . كذلك هي الحال فيما يتعلق بالتقنية . ما أتت 'نميت الانتاجية' التي يعتبرها البورجوازيون والماركسيون خيراً في حد ذاتها . بنسبة مفرطة ، حتى أصبح تقسيم العمل . الذي كان ماركس يؤمن بإمكان تجنبه أمراً محتملاً . لقد دُفع كل عامل إلى تنفيذ عمل جزئي دون ان يعرف المخطط العام الذي يندرج فيه عمله . أما أولئك الذين ينسقون أعمال الجميع فشككوا ، بحكم وظيفتهم بالذات ، فئة ذات أهمية اجتماعية حاسمة .

عصر النشيب والاضطهاد بالوظيفة

لقد بشر بورنهام بحلول عصر الفنين . واجسكن العدالة الأولية تقتضي أن نذكر بأن سيهون وايل قبل سبعة عشر عاماً قد وصفت هذا العصر<sup>(٢)</sup> وصفاً يمكن اعتباره تاماً ، ولكن دون ان تستخلص النتائج المرفوضة التي وصل إليها بورنهام . فإلى شكلي الاضطهاد التقليديين اللذين عرفهما البشر : الاضطهاد بالسلاح والاضطهاد بالمال ، ... إلى هذين الشكلين تضيف سيهون وايل شكلاً ثالثاً : الاضطهاد بالوظيفة . كتبت تقول : ونستطيع ان نحذف التضاد بين مشتري العمل وبائعه ، دون ان نحذف التضاد بين الذين يتصرفون بالآلة والذين

(١) من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٠ ، في فترة انتاجية ثورية ، تناقص عدد التمدن في الولايات المتحدة في حين ارتفع عدد البائسين المتعلقين بهذه الصناعة نفسها إلى الضمين.

(٢) «هل نحن ماضون نحو ثورة بروليتارية؟»

تتصرف بهم الآلة». إن الإرادة الماركسية الرامية إلى حذف التضاد المخزي بين العمل العقلي والعمل اليدوي قد اصطدمت بضرورات الانتاج... الذي مجده ماركس في موضع آخر. ليس من شك في أن ماركس تكهن في كتابه : «رأس المال» بأهمية «المدير» عند أعلى مستوى في تمركز رأس المال. ولكنه لم يعتقد ان هذا التمركز قد يبقى بعد إلغاء الملكية الخاصة. لقد قال : إن تقسيم العمل والملكية الخاصة تعبيران متماثلان. ولكن التاريخ اثبت العكس. إن النظام المثالي القائم على الملكية الجماعية كان يُريد ان يُعرف بالعدالة مضافة إليها الكهرواء. ولكنه لم يعد أخيراً سوى الكهرواء... بلا عدالة.

القومية ، البطش ، بؤس الوضع ...  
و « رسالة البروليتاريا »

إن فكرة «رسالة البروليتاريا» ، لم يتسن لها أخيراً أن تتجسد حتى الآن في التاريخ. وهذا يلخص إخفاق التكهن الماركسي. لقد أثبت إفلاس « الأهمية الثانية» ان البروليتاريا تتحدد بغير وضعها الاقتصادي، وان لها وطناً ، خلافاً للشعار المشهور<sup>(١)</sup>. فالبروليتاريا بسوادها الأعظم رضيت بالحرب او تقبلتها بخضوع ، وساهمت طوعاً أو كرها في الفورات القومية في هذا العصر. كان ماركس يعني ان الطبقات العاملة ، قبل أن يُعقد لها النصر ، تكون قد اكتسبت الكفاءة الشرعية والسياسية. ولكنه اخطأ إذ اعتقد أن منتهى البؤس ، ولا سيما البؤس الصناعي ، من شأنه أن يؤدي إلى النضج السياسي. من المؤكد على كل حال أن الكفاءة الثورية عند الجماهير العمالية قد حدث منها البطش بالثورة المتحزبة للحرية، خلال حكومة «الكومون» وبعدها. مهما يكن من أمر، فإن الماركسية سيطرت بسهولة على الحركة العمالية اعتباراً من ١٨٧٢، بسبب عظمتها الخاصة ولا شك ، ولكن أيضاً لأن الحركة الاشتراكية الوحيدة التي كان في وسعها مقاومة الماركسية قد أغرقت في الدماء. ذلك انه لم يكن هناك عملياً

(١) ناله يقصد : يا عمال العالم اتحدوا .

ماركسيون بين ثوار ١٨٧١ . وقد استمر هذا التطهير الآلي للثورة حتى يومنا هذا بفضل الدول البوليسية. وألقت الثورة نفسها متروكة أكثر فأكثر لإداريتها الديوانيين ولمفكرها العقائديين من جهة، ولجماهير تملكها الوهن والحيرة من جهة أخرى . فحينما تقطع رؤوس الصفوة الثورية، ويترك شخص مثل تاليران حياً، فمن ذا الذي سيقاوم نابليون ؟ ولكن إلى هذه الأسباب تنضم الضرورات الاقتصادية . يجب أن نطالع نصوص سيمون وايل حول وضع العامل في المعمل (١) لتبين إلى أية دركة من الانهيار المعنوي واليأس الصامت يمكن أن يؤدي تطبيق الطرق العقلانية في ميدان العمل . وصدقت سيمون وايل إذ قالت إن الوضع العمالي غير إنساني لسببين : لأنه بلا مال أولاً ، وبلا كرامة ثانياً . فالعمل الذي يستأثر باهتمام المرء ، العمل المبدع ، لا يبذل الحياة حتى لو كانت قليل الأجر . إن الاشتراكية الصناعية لم تقم بشيء أساسي من أجل الوضع العمالي، لأنها لم تمس مبدأ الانتاج وتنظيم العمل، بل بالعكس مجدت هذا المبدأ . لقد أمكن لها أن تقدم للعامل تبريراً تاريخياً له من القيمة ما للتبرير القائم على وعد ذلك الذي يموت وهو يكبد، بالمتع السماوية . ولكنها لم ترد له قط بهجة المبدع . عند هذا المستوى ، لا يعود موضوع البحث الشكل السياسي للمجتمع ، بل المبادئ الأساسية الخاصة بحضارة تقنية تتعلق بها كل من الرأسمالية والاشتراكية على حد سواء .

كل فكرة لا تسير بهذه المشكلة إلى الأمام ، تكاد لا تمس الشقاء العمالي .

البروليتاريا بين السادة الدمام والجدد

بمجرد آلية القوى الاقتصادية التي كانت محل إعجاب ماركس ، نبذت البروليتاريا الرسالة التاريخية التي ألغاها ماركس على عاتقها . اننا نغفر له خطأه . فتجاه هوان الطبقات الحاكمة ، يبحث الانسان المهتم بالحضارة بصورة غريزية عن صفة استبدالية . ولكن هذا المطلب ، لوحدته ، ليس مبدعاً . لقد تسلمت

(١) الوضع العمالي (غاليلار) .



البورجوازية الثورية زمام السلطة عام ١٧٨٩، لأنها كانت تملكها من قبل . كان الحق آنذاك - على حد قول جول مونرو - متخلفاً عن الواقع . فقد كانت البورجوازية تتصرف سابقاً بالمراكز القيادية وبالقوة الجديدة : المال . ولكن الحال كانت مختلفة بالنسبة الى البروليتاريا التي لم تكن تملك سوى يؤسها وآمالها ، والتي ابقتهما البورجوازية على هذا البؤس . لقد سارت الطبقة البورجوازية في طريق الهوان ، بسبب كلفها بالانتاج وبالقوة المادية . وان تنظيم هذا الكلف لم يكن في وسعه خلق صقوة (١) . اما نقد هذا التنظيم وتنمية الشعور المتمرد فكان في وسعها خلق صقوة استبدالية . والحركة النقابية الثورية وحدها ، مع بلوتيه وسوريل ، هي التي مشت في هذا الدرب ، وأرادت أن تخلق بالثورية المهنية والثقافة ، الملاكات الجديدة التي استدعها وما زال يستدعيها عالم فاقد الشرف . ولكن ما كان في وسع ذلك ان يحصل بين عشية وضحاها ، والسادة الجدد كانوا موجودين من قبل ، منصرفين باهتمامهم الى الاستفادة من البؤس مباشرة ، في سبيل سعادة بعيدة ، ... بدلاً من ان 'ينفسوا كربة ملايين البشر اكثر ما يمكن ودونما انتظار . لقد حكم الاشتراكيون الاستبداديون بأن التاريخ يسير بتباطؤ شديد ، وان الضرورة تقتضي تسليم رسالة البروليتاريا الى حفنة من العقائديين في سبيل الاسراع في حركة التاريخ . وبذلك بالذات كانوا اول من انكر هذه الرسالة . ولكنها موجودة مع ذلك ، لا بالمعنى الحصري الذي كان يعطيه لها ماركس ، بل مثلما توجد رسالة كل زمرة بشرية تعرف كيف تجعل كدها وعذابها مصدر خصب وأنفة . وفي سبيل ظهورها ، كان لا بد من المخاطرة والثقة بالحرية والعفوية العماليتين . بيد ان الاشتراكية الاستبدادية ، بالعكس ، صادرت هذه الحرية الحية لصالح حرية مثالية ستتحقق في المستقبل .

(١) كان لينين اول من لاحظ هذه الحقيقة ، ولكن دونما غم ظاهر . فاذا كانت جلته نظيمة بالنسبة الى الآمال الثورية ، فانها المظع بالنسبة الى لينين بالذات . والحقيقة لقد تجرأ على القول ان الجماهير ستكون اسهل قبولاً لمركزيته البيروقراطية الدكتاتورية لأن «البروليتاريا ستكون اسهل تمثلاً الانضباط والتنظيم ، وذلك بفضل مدرسة المصنع هذه» .

وبهذا العمل ، شاءت ام أبت ، عززت المشروع الاستبدادي الذي بدأت به رأسمالية المعمل . وبتأثير هذين العاملين المتضافر ، وخلال مائة وخمسين عاماً ، لم تكن للبروليتاريا من رسالة تاريخية سوى ان تكون موضع خيانة ، -- ما عدا في باريس حكومة «الكومون» ، الملجأ الأخير للثورة المتسردة . لقد ناضل العمال ولاقوا حتفهم ... كي يسلموا أخيراً زمام السلطة لفر من العسكريين ، او لمثقفين أصبحوا بعدئذ عسكريين ، استعبدهم بدورهم . مع ذلك ، كان هذا النضال كرامتهم ، وقد اعترف لهم بها كل أولئك الذين اصطفوا مشاركتهم أملهم وشقاءهم . ولكن هذه الكرامة اكنسبت ضد السادة القدامى والجدد . وهي 'تنكرهم ما ان يتجرأوا على استخدامها . انها ، بوجه ما ، تبشر بأفول نجمهم .

عالم ام عالان ؟

ان تكهنات ماركس الاقتصادية قد وُضعت اذن ، على الاقل ، موضع الشك من قبل الحقيقة الواقعة . وما يبقى صحيحاً في نظره الى العالم الاقتصادي هو تشكل مجتمع يتعرف اكثر فأكثر بوتيرة الانتاج . ولكنه ، في اندفاع عصره ، شارك الفكر البورجوازي في هذه النظرة . ان الاوهام البورجوازية فيما يتعلق بالعلم والتقدم التقنيين ، والتي شارك فيها الاثراكيون الاستبداديون ، ... تقول : ان هذه الأوهام ولدت حضارة 'مروزي الآلة . وهي حضارة تنقسم بالمزاحمة والسيطرة الى كتل متخاصمة ، ولكنها تخضع لنفس القوانين على الصعيد الاقتصادي : تراكم رأس المال ، انتاج خاضع للتنظيم العقلاني ومتزايد في استمرار . اما الاختلاف السياسي الخاص بعظم جبروت الدولة ، فواسع ، انما يمكن اتقاصه بواسطة التطور الاقتصادي . واما الاختلاف في الاخلاق الفضيلة الصورية المعارضة للكلية التاريخية -- فيد وحده راسخاً . ولكن دافع الانتاج يتحكم بكلا العالمين ، ولا يجعل منها على الصعيد الاقتصادي الا عالماً واحداً<sup>١١</sup> .

(١) فلنبين ان الاتاجية لا تكون مؤذية الا حيناً تعتبر ككفاية . لا كوسيلة تد تكون محررة .

## منبة عبادة الاتاج

على كل ، اذا كان الواقع الاقتصادي لم يعد قابلاً للانكار (١) ، فان نتائجه ليست تلك التي تصورها ماركس . الرأسمالية ظالمة اقتصادياً ، بظاهرة التراكم . انها ظالمة بما هي ، 'تكديس لتلمي ما هي ، تستمر بمقدار ذلك ، وتكديس ثانية بنفس المقدار ... لم يكن ماركس ليتصور نهاية لهذه الحلقة الجهنمية ، الا الثورة . اذ ذلك ، لا يكون التراكم ضرورياً إلا بمقدار بسيط ، لضمان الأعمال الاجتماعية .

ولكن الثورة تصنع بدورها ، وحينئذ نلاحظ ان التراكم متعلق بالتقنية ذاتها ، لا بالرأسمالية ؛ وان الآلة أخيراً تستدعي الآلة . كل جماعة مكافحة تحتاج الى تكديس مداخيلها بدلاً من ان توزعها . انها 'تكديس كي تنمو ، وتزيد قوتها . وسواء أكانت بورجوازية ام اشتراكية ، فانها ترجىء العدالة الى المستقبل ، لصالح القوة وحدها .

ولكن القوة تعارض قوى اخرى . انها تتجهز وتسلح ، لأن القوى الاخرى تتجهز وتسلح . ولا تكف عن التكديس ولن تكف أبداً إلا اعتباراً من اليوم الذي لعلها ستسود فيه وحدها على العالم . وفي سبيل ذلك ، على كل ، ينبغي لها ان تمر بالحرب .

إلى ذلك اليوم ، يكاد العامل البروليتاري لا يتقاضى إلا ما يحتاج اليه لمعاشه . إن الثورة تجبر نفسها على بناء الوسيط الصناعي والرأسمالي الذي كان نظامها الخاص يستدعيه ، وذلك بكلفة بشرية باهظة . ويجل محل الربيع Rente جهد' الانسان . حينئذ تتعمم العبودية ، وتظل أبواب السماء موصدة .

(١) على الرغم من انه كان قابلاً للانكار - حتى القرن الثامن عشر - خلال الوقت الذي اعتقد فيه ماركس انه اكتشف هذا الدافع .

ثمة امثلة تاريخية لم يؤد فيها تنازع اشكال الحضارة الى تقدم على صعيد الاتاج : غزو البرابرة لمدينة روما ، اخراج العرب من اسبانيا ، إبادة المراهقة الالبيين .

هوذا القانون الاقتصادي لعالم يحيا على عبادة الانتاج ، علماً بأن الحقيقة الواقعة هي أيضاً آدمى من القانون .

الثورة ، في المآزق الذي زجها فيه اعداؤها البورجوازيون وانصارها العدميون ، ... هي العبودية . فما لم تبدل مبادئها وطريقها ، فليس لها من مخرج سوى تمردات المييد تسحق في الدماء ، أو الامل الفظيع بالانتحار الذري . إن ارادة القوة والنضال العدمي من أجل التحكم والسيطرة ، فعلاً ما هو أفضل من تكنيس النظام الماركسي الطوباوي . فهذا النظام الاخير أصبح بدوره واقعة تاريخية سيئة لأن تستخدم كالوقائع الاخرى . لقد اعتزم السيطرة على التاريخ ، فضل في متاهاته ... ؛ واعتزم استخدام كل الوسائل ، فتردى هو نفسه إلى وسيلة ، ووجه دونما رادع خلقي في سبيل أتفه الغايات وأدماها . كلا ، إن تنمية الانتاج المستمرة لم تهدم النظام الرأسمالي لصالح الثورة ، بل هدمت المجتمع البورجوازي والمجتمع الثوري على حد سواء ، لصالح طاغوت كلف بالقوة .

. . . .

#### الالتباس في الطريقة الماركسية

كيف أمكن ان تصطدم بالوقائع اشتراكية<sup>١</sup> كانت تزعم بأنها علمية ؟ الجواب بسيط : انها لم تكن علمية . لقد نشأ إخفاؤها عن طريقة بلغت من الالتباس مبلغاً دفعها إلى الادعاء بأنها في الوقت نفسه تقيدية<sup>٢</sup> ونبوية ، جدلية وعقيدية Dogmatique<sup>٣</sup> . فاذا لم يكن الفكر سوى انعكاس عن الاشياء ، فلا يسهه اذن ان يسبق سيرها إلا بالفرضية Hypothèse . واذا كانت النظرية محدّدة بالاقتصاد ، ففي وسعها ان تصف ماضي الاقتصاد ، لا مستقبه .. الذي يبقى قيد الاحتمال فقط . ان مهمة المادية التاريخية لا يجوز لها ان تكون سوى إقامة نقد المجتمع الحالي ، ولا يسعها ان تجري على المجتمع المقبل دون أن

(١) الاولى تفترض الحركة ، والثانية الجمود - المررب -

تقطع عن الفكر العلمي -- سوى افتراضات . على كل ، أليس لهذا السبب  
مسمي كتاب ماركس الأساسي « رأس المال » ، لا « الثورة »<sup>(١)</sup>. ان ماركس  
والماركسيين اتقادوا مع التنبؤ بالمستقبل والاشتراكية ، على حساب مبادئهم  
الاولية والطريقة العلمية .

### العقل التاريخي

ما كان في وسع هذا التكهن ان يكون علمياً إلا بالتوقف عن التنبؤ  
في المطلق . الماركسية ليست علمية . لأنها ، على خير وجه ممكن ، علموية  
Scientista<sup>(٢)</sup> . فهي تظهر الانقسام العميق بين العقل العلمي ، الأداة الحصية  
للبحث والتفكير وحتى للتمرد ، والعقل التاريخي الذي ابتدته العقائدية الألمانية  
في إنكارها لكل مبدأ. العقل التاريخي ليس عقلاً يحكم على العالم ، وذلك بموجب  
وظيفته الخاصة . انه يقود العالم ويدعي الحكم عليه في الوقت نفسه . بغوص في  
الحدث ... وبوجهه في الوقت ذاته . انه تربوي وغازي في وقت واحد . وإن  
هذه الأوصاف تعطي ، على كل ، أبسط واقع . إذا قصرنا الانسان على  
التاريخ ، فما له من خيار سوى أن يفرق في ضجيج وفورة تاريخ آخرق ،  
أو ان يعطيه شكل العقل البشري . ليس تاريخ العدمية المعاصرة إذن سوى  
جهد طويل في سبيل منح نظام لتاريخ لم يبق له نظام ؛ وذلك بقوى الانسان  
وحدها ، وبالقوة ليس غير . وفي النهاية يتطابق هذا العقل الكاذب مع الحيلة  
وفن الحيلة ، ريثما يبلغ ذروة ارتفاعه في « الامبراطورية » العقائدية. فما عمل العلم  
هنا ؟ لا شيء أقل غزواً من العقل . التاريخ لا يصنع بوساوس علمية . بل  
اننا نحكم على أنفسنا بأن لا نصنعه ، وذلك حالما نزعهم بأننا نسير فيه بموضوعية  
العلمين . العقل لا يوعظ ، واذا وعظ لم يعد عقلاً . لذلك فالعقل التاريخي عقل  
رومانسي غير عقلائي ، يُذكرنا بصياغات المهووس الفكرية أحياناً ، وبالتأكيد

(١) نعم ان رأس المال يجمل المجتمع الرأسمالي - العرب -

(٢) راجع بهذا الصدد : تيارات الفكر الفلسفي - العرب -

## الصوفي للكلمة الالهية (١) احياناً اخرى .

مركة العلم ... بالقوة ا

ان الوجه الوحيد العلمي حقاً في الماركسية يكمن في رفضها المسبق للأساطير والحرافات ، وفي اظهار أتفه المصالح . ولكن ماركس ، بموجب هذا الرأي ، ليس اقرب الى العلم من لاروشفوكو . هذا الموقف هو ، بالضبط ، الموقف الذي يتخلى عنه ما ان يدخل في النبوءة . فليس عجباً والحالة هذه انه في سبيل جعل الماركسية علمية وإبقاء هذا الوم ، وجب مسبقاً جعل العلم ماركسياً ... بواسطة الارهاب. إن تقدم العلم منذ ماركس ، كمن اجمالاً في استبدال التقيدية والمبدأ الآلي الفج باحتمالية موقفة . وقد كتب ماركس لإنتاغز قائلاً ان نظرية داروين اساس نظريته . فكما تبقى الماركسية معصومة ، وجب اذن انكار الاكتشافات البيولوجية منذ داروين . وبما انه اتفق ان هذه الاكتشافات منذ «التحولات المفاجئة» التي لاحظها دي فرييس ، كنت في ادخال مفهوم الصدفة في البيولوجيا ، خلافاً للتقيدية ، ... لذلك وجب تكليف لينينكو بترويض العرى الملونة (٢) Chromosomes ، وبأن يثبت ثانية وجود أبسط تقيدية . ان هذا يستوجب الجزء ... ولكن فلنعت السيد هوميه (٣) M. Homais شرطة ... فانه لا يعود يستوجب الجزء ... وهذا هوذا القرن العشرون . في سبيل ذلك ، سيضطر القرن العشرون ان ينكر ايضاً مبدأ اللانحدد في الفيزياء ، والنسبية المحدودة ، ونظرية الكانتا (٤) ، واخيراً الانجاء العام للعلم المعاصر . ليست الماركسية علمية اليوم الا بشرط ان تكونها ضد هايزنبرغ وبوهر

(١) الذات الثانية في الثالوث الأندس ، المتجدة في يسوع المسيح - المررب

(٢) نتج عن انقسام النواة اثناء التكاثر الخلوي المررب

(٣) أي : المنعط الشخص المحدد التكبير وسائل البعث ... لانه لا يعود يستوجب الجزء

المررب -

(٤) بضموس هذه المشكلات راجع : المشكلات الماورائية الكبرى . ترجمة نهاد رضا ، (وهد الماركسية) غالبار .

وآينشتاين واكبر علماء هذا العصر . مهما يكن من امر ، فان المبدأ الذي يكمن في ارجاع العقل العلمي الى خدمة نبوءة من النبوءات لا ينطوي على شيء مبهم . فقد سمي من قبل مبدأ المرجع الحجة<sup>(١)</sup> ، وهو الذي يوجه الكنائس حينما تريد اخضاع العقل الحقيقي للإيمان الميت ، وحرية الذهن لصيانة السلطة الدنيوية .

الحدث البعيد ... وبقيبات الإيمان

أخيراً ، من نبوءة ماركس التي تقف بعد الآن ضد مبادئه : الاقتصاد والعلم ، ... من هذه النبوءة لا يبقى سوى التبشير الحماسي بحدثٍ بعيد الأجل . إن ملجأ الماركسيين الوحيد يكمن في الإدعاء بأن الآجال هي فقط أطول ، وان علينا ان نتوقع ان تبرر النهاية كل شيء ، في يوم لا يزال غير منظور . وبتمير آخر ، نحن في المطهر Le Purgatoire وتلقى الوعد بأن لن يكون هناك جحيم . المشكلة التي تطرح حينئذ هي من نوع آخر . إذا كان كفاح جيل أو جيلين خلال تطور اقتصادي ملائم ، كافياً للتخفيف عن المجتمع غير الطبقي ، فان التضحية تصبح معقولة بالنسبة إلى المناضل ، لأن المستقبل يكتب في نظره وجهاً حسيماً : وجه طفله الصغير مثلاً . ولكن اذا وجب علينا الآن - لأن تضحية عدة أجيال لم تكن بالكافية - ان نقارب فترة لامتناهية من النزاعات العالمية الرهيبة ، فلا بد لنا اذن من يقينيات الإيمان كي نقبل بأن نموت وبأن نميت الآخرين . ولكن هذا الإيمان الجديد ليس له من الرسوخ في العقل المجرد أكثر مما للإعتقادات القديمة .

مشكلة نهاية التاريخ

كيف نتصور حقاً نهاية التاريخ هذه ؟ ان ماركس لم يرجع الى عبارات هيغل . لقد قال بصورة كافية الاتهام ان الشيوعية ليست سوى شكل محتم للمستقبل البشري ، وانها ليست المستقبل كله . ولكن ... إما ان الشيوعية لا

(١) بهذا العدد راجع : باسكال ، حياته ، فلسفته - سلسلة «زدني علماً» - منشورات عويدات

تنتهي تاريخ التناقضات والعذاب ، وحينئذ لا نرى كيف نرر هذا القدر من الجهد والتضحيات ، ... وإما أنها تنهى ، وحينئذ لا يسعنا ان نتصور بقية التاريخ إلا كسير نحو هذا المجتمع الكامل . اذ ذلك ثمة مفهوم رمزي يتدخل بصورة اعتباطية في وصف يزعم بأنه علمي . ان زوال الاقتصاد السياسي زوالاً نهائياً - الموضوعة المفضلة عند ماركس وانغاز يعني نهاية كل عذاب . فالاقتصاد في الحقيقة يتطابق مع عذاب وشقاء التاريخ ، اللذين يزولان بزواله . هانحن أولاء في جنة عدن .

#### التاريخ الآخر

إننا لا نسير بالمشكلة الى الامام باعلاننا ان موضوع الكلام ليس نهاية التاريخ ، بل القفزة الى تاريخ آخر . هذا التاريخ الآخر لا نستطيع ان نتصوره الا وفقاً لتاريخنا الخاص . لئن كانا تاريخيين في حد ذاتها ، فليسنا بالنسبة الى الانسان سوى تاريخ واحد . مهما يكن من أمر ، فان هذا التاريخ الآخر يتضمن احد امرين : إما انه ليس حلاً للتناقضات ، ... وحينئذ نتعذب ، نموت ، ونقتل من أجل لاشيء تقريباً . وإما انه الحل للتناقضات ، ... وحينئذ ينهي عملياً تاريخنا .

عند هذه المرحلة ، لا تُبرر الماركسية إلا بالمجتمع النهائي .

ما معنى المجتمع النهائي ؟

هذا المجتمع النهائي هل له من معنى إذ ذاك ؟

إن له معنى في العالم المقدس ، ما ان نسلّم بالبدئية الدينية . لقد خلق العالم ، ... لذلك ستكون له نهاية . لقد خرج آدم من جنة عدن ، ... لذلك على الانسانية ان تعود اليها . ولكن ليس من معنى في العالم التاريخي إذا سلّمنا بالبدئية الجدلية . فاذا طبقت الجدلية تطبيقاً صحيحاً فلا يسعها ولا ينبغي لها ان تقف (١) . في وسع حدود ( قضايا ) الوضع التاريخي المتناقضة ان تنعكس

(١) راجع : علم اجتماع الشيوعية ، القسم الثالث .



بعضها بعضاً ، وأن تجاوز ذاتها في تركيبة مخلصّة جديدة . ولكن ليس هناك من سبب كي تكون هذه التركيبة أعلى من سابقتها . أو بالأحرى ليس من سبب لذلك إذا فرضنا اعتبارياً نهايةً على الديالكتيك ، أي إذا ادخلنا فيه حكماً قيمياً آتياً من الخارج . فاذا كان المجتمع غير الطبقي ينهي التاريخ ، فحينئذ في الحقيقة يكون المجتمع الرأسمالي أعلى من المجتمع الاقطاعي ، وذلك بمقدار ما يقرب مجيء هذا المجتمع غير الطبقي . ولكن إذا سلّمنا بالبدئية الجدلية ، فيجب التسليم بها كلياً . فكما ان مجتمع الارهاط تلاه مجتمع بلا أرهاط ولكنه طبقي ، كذلك يجب ان نقول ان المجتمع الطبقي سيتلوه مجتمع غير طبقي ، ولكن يُحرّكه تناقض جديد لم يتحدد بعد . الحركة التي نأبى لها ان تكون ذات بداية ، حركة لا يسعها ان تكون ذات نهاية . قال أحد الكتاب الفوضويين<sup>(١)</sup> : « إذا كانت الاشتراكية صيرورة دائمة ، فوسائلها غاياتها » . وهي ، بالضبط ، ليست ذات غاية ، وليس لها سوى وسائل لا يضمنها أي شيء ، ان لم تكن مضمونة بقيمة غريبة عن الصيرورة . بهذا المعنى ، من الصحيح أن نلاحظ ان الجدلية ليست ولا يسعها ان تكون ثورية . انها فقط - بحسب رأينا - عدمية ؛ مجرد حركة تستهدف إنكار كل شيء سواها .

#### نهاية التاريخ مبدأ تعسف

ليس هناك إذن في هذا العالم أي سبب لتصور نهاية التاريخ . مع ذلك ، هذه النهاية هي التبرير الوحيد للتضحيات المطلوبة من الانسانية ، بإسم الماركسية . ولكن ليس لها من أساس معقول سوى مغالطة<sup>(٢)</sup> تُدخل في التاريخ - هذا الملاكوت الذي أرادوا له ان يكون وحيداً وكافياً - قيمة غريبة عن التاريخ . وبما ان هذه القيمة هي في الوقت ذاته دخيلة على الاخلاق ، لذلك ليست ببحر المعنى قيمةً يمكننا ان ننظم عليها مسلكنا . انها عقيدة غريبة من الاساس نستطيع

(١) الاشتراكية والحرية ، تأليف ارلستان .

(٢) مناقلة قوامها افتراض ما يطلب برهانه .

ان نجعلها عقيدتنا الخاصة ، وذلك في الحركة اليائسة الصادرة عن فكرة نخنتق من العزلة أو العدمية ، أو نراها تفرض من قبيل أولئك الذين تفيدهم هذه العقيدة .

ليست نهاية التاريخ نموذجاً وكالاً ، بل مبدأ تعسف وإرهاب .

المللكوت ... والتنمية الاجتماعية

اعترف ماركس ان كل الثورات قبل مجيئه كان نصيبها الفشل . ولكنه زعم بأن الثورة التي يبشّر بها سيكتب لها النجاح النهائي . ولقد عاشت الحركة العمالية حتى الآن على هذا التأكيد الذي لم تكفّ الرقائع عن تكذيبه ، والذي آن الاوان لفضح بهتانه بكل هدوء . فكما تناءى الظهور ، اصبح تأكيد المللكوت النهائي عقيدة جوهرية ، بعدما وهنّ عقلاً . ان قبة العالم الماركسي الوحيدة تكمن بعد الآن في عقيدة مفروضة على «امبراطورية» فكرية بأسرها . وان ملكوت الغايات يُستخدم من أجل تنمية اجتماعية ، شأنه في ذلك شأن الاخلاق الخالدة ومللكوت السموات .

نازل وإجابة

إن إيلي هاليفي أقر بأنه عاجز عن ان يبين هل ان الاشتراكية ستؤدي الى تعميم الجمهورية السويسرية ، أو الى الحكم الاوروبي المستبد . ولكننا أصبحنا أحسن اطلاعاً . فقد ثبتت نبوءات نيتشه حول هذه النقطة . وستظهر الماركسية بعد الآن خلافاً لذاتها وبمحكم منطق محتم في الاستبدادية العقلية التي ينبغي لنا ان نشرع اخيراً بوصفها . إنهم ا ، وهي الممثلة الاخيرة لصراع العدالة ضد العون الرباني ، تأخذ على عاتقها - عن غير قصد - صراع العدالة ضد الحقيقة . بأية واسطة نعيش بلا عون ؟ هوذا التساؤل ساد في القرن التاسع عشر . « بالعدالة » ، أجاب أولئك الذين رفضوا قبول العدمية المطلقة . أما الشعوب التي تملكها اليأس من ملكوت السموات ، فوعدها بملكوت الانسان . وقد تسارع التبشير بـ «المدينة الانسانية» حتى نهاية القرن التاسع عشر

حيث اصبح هذا التبشير ذا خيالات وأوهام ، ووضع يقينيات العلم في خدمة نظام طوباوي . ولكن الملكوت تناهى . وثمة حروب مذهلة فتكت بأهل أقدم القارات ، وغطت دماء المترددين جدران المدن ، ... ومع ذلك لم تدنُ العدالة التامة . إن تساؤل القرن العشرين الذي ذهب ضحيته اربابو ١٩٠٥ ، والذي يمزق العالم المعاصر ، ان هذا التساؤل قد توضح تدريجياً : بآية واسطة نعيش بلا عون ولا عدالة ؟

إجابة العدمية  
وارادة القوة

العدمية وحدها أجابت على هذا التساؤل ، لا التمرد . وحدها تكلمت حتى الآن راجعة الى عبارة المترددين الرومانسيين : «فورة» . الفورة التاريخية تسمى القوة . إن ارادة القوة جاءت تنوب مناب ارادة العدالة ، متظاهرة أولاً بالتطابق معها ، ثم أبعدها الى زاوية ما في نهاية التاريخ ، ريثما تمتد يد التسلط الى كل شيء على الارض . النتيجة العقائدية تغلبت اذن على النتيجة الاقتصادية : إن تاريخ الشيوعية الروسية يكذب مبادئها . في ختام هذا الدرب الطويل ، نجد التمرد الماورائي الذي يتقدم هذه المرة وسط ضجيج السلاح وصخب الشعارات ، ولكنه نسي مبادئه الحقيقية ، دافئاً عزله في قلب جماهير شاكية السلاح ، ساتراً مواقفه الانكارية بفلسفة كلامية متصلبة ، ولا يزال ملتفتاً نحو المستقبل الذي جعل منه بعد الآن إلهه الوحيد ، ولكنه منفصل عن هذا المستقبل بمجموعة من الأمم يجب قهرها ، وبمجموعة من القارات يجب بسط السيطرة عليها .

«العمل»<sup>(١)</sup> كبدأ وحيد ، «سيطرة الانسان» كذريعة ، ... لقد سبق لهذا التمرد انه حفر المعسكر المحصن ببتاريس ، في شرق أوروبا ، تجاه معسكرات حصنة أخرى ...

(١) العمل = الحركة = النشاط .

## ٤ - ملكوت الغايات

لينين والمعالجة

لم يكن ماركس ليتصور مثل هذا التمجيد الرهيب . ولا لينين الذي خطا مع ذلك خطوة حاسمة نحو «الامبراطورية» العسكرية . لقد كان هذا الاخير ماهراً في فن الخطأ بقدر ما كان عادياً في الفلسفة ، لذلك طرح على نفسه أولاً مشكلة استلام زمام السلطة . فلنلاحظ فوراً انه من الخطأ تماماً ان نتحدث - كما نفعل - عن يعقوبية لينين . ان فكرته عن زمرة المحرضين والثوريين وحدها هي يعقوبية . كانت اليعقوبيون يؤمنون بالمبادئ والفضيلة . وقد لقوا حتفهم اذ اضطروا الى إنكارها . أما لينين فلا يؤمن إلا بالثورة وبفضيلة الفعالية . « يجب ان نكون مستعدين لكل التضحيات ، وان نستخدم كل المكائيد والحيل والطرق غير المشروعة ، وان نكون عازمين على إخفاء الحقيقة ، فقط كي نتغلغل في النقابات ... ونقوم فيها رغم كل شيء بالمهمة الشيوعية » . لقد دشن هينغل وماركس مكافحة الاخلاق الصورية ، وهذه الكفاحة موجودة عند لينين في نقد المواقف الثورية غير الفعالة .

في نهاية هذه الحركة ، كانت الامبراطورية .

مسحة استلام السلطة

إذا تناولنا كتابه<sup>(١)</sup> المدين «درا في بداية حياة ماركس» كعرض وفي نهايتها ، فانتسنا ندهش إذ نرى انه لم يكف عن مكافحة الاشكال العاطفية من العمل الثوري ، دونما هوادة . لقد أراء ان يبعد الاخلاق عن الثورة ، لأنه اعتقد ، بحق ، ان السلطة الثورية لا تتوطد باسترام الوصايا الدينية العشر . ولما ظهر على مسرح التاريخ بعد التجارب الاولى ، وتمحور من ربة القرن السابق الفكرية والاقتصادية ، بدا كأنه الانسان الاول في جيل جديد . استلم دقة

(١) ما العمل ؟ ١٩٠٢ ؛ الدولة والثورة ، ١٩١٧

القيادة غير مكثرت بالقلق والحزن والأخلاق ، وبحث عن أفضل نظام للمحرك ، وقرر أن هذه القضية ثلاثم موجه التاريخ وتلك الأخرى لا تلائمه . وفي البدء حار في أمره قليلاً ، وتردد في معرفة السؤال التالي هل ينبغي لروسيا أن تمر أولاً بالمرحلة الرأسمالية والصناعية . ولكن ذلك يعني الشك في امكان نشوب الثورة في روسيا . انه روسي . ومهمته انجاز الثورة الروسية . لذلك نبذ الحتمية الاقتصادية وشرع بالعمل . ومنذ ١٩٠٢ ، أعلن بوضوح ان العمال لن يضعوا بذاتهم نظرية مستقلة . لقد انكر عفوية الجماهير . فالعقيدة الاشتراكية تفترض وجود أساس علمي لا يستطيع ان يأتيها به إلا المثقفون . ولئن قال بوجود نحو كل تمييز بين العمال والمثقفين ، فيجب تأويل ذلك أن بإمكان المرء ان لا يكون عاملاً ، وأن يدرك مع ذلك مصالح الطبقة العاملة خيراً من العمال أنفسهم . لذلك هنا «لاسال» لأنه قاد صراعاً ضارياً ضد عفوية الجماهير . قال : «على النظرية ان تخضع لها العفوية»<sup>(١)</sup> . ومعنى ذلك ، بواضح الكلام ، ان الثورة تحتاج إلى قادة ، وإلى قادة عقائدين .

#### الثورة وفن الحطة

حارب لينين النزعة الإصلاحية والحركة الإرهابية<sup>(٢)</sup> في وقت واحد ، لأن الأولى تمنح القوة الثورية والثانية موقف "أمؤذجي غير ناجح . الثورة عسكرية قبل ان تكون اقتصادية أو عاطفية . وإلى يوم تنفجر ، يختلط العمل الثوري مع فن الحطة . الحكم المستبد المطلق هو العدو . وقوته الأساسية في الشرطة ، وهي هيئة محترفة من الجنود السياسيين . النتيجة بسيطة : «إن مكافحة الشرطة السياسية يتطلب مزايا خاصة ، يتطلب ثوريين محترفين» . سيكون للثورة إذن جيشها المحترف بجانب الجماهير الذين يمكن استدعاؤهم ذات يوم للخدمة . يجب

(١) قال ماركس : «ما يتصوره هذا العامل أو ذاك أو حتى البروليتارية كلها ، انه الهدف ، ... لا قيمة له !»

(٢) لم ان اخاه الذي اصطفى الإرهابية ، قد شق .

تنظيم هذه الهيئة من المحترفين قبل تنظيم الجماهير بالذات . «شبكة من العملاء» ، هوذا تعبير لينين الذي يبشر اذت بسلطة الجمعية السرية وبسلطة رهبان الثورة الراقعين . قال : «نحن فتية الثورة الأشداء ، مع شيء يسوعي»<sup>(١)</sup> بالإضافة . اعتباراً من هذه اللحظة ، لا يعود هناك مهمة للبروليتاريا . ليست هذه الأخيرة سوى وسيلة قوية ، من بين وسائل أخرى ، في أيدي نساك ثوريين<sup>(٢)</sup> .

#### مشكلة الدولة

إن مشكلة استلام السلطة تستدعي مشكلة الدولة .

يُعتبر كتاب لينين « الدولة والثورة » (١٩١٧) ، الذي يتناول هذا الموضوع ، أغرب التآليف الانتقادية وأكثرها تناقضا . إن لينين يستعمل فيه طريقته المفضلة ، طريقة المرجع الحجة . فبمعونة ماركس وانغلز ، يبدأ بالقيام على كل نزعة اصلاحية تدعي استخدام الدولة البرجوازية ، اداة تسلط طبقة على أخرى . إن الدولة البرجوازية تركز على الشرطة وعلى الجيش ، لأنها قبل كل شيء اداة اضطهاد . انها ، في وقت واحد ، تعكس التناقض الطبقي غير القابل للتوفيق والحل "المحتم" لهذا التناقض . هذه السلطة الفعلية لا تستحق إلا الإزدراء . «حتى قائد السلطة العسكرية في دولة متقدمة قد يغبط زعيم العشيرة الذي كان المجتمع الأبوي القديم يحيطه باحترام طوعي غير مفروض بالعصا» . على كل ، أثبت انغلز اثباتاً راسخاً ان مفهوم الدولة ومفهوم مجتمع حر ، لا يقبلان التوفيق . «ستزول الطبقات لا محالة مثلما ظهرت . وبزوالها ستختفي الدولة لا محالة . إن المجتمع الذي سيعيد تنظيم الإنتاج على أساس تشارك المنتجين الحر المتكافئ ، سيرمي بآلة الدولة في المكان اللائق به - سا : في متحف الآثار القديمة ، بجانب دولاب المغزل والغاس المصنوعة من البرونز» .

(١) أي مع شيء من المكر والحالة - الحرب .

(٢) لقد سمى هاينه الاشتراكيين بـ «البروليتاريين الجدد» . إن البروليتاريا والثورة بيران سويماً من الناحية التاريخية

## آراؤه على ضوء فن الحطة

إن هذا يفسر دون شك أن بعض القراء الغفل اعتبروا «الدولة والثورة» من اتجاهات لينين الفوضوية ، وتباكوا على الذرية الغريبة لعقيدة قاسية بهذا المقدار نحو الجيش والشرطة والعصا والسلطة الديوانية (البيروقراطية) . ولكن كما قد درك آراء لينين ، يجب أن تُفهم دوماً بعبارات فن الحطة . فلئن يدافع بمثل هذه القوة عن نظرة انتهاز حول زوال الدولة البورجوازية ، فلأنه يريد من جهة أن يضع العقبات في طريق نظرة بليخانوف وكاوتسكي الاقتصادية المحض ، وأن يثبت من جهة أخرى بأن حكومة كيرنسي حكومة بورجوازية يجب تقويضها . وسيةوضها ، على كل ، بعد مضي شهر .

## الدولة البروليتارية وتلاشيها

وكان يجب الرد أيضاً على أولئك الذين كانوا يعترضون بأن الثورة بالذات تحتاج إلى جهاز إدارة وقمع .

هنا أيضاً استند استناداً واسعاً إلى ماركس وانتهاز كي يثبت عن طريق الحجة ، أن الدولة البروليتارية ليست دولة منظمة كالذول الأخرى ، بل هي بالتعريف دولة لا تكف عن التلاشي . « ما أن لا يعود هناك طبقة اجتماعية تستبقى في حالة الاضطهاد... حتى تكف الدولة عن أن تكون لازمة . إن أول عمل بواسطته تؤكد الدولة (البروليتارية) نفسها حقاً كتمثلة للمجتمع كله - تملك وسائل الانتاج في المجتمع - هو ، في الوقت ذاته ، آخر عمل خاص بالدولة . فمحل حكم الأشخاص محل إدارة الأشياء... الدولة لا تلغى إلغاءً بل تتلاشى تلاشياً . الدولة البورجوازية تلغى أولاً من قبل البروليتاريا . بعدئذ ، وبعدئذ فقط ، تتلاشى الدولة البروليتارية . إن دكتاتورية البروليتاريا ضرورية : ١ - لاضطهاد أو لإزالة ما تبقى من الطبقة البورجوازية ؛ ٢ - لتحقيق تملك الجماعة لوسائل الانتاج . ما أن تُعجز هاتان المهمتان ، حتى تبدأ دكتاتورية البروليتاريا بالتلاشي .

## تبرير استبقاء الدكتاتورية

ينطلق لينين اذن من المبدأ الواضح الراسخ ، والقائل إن الدولة تزول ما أن يتحقق تملك الجماعة لوسائل الانتاج ، لأن طبقة المستثمرين تزاح حينئذ . مع ذلك ، في نفس الكتاب ، ينتهي إلى تبرير استبقاء دكتاتورية فئة نورية بعد تملك الجماعة لوسائل الانتاج - على باقي الشعب ، دونما أجل قابل للتوقع . إن الكتاب يرجع في استمرار إلى تجربة حكومة الكومون ، ولكنه يناقض تماماً تيار الأفكار الاتحادية والمعادية للحكم المطلق المستبد ، والذي ولد حكومة الكومون . ويعارض ، على كل ، وصف ماركس وانغلز المتفائل . سبب ذلك واضح : إن لينين لم ينس ان حكومة الكومون قد فشلت . أما وسائل مثل هذا البرهان المدهش ، فهي اكثر بساطة أيضاً . لدى كل صعوبة جديدة تعترض سبيل الثورة ، 'تحوّل الدولة التي وصلها ماركس صلاحية إضافية . وبعد عشر صفحات ، ودونما انتقال ، يؤكد لينين في الحقيقة ان السلطة ضرورية لقبح مقاومة المستثمرين ، «وايضاً لتوجيه جماهير السكان الواسعة : الفلاحين ، البورجوازية الصغيرة ، أنصاف البروليتاريين ، نحو تنظيم الاقتصاد الإشتراكي» . الإنعطاف ، هنا ، لا ريب فيه . ها هي ذي دولة ماركس وانغلز الموقته ترى نفسها مكلفة بمهمة جديدة قد تطيل أمد حياتها .

## تناقض النظام مع نفسه

إننا نجد الآن تناقض النظام الستاليني المخالف للفلسفة الرسمية . فلما أن هذا النظام حقق المجتمع الإشتراكي الخالي من الطبقات ، .. وحينئذ لا يتبرر إبقاء جهاز قمع فظيع ، بمباراة ماركسية ؛ أو أنه لم يحقق هذا المجتمع ، .. وحينئذ يقوم الدليل على أن العقيدة الماركسية تنطوي على خطأ ، وخاصة ان تملك الجماعة لوسائل الإنتاج لا يعني زوال الطبقات . فالنظام ، إزاء عقيدته الرسمية ، مضطر إلى الإصطفاء : إما أنها باطلة ، .. أو أنه خانها . والواقع - مع نيتشايف وتقاتشيف - إن لاسال ، مبتدع اشتراكية الدولة ، هو الذي أنجح لينين في روسيا ، ضد ماركس .



إعتباراً من هذا التاريخ ، يتلخص نزاعات الحزب الداخلية ، من لينين إلى ستالين ، في النزاع بين الديمقراطية العمالية والديكتاتورية العسكرية البيروقراطية ، بين العدالة والفعالية أخيراً .

#### الاتحادية واستبقاء الدكتاتورية

تتساءل لحظة ألن يجد لينين نوعاً من التوفيق والانسجام ، وذلك إذ إننا نراه يمتدح الاجراءات التي اتخذتها حكومة الكومون : موظفون قابلون للانتخاب والعزل وتُدفع لهم أجورهم كالعامل ، استبدال البيروقراطية الصناعية ، بالإدارة العمالية المباشرة . بل نمة لينين اتحادي يتراءى للعيان ، يمتدح تأسيس الكومونات وتمثيلها . ولكن سرعان ما نكتين ان هذه الاتحادية لا تمتدح إلا بمقدار ما تعني إلغاء النظام البرلماني . إن لينين ، خلافاً لكل حقيقة تاريخية ، يُسمي هذه الاتحادية بالمركزية ، وسرعان ما يركز على مفهوم الدكتاتورية البروليتارية ، آخذاً على الفوضويين تشدهم فيما يتعلق بالدولة . نمة تأكيد جديد - مستند إلى إنغلز - يتدخل هنا ويبرر استبقاء دكتاتورية البروليتاريا بعد تمثلك الجماعة لوسائل الإنتاج وزوال الطبقة البورجوازية ، وحتى بعد تحقق إدارة الجماهير . إن حدود إبقاء السلطة ستكون الآن ، تلك التي سترسمها شروط الانتاج نفسها . مثلاً : سيتطابق تلاشي الدولة التام مع امكان تقدم المساكن مجاناً للجميع .

إنها المرحلة العليا للشيوعية : « لكل امرءٍ بحسب حاجاته » . وإلى ذلك الزمان ، ستظل الدولة موجودة .

#### سرعة التطور ... ونحو المعايير

كم ستكون سرعة التطور نحو هذه المرحلة العليا للشيوعية ، حيث سيأخذ كل امرءٍ بحسب حاجاته ؟

« هذا الأمر ، لا نعلمه ولا يمكننا أن نعلمه ... إننا لا نملك معطيات تسمح لنا بالبث في هذه المسائل » . وفي سبيل مزيد من الوضوح ، يؤكد لنا لينين

تأكيداً اعتبارياً دوماً «انه لم يخطر ببال أي اشتراكي أن يَعدَّ بمجيء المرحلة العليا من الشيوعية». عند هذه النقطة ، يمكن القول إن الحرية تزول زوالاً نهائياً .

من سيطرة الجماهير ، من مفهوم الثورة البروليتارية ، تنتقل أولاً إلى فكرة ثورة يقوم بها ويديرها عملاء محترفون . بعدئذ، يجري التوفيق بين انتقاد الدولة القاسي ... وبين دكتاتورية البروليتاريا - الضرورية ، ولكن الموقته - بمثابة في شخص قادتها . أخيراً ، يُعلن عدم امكان التكهن بجد هذه المرحلة الموقته ، ويُعلن أيضاً انه لم يخطر قط ببال أي شخص أن يَعدَّ بأن سيكون هناك حد . فنطقي والحالة هذه أن يُحارب استقلال المجالس العمالية ، وأن يتعرض «ماخو» للخيانة ، وأن يسحق الحزب بحجارة كرونشتاد .

#### الدولة ومفهوم التلاشي

لا جرم انه يمكن معارضة النظام الستاليني بكثير من تأكيدات لينين المتسم بالعدالة، ولا سيما بمفهوم التلاشي . حتى لو سلمنا ان الدولة البروليتارية لا يسعها ان تزول قبل انقضاء فترة طويلة من الزمن فلا بد أيضاً - بموجب العقيدة - كما تتمكن هذه الدولة من الادعاء بانها بروليتارية ، ان تتجه نحو الزوال وأن يتناقض ما فيها من قسر وإكراه . من المؤكد ان لينين كان يعتقد أن هذا الاتجاه محتم ، ومن المؤكد أيضاً ان الوقائع جاوزته . فالدولة البروليتارية لم تُبد أية علامة وهن ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً . بل ، بالعكس ، سنلاحظ ازدهارها المتزايد . بعد مضي عامين ، على كل ، وفي محاضرة أُلقيت في جامعة سفيرد洛夫 ، تحت ضغط الاحداث الخارجية والوقائع الداخلية ، سيدلي لينين بتوضيح يُشعر باستبقاء الدولة البروليتارية المتفوقة إلى زمن غير محدود . « بهذه الآلة ، أو بهذه المطرقة (الدولة) ، سنسحق كل استثمار ، وحينئذ لا تبقى على الارض إمكانات استثمار ، ولا يبقى أشخاص يملكون الأراضي والمعامل ، ولا يبقى أشخاص يصابون بالبشم امام الجياع ، ... حينئذ تصبح امثال هذه الاشياء

مستحيلة ، حينئذ فقط سنتخلى عن هذه الآلة ، حينئذ لا تبقى دولة ولا يظل استثمار . ستبقى الدولة اذن ما بقي على الارض - لا في مجتمع معين - مضطهد أو ممالك . وطوال هذه المدة ، ستضطر الدولة إلى تنمية ذاتها ، كي تغلب على المظالم تبعاً ، وعلى حكومات البغي والجور ، وعلى الامم المبعنة في البورجوازية ، وعلى الشعوب العمية عن مصالحها الخاصة . وحينما يكون آخر عمل من أعمال الظلم قد أغرق في دماء الابرار والاشرار، على الارض التي افتتحت أخيراً وطُهرت من الخصوم ، حينئذ سنرى الدولة وقد بلغت منتهى القوة وغدت طاغوتاً شنيعاً يغطي العالم كله ، تتلاشى بحكمة وتعمل في مجتمع العدالة الصامت (١) .

#### توسيع العدالة ... والتسمية الثورية

تمت ضغط الحركات التوسعية المتناحرة - وهو ضغط قابل للتوقع مع ذلك . ، ولدت في الحقيقة مع لينين توسيع العدالة . ولكن التوسعية ، حتى لو كانت توسيع العدالة ، ليس لها من نهاية سوى الاندحار .. أو امبراطورية العالم . وإلى ذلك الموعد، ليس لها من وسيلة سوى الجور والبغي . ومذ ذلك، تتطابق العقيدة تطابقاً نهائياً مع النبوءة . فمن أجل عدالة بعيدة ، تبرر العقيدة الجور والبغي خلال كل زمان التاريخ ، وتصبح هاتيك التعمية التي كانت أبغض الاشياء في العالم إلى لينين . إنها، بواسطة الوعد بالمعجزة، تدفع إلى الرضا بالجور والجريمة والكذب . المزيد من الانتاج ، والمزيد من السلطان ، العمل الدائب ، العذاب المقيم ، الحرب الدائمة ، . . . وذات يوم نرى العبودية المعممة في (الامبراطورية) الشاملة . . . تتحول بصورة عجيبة إلى نقيضها : التفرغ الحر في جمهورية عالمية .

(١) مجتمع العدالة = المجتمع غير الطبقي = ملكوت الفايان = الملكوت الأرضي = أورشليم = المجتمع المسالمي . . . إلخ . هذا هو المجتمع المنسجم ، مجتمع الوحدة ، ونقيضه : الامبراطورية - الحرب -

التعمية الثورية الكاذبة أصبح لها الآن شعارها : يجب القضاء على كل حرية في سبيل افتتاح «الامبراطورية» ، و«الامبراطورية» ذات يوم ستصبح الحرية ، إن درب الوحدة يمر اذن بالشمول . (١)

## ٥ - الشمول والمفاضلة

الشمول .. والحرية

ليس الشمول ، في الحقيقة ، سوى الحلم القديم بالوحدة ، المشترك بين المؤمنين والمتمردين ؛ ولكنه حلمٌ مرشوقٌ أفقياً على ارض بلا إله . ان التخلي عن كل قيمة معناه التخلي عن التمسك لقبول «الامبراطورية» والعبودية . وما كان في وسع نقد القيم الصورية ان لا يتعرض لمفهوم الحرية . فما ان اعترف بأنه يستحيل علينا ان نولد بمجرد قوى التمرد الفردي الحر الذي حلم به الرومانيون ، حتى دججت الحرية ، هي ايضاً ، في حركة التاريخ . فأصبحت حريةً مكافئةً عليها ان تصنع نفسها كما توجد . وبما انها تطابقت مع حركة التاريخ ، لذلك لن يتسنى لها ان تتمتع بذاتها إلا حينما يبلغ التاريخ منتهاه في «المجتمع العالمي» . وفي غضون ذلك ، سيولد كل انتصار من انتصاراتها إنكاراً يجعلها حرية عقيمة . فالأمة الالمانية تحررت من مضطهدتها الحلفاء ، ولحكن مقابل حرية كل ألماني (٢) . لا حرية للأفراد في النظام الاستبدادي ، وإن تحرر الانسان الجماعي . وفي النهاية ، حينما تحرر «الامبراطورية» الجنس كله ، ستخيم الحرية على قطعان من العبيد الذين سيكونون ، على الاقل ، أحراراً بالنسبة إلى الإله ، وبوجه عام ، بالنسبة إلى كل استشراف (٣) .

(١) الوحدة = الالسام ؛ الشمول = الكلية - العرب -

(٢) يشير إلى تسلط الفاشية بعد جلاء الحلفاء - العرب -

(٣) استشراف المباديء .

## حرية أم عبودية

إن المعجزة الجدلية ، ونعني تحول الكمّ الى كيف<sup>(١)</sup> ، تتوضح هنا: 'تفضلّ تسمية العبودية التامة ... بالحرية . على كلٍ ، كما في جميع الامثلة التي يضرها هيجل وماركس ، لا يوجد أبداً تحول موضوعي ، بل يوجد تبدل ذاتي في التسمية . ليس من معجزة . فاذا كان أمل العدمية الوحيد ان يتمكن ملايين العبيد ذات يوم من تشكيل انسانية محررة ، الى الابد ، مما التاريخ سوى حلم يائس . لقد حرر الفكر التاريخي الانسان من التبعية الإلهية ، ولكن هذا التحرير يتطلب منه الخضوع للصيرورة خضوعاً مطلقاً . وبالتالي يهرع المرء الى مقر الحزب ، مثلما كاث يهرع الى المذبح . لذلك فان العصر الذي يجرؤ على الادعاء بأنه العصر الأكثر تقيداً ، لا ينجبرنا إلا بين مواقف اذعانية .

العبودية هي الهوى الحقيقي للقرن العشرين .

## الحرية التامة .. والامبراطورية

بيد ان الحرية التامة ليست أبسر منالاً من الحرية الفردية . فلتأمن سيطرة الانسان على العالم ، يجب ان يزاح من العالم ومن الانسان كل ما يستعصي على «الامبراطورية» ، كل ما ليس من مملكة الكمّ : هذا المشروع لا حد له . يجب ان يشمل المكان والزمان والاشخاص ، وهي أبعاد التاريخ الثلاثة .

«الامبراطورية» هي في الوقت نفسه حربٌ وظلامية Obscurantisme وطمعيات ، مؤكدةٌ تأكيداً يائساً بأنها ستكون إثناءً وحقيقة وحرية ، لأن منطق بديياتها يجبرها على ذلك .

ليس من شك في ان هناك في روسيا الحالية وحتى في شيوعيتها ، حقيقةٌ تنكر العقائدية الستالينية . ولكن هذه العقائدية لها منطقها الذي يجب عزله وإبرازه إذا أردنا ان تنبع الروح الثورية من الانحطاط النهائي .

(١) يشير الى احد توالين المادية الجدلية -المغرب-

لما تدخل الجيوش الغربية الرقع ضد الثورة السوفياتية أظهر للثوريين الروس في جملة ما أظهر أن الحرب والقومية حقيقتان واقعتان مثل الصراع الطبقي . فلعدم وجود تضامن أممي بين البروليتاريين يتدخل بصورة آلية ، ما كان في وسع أية ثورة داخلية ان تعتبر نفسها قابلة للحياة دون ان يوجد نظام أممي . منذ ذلك ، وجب التسليم بأنه لن يمكن بناء «المجتمع العالمي» إلا بأحد شرطين : إما نشوب ثورات في جميع البلدان الكبرى في وقت واحد تقريباً . وإما تصفية الأمم البورجوازية بواسطة الحرب .

الثورة الدائمة ... أو الحرب الدائمة .

الرأي الأول كاد ينجح ، كما هو معلوم . فالحركات الثورية التي حدثت في ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أشارت الى أوج الروح الثورية . إلا ان سحق هذه الثورات وما نجم عنه من تعزيز للنظم الرأسمالية ... جعلنا من الحرب حقيقة الثورة .

إن فلسفة الانوار أدت إذن الى ... أوروبا منع التجول .

كانت على «المجتمع العالمي» ان يتحقق في عصيان المستضعفين المعهوي ، ولكن ، بموجب منطق التاريخ والعقيدة ، خيبت على هذا المجتمع «الامبراطورية» المفروضة بوسائل القوة . وسبق لإنغاز - الذي صوبه ماركس - أن سلّم بهذا الاحتمال المتوقع . كتب رداً على كتاب باكونين «نداء الى السلاف» ، فقال : «ان الحرب العالمية القادمة ستزيل من سطح الارض طبقات وسلالات ملكية رجعية . ليس ذلك فعسب ، بل ستزيل ايضاً شعوباً رجعية بمرمتها . وهذا ايضاً جزء من التقدم» . كانت على ذلك التقدم ، في اعتقاد انغاز ، ان يزيح روسيا القيصرية . أما اليوم فقد قلبت الأمة الروسية اتجاه التقدم . فالحرب ، الباردة والفاخرة ، هي عبودية «الامبراطورية» العالمية .

ولكن الثورة ، إذ صارت توسعية ، أصبحت في مأزق .  
فاذا لم تتخل عن مبادئها الباطلة لتعود الى يناييع التمرد ، فانها لا تعني  
سوى استبقاء دكتاتورية تامة على مئات الملايين من البشر ، لأجيال عدة ،  
ربما تتحلل الرأسمالية تحللاً عفويًا .

وإذا ارادت ان تسارع في مجيء « المجتمع الانساني » ، فانها لا تعني سوى  
الحرب الذرية التي لا تريد ، والتي لن يشع كل مجتمعات بعدها الا على انقراض  
نهائية .

فالثورة العالمية ، بموجب قانون هذا التاريخ الذي مجدته بطياشة ، مصيرها  
المحتم بطش الشرطة .. أو دوي القنابل ، الدكتاتورية .. أو الحرب .  
وبالتالي ، تجدد نفسها في تناقض إضافي .

إن التضحية بالاخلاق وبالفضيلة ، وقبول كل الوسائل التي يرتتها الثورة دائماً  
بالغاية المتوخاة ، ... تقول : ان هذين الامرين لا يُقبل بهما عند اللزوم إلا  
تبعاً لنهاية يكون احتمال حدوثها معقولاً . ولكن السلم المسلح يفترض ،  
باستبقاء الدكتاتورية غير المحدود ، انكار هذه النهاية انكاراً غير محدود . أضف  
إلى ذلك ان خطر الحرب يقرب هذه النهاية باحتمال طفيف .

إن بسط «الامبراطورية» على المدى العالمي ضرورة حتمية بالنسبة الى ثورة  
القرن العشرين . ولكن هذه الضرورة تضع الثورة للمرة الاخيرة أمام أحد  
أمرين : إما أن تبتدع لنفسها مبادئ جديدة ، وإما أن تتخلى عن العدل  
والسلم اللذين تريد سيادتهما النهائية .

الامبراطورية والسيطرة على الزمان

ربما تبسط سيطرتها على المكان ، ترى «الامبراطورية» نفسها مضطرة ايضاً  
الى بسط سلطانها على الزمان . ففي انكارها كل حقيقة ثابتة ، عليها ان تصل  
الى حد انكار ادنى شكل من أشكال الحقيقة ، حقيقة التاريخ . لقد نقلت  
الامبراطورية الثورة ( التي ما زالت مستحيلة على صعيد العالم ) الى صعيد الماضي

الذي تعمل على إنكاره . وهذا بالذات هو كذلك منطقي . كل ارتباط بين الماضي أو المستقبل ، لا يكون ارتباطاً اقتصادياً بحتاً ، يفترض وجود استمرار ، بدوره ، قد يوحي بوجود طبيعة بشرية . ان الارتباط العميق الذي أبقاه ماركس - الشخص المثقف -- بين الحضارات ، كان من شأنه ان يجاوز نظرتة ، وأن يظهر وجود استمرار طبيعي أوسع من الاقتصادي . وقد اضطرت الشيوعية الروسية تدريجياً الى نفس الجسور ، والى إدخال انقطاع في الصيرورة . إن إنكار العبقريات الروائية ( وتكاد تكون جميعاً كذلك ) ، ومساهمات الحضارة والفن ( بمقدار انفلاته اللامتناهي من التاريخ ) ، والتخلي عن التقاليد الحية ، ... كل هذه الاشياء حبت الماركسية المعاصرة تدريجياً في حدود متزايدة الضيق . فلم يكفها أن تنكر أو أن تُغرس ما ليس في وسع العقيدة ان تتمثله في تاريخ العالم ، ولم يكفها ايضاً ان تنبذ مكتسبات العلم الحديث ، بل وجب عليها ايضاً ان تعيد صنع التاريخ ، حتى أقرب به عهداً وأبعده عن الالتهاس ، مثلاً : تاريخ الحزب والثورة . فمن عام لعام ، ومن شهر لشهر أحياناً ، تقوم جريدة البرافدا بتصحيح نفسها ، وتتالى طبعات التاريخ الرسمي المعدلة ، وتمتد يدُ الرقابة حتى الى كتب لينين ، ويُمتنع حتى عن نشر بعض مؤلفات ماركس .

#### حيلة ام وم

عند هذا الحد ، لا تعود المقارنة مع الظلامية الدينية صحيحة . فالكنيسة لم تصل قط الى حد أن تقرر تباعاً بأن التجلي الرباني يكون في ذاتين اثنتين ، ثم في أربع أو في ثلاث ، ثم ايضاً في اثنتين . ان التسارع الخاص بعصرنا ينتقل ايضاً الى صنع الحقيقة التي تُصبح ، بهذه الرتيورة ، مجرد وهم . فكما في الحكاية الشعبية حيث نرى أنوال المدينة كلها تنسج خيوطاً وهمية لإلباس الملك<sup>(١)</sup> ، ثمة

(١) اشارة الى حكاية الكاتب الداعركي : هانز كريستيان أندرسن المسماة «ملابس الملك» .  
- المررب -



ألف مؤلفة من البشر مهنتهم الغربية أن يصنعوا كل يوم تاريخاً باطلاً ، وأن ينسخوه في نفس الليلة... ريثما ينبري احد الاطفال ليعلن بصوته الهادي... أن الملك عاري من الثياب<sup>(١)</sup> ، إن هذا الصوت المتمرد الصغير سيقول حينئذ ما كان في وسع الجميع أن يروه : ونعني ان ثورة<sup>(٢)</sup> 'يحكم عليها بأن' تنكسر دعوتها العالمية... كما تستمر ، أو بأن تتغلى عن ذاتها... كما تكون عالمية ، هي لعمرى ثورة تقوم على مبادئ باطلة .

#### الامبراطورية والسيطرة على الاشخاص

في غضون ذلك ، يستمر تطبيق هذه المبادئ على ملايين البشر . إن حلم «الامبراطورية» يروي غليله في الاشخاص ، إذ توقعه حقائق الزمان والمكان . ليس الاشخاص معادين للامبراطورية بوصفهم افراداً فقط : فحينئذ يكون الارهاب التقليدي كافياً . لانهم يناصبونها العداة بمقدار ما لم يتسن قط للطبيعة البشرية حتى الآن ان تحيا بالتاريخ فقط ، وأفلتت منه دائماً من جهة ما . «الامبراطورية» تفترض انكاراً وبقيناً : اليقين بطواعية الانسان اللامتناهية ، وانكار الطبيعة البشرية . ان فنون الدعاية تفيد في قياس هذه الطواعية ، وتحاول ان تطابق بين التفكير والمنعكس الشرطي *Réflexe conditionné* . فهي تبيع توقيع ميثاق مع ذلك الذي اعتبرته ، خلال سنين ، العدو المميت<sup>(٣)</sup> . أضف الى ذلك انها تسبح بقلب الأثر النفساني الحاصل على هذه الصورة ، وبإقامة شعب بأسره ، مرة ثانية ، ضد نفس العدو<sup>(٣)</sup> . التجربة لم تبلغ بعد نهايتها ، ولكن مبدأها منطقي . فاذا لم يكن هناك طبيعة بشرية ، فان طواعية الانسان تكون في الحقيقة لامتناهية . عند هذا الحد ، ليست الواقعة السياسية سوى رومانسية جامحة ، رومانسيةفعالية .

(١) هذا ما يحدث في الحكاية ، حيث يقول الطفل ان الملك عاري حين كانوا يتأملون ..

الملابس الوهمية بإصجاب .

(٢) يشير الى الميثاق الذي عقد مع هنتر قبيل الحرب العالمية الثانية - الحرب -

(٣) هذا ما حصل بعدما هاجت ألمانيا الاتحاد السوفياتي - الحرب -

يُصعب واضحاً بالتالي ان الماركسية الروسية ترفض عالم « اللاعقلاني » في  
بجموعه ، رغم انها تعرف كيف تستفيد منه . في وسع « اللاعقلاني » أن يخدم  
« الامبراطورية » ... وان يدحضها ايضاً . انه يستعدي على الحساب ، ...  
والحساب وحده يجب ان يسود في « الامبراطورية » . ليس الانسان سوى آلية  
قوى يمكن التأثير فيها عقلياً . ثمة ماركسيون طائشون اعتقدوا أنهم قادرون  
على التوفيق بين عقيدتهم وعقيدة فرويد مثلاً . ولـصين سرعان ما بين لهم ان  
فرويد مفكر منشق و « بورجوازي صغير » ، لأنه اكتشف العقل الباطني<sup>(١)</sup> ،  
وأسند اليه على الاقل حقيقةً بقدر ما للأنا - العليا Sur-moi ، أو الأنا  
الاجتماعية . هذا العقل الباطن يمكنه حينئذ ان يُعرف أصالة طبيعة بشرية ،  
معارضة للأنا التاريخية . الانسان ، بالعكس ، يجب ان يُلغى في الأنا  
الاجتماعية والعقلانية ، وهي موضع حساب . لذلك يجب إخضاع حياة كل  
فرد . ليس ذلك فحسب ، بل يجب ايضاً إخضاع الحادث الأكثر ل« عقلانية »  
والأكثر تفرداً ، والذي يواكب ' ترقيته الانسان طيلة حياته<sup>(٢)</sup> .  
ان « الامبراطورية » ، في مسعاها المجهوم نحو الملكوت النهائي ، تنزع الى  
دمج الموت<sup>(٣)</sup> .

الخلط بين الأشخاص والأشياء

في وسعنا ان نخضع انساناً حياً وأن نُردِّيه إلى حالة شيء تاريخية . ولكن  
اذا مات وهو يرفض ، فانه يؤكد ثانية وجود طبيعة بشرية تطرح نظام الأشياء .  
لذلك لا يُقدِّم المتهم ويُقتل أمام الملائكة ، إلا إذا وافق على الدول مات موته  
سيكون صحيحاً ومطابقاً « لإمبراطورية » الأشياء<sup>(٤)</sup> . يجب أن يموت في

(١) أو اللاشعور - المرعب -

(٢) يقصد الموت - المرعب -

(٣) سفين ذلك في المقطع التالي - المرعب -

(٤) الأشخاص الذين تحولوا إلى أشياء - المرعب -

العار، ... أو ان لا يعود موجوداً في الحياة ولا في الموت . وفي هذه الحالة الأخيرة ، لا يموت موقاً بل يضمحل اضمحلالاً . وكذلك المدان ، إذا حل به عقاب فات عقابه يحتاج احتجاجاً صامتاً ويدخل صدعاً في الكلية . ولكن المدان لا يُعاقب ، بل يُعاد إلى محله في الكلية ، ويُسهم في بناء آلة «الامبراطورية» . انه يتحول إلى جزء في آلة الإنتاج ، ضروري ، على كل ، لدرجة انه مع الزمن لن يُستخدم في الإنتاج لانه مذنب ، ... بل يُعتبر مذنباً لان الانتاج بحاجة إليه .

والحقيقة ان النظام الاعتقالي (١) الرومي قد حقق الانتقال الجدلي من حكم الاشخاص إلى إدارة الاشياء ... ولكن يخلطه بين الاشخاص والاشياء .

امبراطورية الأشخاص ... وامبراطورية الأشياء

حتى الخصم عليه ان يُسهم في العمل المشترك . خارج نطاق «الامبراطورية» ، لا خلاص أبداً . هذه «الامبراطورية» هي ، أو ستكون ، امبراطورية الصداقة . ولكن هذه الصداقة هي صداقة الأشياء ، لأنه لا يجوز تفضيل الصديق على «الامبراطورية» . إن صداقة الاشخاص (وليس لها تعريف آخر) هي التضامن الخصوصي ، حتى الموت ، ضد كل ما ليس من مملكة الصداقة . أما صداقة الاشياء فهي الصداقة بوجه عام ، الصداقة مع الجميع . وهي تفترض الوشاية بكل فرد ، إذا كانت تريد صيانة نفسها . من يجب صديقه أو صديقه فانه يجب في الحاضر . أما الثورة فلا تريد أن تحب إلا إنساناً ما زال غير موجود . الحب ، بصورة ما ، معناه قتل الإنسان الكامل الذي سيولدُ بواسطة الثورة . فكي يحيا ذات يوم ، في الحقيقة ، يجب ان يُفضل منذ الآن على كل شيء . في مملكة الاشخاص ، يرتبط البشر بوشائج المحبة . أما في «امبراطورية» الاشياء فيرتبطون بالوشاية والسعاية .

(١) استعملنا أيضاً : نظام الاضطهاد .

وعليه ، فالمجتمع الذي كان يريد أن يكون أخوياً ، يُصبح خلية من البشر المنفردين .

فيزياء النفوس

وعلى صعيد آخر ، لا يمكن إلا لفورة الانسان المتوحش اللاعقلانية ان تتصور وجوب تعذيب البشر تعذيباً سادياً لانتزاع موافقتهم . فلا نكون حينئذ إلا تجاه انسان يُخضع انساناً آخر في اجتماع دنس بين الاشخاص .

أما مثل الكلية العقلانية ... فيكتفي بأن يجعل الشيء يتغلب على الشخص في الإنسان . إن أعلى فكر يُخفّض أولاً إلى دركة أدنى فكر ، بواسطة طريقة الاختلاط الذهني البوليسية . ثم تسكن خمس ليالي أرق ، عشر ليال ، عشرون ليلة ، ... من التغلب على اعتقاد باطل ، وتخلق نفساً ممتة جديدة . وعلى هذا الأساس فالثورة النفسانية الوحيدة عرفها عصرنا ، بعد نظرية فرويد ، هي من صنع الشرطة السياسية الروسية والشرطة السياسية بوجه عام .

هذه الطرق الجديدة ، الموجهة بفرضية تقيدية ، والحاسبة لتقاط الضعف ولدرجة مرونة النفوس ، قد انكرت أحد حدود الإنسان . وهي تحاول ان تثبت بأنه ليس من سيكولوجيا فردية أصيلة ، وأن مقياس الطبائع المشترك ... هو الشيء .

هذه الطرق ابتدعت تماماً فيزياء النفوس .

العلاقات الانسانية

في عالم الارهاب العقلائي

اعتباراً من ذلك ، تبدلت العلاقات الانسانية التقليدية . هذه التبدلات المضطربة تميز عالم الإرهاب العقلائي ، حيث نمحياً أوروبا على درجات مختلفة . فمن الحوار ، وهو علاقة بين أشخاص ، استعُض بالدعاية أو المساجلة ، وهما نوعان من الحوار الذاتي . لقد حل التجرد ، الحُصص بعالم القوى والحساب ، محل الاهواء الحقيقية التي هي من ميدان الغريزة و «اللاعقلاني» .

البطاقة الغذائية محل الحبز، الحب والصدقة أخضعا للعقيدة ، والمصير للنخطة، العقاب سمي كمية انتاجية محدّدة ، الانتاج ناب مناب الابداع الحي ،... هذه الاشياء تصف جيداً أوروبا الهزيلة، المأهولة بأشباح القوى المظفرة أو المستعبدة. ومن قبل هتف ماركس قائلاً : «يا لبؤس هذا المجتمع لا يعرف وسيلة دفاعية أفضل من الجلاد ا» .

ولكن الجلاد لم يكن بعدُ ... الجلاد الفيلسوف ، ..  
ولم يكن ليطمح ، على الاقل ، إلى محبة البشر الشاملة .

#### الثورة والعقل المعاصر

إن التناقض الاخير في أعظم ثورة عرفها التاريخ لا يبلغ أبداً ، على كلٍ ، مبلغاً بحيث تطمح إلى العدالة ... شكّل سلسلة متصلة من أعمال الظلم والعنف . عبودية أم تعمية ، ... هذه المصيبة موجودة في كل زمان .

مأساة ' الثورة مأساة' العدمية ، وتختلط بمأساة العقل المعاصر الذي ، في طموحه إلى الكلي ، يكس ما ينزل بالانسان من تشويحات . الكلية ليست الوحدة. وحتى لو امتدت الاحكام العرفية إلى تخوم العالم ، فهي ليست لإحلال الانسجام . المطالبة بالمجتمع العالمي لا تبقى ، في هذه الثورة ، إلا بنبذ ثلثي البشر ، وبطرح تراث الاجيال العجيب ، وبانكار الطبيعة والجمال لصالح التاريخ ، وباجتثاث القدرة على الهوى والشك والسعادة والابداع الفردي عند الانسان ، وبكلمة واحدة : باجتثاث عظمته . المبادئ التي يتسلح بها البشر تتغلب في النهاية على أنبل مقاصدهم . فمن فرط الانكار والنزاع في استمرار ، ومن فرط المساجلات والحرمات والتعذيب المتبادل ، ينجح مجتمع البشر الاحرار المتأخين العالمي جنوباً تدريجياً ، ويُفسح المجال للعالم الوحيد الذي يُمكن فيه للتاريخ والفعالية أن يُرفعا إلى منصب القاضي الاعلى ، ونعني : عالم المقاضاة (١) .

(١) أي : عالم العنف القانوني .

العودة إلى مفهوم العقاب

كل ديانة تدور حول مفهومي البراءة والإثم .  
مع ذلك ، كان بروميثيوس المتمرد الاول 'ينكر حق إنزال العقاب . الإله  
زوس بالذات ، ولا سيما الإله زوس ، لم يكن على قدر كاف من البراءة  
بحيث يتلقى هذا الحق . فالتمرد ، في حركته الاولى ، لا يُقر إذن بالشرعية  
للعقاب .

ولكن المتمرد ، في تجسده الاخير ، في ختام رحلته المنهكة ، يعود إلى فكرة  
العقاب الدينية ، ويجعلها في مركز عالمه . الديان (القاضي الاعلى) لم يعد موجوداً  
في السموات ، ... إنه التاريخ بالذات يقرر كألوهية حقودة . التاريخ ، على  
طريقته ، ليس سوى عقاب طويل ، لأن الثواب الحقيقي لن 'يحظى به إلا في  
نهاية الازمنة (١) .

نحن بعيدون ، في الظاهر ، عن الماركسية وعن هينغل ، وأبعد أيضاً عن  
المتمردين الاوائل . بيد أن كل فكرة تاريخية تنفتح على هذه الماهوي . فبقدر  
ما تنبأ ماركس بالتحقق الحتمي للمجتمع غير الطبقي ، وبقدر ما أثبت إذن  
'حسن نية التاريخ ، كان لا بد من إرجاع كل تأخر في السير المتمرد إلى سوء  
نية الإنسان . لقد ادخل ماركس الخطيئة والعقاب ثانية في العالم المسلوخ من  
المسيحية ، ... انما تجاه التاريخ .

الماركسية ، من أحد وجوها ، هي عقيدة إثم فيما يخص الإنسان ، وعقيدة  
براءة فيما يخص التاريخ . فاذا كانت بعيدة عن الحكم ، تجلت تاريخياً في العنف  
الثوري . واذا كانت على سدة الحكم ، تعرضت لان تصبغ العنف الشرعي ،  
أي : الإرهاب والمقاضاة .

الأحكام في العالم الجديد

في العالم الديني ، على كل ، يؤجل الحكم الحقيقي إلى ما بعد . فليس

(١) أي : نهاية الازمنة المينة لبيء الملوكوت الأرضي .

ضرورياً أن تعاقب الجريمة فوراً ، وان تعلن البراءة . أما في العالم الجديد فيجب أن يصدر الحكم فوراً ، لان الإثم يتطابق مع الإخفاق والعقاب . لقد أدان التاريخ بوخارين ، ... لانه أعدم بوخارين . وأعلن براءة ستالين ... لان ستالين في ذروة القوة . أما تيتو فهو رهن المقاضاة ، مثلما كان تروتسكي (١) .. الذي لم يصبح إثمه واضحاً بالنسبة إلى فلاسفة الجريمة التاريخية إلا ساعة هوت عليه فأس القاتل . كذلك تيتو الذي لا نعلم - فيما يقال لنا - هل هو مذنب أم لا . لقد فضح ولكن لم يُصرع بعد . وحينما سيجنجل ... سيصبح إثمه مؤكداً . على كل ، إن براءة تروتسكي (وتيتو) الموقته كانت ترجع (وترجع) إلى حد كبير إلى العامل الجغرافي . فقد كنا بعيدين عن قبضة السلطة . لذلك يجب ان يحاكم ، دون إبطاء ، كل أولئك الذين يمكن أن تطالهم هذه القبضة . إن الحكم النهائي للتاريخ متعلقٌ بعددٍ لا متناهٍ من الاحكام تصدر في الفترة الفاصلة ، وسيؤكدها حينئذ هذا الحكم النهائي أو سيدحضها . هكذا ، يوعد باعادة اعتبار غامضة ، يوم تقام محكمة العالم مع العالم نفسه . فهذا الذي اعلن بأنه خائن وحقير (٢) ... سيراً وسيدخل مدفن العظماء . وهذا الآخر ... سيقى في الجحيم التاريخي .

عالم المقاضاة عالم دائري

ولكن من سيصدر الحكم حينئذ ؟

الإنسان بالذات ... وقد اكتمل أخيراً في ألوهيته الناشئة .

وإلى ذلك الاوان ، سيقوم أولئك الذين فهموا النبوءة ، القادرون وحدهم على أن يقرأوا في التاريخ المعنى الذي سبق لهم أنهم أودعوه فيه ، ... نقول : سيقوم هؤلاء باصدار أحكام نهائية بالنسبة إلى المذنب ، ... وموقته بالنسبة إلى القاضي فقط .

(١) معلوم ان تروتسكي قتل وهو في المنفى ، بواسطة فأس .

(٢) إشارة إلى اعترافات المتهمين العلنية اثناء محاكمتهم .

ولكن أولئك الذين يحكمون ، مثل « راجك » ، قد يتفق ان يحكم عليهم بدورهم . فهل يجب علينا ان نعتقد انه لم يعد يقرأ التاريخ بصحة ؟ الحقيقة ان انكساره وموته يثبتان ذلك ... فمن ذا الذي يضمن ان قضائه اليوم لن يصبحوا نخوة في الغد ، وان يحطوا من علياء محكمتهم إلى أقيية الإسمت حيث يعاني مالمونو التاريخ سكرات الموت ؟

الضمانة هي في بصيرتهم المعصومة . ما الذي يثبتها ؟ نجاحهم الدائم .

ان عالم المقاضاة عالم دائري يؤثر في النجاح والبرائة بعضها بعضا ، وتنعكس فيه جميع المرابا نفس التعمية .

العون ... التاريخي

هناك إذن عون تاريخي لا تنفذ إلى المقاصد إلا قدرته ، يكرم أو يلقي الحرم على مواطن « الأمبراطورية » . ولتفادي نزواته ، لا يملك المواطن إلا الإيمان ، كما عرفه القديس اينياس في «التارين الروحية» : « كي لا نضل السبيل ابدأ ، علينا ان نعتبر أسود ما أراه أنا أبيض ، .. إذا عرفته الكنيسة على تلك الصورة » . هذا الإيمان الإيجابي بمثلي الحقيقة وحده يستطيع أن يتخذ المواطن من فتكات التاريخ الغامضة . مع ذلك ، لا يتخاص من عالم المقاضاة ، لأنه مشدود إلى هذا العالم بعاطفة الخوف التاريخية . ولكنه ، بدون هذا الايمان ، معرض دائماً لأن يصبح مجرمًا موضوعياً ، وذلك من حيث لا يريد ورغم حسن نيته .

المجرم الموضوعي

في هذا المفهوم أخيراً يبلغ عالم المقاضاة أوجته . وبه تصبح الحلقة مغلقة . وهكذا ، في نهاية هذا التمرد الطويل بإسم البرائة البشرية ، وبمكم تبادل جوهرى ، يبرز تأكيد الإثم العام .

كل إنسان مجرم خفي عليه حال نفسه ...

المجرم الموضوعي هو ، بالضبط ، ذلك الذي كان يعتقد انه بريء . لقد



كان يعتبر عمله ، ذاتياً ، غير مضر ، أو حتى مفيداً لمستقبل العدالة . ولكن يُثبِتُ له ان عمله أضر بهذا المستقبل ... موضوعياً . هل نحن ازاء موضوعية علمية ؟ كلا . نحن ازاء موضوعية تاريخية .

#### التعريف الفلسفي للإرهاب

ولكن كيف نعرف ان العدالة تتأثر ، مثلاً ، بالتشهير الطائش بظلم حالي؟ الموضوعية الحقيقية تكمن في الحكم بقتضى النتائج التي يمكننا ملاحظتها علمياً على الوقائع ومنحائها . ولكن مفهوم الإثم الموضوعي يثبت لنا ان هذه الموضوعية الغريبة لا تقوم إلا على نتائج ووقائع لا يستطيع ان يبلغها إلا علمٌ عام ٢٠٠٠ ، على الأقل . وفي غضون ذلك ، تتلخص هذه الموضوعية الغريبة في ذاتية لا نهاية لها ، تفرض نفسها على الآخرين كموضوعية ...  
إنه التعريف الفلسفي للإرهاب .

#### السلطة تعرف الموضوعية

هذه الموضوعية ليس لها معنى قابل للتعريف . ولكن السلطة ستعطيها مضموناً ... فتعتبر آثماً كل ما لا توافق عليه . ستوافق على أن تقول ، أو على أن تدفع بعض الفلاسفة الذين يجيئون خارج «الأمبراطورية» على أن يقولوا ، إنها تغامر بالنسبة إلى التاريخ ، تماماً مثلما غامر المذنب الموضوعي ، ولكن من حيث لا يدري . وسيُثبِتُ في الأمر في المستقبل ، ... بعد موت الضحية والجلاد ...

ولكن هذا الغناء ليس له من قيمة إلا بالنسبة إلى الجلاد ... الذي لا يحتاج إليه .

وفي الفترة الفاصلة ، يُدعى المخلصون دورياً إلى احتفالاتٍ غريبة (١) تُقدّم فيها ، بحسب طقوس دقيقة ، ضحايا ممتلئة القلب بالندامة (٢) ... كقرايين إلى الإله التاريخي .

(١) إشارة إلى الحكايات .

(٢) إشارة إلى اعترافات المتهمين .

الواطن في المجتمع الموضوعي

إن منفعة هذا المفهوم المباشرة، هي الحيولة دون اللامبالاة في حقن الإيمان.  
انه التبشير القسري .

القانون الذي يفترض ان وظيفته مطاردة المشبهين ،.. هو الذي يصنع هؤلاء المشبهين . واذ يصنعهم يهديهم . في المجتمع البورجوازي مثلاً ، يُعتبر كل مواطن موافقاً على القانون . أما في المجتمع الموضوعي ... فسيُعتبر كل مواطن غير موافق على القانون ، أو على الأقل ، سيتعم عليه ان يكون مستعداً دائماً لأن يُثبت بأنه لا يستنكره . فالإثم لا يعود كامناً في الواقعة ، بل في مجرد فقدان الإيمان . وهذا ما يُفسر التناقض الظاهري في المذهب الموضوعي .

في النظام الرأسمالي ، يُعتبر مدعي الحياد مالياً موضوعياً للنظام . أما في نظام «الامبراطورية» فيُعتبر الحيادي معادياً موضوعياً للنظام . ولا غرابة في ذلك . فاذا كان مواطن «الامبراطورية» غير مؤمن بها ، فهو ليس شيئاً من الوجهة التاريخية ، وذلك بمحض اصطفاؤه . إنه يصطفي اذن ضد التاريخ . إنه مجدّف . الإيمان ، بطرف اللسان ، غير كاف . يجب على المرء أن يجيئه ، وان يعمل لخدمته ، وأن يكون دائماً على أهبة الاستعداد كي يوافق ، في حينه ، على تبدل المعتقدات . وبمجرد ارتكاب أبسط هفوة ، يُصبح الإثم بالقوة en Puissance ، بدوره ، إثماً موضوعياً (بالفعل) . فاذا تنهى الثورة تاريخياً على طريقها ، لا تكتفي بالقضاء على كل تمرد . إنما تلتزم بأن تعتبر كل إنسان، وحتى أخنع البشر ، مسؤولاً عن ان التمرد وجد وما زال موجوداً تحت الشمس .

في عالم المقاضاة ، وقد افتتح اخيراً واستُكمل ، ثمة شعب من المذنبين يسعى سعياً مستمراً نحو براءة مستحيلة ، تحت نظرة كبار المفتشين المرّة . السلطة ، في القرن العشرين ، كثيبة .

## بروميثيوس في نهاية رحلته

هنا تنتهي رحلة بروميثيوس المدهشة . انه ، اذ يجاهر بغيضه للآلهة ومجبه للانسان، ينصرف عن الإله زوس بازدراء ويُيتم وجهه شطر البشر ليقودهم في الهجوم على السماء . ولكن البشر ضعفاء أو أنذال، لذلك يجب تنظيم صفوفهم انهم يحبون اللذة والسعادة المستعجلة . يجب ان نعلمهم كيف يرفضون لذة الحياة كي يتعاضلوا . وهكذا يُصبح بروميثيوس ، بدوره ، سيداً يعلم أولاً ويسأمر بعدئذ . الصراع لا يزال مستمراً ويُصبح مُنهكاً. إن البشر يخامرهم الشك في امكان الوصول إلى الملكوت الأرضي، وفي وجود هذا الملكوت . يجب انقاذهم من انفسهم . حينئذ يقول لهم البطل إنه يعرف الملكوت ، وانه وحده الذي يعرفه . فالذين يشكون في ذلك يُرمى بهم في الصحراء، ويُسْمرون على صخرة، ويُقدّمون طعاماً للطيور الجارحة . أما الآخرون فسيسيرون بعد الآن في الظلمات ، وراء السيد المنفرد الغارق في التأملات . إن بروميثيوس ، بجفرده ، أصبح إلهاً ويبدط سلطانه على عزلة البشر . . ولكنه لم يأخذ عن الإله زوس إلا العزلة والقساوة . انه لم يعد بروميثيوس ، بل أصبح قيصر . أما بروميثيوس ، الحقيقي ، الخالد ، فاكتسب الآن وجه احدى ضحاياه .

نفس الصرخة الصادرة من سحيق الزمن ، تدوي على مدى الأجيال في قلب صحراء «سيتيا» .

## التمرد والثورة

### ثورة القرن العشرين

إن ثورة المبادئ تقتل الله في شخص بمثله (١) . أما ثورة القرن العشرين فتقتل ما تبقى من الله في المبادئ بالذات ، وتكرس العدمية التاريخية . مها تكن بعدئذ الطرق التي تسلكها هذه العدمية ، فما أن تريد أن تخلق في العصر ، خارج نطاق كل قاعدة أخلاقية ، ... حتى تبني هيكل «قصر» . اصطفااء التاريخ ، والتاريخ وحده ، معناه اصطفااء العدمية ضد تعاليم التمرد بالذات . فأما أولئك الذين يتهافتون على التاريخ بإسم «اللاعقلاني» ، هاتفين ان ليس له من معنى ، فانهم ملاقو العبودية والإرهاب وينتهون إلى عالم الاضطهاد . وأما الذين يتهافتون عليه مبشرين بعقلانيته المطلقة ، فانهم ملاقو العبودية والإرهاب وينتهون إلى عالم الاضطهاد أيضاً .

### الفاشية والثورة العنصرية

إن الفاشية تريد أن تهيم لمجيء «الإنسان المتفوق» النيتشوي . ومرعان ما تكتشف ان الله ، اذا كان موجودا ، فلعله هذا الشيء أو ذاك ، ولكنه قبل كل شيء رب الموت . فاذا أراد الإنسان أن يصبح إلهاً ، ادعى بحق الحياة أو

(١) ملك الحق الالهي .

الموت على الآخرين . فبما أنه صانعُ بُعثٍ ومسوخ ، لذلك فهو بالذات مسخٌ لا إله ، بل خادمٌ دنيءٌ للموت . أما الثورة العقلانية فتريد تحقيق الإنسان الكلي ، إنسان ماركس . ولكن ما أن يُقبل منطقُ التاريخ قبولاً تاماً ، حتى يسير بهذه الثورة تدريجياً - خلافاً لميلها السامي - إلى تشويه الإنسان تشويهاً متزايداً ، ويجولها إلى جريمة موضوعية .

غاياتها ووسائلها

ليس صحيحاً أن نمائل بين غايات الفاشية والشيوعية الروسية . فالفاشية تمثل تمجيد الجلاد للجلاد ... أما الشيوعية الروسية فتتمثل تمجيد الضحية للجلاد ... الأولى لم تحلم قط بتحرير الإنسان كله ، بل بأن تحرر بعض الناس فقط عن طريق إخضاع الآخرين . أما الثانية فتسعى ، في مبدئها الصميمي ، إلى تحرير البشر كافة عن طريق استعبادهم جميعاً بصورة مؤقتة . لذلك يجب أن تقر لها بعظم المقصد .

ولكن من الصحيح ، بالعكس ، أن نمائل ووسائلها مع الكلية السياسية التي استنتجتها من نفس المصدر : العدمية الأخلاقية . كل شيء جرى كما لو أن ذرية سترون ونيثايف استخدمت ذرية كالياف و برودون . إن العدميين اليوم متربعون على العروش . أما الفلسفات التي تدعي بأنها توجه عالمنا بإسم الثورة ، فقد أصبحت حقاً فلسفات إذعان ، لا فلسفات تمرد .

لهذا السبب يُعتبر عصرنا عصر تقنيات الإفتاء الخاصة والعامة .

الإرهاب والشوق إلى قيمة

الحقيقة إن الثورة انقلبت على أصلها المتمرد ، إذ امتثلت للعدمية . فالإنسان الذي كان يكره الموت وإله الموت وكان يمتلكه اليأس من البقاء الشخصي ، نشد الخلاص في خلود النوع .

بيد أنه لا بدّ أيضاً من الموت ، ما دامت الجماعة لا تحكم العالم ، وما دام النوع لا يسود فيه . إن الوقت يستوجب التعجيل حينئذ . وبما أن الإقناع

يتطلب متسماً من الزمان ، والصدقة تتطلب بناءً مستمراً ، .. لذلك يظل الإرهاب أقصر درب إلى الخلود .

على أن هذه المفاصد المفرطة تتم ، في الوقت نفسه ، عن الشوق إلى القيمة التمردية الأولى . إن الثورة المعاصرة التي تدعي انكار كل قيمة ، هي في حد ذاتها حكمٌ قيمي . والإنسان يريد أن يسود بواسطتها .

ولكن لماذا يسود إذا لم يكن هناك معنى لشيء ؟ ولم الخلود إذا كان وجه الحياة بشعاً ؟ ليس من فكرة عدمية تماماً ، اللهم إلا في الانتعاش ، مثلما ليس هناك مادية مطلقة (١) . إن إفناء الإنسان يؤكد أيضاً الإنسان . وما الإرهاب ومعسكرات الاعتقال إلا الوسائل الأخيرة يستعملها الإنسان للخلاص من العزلة ... على التعطش إلى الوحدة أن يتحقق حتى في حفرة القبر المشتركة . فلئن يقتل الناس الناس ، فلأنهم يرفضون الوضع الفاني ويريدون الخلود للجميع ، وحينئذ يقتل بعضهم بعضاً ، بصورة ما . ولكنهم يثبتون في الوقت ذاته أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن الإنسان . إنهم يروون ظاهراً الرهيب إلى الأخرى . «لا بدّ للمخلوق من فرحة ، وحينئذ لا تيسر له لا بدّ له من مخلوق» (٢) . الذين يرفضون عذاب الكينونة والموت ، يريدون حينئذ أن يتكلموا . قال المركيز ساد : «العزلة هي السلطة» . السلطة اليوم بالنسبة إلى أنوف المنفردين ، بما أنها تعني عذاب الآخر ، .. تم عن الحاجة إلى الآخر .

الإرهاب آية من آيات التبجيل 'يقدمها أخيراً نفر من المنفردين الخلوديين للأخوة البشرية .

العدو ... الأخ العدو

ولكن العدمية إن لم تكن موجودة فإنها تحاول أن توجد ، وهذا كاف للهروب من العالم . هذا الميل المفرط اكتسب عصرنا وجهه الكريه . إن أرض

(١) أشير إلى هذه النقطة في الصفحات السابقة .

(٢) ... ليارس عليه تحكيمه - العرب -

المذهب الانساني اصبحت هذه القارة الأوروبية ، الأرض الظالمة . واصل هذا العصر عصرنا ، وكيف ننكره ؟ اذا كان تاريخنا جحيماً فلا يسعنا ان نعرض عنه بوجهنا . هذا الهول لا يمكن تجنبه . ولكن في وسع البعض ان يأخذوه على عاتقهم كي يتجاوزوه . ونعني أولئك الذين عاشوه في الصحو ، لا الذين أحدثوه ثم اعتقدوا ان لهم حق اصدار الحكم . مثل هذه النبئة لم يتسن لها ان تظهر حقاً إلا على تربة كثيفة من الآثام المتراكمة . ففي نهاية صراع ممت يخلط فيه جنون العصر البشر بلا تمييز ، يظل العدو ... الأخر العدو . وحتى لو شهِر به في أخطائه ، لا يجوز ان يُزدرى ولا أن يُبغض . فالاشقاء اليوم هو الموطن المشترك ، الملوك الأرضي الوحيد الذي لبي العهد واستجاب للوعد .

رفض الاستكانة

النزوع الى السلم والراحة ، هو نفسه يجب ان يزاح ، لأنه يتطابق مع قبول الجور . الذين يتباكون على المجتمعات السعيدة التي يصادفونهم في التاريخ ، يُقرون بما يتمنون: صمّت البؤس ، لا التخفيف منه . ولكن فليمدح هذا الزمان حيث يصرخ<sup>(١)</sup> فيه البؤس ويؤرق جفن الشعبين ! ومن قبل تحدث دي . بيستر عن «الوعظ الرهيب الذي كانت الثورة تلقيه على الملوك» . انها تبشّر به اليوم ، وبإلحاح أشد ، لنخبة هذا العصر الملوثة بالعار . يجب سماع هذا الوعظ . في كل كلمة ، وفي كل فعل ، حتى لو كان آثماً ، يجرم الوعد بقيمة من واجبنا تلمسها وإظهارها .. المستقبل غير قابل للتوقع ، والنهضة لعلها مستحيلة . ومع ان منطق التاريخ باطل أو مجرم ، ففي وسع العالم ان يتحقق في الجريمة ، بحسب فكرة باطلة . على ان هذا النوع من الاستكانة مرفوض هنا . وواجبنا ان نراهن على النهضة .

لحظة منتهى التناقض

ما لنا ، على كل ، إلا ان نُبعث أو نموت . فاذا كنا في هذه اللحظة التي

(١) لعل صرح يتضمن معنى الاتهام والاحتجاج .

يبلغ فيها التمرد منتهى تناقضه إذ 'ينحصر ذاته ، فانه يضطر الى الفناء مع العالم الذي صنع ، أو ان يجد حقيقة" ووثبة" جديدة . قبل ان نسير 'قدماً ، لا بد لنا على الأقل" من توضيح هذا التناقض .

انه لا يتعرف جيداً حينما نقول كفلاسفتنا الوجوديين<sup>(١)</sup> مثلاً ( الخاضعين هم أنفسهم حالياً للنظرة التاريخية ولتناقضاتها) ان هناك تقدماً من التمرد الى الثورة، وان التمرد ليس بشيء إن لم يكن ثورياً . التناقض هو ، في الحقيقة ، أشد . فالثوري هو في الوقت نفسه متبرد ، وإلا فانه ليس حينئذ ثورياً ، بل شرطياً وموظفاً ينقلب على التمرد ولكن إذا كان متبرداً فانه ينقلب في النهاية على الثورة ، بحيث انه لا يوجد تقدم من موقف الى آخر ، بل حدوث في وقت واحد وتناقض متزايد في استمرار . كل ثوري يصبح في نهاية الامر طاغية" أو منشقاً . والتمرد والثورة في العالم التاريخي الصرف الذي اختاراه ، يصبحان أمام أحد أمرين : الشرطة أو الجنون .

#### التمرد والتاريخ

عند هذا المستوى ، التاريخ وحده لا يقدم اذن أي عطاء . انه ليس ينبوع قيمة ، بل ينبوع عدمية ايضاً . هل يمكننا على الأقل ان نخلق القيمة ضد التاريخ ، على مجرد صعيد التأمل الخالد ؟ هذا يعني المصادقة على الجور التاريخي وعلى بؤس البشر . ان التجني على هذا العالم يقود الى العدمية التي عرفها نيتشه . فالفكرة التي تتكون مع التاريخ وحده ، كالفكرة التي تنقلب على كل تاريخ ، كتساها تتزعان من الانسان وسيلة العيش أو سببه . الأولى نهوي به الى دركة: « لم العيش » والثانية الى : « كيف العيش » . فالتاريخ - اللام ، غير الكافي - ليس اذن سوى علة موجبة طارئة . انه ليس انعدام

(١) الوجودية الملحدة تريد ، على الأقل ، ان توجد اخلاقاً . يجب انتظار هذه الاخلاق . ولكن الصعوبة الحقيقية ستكون في ايجاد هذه الاخلاق دون اعادة ادخال قيمة غريبة عن التاريخ في الوجود التاريخي .



القيمة ، ولا القيمة بالذات ، حتى ولا مادة القيمة . انه السانحة الطارئة ، من مجموعة من السوانح الاخرى ، يمكن فيها للانسان ان يتعر بوجود قيمة - وهو وجود ما زال مبهماً - تقيده في الحكم على التاريخ . وان التمرد بالذات يعدنا بها .

#### التاريخ وتمرد الانسان

الحقيقة ان الثورة المطلقة كانت تفترض الطواعية المطلقة في الطبيعة البشرية ، وإمكان تحويلها الى حالة قوة تاريخية . ولكن التمرد لدى الانسان هو الرفض في ان يعامل معاملة الشيء ، وان 'يجول الى مجرد التاريخ . انه تأكيد وجود طبيعة مشتركة بين الناس جميعاً ، تستعصي على عالم القوة . لا ريب في ان التاريخ احد حدود الانسان ؛ وبهذا المعنى ، 'يعتبر الثوري 'محققاً . ولكن الانسان ، في تمرده ، يضع بدوره حداً للتاريخ . عند هذا المستوى ، يولد الوعد بقيمة . وولادة هذه القيمة هي التي تحاربها اليوم الثورة 'المستبدة محاربة حقودة ، لأنها تمثل خذلانها الحقيقي ، ووجوب تخليها عن مبادئها . في عام ١٩٥٠<sup>(١)</sup> ، وبصورة موقته ، لا يتقرر مصير العالم ، كما يبدو ، في الصراع بين الانتاج البورجوازي والانتاج الثوري ، لأن غاياتها ستكون نفس الغايات ؛ بل يتقرر في الصراع الدائر بين قوى التمرد وقوى الثورة المستبدة . على الثورة المظفرة ان تثبت ، بواسطة شرطتها ومحاكماتها وحرماناتها ، ان ليس هناك من طبيعة بشرية . وعلى التمرد المهان ، بتناقضاته وآلامه وانكساراته المتكررة وكبرياته الصامدة ، ان يمنح هذه الطبيعة محتوى الالم والامل .

#### التمرد والثورة التاريخية

« أنا أتمرد ، إذن نحن موجودون » ، هكذا كان يقول العبد ، ثم أضاف التمرد الماورائي قائلاً : نحن موجودون وحدنا ، وهو الشعار الذي ما زلنا نحيا به اليوم . ولكن اذا كنا وحيدين تحت السماء الخاوية ، واذا كان لزاماً

(١) الانسان المتمرد نشر عام ١٩٥١ .

علينا اذن ان نموت الى الابد ، فكيف يمكننا ان نوجد حقاً ؟ لقد حاول التمرد الماورائي ان يصنع الكينونة بواسطة « التظاهر » . بعد ذلك ، جاءت الفلسفات التاريخية الصرفة تقول ان الكينونة هي « العمل » (١) . لم تكن موجودين ، ولكن علينا أن نوجد بكل الوسائل . ان ثورتنا محاولة لاكتساب كينونة جديدة ، بواسطة العمل ، وخارج نطاق كل قاعدة اخلاقية . لذلك نحكم هذه الثورة على نفسها بأن لا تبني الا في سبيل التاريخ ، وفي الارهاب . وفي اعتقادهم ان الانسان ليس شيئاً اذا لم يحصل في التاريخ على الموافقة الاجتماعية ، طوعاً أو كرهاً . عند هذه النقطة المعينة ، يجري تحطيم الحد ، و«يخان التمرد أولاً ، ويُنصر منطقياً بعدئذ ، لأن التمرد لم يؤدك في أخلص حركة من حركاته سوى وجود حد ، وكينونتنا المنقسمة . فهو ليس في الاصل انكاراً تاماً لـ « كل كينونة » . انه ، بالعكس ، يقول : « نعم » و « لا » في وقت واحد . انه رفض قسم من الوجود ، بإسم قسم آخر يمجده التمرد . كلما عمق هذا التمجيد ، ازداد هذا الرفض عناداً . وحينما ينتقل التمرد ، في الدوار والفوران ، الى شعار « كل شيء أو لا شيء » ، الى انكار كل كينونة وكل طبيعة بشرية ، فانه عند هذه النقطة ينكسر ذاته . وحده الانكار التام يبرر مشروع غزو الكلاية . أما تأكيد وجود حد ، وجود كرامة وجمال مشتركين بين البشر ، فلا ينجم عنه سوى ضرورة توسيع هذه القيمة بحيث تشمل الجميع وكل شيء ، وضرورة السير نحو الوحدة دون انكار الاصل . بهذا المعنى ، لا يبرر التمرد ، في صحته الأولى ، أية نظرة تاريخية صرفة . إن مطلب التمرد... الوحدة ، ومطلب الثورة التاريخية... الكلاية . التمرد ينطلق من الرفض المستند الى قبول ، والثورة التاريخية تنطلق من الانكار المطلق وتتحكم على نفسها بكل العبوديات لتصنع «نعم» ، مؤجلة الى نهاية الأزمنة . التمرد مبدع والثورة التاريخية عدمية . الأول منذور لأن يخلق في سبيل المزيد من الكينونة ،

والثانية مجبرة على ان 'نتج' كما تمن في الانكار . انها تلزم نفسها بان تعمل دائماً ، مجدوها الامل بان توجد ذات يوم - وهو أمل 'يُجيب في استمرار . حتى الموافقة بالاجماع لن تكفي لخلق الكينونة . «أطيعوا» ، ... هكذا كان يقول فردريك الأكبر لرعيته . ولكنه في ساعة الموت قال : « سئمت من بسط السيادة على عبيد » . الثورة محكوم عليها وسيُحكم عليها ، للخلاص من هذا المصير العبيثي ، بالتخلي عن مبادئها الخاصة ، عن العدمية وعن القيمة التاريخية المحض ، كي تجد ينبوع التمرد الخلاق . كما تكون الثورة مبدعة ، لا يسعها الاستغناء عن قاعدة ، اخلاقية أو ماورائية ، تعدّل المذنبان التاريخي . ليس من شك في انها لا تشعر إلا بازدراءٍ صحيح للأخلاق الصورية المخادعة التي تجدها في المجتمع البورجوازي . ولكن جنونها يكمن في انها وسعت هذا الازدراء بحيث شمل كل مطلب اخلاقي . في أصلها بالذات ، وفي توثباتها الصميمية ، ثمة قاعدة ليست صورية ، وفي وسعها مع ذلك ان تقوم بدور المرشد . والحقيقة ان التمرد يهيب وسيهيب بها ان لا بدّ لها من محاولة العمل ، لا لتشرع بالوجود ذات يوم ، تحت انظار عالمٍ تردى الى الخنوع ، ولكن تبعاً لهذه الكينونة الغامضة التي سبق لها التكشف في حركة العصيان . هذه القاعدة ليست صورية ولا خاضعة للتاريخ . وهذا ما سيكفينا ان نوضحه باكتشافنا اياها في الحالة المجردة ، في الابداع الفني . ولكن فلنلاحظ منذ الآن أن التمرد المتصارع مع التاريخ ، يضيف الى شعار « أنا أتمرد » ، إذن نحن موجودين » ، والى شعار « نحن موجودون وحدنا » ، ... نقول : إن هذا التمرد يضيف قائلًا : إن علينا ان نحيا ونُحيي كي نخلق كينونتنا ، بدلاً من ان نقتل ونموت لتوليد كينونة غير كينونتنا .

## الفصل الرابع

### التمرد والفن

١ تمهيد

الننان واليهام

الفن أيضاً هو هذه الحركة التي 'تمجد وتتكبر في وقت واحد . قال نيتشه :  
«ما من فنان يتحمل الواقع» . هذا صحيح . ولكن مسا من فنان يستطيع  
الاستغناء عن الواقع . الابداع نشدان 'وحدة ورفض' العالم . ولكنه يرفض العالم  
بسبب ما ينقص هذا العالم ، وحياتياً بإسم ما هو . التمرد 'يلاحظ هنا في تعقيده  
الاولي ، خارج نطاق التاريخ ، وفي الحالة المجرّدة . فعلى الفن اذن ان يعطينا  
نظرة أخيرة على محتوى التمرد .

المصلحون الثوريون ومبادئ الفن

مع ذلك ، نلاحظ العداء للفن ، هذا العداء الذي أظهره كل المصلحين  
الثوريين .

إن افلاطون معتدل . فهو لا يضع موضع التساؤل سوى وظيفة الكلام  
الكاذبة ، ولا 'يبعد عن جمهوريته إلا الشعراء . وفيما يتعلق بالباقي ، انزل الجمال  
منزلة فوق العالم .

واكن الحركة الثورية في الازمنة الحديثة تلتقي مع مقاضاة الفن لم تنته بعد  
إن حركة لوثير وكالفان اصطفت الاخلاق وأبعدت الجمال. وأتهم جان جاك  
روسو الفن بأنه مفسدة" بضيفها المجتمع إلى الطبيعة . وحمل سان جوست على  
المسرح بشدة ، وفي البرنامج الرائع الذي وضعه من أجل « عيد العقل » أراد  
ان يمثل العقل بشخص « فاضل » لا بشخص « جميل » . ولم تنجب الثورة  
الفرنسية أي فنان ، بل أنجبت صحفياً كبيراً واحداً : ديولان ، وكاتباً  
متخفياً : المركيز ساد . أما الشاعر الوحيد في زمانها فأعدمته بالمقصة (١) .  
وأما الناثر الكبير الوحيد فهاجر من بلاده إلى لندن ودافع عن المسيحية  
والشرعية (٢) . وبعد ذلك بقليل ، طالب السان سيمونيون بفن « مفيد اجتماعياً » .  
إن « الفن للتقدم » (٣) ، نظرة " ترددت في العصر كله ، وتبناها هوغو دون ان  
يتمكن من جعلها مقنعة. والوحيد الذي أدخل على لعنة الفن لهجة دعاءٍ يثبتها،  
هو الكاتب جول فاليس .

#### الدميون الروس والفن

هذه الالهجة هي أيضاً لهجة العدميين الروس . فقد أعلن بيزاريف تدهور  
القيم الجمالية لصالح القيم العبلية . « أفضل أن أكون حذاءً روسياً على ان  
أكون رافايل روسياً » . في اعتقاده ان زوج أهدية انفع من شكبير . هذا ،  
وأكد العدمي نكراسوف ، الشاعر الكبير المحزن ، إنه يفضل قطعة جبن على  
كل بوشكين . أخيراً ، نحن نعلم ان تولستوي ألقى الحرم على الفن .

أما تمانيل فينوس وآبولون التي ما زالت مذهباً بشمس إيطاليا ، والتي  
استقدمها بطرس الأكبر ليضعها في حديقته الصيفية في بطرسبرغ ، ... نقول :

- (١) يقصد أندريه شينييه . راجع: الادب الثوري ، تأليف نهاد رضا .
- (٢) يقصد شاتوبريان ، مؤلف : عبقرية المسيحية . ويقصد بكلمة الشرعية الدفاع عن الشرعية  
في الملكية ، لان شاتوبريان كان من الملكيين .
- (٣) الفن للتقدم ، أو للمجتمع ، ويقابل ذلك : الفن للفن - المراد -

أما هذه التائيل المرمية فقد أهملتها في النهاية روسيا الثورية .  
إن البؤس يشيح بوجهه أحياناً عن صور الهناء المؤلمة .

#### الفكر الالمانى والدن

ليس الفكر الالمانى بأقل قساوة في اتهاماته . فبحسب شراح الفينومينولوجيا الثوريين<sup>(١)</sup> ، لن يكون هناك فن في المجتمع المنسجم . سيعاش الجمال عيشاً ، ولن يُتصورُ تصوراً . الواقع العقلافي<sup>(٢)</sup> ، تماماً ، سيروي وحده كل ظلماً . إن نقد الشعور الصوري والقيّم الهروبية يمتد طبعاً الى الفن . فالفن ليس منفصلاً عن الزمان ، بل يتحدد بعصره ويُعبّر ، فيما يقول ماركس ، عن القيم المفصّلة الخاصة بالطبقة المهيمنة . لا يوجد إذن إلا فن ثوري واحد هو ، بالضبط ، الفن الموضوع في خدمة الثورة .

لكن بما أن الفن يخلق الجمال خارج نطاق التاريخ ، لذلك يعارض الجهد الوحيد الذي يُعتبر عقلافيّاً ، ونعني تحويل التاريخ بالذات الى جمال مطلق . ما أن يعي الحذاء الروسي دوره الثوري ، حتى يصبح الخالق الحقيقي للجمال النهائي . أما رافايل ... فلم يخلق إلا جمالاً عابراً لن يفقه الانسان الجديد . يتساءل ماركس ، والحق يُقال ، كيف يتسنى بعدد للجمال الإغريقي ان يكون جميلاً بنظرنا . ويجيب قائلاً إن هذا الجمال يُعبّر عن طفولة العالم الساذجة ، ونحن ، في غمرة نزاعاتنا كأشخاص بالغين ، نشمر بالشرق الى هذه الطفولة . ولكن كيف يتسنى بعدد لروائع عصر النهضة الايطالية والفنان رامبراندت والفن الصيني ، ان تكون جميلة بنظرنا ؟ ما لنا والأمر ا

#### التجني على الدن

إن مقاضاة الفن قد 'فتح بابها نهائياً ، وهي اليوم تستمر بمشاركة في الإثم متلبكة ، صادرة عن فنانيين ومثقفين منصرفين الى التجني على فئهم وعقلهم .

(١) يقصد كتاب هينل : فينومينولوجيا الذهن .

(٢) أو : الوجود المنطقي .

وفي هذا الصراع بين شكبير والحذاء ، يلاحظُ في الحقيقة ان الذي يلعب شكبير أو الجمال ليس الحذاء ، ... بل ذلك الذي يتابع مطالعة كتب شكبير ولا يصنع الأحذية ... ، علماً بأنه لن يتمكن أبداً من صنعها . إن فناننا عسراً يشبهون أولئك النبلاء الروس الثائنين في القرن التاسع عشر ، وعذرم في شعورهم الفاسد . ولكن آخر شيء يمكن للفنان أن يشعر به أمام فنّه هو الندامة . إن ادعاء تأجيل الجمال ايضاً الى نهاية الأزمنة معناه تجاوز التواضع البسيط اللازم ، ومن الآن الى ذلك الاوان حرمان كل الناس ... بما فيهم الحذاء ... من هذا الغذاء الاضافي الذي استفدنا منه نحن-بالذات- .

#### المجازات والعالم الدليل

على أن لهذا الجنون التنسكي أسبابه التي تهتمنا هي على الأقل . انها ، على الصعيد الجمالي تعبر عن الصراع بين الثورة والتمرد ، والذي سبق وصفه في كل تمرد يتكشف تطلّب الوحدة الماورائي ، واستحالة الوصول اليها ، وبناء عالم بديل . من هذه الوجهة ، يكون التمرد صانع عالم . وهذا يعرف الفن ايضاً . ان تطلب التمرد ، والحق يقال ، هو جزئياً تطلب جمالي . وقد رأينا ان كل الفلسفات التمردية تتجلى في تعابير مجازية أو عالم مغلق . « الأسوار » عند لوكريس ، « الأديرة والقصور المغلقة » عند الماركيز ساد ، « الجزيرة والصخرة » عند الرومانسيين ، « الذرى المنعزلة » عند نيتشه ، « الأوقيانوس الأولي » عند لوتريامون ، « الحواجز » عند رانبو ، « القصور الرهيبة تولد ثانية » وتهب عليها عاصفة من زهور « عند السرياليين ، « السجن » ، « الأمة المتحصنة بمتاريس » ، « معسكر الاعتقال » ، « امبراطورية العبيد الأحرار » ، ... كل هذه المجازات تُعبر على طريقتها عن نفس الحاجة الى التلاحم والوحدة .

على هذه العوالم المغلقة يمكن للانسان أن يسود وأن يعرف اخيراً .

#### الفنان والعالم

هذه الحركة هي أيضاً حركة الفنون جميعها . والفنان يعيد صنع العالم ،

على حسابه . إن سائقونيات الطبيعة لا تعرف نقطة الوقف . العالم لا يصت  
أبدأ ، وصمته بالذات يُكرر أبدأ نفس الانعام ، بحسب اهتزازات لا ندر كها .  
أما الاهتزازات المدركة فتعطينا أصواتاً ، وتوافقات صوتية في النادر ، ولا  
تعطينا أبدأ لحناً . مع ذلك فالموسيقى موجودة ، حيث السائقونيات تنتهي ،  
والتوافق الصوتي يُعطي شكلاً لأصواتٍ لا تملك شكلاً في حد ذاتها ، وحيث  
يتسنى لوضع الانعام في ترتيب مفضل أن يستخرج من البابلة الطبيعية وحدة  
يرضى عنها اللب والقلب .

#### الفنان والاسلوب ( ١ )

كتب فان غوغ : «أزداد اعتقاداً يوماً بعد يوم أن من واجبنا ان لا نحكم  
على الإله الحنان بناءً على هذا العالم الارضي . فهو لعمرى مخطط دراسي غير  
ناجح . كل فنان يحاول أن يعيد عمل هذا المخطط الدراسي ، وأن يمنعه  
الاسلوب الذي إليه يفتقر .

#### الاسلوب والنعت

إن أعظم الفنون وأكثرها طموحاً ، ونعني النعت ، يعمل بعناد على تثبيت  
الابعاد الثلاثة لهيئة الانسان العابرة ، وعلى إرجاع فوضى الحركات إلى وحدة  
الاسلوب العظيم . النعت لا ينبذ المائلة ، بل يحتاج إليها . ولكنه لا يتوخاها  
أولاً . إن ما يتوخى في عصوره الكبرى ، هو الحركة أو السياء أو النظرة  
الفارغة ، التي تلخص كل الحركات وكل النظرات الانسانية . انه لا يستهدف  
التقليد ، بل أن يضع في أسلوب ، وأن يجس فوران الاجسام العابر أو دوران  
المراقف اللامتاهي ، في تعبير ذي دلالة . حينئذ فقط يتم على واجهات المدن  
الصاخبة ، الأنموذج ، الجمال الساكن الذي يلفظ لحظة حمى البشر الدائمة .  
ويتسنى للمحب المحروم ان يدور أخيراً حول تآليل الآلهة «كوريه» الاغريقية  
ليلتقط ما ينبع من التلف والفناء ، في يحيا وجسم حواء .

( ١ ) اشتقاق من كلمة : اسلوب .



## الاسئلة في الرسم

ومبدأ الرسم هو أيضاً في الاصطفاء . كتب ديلاكروا : «العبقرية بالذات ، في تأملها فهنا ، ليست سوى موهبة التعميم والإصطفاء» . فالرسام يعزل موضوعه ، وهذه هي أول طريقة لتوحيده . إن المناظر تزول ، وتختفي من الذاكرة ، أو أنها تمحو بعضها بعضاً . لهذا السبب فان رسام المناظر أو رسام الطبيعة الصامتة يعزل في المكان وفي الزمان ما يتقلب عادياً مع النور ، ويتبدد في 'مطلق' المنظور ، أو يختفي بتأثير قيم أخرى . وأول عمل يقوم به رسام المناظر هو تطهير لوحته . انه يزيح بقدر ما ينتقي . كذلك رسم الموضوع يعزل في الزمان كما في المكان الفعل الذي يختلط عادياً في فعل آخر . ويقوم الرسام حينئذ بعملية تثبيت . ان كبار المبدعين هم أولئك الذين ، مثل بييرو ديلافرانشسكا ، 'يشعرون بأن التثبيت حدث منذ هنيهة ، بأن جهاز العرض توقف على الفور . كل الشخصوس يوحون حينئذ انهم ، بعمجزة الفن ، ما زالوا أحياء لم تعد تهددهم مع ذلك يد الفناء . إن فيلسوف «رانبيراندت» مثلاً ، بعد موته بزمان طويل ، يتأمل على مدى الأجيال ، بين النور والظلال ، في نفس السؤال .

## فرض الحضرة على الصيرورة

«ان الرسم الذي يعجبنا بنشابه الأشياء التي لا يسعها أن تعجبنا ، هو لعبري لغو» .

إن ديلاكروا الذي يستشهد بكلمة باسكال الشهيرة وضع بحق كلمة «غريب» بدلاً من «لغو» . فهذه الأشياء لا يسعها ان تعجبنا ،... لأننا لا نراها . ذلك ان الصيرورة الدائمة تدفنها وتكرها . من ذا الذي كان ينظر إلى يدي الجلاد اثناء الجلد ، وإلى أشجار الزيتون على درب الصليب ؟ ولكن هاهي ذي بمشكلة ، منتشلة من حركة آلام يسوع ؛ وإن آلام المسيح التي 'حبست في صور العنف والجمال هذه ، تتردد صرختها كل يوم في قاعات المتاحف الباردة . ان

أسلوب الرسام في هذا الجمع بين الطبيعة والتاريخ ، في هذه الحضرة المفروضة على ما هو في حالة صيرورة دائمة . فالفن يحقق ، دونما جهد ظاهري ، التوفيق بين الجزئي والكلي والذي كان يحلم به هينل . لعل هذا هو السبب الذي من أجله نرى العصور الكلفة بالوحدة ، كما هو حال عصرنا ، تلتفت نحو الفنون البدائية التي يكون فيها الأسلوب في منتهى الحدة ، والوحدة في منتهى الإثارة . إن أقوى «أسلوبة» توجد دائماً في بداية العصور الفنية وفي نهايتها . وهي تفسر قوة الإنكار والتبدل التي نهضت بكل الرسم الحديث في وثباته . مضمطربة نحو الكينونة والوحدة .

إن شكوى فان غوغ الرائحة هي صرخة جميع الفنانين المتكبرة الياسة : «أستطيع دائماً ان أستغني عن الإله الختان في الحياة وفي الرسم . ولكني لا أستطيع ، وأنا المعذب الموجه ، ان أستغني عن شيء أعظم مني وبمناة حياتي ، وأعني قوة الابداع» .

#### الفنان والإبداع

ولكن قرد الفنان على الواقع ويصبح حينئذ ترداً مشبوهاً بنظر الثورة المستبدة . يتضمن نفس التأكيد الذي يتضمنه التمرد المفوي الصارخ عن المضطهد . إن الروح الثورية الناشئة عن الإنكار التام ، أحست إحساساً غريزياً بأن هناك في الفن أيضاً قبولاً ، بالإضافة إلى الرفض ؛ وأن التأمل من شأنه تعديل الفعل والجمال والجور ؛ وأن الجمال هو في حد ذاته جور فطمي ، في بعض الحالات .

ما من فن يجيا على الرفض التام . فكما ان كل فكرة ، وفي الطبيعة فكرة اللامعنى ، هي ذات معنى ؛ كذلك لا وجود للفن اللامعنى . يجوز للإنسان أن يفضح الجور التام في العالم ، وان يطالب حينئذ بعدالة تامة بنفرد بخلقها . ولكن لا يجوز له ان يؤكد دمامة العالم التامة . فكي يخلق الجمال ، عليه في الوقت نفسه ان يرفض الواقع وان يعبد بعض وجوهه . فالفن ينكر الواقع ،

ولكن لا يتهرب منه .

كان في وسع نيتشه ان يرفض كل استشراف ، أخلاقي أو رباني ، قائلاً إن هذا الاستشراف يدفع إلى التوجه على هذا العالم وعلى هذه الحياة . ولكن لعل هناك استشرافاً حياً ، يعدُّ به الجمال ، وفي وسعه أن يدفع إلى حب هذا العالم القاني المحدود وإلى إثارة على كل عالم آخر . فالفن يعيدنا إذن إلى أصل التمرد ، بمقدار ما يسعى إلى تجسيد قيمة تتلاشى في الصيرورة الدائمة ، ولكن الفنان يستشفها ويريد ان ينتزعها من التاريخ . وستقتنع بذلك بشكل أفضل حينما ننعم النظر في الفن الذي يستهدف الدخول في الصيرورة ليمنحها الأسلوب الذي إليه تفتقر ، ونعني فن الرواية .

## ٢ - الرواية والتمرد

ادبان

يمكننا ان نميز بين «أدب الإذعان» الذي يلتقي في الزمن ، اجمالاً ، مع القرون القديمة والعصور الكلاسيكية ، وبين «أدب المخالفة» الذي يبدأ مع الأزمنة الحديثة . حينئذ نلاحظ ندرة الرواية في الأدب الاول . وإذا ما وجدت -- ما خلا بعض الحالات الاستثنائية -- فلا علاقة لها بالتاريخ ، وإنما بالتخيل والتصور (تياجين وشاريكليه ، أو آستويه) <sup>(١)</sup> . لأنها حكايات خيالية ، لا روايات . أما مع الأدب الثاني فتما حقاً النوع الروائي الذي ما فتىء يزدهر ويتوسع حتى عصرنا الحالي ، مع الحركة الانتقادية والثورية .

إن الرواية تنشأ مع روح التمرد ، وتعبّر عن نفس المطمح ، على الصعيد الجمالي .

(١) الاولى قصة اغريقية ، والثانية قصة رعوية من القرن السادس عشر (المغرب) .

## الفن ومنافسة الله

قال ليتربيه<sup>(١)</sup> عن الرواية: «قصة ملفقة ، مؤلفة نثراً». هل هي ذلك فقط؟  
ثم ناقد كاثوليكي<sup>(٢)</sup> كتب مع ذلك قائلاً: «الفن منها يمكن هدفه فانه ينافس  
الله دائماً منافسة آتمة». والحقيقة ان التحدث عن منافسة الله ، بصدد الرواية ،  
أصح من التحدث عن منافسة للأحوال الشخصية<sup>(٣)</sup>. وقد عبر تيودور عن  
فكرة بمائة عندما قال بصدد بلزاك: «الكوميديا البشرية»<sup>(٤)</sup> هي «الافتداء»<sup>(٥)</sup>  
بالإله الآب. يبدو أن الأدب العظيم يسمى إلى خلق عوالم مغلقة أو نماذج  
ممكنة. ان الغرب لا يكتفي في أعماله الإبداعية الصكبرى بوصف حياته  
اليومية ، وإنما يضع نصب عينيه على الدوام صوراً عظيمة تلهمه ، فيندفع  
وراءها.

## العالم الروائي والمروية

مهما يكن من أمر ، فان كتابة أو مطالعة رواية هي أعمال غير عادية .  
وإن تأليف قصة بترتيب جديد لبعض الوقائع الصحيحة ، لا ينطوي على شيء  
يحتم أو ضروري . حتى لو كان التعليل العامي ، بمتعة المبدع والقارئ ، تعليلاً  
صحيحاً ، لوجب حينئذ أن تتساهل بحكم أية ضرورة يتلذذ أغلب الناس ويهتمون  
بقصص مختلفة. إن النقد الثوري يستنكر الرواية المجرّدة، بوصفها مروية مخيلة  
عاطلة. أما اللغة المألوفة فتسبب رواية الحديث الكاذب الصادر عن صحفي أخرق.  
ولبضع سنوات خلت، كان العُرف يقتضي أيضاً ان تكون اللتيات «خيالات»<sup>(٦)</sup>،

(١) فيلسوف ومؤلف فاموس معروف باسمه .

(٢) Stanislas Fumet

(٣) سجل النفوس .

(٤) العنوان العام لمؤلفات بلزاك - الحرب -

(٥) الكتاب الاصل هو : كتاب الافتداء بالمسيح L'Imitation (الحرب) .

(٦) الفرنسية : رواية = خيالية .

وذلك خلافا لظاهر الحق. وكان يُعنى بذلك ان هذه المخلوقات الحاملة لا تكترث بوقائع الحياة . وبصورة عامة ، اعتُبر دائماً ان «ما هو روائي» منفصلٌ عن الحياة ، وانه يجتليها بقدر ما يتعد عنها . إن أبسط طريقة وأشيعها في مواجهة التعبير الروائي تكمن اذن في ان نعتبره قريناً هروبياً . وهكذا يلتقي المعقول العام بالانتقاد الثوري .

من تعليل إلى آخر

ولكن مم نهرب بواسطة الرواية ؟ أمينٌ واقعٌ نعتبره مرهقاً جداً ؟ ولكن السعداء يطالعون الروايات أيضاً ، ومن المؤكد ان العذاب الشديد يزيح حب المطالعة . هذا وإن العالم الروائي أقلُّ ثقلًا من هذا العالم الآخر الذي تطوقنا فيه المخلوقات الحية في استمرار . ولكن بحكم أي لغز يتراءى لنا «آدولف»<sup>(١)</sup> اقرب إلينا بكثير من «بنجامان كونستان» ، و «الكونت موسكا» اقرب إلينا من مؤلفينا الأخلاقيين المحترفين ؟ ذات يوم اختتم بلزك محادثة طويلة حول السياسة ومصير العالم ، قائلاً : «والآن فلنعد إلى الأمور الجدية» ، ويعني رواياته . إن حب الهروب لا يكفي في الحقيقة لتعليل أهمية العالم الروائي المؤكدة ، ولتعليل اصرارنا على أن نحسب من المهمات هذه الاساطير الكثيرة التي تعرضها علينا العبقرية الروائية منذ قرنين .

بما لا ريب فيه ان النشاط الروائي يفترض نوعاً من رفض الواقع . ولكن هذا الرفض ليس مجرد هروب . فهل علينا أن نعتبره حركة انزواء تقوم بها النفس النبيلة التي ، بحسب هيغل ، تخلق لنفسها في خيبتها عالماً مصطنعاً لا سيادة فيه الا للأخلاق . مع ذلك ، تظل الرواية القدوة بعيدة بعمداً كافيًا عن الأدب الكبير ؛ وإن افضل الروايات الوردية ، بول وفيرجيني - وهي كتاب محزن - ، لا تقدم شيئاً ما للسوى .

(١) اسم البطل في قصة تحمل هذا الاسم أيضاً ، وهي لبنجامان كونستان .

## التوق الى معرفة المص

التناقض هو ما يلي : ان الانسان يرفض العالم كما هو ... ، دون ان يرضى بالتخلي عنه . والواقع ان البشر يتسكون بالعالم ، ولا يريدون مفارقتة في اكثريةهم الساحقة . انهم لا يرغبون في نسيانه ، ويؤلمهم عدم تملكهم اياه تملكاً كافياً . فيالهم من مواطنين في هذا العالم، غرباء في موطنهم الخاص اكل واقع ناقص بنظرهم ، الا في لحظات الكمال العابرة . ان أفعالهم تغلت منهم الى افعال أخرى ، ثم تعود لتعكم عليهم تحت هيئات غير متوقّعة ، وتضي مثل مياه «تنتال»<sup>(١)</sup> نحو مصب لا يزال مجهولاً . معرفة المص ، ضبط مجرى النهر ، ادراك الحياة أخيراً كمصير ، ... هوذا شوقهم الحقيقي في قلب موطنهم . ولكن هذه الرؤية التي توفقم أخيراً مع ذاتهم ، في المعرفة على الأقل ، لا يسعها أن تظهر . ان ظهرت . . الا في هذه اللحظة العابرة ، لحظة الموت : فكل شيء يتم فيها .

كي يوجد المرء مرة واحدة في العالم ، ... لا بد له من أن يفقد وجوده الى الأبد<sup>(٢)</sup> .

## النيرة من حياة الآخرين

هنا تنشأ هذه الغيرة المشؤومة 'يكثفها كثير' من الناس نحو حياة الآخرين . انهم اذ يشاهدون هذه النفوس من الظاهر ، يعززون اليها تلاحماً ووحدة لا يسع هذه النفوس امتلاكها ، ولكنها يبدوان للراصد كأشياء بديهية . فهو لا يرى الا الحطوط الكبرى في هذه النفوس ، وتغيب عنه التفاصيل التي تضئها وتنفر عودها . . . اذ ذاك نصوص حول هذه النفوس فناً . وبصورة ابتدائية ، تنسجها كرواية .

كل فرد ، بهذا المعنى ؛ يسعى لأن يجعل من حياته عملاً قنياً . نحن نتمنى

(١) ملك ليدبا . حكم عليه حوتير بالعلم الدائم .  
(٢) اي انه لا يخلق مصيره الا بالموت . العرب . .

للحب الدوام ، ونعلم ان لا دوام له . وحتى لو كانت له ان يستمر مدى حياة كاملة ، بحكم معجزة ، لكان أيضاً ناقصاً .

العذاب والحاجة إلى البقاء

في هذه الحاجة النهمة الى البقاء ، ربما كنا نقهم العذاب الأرضي فهماً أفضل ، لو كنا نعلم انه خالد . فالنفوس العظيمة تبدو كأنها تخشى العذاب أحياناً أقل من خشيتها عدم البقاء . ولعل العذاب المديد على الأقل يشكل مصيراً في بعض الاحيان ، لعدم وجود سعادة دائمة .

ولكن ، كلا .

فحتى أسوء ما يحل بنا من نكال ، هو يوماً الى زوال . وذات صباح ، بعد كل هذا اليأس ، ثمة رغبة عارمة في البقاء ستخبرنا بأن كل شيء مضى وانقضى ، وأن العذاب ليس أكثر معنى من السعادة .

حب التملك ، والرغبة  
في البقاء

إن حب التملك ليس إلا شكلاً آخر من أشكال الرغبة في البقاء ، وهو الذي يولد هذيان المحبة العاجز . ما من كائن هو في حوزتنا ، حتى أحب محبوب ، حتى ذلك الذي يقابلنا حباً يجب على أفضل وجه . فعلى الأرض الخاملة التي يموت فيها الأحباء أحياناً منفصلين ، ويولدون دائماً منقسمين ، ... على هذه الأرض يكون التملك التام للكائن والوصول الروحي المطلق مدى الحياة مطلباً مستحيلًا . إن حب التملك نهمٌ لدرجة ان في وسعه ان يبقى بعد الحب . فالحب إذن معناه تعقيم المحبوب . إن المحب الذي أصبح بعد الآن منفرداً ، لا يشعر بالعذاب الخزي لأنه لم يعد محبوباً ، بقدر ما يشعر به لأنه يعلم ان الآخر يستطيع وينبغي له ان يحب أيضاً . وفي النهاية ، كل انسان تعتمل في نفسه الرغبة الشديدة في البقاء والتملك ، يتمنى العقم او الموت للخلاوقات التي أحب . هوذا التمرد الحق . الذين لم يتطلبوا ، في يوم على الاقل ، الطهر المطلق في الكائنات

والعالم ، ولم يرتجفوا شوقاً وعجزاً امام استعاليته ، ... أولئك لا يسعهم فهم حقيقة التمرد وفورته التخريبية . ولكن الكائنات تستعصي على بعضها بعضاً دائماً ، وتستعصي عليها أيضاً . انها بلا معالم ثابتة . الحياة ، من هذه الجهة ، هي بلا اسلوب . انها ليست إلا حركة تسمى وراء شكلها دون أن تجده ابدأ . والانسان الممزق على هذه الصورة يبحث دون جدوى عن هذا الشكل الذي 'يكسبه الحدود التي يصبح ضمنها لها' .

ألا فليكن لشيء واحد هي شكله في هذا العالم ، فاذا ذاك يقوم في العالم الصلح ويسوده الانسجام .

#### المخلق الروائي

#### ولمحقق المصير في الحياة

ما من كائن أخيراً ، اعتباراً من مستوى شعوري ابتدائي ، لا يبذل قصارى جهده للتفتيش عن الصيغ أو المواقف التي تُكسب وجوده الوحدة التي إليها يفترق . « التظاهر » أو « العمل » ، الداندي أو الثوري (١) ، كلاهما يتطلبان الوحدة في سبيل الكينونة ، وفي سبيل الكينونة في هذا العالم . كما في هذه العلاقات المؤثرة البائسة التي تدوم أحياناً مدة طويلة لأن أحد الشركاء يأمل ان يجد الكلمة أو الحركة أو الوضع ، ... يأمل ان يجد الشيء الذي يجعل مغامرته قصةً منتهية ومزودة بالنبرة الصحيحة ، ... كل واحد يخلق لنفسه أو يستهدف الكلمة الأخيرة . ليس بكافٍ ان يعيش المرء ، بل هو يحتاج الى مصير ، ودون انتظار الموت (٢) ، فصحيح اذن ان نقول ان الانسان يملك فكرة عن عالم أفضل من هذا العالم . ولكن « أفضل » لا تعني حينئذ « مختلفاً » ، بل

(١) الداندي من أهل التظاهر ، والثوري من أهل العمل .

(٢) رأينا تحقق المصير بواسطة الموت ، تحت عنوان : الشوق الى معرفة المصير من ٣٣٠ - المرعب -

(٣) الديانة هي الحركة التي تدفع الى عبادة الله ، والجريمة هي المحرقة التي تدفع الى إلقاء الانسان - المرعب -



«موحّداً» . هذه الحمى التي ترتفع بالقلب الى ما فوق عالم موزّع ، ولا يسعه مع ذلك ان يفصل عنه ، - هذه الحمى هي الوحدة . انها لا تصب في هروبية عادية ، وانما في أعند مطالبة . ديانة أم جريمة (٣) ، ... كل مسمى بشري يمثل أخيراً لهذه الرغبة الرعناء ويعتزم ان يُكسب الحياة الشكل الذي اليه تفقر .

نفس الحركة التي تدفع الى عبادة الله ، او الى إفناء الانسان ، تقود الى الخلق الروائي الذي يتلقى منها حينئذ جديته .

#### عالم الرواية وعالمنا

ما الرواية في الحقيقة ، ان لم تكن هذا العالم يجد فيه الفعل شكله ، وتلفظ فيه الكلمة النهائية ، وتتواصل الكائنات بالكائنات ، وتكتسب سيئات المصير كل حياة (١) . ليس العالم الروائي سوى تصحيح لهذا العالم ، وفق رغبة الانسان الصيحية . فالمقصود هو نفس العالم ، العذاب نفس العذاب ، وكذلك الكذب والحب . للأبطال لغتنا ، ونقاط ضعفنا وقوتنا . عالمهم ليس اجمل ولا أوجب للعبرة من عالمنا . ولكنهم على الاقل يمضون الى نهاية مصيرهم ، وليس من ابطال أنفذ الى القلب من أولئك الذين يمضون الى نهاية هوام : كيريلوف ، ستافروغين ، مدام غراسلان ، جوليان سوريل ، او امير كليف .

ههنا نفقد ما لهم من قدرة ، لأنهم يُنبهون ما لا نتم أبداً .

#### مثالان من عالم الرواية

ان مدام لافاييت انتشلت أميرة كليف من اشد التجارب . ليس من شك في أنها ... مدام دي كليف ، ومع ذلك فهي ليست أبداً مدام دي كليف . ما وجه الاختلاف ؟ الاختلاف هو أن مدام لافاييت لم تدخل الدير ، وأن ما من احد حولها مات ياساً . بما لا ريب فيه انها عرفت على الاقل لحظات

(١) حتى ان لم تعبر الرواية إلا عن الشوق واليأس والنقصان فانها توجد الشكل والخلاص . ان نسبة اليأس التي تجاوزه . فنولنا الادب اليأس بشكل تناقضاً في الالفاظ .

هذا الحب الفريد المحزن . ولكن لم يكن لها نهاية ، بل بقيت هي بعده ، ومددته متوقفة عن عيشه . أخيراً ، لم يعد سن لأحد ، حتى ولا لها بالذات ، ان يعرف رسمه ، لو لم تعطه الحدا الواضح للغة لا عيب فيها .

ليس هناك ايضاً من قصة ادوين شرية وجرسالا من قصة صوفيا تونسكا وكازيمير في «البياد» ا «غروبينو» . ان صوفيا ، المرأة الحساسة الجميلة ، التي تجعلنا نفهم اعتراف ستانداال القائل : « وحدثت النساء ذات العزيمة القوية بجانب السعادة الى قاي ، ، ، . ان هذه المرأة تضطر كازيمير الى ان يعترف له ما يحب . لقد ألفت ان تكون محبوبة ، لذلك عيل حبرها امام هذا الذي كان يراها كل يوم ، ومع ذلك لم يتخل قط عن هدونه المسخط . الحقيقة ان كازيمير اعترف لها بحبه ، ولكن باهجة بيان حقوقي . لقد درسها وعرفها بقدر ما يعرف نفسه . وتيقن ان هذا الحب بلا مستقبل ، عاماً بأنه لا يستطيع ان يعيش بدون هذا الحب . اذ انك فقد العزم على أن يصارحها بهذا الحب ويطلقه في وقت واحد ، وأن يبهر ثوره . لما بأنها غنية وهذه البادرة لا تعود عليها بالضعف بشرط ان تدفع له راتباً زهيداً يسمح له بأن يقيم في ضاحية مدينة تصطفى عرضاً واتفاقاً ( ستكون مدينة فلما ) ، وأن يتوقب الموت وهو في الفقر . على ان كازيمير 'يقر' بأن فكرة تلقيه من صوفيا ما سيرم لتأمين عيشه ، تنازل أمام الضعف البشري ، التنازل الوحيد بميزه انفسه ، مع إرسال ورقة بيضاء ، من حين لآخر ، في ظرف يكتب عليه اسم صوفيا .

بعدما يظهر من تصرفها انها غاضبة ، ثم مضطربة ، ثم مائله الى الحزن ، ستقبل صوفيا . . . وسيجري كل شيء كما توقع كازيمير ، وسيبورت في مدينة «فلانا» من هواه الحزين . « ما هو روائي ، له اذن منطقته . ولا غنى للقصة الجميلة عن هذا الاستمرار المسادم الذي لا وجود له ابدأ في المواقف المعاشة ، ولكننا نجد في انسياب الاسلام انطلاقة من الواقع . لي ان المؤلف غروبينو سافر الى مدينة «فلانا» ، لسم الحياة فيها ولعاد منها ، أو اورد فيها راحته . ولكن كازيمير لا يعرف رغبات التبدل وغدوات الشفاء . انه يقضى المو ثم اية

الشوط ، مثل هينكليف<sup>(١)</sup> ، الذي يتبنى ان يجاوز الموت ايضاً ليلبغ الجحيم .

صنع المصير ... على القياس

هوذا إذن عالمٌ تصوري ، ولكنه مبتدعٌ بتصحيح هذا العالم . عالمٌ يستطيع فيه العذاب - إذا شاء - ان يبقى حتى الموت ، لا تذهل فيه الأهواء أبداً ، وتستسلم فيه الكائنات للفكرة الثابتة ، وتكون ماثلة أحدها بالنسبة الى الآخر . ان الانسان 'يكسب فيه ذاته أخيراً الشكل والحد' المهديء الذي ينشده في وضعه دون جدوى . الرواية تصنع مصيراً ... على القياس . بهذه الصورة ، 'تنافس الخلق وتتغلب مؤقتاً على الموت' .

الرواية والتصحيح

إن التحليل المفصل لأشهر الروايات 'يظهر ، من زوايا مختلفة كل مرة ، ان جوهر الرواية في هذا التصحيح الدائم ، الموجّه دائماً في نفس المنحى ، يجريه الفنان على تجربته . هذا التصحيح ليس اخلاقياً أو صورياً بحتاً ، بل يهدف أولاً الى الوحدة ، وبذلك 'يعبّر عن حاجة ماورائية . الرواية ، عند هذا المستوى ، هي أولاً تمرين عقلي في خدمة حساسية نزوعية أو متسرّدة .

نستطيع ان ندرس هذا السعي لنيل الوحدة، في الرواية التحليلية الفرنسية، وعند ميلفيل ، بلزاك<sup>(٢)</sup> ، دوستوفسكي ، أو تولستوي . ولكن مقارنة قصيرة نجريها بين محاولتين تقعان في قطبي العالم الروائي المتقابلين ، الخلق البروستي<sup>(٣)</sup> ، والرواية الاميركية ، ستكفي مقصدنا .

الوحدة في الرواية الاميركية

فأما الرواية الاميركية<sup>(٤)</sup> فتدعي انها تجرد وحدتها ، بارجاعها الانسان إما

(١) بطل قصة «مرتفعات ويندربنغ» ، وقد أشير اليه في مقدمة هذا الكتاب .

(٢) اقرأ له : الاب غوريو - منشورات عويدات -

(٣) لسبة الى بروست .

(٤) يقصد طبعاً روايات القديين الرابع والخامس من القرن العشرين ، لا الازدهار الروائي الرائع في القرن التاسع عشر .

إلى العنصر الابتدائي، أو إلى ردود فعله الخارجية وإلى سلوكه. إنها لا تصطفي عاطفة أو هوى تطمي عنه صورة بميزة، كما في الروايات الفرنسية الكلاسيكية. إنها ترفض التحليل والبحث عن محرك نفسي أساسي يفسر ويلخص مسلك شخص ما. لذلك، ليست وحدة هذه الرواية إلا وحدة الالة. وتقوم طريقتهما على وصف الناس من الخارج، في أقل حركاتهم أهمية، وفي عرض الأحاديث دون تعليق.. في عرضها حتى في تكرارها (١)، والعمل أخيراً كما لو كان الناس يتعرفون تماماً بحركاتهم الآلية اليومية. عند هذا المستوى الآلي، في الحقيقة، يتشابه البشر. هكذا نفهم هذا العالم الغريب الذي تبدو فيه الشخوص وكأنها قابلة للتبديل بعضها ببعض؛ حتى في خواصها الجسدية. هذه الطريقة لا تسمى واقعية إلا بسبب سوء فهم. وبالإضافة إلى أن الواقعية في الفن هي، كما سنرى، مفهوم مستغلق، من الواضح تماماً أن هذا العالم الروائي لا يهدف إلى نقل الواقع على علاته، بل إلى «أسلته» أسلوباً اعتبارية. إنه ينشأ عن تشويه، وعن تشويه طوعي، يجري على الواقع. أن الوحدة الحاصلة بهذه الصورة وحدة متردية، تساوي بين الكائنات والمعالم. ويبدو كأن الحياة الذاتية، بنظر هؤلاء الروائيين، هي التي تحرم الأفعال البشرية من الوحدة، وهي التي تنتزع الكائنات عن بعضها بعضاً.

#### مسألة الحياة الأدبية

هذه الريبة مشروعة جزئياً. ولكن التمرد الموجود في أصل الفن لا يبلغ مرامه إلا بصنع الوحدة اعتباراً من هذا الواقع الذاتي، لا في إنكاره. فانكار هذا الواقع الذاتي معناه الرجوع إلى إنسان وهي. إذا اقتصرت حياة الأجسام على نفسها، فإنها تولد بحكم مفارقة عجيبة عالماً مجرداً وباطلاً، ينكره الواقع إنكاراً تاماً. هذه الرواية المعرأة من الحياة الذاتية، والتي يبدو فيها الناس

(١) حتى لدى فوختنر، لا يعرض الحوار الذاتي إلا غشاء الفكرة.

وكانهم مرصودون من خلف زجاج،... هذه الرواية تقدم الانسان المرضي في نهاية الامر ، وذلك اذ تتخذ كموضوع وحيد الانسان بافتراض انه انسان متوسط . وهكذا ندرك لماذا يُستخدم عدد كبير من «البرياء» في هذا العالم . فالبريء هو الموضوع المثالي لمحاولة كهذه ، لانه لا يتعرف في كليته الا ببلوكة . إنه رمز لهذا العالم المقنط ، الذي نجيا فيه كائنات آلية تعيسة في «تلاحم» اصطناعي ، والذي رفعه الروائيون الاميركيون في وجه العالم الحديث كاحتجاج مؤثر ولكنه عقيم .

#### عالم بروس

وأما بروس فسمى لان يخلق ، اعتباراً من الواقع المتأمل بعناد ، عالماً مغلقاً ، لا يُستبدل ، لا يخلص إلا ذاته ، ويشير الى انتصاره على زوال الاشياء ، وعلى الموت . ولكن وسائله معاكسة . انها تكمن قبل كل شيء في اصطفاء مدبر ، في مجموعة دقيقة من اللحظات المميزة يصطفيها الروائي في حنايا ماضيه . وهكذا تطرح من الحياة فترات واسعة مية ، لانها لم تُخلف شيئاً في الذاكرة . فلئن كان عالم الرواية الاميركية عالم بشري فاقد الذاكرة ، فعالم بروس ليس الا ذاكرة ولكن لا يُقصد الا الذاكرة الاكثر تشدداً وتطلباً ، الذاكرة التي ترفض تشتت العالم كما هو ، وتستخلص من عقب عائدٍ مِرّ عالم جديد وقديم . إن بروس يصطفي الحياة الذاتية ، وفي هذه الحياة الذاتية يصطفي ما هو أكثر ذاتية منها ،... ضد ما يُنسى في الواقع ، أي ضد ما هو آلي ، ضد العالم الاعمى . ولكنه لا يستخلص من رفض الواقع إنكار الواقع . انه لا يرتكب خطأ إلغاء ما هو آلي ، الخطأ المقابل لخطأ الرواية الاميركية ، بل يجمع في وحدة عليا ، الذكرى الضائعة والاحساس الحالي ، التعاسة الراهنة والسعادة فيما سلف من الايام .

الماضي موجود في حاضر لا يمتد

العودة إلى أماكن السعادة ومراتع الصبا صعبة . فالصبا يضحكن ويثرثرن

بصوت عال أمام البحر على الدوام<sup>(١)</sup> ، ولكن الذي يتأمله يفقد شيئاً فشيئاً الحق في أن يجيب ، مثلما تفقد اللواتي أحبهن القدرة على أن يكن محجوبات . هذه السويداء هي سويداء بروست . وقد كانت من القرة عنده ، بحيث تفجر رفضاً لكل كينونة .

بيد أن حب الوجوه والنور كان يشده في الوقت نفسه الى هذا العالم . فلم يرض بأن تضيع العطلات السعيدة الى الابد . بل أخذ على عاتقه ان يخلقها ثانية ، وأن يبين ، ضد الموت ، أن الماضي موجود في آخر الزمن في حاضر لا يفنى ، أصح وأغنى أيضاً مما كان في الاصل . فليس التحليل النفساني «لزامات الضائع» سوى وسيلة قوية . إن عظمة بروست الحقيقية تكمن في انه كتب «الزمن العائد» الذي 'يألم عالماً مشتتاً ، ويكسبه معنى عند مستوى التمزق . أما انتصاره الصعب في عشية الموت فيحسب في انه استطاع ان يستخلص من زوال الاشكال المستمر ، وبطرق الذائرة والعقل ، الرموز المرتجفة للوحدة البشرية . إن آسند تحدد يتطبع أثر 'كهذا ان يوجهه الى الخلق ، هو أن يظهر ككل ، كعالم مغلق موحد . وهذا يعرف الآثار الفنية بلا ندامة<sup>(٢)</sup> .

#### انوار على عالم بروست

لقد أمكن القول إن عالم بروست عالم بلا إله . فإذا صح ذلك ، فليس لأن الحديث لا يدور فيه أبداً عن الإله ، بل لأن هذا العالم يطرح إلى أن يكون كلاً مغلقاً ، وأن 'يكسب الخلود سبباً الإنسان . «الزمن العائد» في صلحته على الأقل ، هو الخلود بلا إله . ومن هذه الحيثية ، يتراءى إنتاج بروست على انه المحاولة الأكثر إفراطاً ودلالة ، يقوم بها الإنسان ضد وندمه الفسافي . لقد اثبت بروست ان الفن الروائي يعيد تصنيع الخلق<sup>(٣)</sup> بالذات ، كما هو

(١) صورة العطلات السعيدة - المعروف

(٢) التمرد بالندامة من بناءات عنوان : الحبي على الفن من ٣٢٢

(٣) هنا : العالم .

مفروض علينا وكما هو مفروض . من أحد وجوهه على الأقل ، يكمن هذ  
الفن في إثارة المخلوق على الخالق . ولكنه ، بشكل أعمق أيضاً ، يتحالف مع  
جمال العالم أو الكائنات ضد قوى الموت والنسيان . بهذه الصورة يكون  
تمرده مبدعا .

### ٣ - التمرد والأسلوب

تحليل على الصعيد الجمالي

يؤكد الفنان قوة رفضه بما يفرض على الواقع من معاملة . ولكن ما يستبقي  
من الواقع في عالمه المبتدع ، يكشف عن رضاه على الأقل بقسم من الواقع  
ينتشله الفنان من ظلام الصيرورة ليحمله إلى ضياء الخلق . وفي النهاية ، اذا كان  
الرفض كلياً فان الواقع يُزاح بتامه ، ونحصل على آثار<sup>(١)</sup> شكلية محص . أما  
إذا اصطفى الفنان تمجيد الواقع الخام ، لأسباب غالباً ما تكون غريبة عن الفن ،  
فاننا نحصل على الواقعية .

فأما في الحالة الأولى ، فان حركة الخلق الأصلية التي يرتبط فيها التمرد  
والرضا ، التأكيد والإنكار ، ارتباطاً وثيقاً ، ... تُشوه لصالح الرفض . إذ  
ذاك نحصل على الهروبية الشكلية التي قدم عنها عصرنا أمثلة كثيرة ، والتي يتبين  
لنا أصلها العدمي . وأما في الحالة الثانية ، فان الفنان يدعي بأنه 'يكسب العالم  
وحدته ، منتزعاً منه كل نظرة مميزة . وبهذا المعنى ، يعترف بجاحته إلى الوحدة ،  
حتى لو كانت متردية . ولكنه يتخلى أيضاً عن المطلب الأولي للخلق الفني . انه  
يؤكد كلية العالم الذاتية كي 'ينكر ما يتمتع به الشعور المبدع من حرية نسبية .  
إن الفعل المبدع ينكر ذاته في هذين النوعين من الآثار . في الأصل ، كان لا  
يرفض إلا وجهاً من الواقع ، ويؤكد في الوقت نفسه وجهاً آخر . فلئن انتهى

(١) آثار = أعمال = تأليف .

إلى طرح الواقع كله أو إلى تأكيده وحده فقط ، فإنه 'ينكر ذاته كل مرة في الإنكار المطلق أو في التأكيد المطلق .

إن هذا التحليل على الصعيد الجمالي ، يلتقي ، كما سنرى ، بالتحليل الذي رسمناه على الصعيد التاريخي .

#### أوار على الشئبة والواقعية

ولكن كما أنه لا وجود لعدمية لا تنتهي إلى افتراض قيمة ، ولا للمادية لا تنتهي إلى مناقضة ذاتها ، إذ 'تفكر في نفسها' (١) ، كذلك فإن الفن الشكلي والفن الواقعي مفهومان غير معقولين . ما من فن يستطيع أن يرفض الواقع رفضاً مطلقاً . ليس من شك في أن «الفرغوني» (٢) مخلوقٌ وهمي محض ، ولكن وجهه والأفاعي المتوجة لرأسه أشياء موجودة في الطبيعة . في وسع الشكلية أن تفرغ من المضمون الواقعي تفرغاً متزايداً ، ولكن ثمة حد ينتظرها دائماً . حتى الهندسة الخالصة التي ينتهي إليها أحياناً الرسم التجريدي ، تأخذ لونها وعلاقتها المنظرية من العالم الخارجي . الشكلية الحقة صمت . كذلك ليس في وسع الواقعية أن تستغني عن حد أدنى من التأويل والإعتباط . إن أفضل صورة فوتوغرافية تخون الواقع . فهي تنشأ عن اصطفاء ، ونحدد ما ليس بذئ حد . إن الفنان الواقعي والفنان الشكلي يبحثان عن الوحدة حيث لا توجد : في الواقع بالحالة الخام ، أو في الخلق التصوري الذي يخيل إليه أنه يزيح كل واقع . الوحدة في الفن ، بالعكس ، تظهر في نهاية التبدل الذي يفرضه الفنان على الواقع . وهي لا تستطيع أن تستغني عن كلا الأمرين . هذا التصحيح الذي يجريه الفنان بواسطة لغته وبواسطة توزيع جديد للعناصر المستمدة من الواقع ، . هذا التصحيح يُسمى بالأسلوب ، ويُكسب هذا العالم الجديد وحدته وحدوده .

(١) إشارة إلى تحليل الفكر في النظرية المادية .

(٢) «الفرغوني» : كما جاء في الأسطورة ، عبارة عن وجه غامط بالعامي .



لأنه يهدف عند كل متبرّد - ويتوصل عند بعض العباقرة - إلى إعطاء العالم ناموسه . وقد قال الشاعر شيلي : «الشعراء مشرعو العالم غير المعترف بهم» .

### الفن الروائي والواقع

إن الفن الروائي ، بأصله ، سيُظهر هذه الأهلية لا محالة . فلا يسهه ان يوافق على الواقع موافقة تامة ، ولا أن يبتعد عنه ابتعاداً تاماً . التصوري البحث لا وجود له . حتى لو وجد في رواية مثالية مجردة تمام التجريد ، لما كان له مدلول فني ، لأن المطلب الأول للفكر الباحث عن الوحدة ، هو ان تكون هذه الوحدة قابلة للانتقال والمشاركة . هذا وإن وحدة المحاكاة الذهنية الصرفية ، هي وحدة " مزيفة " لأنها لا تستند إلى الواقع . إن الرواية الوردية (أو الرواية السوداوية) والرواية الموجبة للعبارة ، تبتعد عن الفن بمقدار ما تعصى على هذا القديسون . إن الخلق الروائي الحقيقي ، بالعكس ، يستخدم الواقع ، ولا يستخدم سواه ، بدفته وفورته ، بأهوائه أو نداءاته ، ولكنه يضيف إليه ما يُبدّله .

### الرواية الواقعية والاصطفاء

كذلك ، ما يُسمى اعتيادياً بالرواية الواقعية يرد أن يكون استنساخاً للواقع بما فيه من حادث . إن استنساخ عناصر الطبيعة دونما اصطفاء ، معناه - إن أمكن تصور هذه الحالة - تكرار الخلق تكراراً عقياً . ما على الواقعية ان تكون إلا وسيلة التعبير عن العبقرية الدينية - وهذا ما يُظهره الفن الأسباني ببراعة - أو أن تكون فن القروء التي تكتفي بما هو موجود وتقلده . والحقيقة ان الفن ليس أبداً واقعياً ، ولكنه يميل أحياناً إلى أن يكون كذلك . كي يكون وصف " ما واقعياً حقاً ، فإنه يلزم نفسه بأن يكون بلا نهاية . مثلاً حيث يصف ستاندال <sup>(١)</sup> بحملة واحدة دخول لوسيان لووين الصالون ، يحتاج

(١) انراه : الأحمر والاسود - منشورات عويدات

الفنان الواقعي ، منطقياً ، إلى استعمال عدة مجلدات ليصف الشخوص والديكور دون أن يتمكن مع ذلك من استكمال التفاصيل . الواقعية هي التعداد المطلق . بذلك تكشف ان مطمحها الحقيقي الفوز بكلمة العالم الواقعي لا بالوسادة . وإذا ذاك تفهم أن تكون الجمالية الرسمية لثورة النكابة (١) . ولكن هذه الجمالية سبق لها أن أثبتت استحالتها . إن الروايات الواقعية تصطفي على الرغم منها في مجالات الواقع ، لأن الاصطفاء وتجاوز الواقع هما شرط التفكير والتعبير . الكتابة معناها الاصطفاء . هناك إذن اعتباراً واقع مثلما هناك اعتباراً قصوثر ، وهو الذي يجمل من الرواية الواقعية روايه هادفة ، فتمنيا . إن قدر وحدة الم . الم الروائي على مجموع الواقع ، لا يحدث إلا بواسطة حكم سابق للتجربة يزيح من الواقع ما لا يلائم العقيدة . فالواقعية المسماة بالواقعية الاشتراكية مقيمة مصيرها إذن ، بموجب منطق عدميتها ، ان تجمع بحسن الرواية الموجبة لامبرة وأدب الدعاية .

البردي في الفن الحديث

فـواء استعبدت الحادثة الخالق ، أم ادعى الخالق انكار الحادثة كلها ، فان الخلق يتردى إذن إلى أشكال الفن العدمي المنحطة . الحال مع الخلق كالحال مع الحضارة . فهو يفترض توتراً دائماً بين الشكل والمادة (٢) ، بين الصيرورة والفكر ، بين التاريخ والقيم . فاذا فقد التوازن قئمة دكتاتورية أو فوضى ، دعابة أو هذيان شكلي . وفي كلتا الحالتين فان الخلق الذي يتطابق مع حرية قياسية ، يكون مستحيلاً . سواء اتساق الفن الحديث مع دوار التجريد والغموض الشكلي ، أم استنجد بسوط الواقعية الفجة البسيطة ، فهو في مجموعته تقريباً فن طغاة وعبيد لا فن مبدعين .

(١) النكابة . الشمول . أمي : الثورة الروسية

(٢) الموضوع .

## لا عبقرية في الإنكار المحض

الأثر الذي يتغلب فيه المحتوى على الشكل ، أو يطغى فيه الشكل على المحتوى ، لا يتحدث إلا عن وحدة مخيِّبة 'مخيِّبة'. في هذا الميدان ، كما في الميادين الأخرى ، كل وحدة ليست وحدة أسلوب فهي تشويه . مها يمكن المنظور يصطفيه الفنان ، فثمة مبدأ يظل مشتركاً بين كل المبدعين : «الأسلبيّة» التي تقترض في الوقت نفسه الواقع والفكر الذي 'يكسب الواقع شكله . بواسطة يعيد الجهد المبدع 'صنع العالم ، ودائماً بانحراف طفيف هو علامة الفن والاحتجاج . وسواء أكننا إزاء تضخيم بروست المجهري للتجربة الانسانية ، أم إزاء الدقة غير المعقولة 'تضيفها الرواية الاميركية على شخصها ، فان الواقع يكون بوجه ما مصطنعاً . الخلق وعطاء التبرّد هما في هذا الانحراف الذي 'يمثل أسلوب ولهجة أثر ما . الفن 'نشدان مستحيل . وحينما تهدي احد 'صرخة إلى أرسخ عبارة ، 'يوضي التبرّد تطلّب 'الحقيقي ، ويستخلص من هذه الأمانة لذاته قوة خلق . ان أعظم أسلوب في الفن هو التعبير عن أسى تمرد ، وإن صدم هذا أحكام العصر الاعتبارية . وكما أن الكلاسيكية الحقة ليست إلا رومانسية مروضة ، كذلك فان العبقرية تمرد 'أوجد حدّه المعياري الخاص .

لهذا السبب لا عبقرية في الإنكار واليأس المحض ، وذلك خلافاً للتعاليم الحالية .

## الاسلوب العظيم

معنى ذلك في الوقت نفسه ان الأسلوب العظيم ليس مجرد فنية شكلية . انه كذلك ، حينما 'يلتمس لذاته على حساب الواقع ، وإذا ذلك لا يكون الأسلوب العظيم . إنه لا يعود خلاقاً بل مقلداً ، مثل كل نظرة التزامية تقليدية ، في حين ان الخلق هو . على طريقته - ثوري . فلئن وجب السير بعيداً جداً بالأسلبيّة ، لأنها 'تلخص تدخل الانسان وإرادة التصحيح التي 'يدخلها الفنان على استنساخ الواقع ، فيجدر بالأسلبيّة مع ذلك أن تبقى غير منظورة ، كما 'يعبر

عن المطالبة المولدة للفن ، في أقصى توترها ١ . الأسلوب العظيم هو الأسابة غير المنظورة ، أي : المجددة . قال ملوير<sup>(٢)</sup> : « في الفن ، يجب ان لا نعيشي المبالغة » . ولكنه يُضيف قائلاً ان على المبالغة ان تكون « متراصلة ومتناسقة مع ذاتها » . حينئذ تكون الأسلبة مفرطة ومنظورة ، يُصبح الاثر بزوعاً عنحشاً ، لان الوحدة التي تحاول الاستلبة الفوزاً بها تكون غريبة عن الواقع ، وبالعكس حيناً يُقدم الواقع بالحالة الخام ، وتكون الاسلبة تافهة ، يُقدم الواقع دونها وحدة .

الفن العظيم ، الأسلوب ، الوجه الحقيقي للتمرد ... هذه الاشياء تعلمنا بين هاتين البدعتين<sup>(٢)</sup> .

## ٤ الخلق والثورة

او يصبح

في الفن ، يُستكمل التمرد ويدوم في الخلق الحقيقي ، لا في القدر أو التعليق . والثورة ، من حيثها ، لا تؤكد ذاتها إلا في حضارة ، لا في الإرهاب أو الطغيان . ان السؤالين التاليين اللذين يطرحهما عصرنا بعد الآن على مجتمع واقع في ورطة : هل الخلق ممكن ، هل الثورة ممكنة ، ... تقول : ان هذين السؤالين لا يؤلفان إلا سؤالاً واحداً يختص بنهضة حضارة ما .

عصر الاصلاح

ان ثورة قرن العشرين يخضعان لنفس العدمية ، وبعبارة في نفس الشاقص . انها ينكران ما يؤكدان مع ذلك في حرآتها بالذات ، ويبحثان عن محوٍ مستحيلٍ خلال الإرهاب . "يجيل لانزوة المعاصرة انها تدمش عالمنا حديداً ، مع انها ليست سوى نتيجة العالم القديم المتناقضة . أخيراً ، لا يشكل المجتمع الرأسمالي والمجتمع الثوري سوى عالم واحد ، وذلك تقديراً ما يخضعان

(١) ارأله مدام بوفاري - مشورات مويديت .

(٢) التصحيح يتلف بأحلاف المواضع .

لنفس الوسيلة : الإنتاج الصناعي ، ولنفس الوعد . ولكن أحدهما بعداً باسم  
مبادئ صورية يعجز عن تجسيدها ، وتتكربها الوسائل التي يستعمل . والآخر  
يبرر نبوءته باسم الواقع فقط ، ويشوه الواقع في نهاية الامر .  
مجتمع الانتاج مجتمع منتج فقط ، لا مبدع .

تخطيط الفن المعاصر

والفن المعاصر ، كما هو عديمي ، يتخطى أيضاً بين الشكلية والواقعية . فأما  
الواقعية فهي بوجوازية (وإذ ذلك تكون سوداوية) ، مثلها هي اشتراكية  
(وإذ ذلك تصبح موجبة للمبرة) . وأما الشكلية فتختص بمجتمع الماضي حينما  
تكون تجريداً بلا مسبب ، مثلما تختص المجتمع الذي يدعي انه من المستقبل ؛ وإذ  
ذلك تعرف الدعاية .

إدما ما تجلست اللغة بالإنكار اللاعقلاني ، تلاشت في الهذيان اللفظي . وإذما  
ما خضعت للفكر التقيدى ، تخلصت في الشعارات .  
بين هاتين الحالتين يقع الفن .

واحد التمرد والفنان

فلئن وجب على التمرد ان يرفض فورة العدم وقبول الكلية في وقت  
واحد ، فعلى الفنان ان يتخلص في الوقت نفسه من الفورة الشكلية ومن جمالية  
الواقع المطلقة . العالم الحالي عالم وأحد ، ولكن وحدته وحده العدمية . ليست  
الحضارة ممكنة إلا إذا امتدى هذا العالم إلى درب تركيبة مبدعة . بنفس  
الصورة ، في الفن ، مختصر زمان التعليق الدائم والتحقيق (الصحفي) ؛ ويمتد  
إذن زمان المبدعين .

الخلق والحضارة

ولكن الفن والمجتمع ، الخلق والثورة ، عليهما في سبيل ذلك أن يجدوا  
ينبوع التمرد ، حيث يتوازى الرفض والقبول ، الجزئي والكلبي ، الفرد  
والتاريخ ، في أشد توتر . ليس التمرد في حد ذاته عاملاً حضارة ، ولكنه

متقدم على كل حضارة . وحده ، في غمرة ورطنتنا ، يسمع بترجيبي المستقبل الذي حلم به نيتشه ، «المبدع ... بدلاً من القاضي والراجع» . وهي عبارة لا تجيز التخييل المضحك ، تخيل مجتمع يوجهه فنانون . إنها فقط تثير مأساة عصرنا الذي لم يعد فيه العمل مبدعاً ، بعد ما خضع تماماً للإنتاج . ان يفتح المجتمع الصناعي دروب حضارة ، إلا بإعادة كرامة المبدع إلى العامل ، أي بصرف اهتمامه وفكره إلى العمل بالذات بقدر صرفه لتنتاجه . الحضارة اللازمة بعد الآن ان يجوز لها أن تفصل العامل والمبدع ، في الطبقات كما في الأفراد ، مثلما لا يفكر الخلق الفني ان يفصل الشكل والمحتوى ، الفكر والتاريخ . بهذه الصورة ستقر للجميع بالكرامة التي أكدها التمرد . إنه لخالف للصواب ، وخيالي على كل ، ان يدبر شكسبير مجتمع الخدائين . ولكن من المصيبة أيضاً ان يدعي مجتمع الخدائين الاستغناء عن شكسبير . فشكسبير بلا خداه ، يتخذ ذريعة للطفيان . والخداه بلا شكسبير ، يتلعه الطغيان ، هذا إذا لم يسهم في توسيعه . كل خلق ينكر ، في حد ذاته ، عالم السيد والعبد . إن مجتمع الطفاه والعبيد الفطيع الذي ما زلنا نعيش فيه ، لن يزول ولن يحول إلا عند مستوى الخلق .

#### الخلق في العصر الحلال

فلأن يكون الخلق لازماً فهذا لا يستتبع إمكانه . إن عصر مبدعاً في الفن يتعرف بنظام أسلوب يطبق على فوضى عصر . إنه يصوغ ويصور أهواء المعاصرين . فلا يكلمني اذن ، بالنسبة إلى مبدع ما ، أن يكرر قول مدام لافاييت في عصر لم يبق فيه لأمرائنا المستوحشين متسع من الوقت للحب . واليوم إذ تقدمت الأهواء الجماعية على الأهواء الفردية ، من الممكن دائماً أن نتحكم بوفرة الحب ، بواسطة الفن . ولكن المشكلة التي لا مفر منها هي أيضاً التحكم بالأهواء الجماعية والنضال التاريخي . إن موضوع الفن ، رغم حسرات المقلدين ، امتد من السيكولوجيا إلى وضع الانسان . حينما يشرك هوى العصر العالم كله ، يريد الخلق أن يتحكم بالمصير كله . ولكنه في الوقت نفسه يستبقي

تأكيد الوحدة أمام الكلية . وحينئذ يتعرض الخلق للخوار ، بسببه بالذات أولاً  
وبسبب روح الكلية بعدئذ .

الخلق اليوم ، معناه الخلق مع ركوب مركب الخطر .

#### الفنان والاهواء الجماعية

للتحكم بالاهواء الجماعية ، على المرء في الحقيقة ان يجيها ويشعر بها على الاقل  
نسبياً . والفنان إذ يشعر بها ، يُصبح طعمة لها . ينجم عن ذلك ان عصرنا هو  
بالاحرى عصر التحقيق (الصحفي) بدلاً من أن يكون عصر الاثر الفني . انه  
بحاجة إلى استعمال صحيح للوقت . أخيراً ، إن ممارسة هذه الاهواء تستتبع  
احتمالات موت أكثر مما في عصر الحب أو الطموح ، لان الوسيلة الوحيدة لكي  
يعيش المرء الهوى الجماعي بصورة صحيحة هي قبول الموت من أجله وبه .

#### المدعون في عصر الدمار

إن أكبر احتمال من الصحة ، هو اليوم أكبر احتمال فشل بالنسبة الى الفن .  
فاذا كان الخلق مستعياً في غمرة الحروب والثورات ، فلن نحصل على مبدعين ،  
لأن الحرب قستنا والثورة نصيبتنا . إن أسطورة الانتاج غير المحدود تحمل في  
طياتها الحرب ، مثلاً تحمل السحابة ' المدججة ' العاصفة . وإذ ذاك تدمر الحروب  
بلاد الغرب وتقتل شارل بيني<sup>(١)</sup> . وما ان تخرج الآلة البورجوازية من الحراب  
حتى ترى الآلة الثورية مقبلة للملاقاة<sup>(٢)</sup> . بل إن بيني لم يعد يتاح له الوقت  
لأن يُبحث ثانية ، لأن الحرب المهتدة ستقتل كل أولئك الذين يُحتمل ان  
يكونوا مثل بيني .

ولكن اذا تبين ان الكلاسيكية المبدعة ممكنة ، فيجب أن نُقر بأنها

(١) قتل شارل بيني في بداية معركة المارن عام ١٩١٤ .  
راجع : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين (من ص ٧٩ الى ص ٨٣) - مشورات  
عويدات .  
(٢) يقصد ظهور الثورة الاشتراكية في نهاية الحرب العالمية الاولى تقريباً .

- تكون أثرها ، حتى ارتفعت في اسم واحد فقط . إن احتمالات الفشل في صدر الدمار ، لا يمكن ان 'تعدل' إلا بالاحتمالات العدد ، أي باحتمال ان يبقى فرد واحد على الأقل من عشرة واثني حقيقيين ، يتم نقل بأورال اخرته ، وينسكن من أن يزيد في حياته مانعاً من الوقت لاهي ، الخاف معاً . والفنان ، شاء أم أبى ، لم يعد في وسعه ان يكون مفرداً ، اللهم إلا في المنظر السوداوي الذي يدمن به الجميع أقرانه .

ان الفن التمرد ايضا يتكشف ، في نهاية الامر عن شعار «نحن موجودون»<sup>١١</sup> . ويتكشف معه عن درب متشوش نفور .

#### الغزاة والفن

وفي غضون ذلك ، 'تمهد الثورة' الغزبية ، في حلال عدديتها ، أولئك الذين يزعمون حماها بأنهم يستبقون الوحدة في الحياة . ان احد معاني الدراج الحالي ، وتاريخ الغد بشكل أكثر ، هو الدراج بين الفأين والغزاة الجدد ، بين شهود الثورة المبدعة وبنات الثورة العدمية . حول نتيجة هذا الدراج ، لم يجدوا ان غبي النفس إلا بأوهام محمولة . على الأقل نعرف ، بعد الان ، ان لا بد من خوفهم . ان الغزاة الجذبيين قادرون على القتل ، ولهم دور غير قادرين على الخلق . أما الفنانون فيعبرون الأبداع ، ولستهم لا يستطيعون أن يقتلوا حقاً . بين الفنانين ، لا نجد قتلة إلا بصورة استثنائية . وهم سرّ الرمن ، سيخطر الفن في المجتمعات الثورية الى الموت إذن . وان الثورة ستكون إذ ذلك قد عاشت . وكلما قلت الثورة' الفنان الضامن في الانسان ، اهتكت نفسها بعض الشيء . أخيراً ، لو تمكن الغزاة' من إخضاع العالم لقانونهم ، لما أثبتوا ان الحكم هو الأمر الالهي ، بل لأثبتوا ان هذا العالم محكوم . وفي هذا الجحيم بالذات ، لا تنقى الفن ايضاً مع التمرد المقهور ، ... أمل' أنهم وهارغ ، في ضوء الايام الموجهة لليأس .

(١) إشارة الى فكرة المشاركة .



## تمرد في قلب الجحيم

في كتابه « مذكرات سيبريا » تحدث أرنست دوينغر عن هذا الصابط الألماني الذي بقي عدة سنوات مسجوناً في معسكر يسوده القهر والجوع . فبنى لنفسه بيانو صامتاً ، بلائس خشبية . وهناك في زحمة البؤس ، وسط جمع رث الثياب ، كان يؤلف موسيقى غريبة بفرقة بسماها . وهكذا في قلب الجحيم بالذات ، ثمة ألحان غامضة وصور قاسية من صور الجمال الدفين ، تنقل البنا دائماً ، وسط الجريمة والجنون ، صدى هذا التمرد المسجّم الذي يشهد على مدى الزمان بعظمة الانسان .

## الثورات والجمال

ولكن الجحيم موقت ، ودات يوم تستأنف الحياة ثانية . لعل للتاريخ نهاية . مع ذلك ، ليست مهمتنا ان ننبه ، بل ان نخلق على غرار ما نعلم بعد الآن انه حق . الفن ، على الاقل ، يعلمنا ان الانسان لا يتلخص في التاريخ فقط ، بل يجد ايضاً علة وجود في نظام الطبيعة . ان الإله « نا »<sup>(١)</sup> لم يمت بالنسبة اليه . وان تمرد الغريزي يؤكد القيمة والكرامة المشتركة بين الجميع ، ويطالب في الوقت نفسه مطالبة عنيدة بقطع كامل من الواقع اسمه الجمال ، ليروي ظمأه الى الوحدة . في وسعنا ان نرفض التاريخ كله ، وان نتآلف مع ذلك وعالم الكواكب والبحر . ان التمردين الذين يريدون تجاهل الطبيعة والجمال ، يازمون أنفسهم بأن يزوجوا كرامة العمل والحكيمة من التاريخ الذي ينتفون صنعه . كل كبار المصلحين يحاولون ان يبنوا في التاريخ ، ما عرف ان يخلقه شكبير وسرفانتيس ومولير وتولستوي : عالم متأهب دائماً لإرواء الظمأ الى الحرية والكرامة الموجود في قلب كل انسان . ليس من شك في ان الجمال لا يصنع الثورات . ولكن ثمة يوم تحتاج فيه الثورات الى الجمال . ان قاعدته التي تنكر الواقع وتكسبه في الوقت نفسه وحدته ، هي ايضاً قاعدة

(١) إله الطعام ، يمثل الطبيعة الكلية المشخصة .

التمرد . فهل نستطيع ان نرفض الجور دون ان نكف عن الترحيب بطبيعة  
الانسان وجمال العالم ؟ جوابنا نعم . مهما يكن من أمر ، فان هذه الاخلاق  
التمردة والأمانة في الوقت نفسه ، هي الاخلاق الوحيدة التي تثير درب نورة  
واقعية حقاً . فإذ نستقي الجمال ، نهد ليوم النهضة الذي ستجعل فيه الحضارة  
في مركز تفكيرها ، بعيداً عن المبادئ الصورية وقيم التاريخ المتردية ، هذه  
الفضيلة الحية التي تبني كرامة العالم والانسان المشتركة ، والتي يتوجب علينا  
الآن ان نعرفها إزاء عالم يلحق بها الاهانة .

## الفصل الخامس

### فكرة الضحى

## التمرد والقتل

١ - تمهيد

العقيلة... الولاية

على كل حال ، بعيداً عن يدوع الحياة هذا ، تبلى أوروبا ، ثق - الثورة في اضطراب ملحوظ . ففي القرن الماضي ، أسقطت الآسان الخوايط الدينية . ولكن ما أن تمرد ، حتى ابتدع لنفسه خوايط أخرى ، لا تطابق . لقد ماتت الفضيلة ... ولكنها 'بعثت حية' وهي أشد عنفاً أيضاً . إنهم انتهت لكل غادر باحسانٍ صاحب ، وبمجة المستقبل البعيد... التي تجعل المدهم - الآساني المعاصر محط السخرية . عند نقطة الاستقرار هذه ، لا يسعها أن تولد إلا الفساد . ودات يومٍ تأخذها سورة الغضب ، فادابها 'تصبح بوليسية' ... ومن آيل شلائس الآسان ، 'تنصب' المحارق الوحشية .. وهكذا ، في عهد الأئمة المعاصرة ، تتألف والجريمة .

كأن يبابع الحياة والحاق قد ونصب . هالخراف 'يجمد' أوروبا الملائكة بالأشباح والمكتظة بالآلات . وبين محزرتين 'ال' . ارت المشاق 'تنصب' هي أعم - آاق السراذيب . وثمة - لادون .. إسانيون .. بقيون فيها شعائر دينهم الجديد تحت صمغ الصمت .

(١) ينصد الحر من العائيب الأولى والثانية (المعروف) .

أية صرخة ستقضى مضاجعهم ؟

الشعراء أنفسهم ، إزاء مقتل أخيه ، يصرحون في تشامخ بأن أيديهم نظيفة . جميع الناس من ثم ينصرفون بلا اكتراث عن هذه الجريمة .

لقد فقدت الضحايا حظوتها إلى أقصى حد ، لأنها صارت تولد الضجون . في الازمنة الحالية ، كانت دماء القتلى تحدث على الأقل رعشة مقدسة ، وكانت بالتالي تترنن الحياة . أما هذا العصر فيوحى بأنه ليس دامياً ... وهذا ما يدينه حق الإدانة . فالدماء لم تعد مرئية ، ولا تلتطخ وجه فرسيتنا المرائين تلتبئها فاجحاً . هذه هي عدمية القضي : فالقتل المتهور الأهرج أصبح واحة غطاء ، والمجرم الأحمق يبدو وكأنه "مرواح" للقلب ... إراء شفاحيننا الاذكياء .

#### التمرد بين التضحية والقتل

بعد ما اعتقد الفكر الاوروني طويلاً انه يستطيع مع البشر جميعاً أن يجارب الاله ، ادرك ادن ان لا بد له من مكافحة البشر ايضاً إذا كان لا يريد الموت . إن التمردين الذين ثاروا على الموت ، وأرادوا أن يبنوا على النوع (البشري) سخاوداً تقورا ، دعروا من اضطرابهم إلى القتل بدورهم . ولكن إن تراجعوا عنهم ان يردوا بالموت ، وإن تقدموا فعليهم أن يرضوا بالقتل .

في حاد التمرد عن أصله ، وتسكرت معاملة بقحة ، فانه عند كل المستويات يتأرجح بين التضحية والقتل .

كان يأمل بأن يعطي عدالته كل ذي حق حقه ، فاذا بها تصبح خاطفة الاجراءات . لقد غلب ملحدوت العون الرباني ، ولكن ملكوت العدالة نداعى أيضاً .

وكان تروده يداع عن البراءة البشرية ، وها هو ذا يصبر على إته الخاص . ولم يتكاد يمس إلى الكفاية ، حتى قال أوحش عزلة . وكان يريد المشاركة ، ولم

يَعُدُّ له من أمل سوى أن يجمع واحداً فواحداً ، على مدى السنين ، المنعزلين  
السائرين نحو الوحدة .

### نساؤل

هل علينا اذن ان نتخلى عن كل تمرد ... إما لأننا نقبل مع مظالمه بجمتمع  
لا يزال قيد البقاء ، أو لأننا نعتزم بقعة ان نخدم مسيرة التاريخ الموجهاء ،  
ضد ابن حواء ؟

مهما يكن من أمر ، فلو كان على محاكمتنا الفكرية ان تخلص الى إذعانية  
وضيعة ، لوجب أن نقبل بها مثلاً تقبل بعض الأسر أحياناً بهضائح لا مفر منها .  
ولو كان عليها أيضاً ان تبرر كل انواع التعديت على البشر ، وحتى إبادتهم اباداة  
منظمة ، لوجب ان نوافق على هذا الانتعار . ولوجد الجس بالعداة أخيراً  
منفعته في ذلك ، ونعني زوال عالم قيوامه التجار والشرطة .

### القتل ... والمشاركة

ولكن أما زلنا في عالم متهمرد ؟ ترى ألم يصبح التمرد ذريعة نفر من  
الطغاة الجدد ؟ إن شعار « نحن موجودون » ، القائم في حركة التمرد ، هل  
يسعه ... دوناً حيلة ... ان يتماشى مع القتل ؟

عندما عين التمرد للاضطهاد حداً فيما بعده تبدأ الكرامة المشتركة بين البشر  
جميعاً ، .. نقول : عندما عين التمرد هذا الحد عرف قيمة أولي . وودع في  
مقدمة مستنداته مشاركة شفافة بين البشر ، الحمة مشتركة ، رابطاً كترابط  
حلقات السلسلة ، صلة روحية من كائن الى آخر تجعل البشر متماثلين متعالمين .  
وهكذا خطا خطوة أولى بالفكر المتناحر مع عالم عبثي . وبهذا التقدم زاد  
أيضاً من حدة المشكلة التي عليه الآن أن يحلها تجاه القتل .

### القتل ، على مستوى التمرد

والحقيقة ، على مستوى العبث ، لم يكن القتل ليولد سوى تناقضات

منطقية<sup>(١)</sup> . أما على مستوى التمرد ، فهو تمزق ، لان المسألة هي ان نقرر هل يمكن ان نقتل هذا الذي اعترفنا أخيراً بمشابهته وكرهنا بمائلته لنا . ما أن نتخطى العزلة ، فهل علينا اذن أن نلتقي بها التقاءً نهائياً بتبرير الفعل الذي يلي في العزلة التامة ؟ لأن 'نكره' على العزلة هذا الذي عرف منذ هنيهة انه ليس وحده ، ألا يعني ارتكاب الجريمة النهائية ضد الانسان ؟

### القتل والعزلة

منطقياً ، علينا ان نجيب قائلين إن القتل والتمرد على طرفي نقيض . والحقيقة ، فليقتل سيد واحد فقط ، وبصورة ما ، لا يعود التمرد نحولاً بالمناداة بالمشاركة الانسانية التي كان مع ذلك يستمد تبريره منها . إذا كان هذا العالم بلا مدلول علوي ، وإذا لم يكن للانسان سوى الانسان ضامناً وكفيلاً ، فيكفي أن يزيح الانسان كائناً واحداً من مجتمع الاحياء حتى 'يعد نفسه من هذا المجتمع . حينما يقتل قبائل أخاه هابيل ، يهرب إلى الصحاري . وإذا كان القتل جمعاً غفيراً ، فان الجمع الغفير يعيشون في القفر ، وفي هذه العزلة الاخرى المسماة بالاختلاط .

### شطر العالم

ما أن يقتل التمرد ، حتى يشطر العالم الى قسمين . فقد كانت يثور باسم بمائتة الانسان الانسان ، وها هو ذا 'يضحى بالمائة إذ 'يكرس المباشرة ، في الدماء . في غمرة البؤس والاضطهاد ، كانت كينوته الوحيدة في هذه المائة . نفس الحركة التي كانت تسمى الى تأكيدها ، 'تلقده اذن الكينونة . في وسعه ان يقول ان البعض ، او حتى الجميع تقريباً ، هم معه . ولكن ، فليُفقد 'كائن' واحد من عالم الإنشاء ، فاذا به كالصحراء . إذا كنا غير موجودين ، فأنا أيضاً غير موجود . وهكذا يتوضح أسي كاليايف وصمت 'سان جوست .

(١) راجع مقدمة الكتاب .

إن المتبردين المصميين على قبول العنف والقتل ، استبدلوا شعار « نحن موجودون » بشعار « سوف نوجد » ، ليحتفظوا بأمل الكيئوتة ،... ولكن دونما جدوى . بعد زوال الاستثناء ، تصبح القاعدة هيثثة ثانية . والقتل ، على مستوى التاريخ كما في الحياة الفردية ، هو إذن استثناء يائس ، أو أنه ليس شيئاً . وما يدخل من تحطيم على نظام الأشياء ، هو بلا غد . أنه غير اعتيادي ، فلا يمكن استعماله إذن . وليس بالانهاجي منها ما يتبعني الموقف التاريخي البحث . إنه الحد الذي لا يسمننا بلوغه إلا مرة واحدة . . . . . وبعدئذ لا بد من الموت . ليس للمتبردين إلا طريقة واحدة لاصح مع فعله الآثم ، إذا اتساق معه ، وهي إن يقبل موته الخاص وبالتضحية . إنه يقبل ويموت كي يصبح مفهوماً أن القتل مستحيل . واذ ذلك بين أنه يفضل في الواقع شعار « نحن موجودون » على شعار « سوف نوجد » ، وتوضح أيضاً طمأنينة كاليانيف في سجنه وسكينة سان جوسيت في سيره نحو المقصلة .

ما وراء هذا الحد الأخير يبدأ التناقض وتشرع العدمية .

## ٢٠ . القتل العدمي

### حياة الحد

الجريمة اللاعقلانية والجريمة العقلانية ، في الحقيقة ، تخوفان على حد سواء ، القصة التي اطهرتها حركة التمرد : وأولا الجريمة اللاعقلانية . فالذي ينسكب كل شيء ويبيع نفسه للقتل : المركيز ساد ، الداندي القاتل ، «الأوحد» القاسي ، كرامازوف ، «الريالي» الذي يطلق النار على الجماهير ،... كل هؤلاء في حائل الكلام يطالبون بالجريمة النامة ، ويبسط الغطرسة البشرية دونما حدود .

إن المدمية غمظا في نفس الغيط الحاقق والشاوقات . أنها اذ تلغني كل مبدأ



أمل ، تبد كل حد؟ وفي مخطتها الأهمى الذي لا يعود غير حتى سلبية ١٩٤٥  
تحكم في النهاية بأن قتل من مصيرة الموت أمر لا أهمية له .

### التمرد والأخلاق

واكن سببته ونعني : الاعتراف المتبادل عصير مشترك والتواصل الروحي  
بين البشر . ما زال قائم . لقد نادى التمرد بها وقد كفل بخدمتها . وبالتالي  
حدد ضد العدمية قاعدة ساوك لا تحتاج الى ترقب نهاية التاريخ كي تنير العمل ،  
وليت مع ذلك القاعدة الجوربة . بخلاف الأخلاق العقوبية ، أوسع المجال لما  
هو شاذ عن القاعدة والقانون ، وشي دروب أخلاق لا تخضع لمبادئ تجريدية ،  
بل تكتشفها في حرارة العصبية . ان ، في حركة الإنكار الدائمة . لا شيء يسمح  
بالقول ان هذه المبادئ قد وجدت منذ الازل ، ولا فائدة من ان نعلن بأنها  
ستوجد ، فهي موجودة في نفس زمان وجودنا . انها تكون معنا ، وعلى مدى  
التاريخ ، العبودية والكذب والإرهاب

العبودية ، الكذب ، الإرهاب .

والحقبة لا وجود لأنه نقلنا مشتركة بين السيد والعبد ، فلا ينشأ التبادلية  
والتواصل مع ناطق مستعبد . ان العبودية تلتزم اذعان ضمت ، بدلاً من هذا  
الحوار العنفي الحار الذي يواظبه نمترف بماثلتنا ونفكر من أظرفنا . فالتبادلية  
الظلمة ووثيق التمرد ، في ذلك لأنه يناقض فكرة خالدة عن العدالة ، لا تعرف  
أين توثق ، بل لأنه يبقى النزاع الحاد الذي فصل المضطهد عن المضطهد .  
اننا نقتل سماء المقدار البسيط من العكسيرة الذي ينشأ عن المشاركة الانسانية .  
كذلك ، بما ان الذي يكذب يتعلق عن سائر البشر ، لذلك يلقى الكذاب ،  
وفي درجة أخف ، القتل والعنف اللذان يرضان الضمات النهائي . فلا يمكن  
ان تماشى المدازكة والحالة الروسية اللتين أظهرهما التمرد ، إلا في الحوار المتكلم  
النباس ، قبل . . . تفاهم ، بولد الموت . أما اللغة الواضحة ، الكلمة البسيطة .

١١ سيد كر هداث السبات في المصنع التالي .

فوحدها تستطيع أن 'تتخذ من هذا الموت' (١) . إن قمة المآسي كلها تكمن في صمم الأبطال . لقد أصاب انفلاطون كبد الحقيقة ضد مرمى ونبته . فالحوار على مستوى البشر أخف عاقبة من التجميل الديانات المطلقة 'بردد' ويملئ من اعالي جبل متعزل . على المسرح كما في الواقع تسبق المناجاة الذاتية الموت . كل متردد ، بمجرد الحركة التي تجعله يشور على المضطهد ، يدافع اذن عن الحياة ، ويتكفل بمكافحة العبودية والكذب والارهاب ، ويؤكد في ومضة خاطفة ان هذه الآفات الثلاث تنشر الصمت بين البشر ، وتسدل حجاباً كثيفاً فيما بينهم ، وتغتهم من الالتقاء على صعيد القيمة الوحيدة القادرة على انقاذهم من برائن العبودية : المشاركة الدوية بين البشر المتنازعين مع مصيرهم .

#### التنرد والحرية المطلقة

في ومضة خاطفة ... ولكن هذا يكفي موقفاً كي نقول ان الحرية القصورى ، حرية القتل ، لا تتماشى مع اسباب التنرد . ليس التنرد ابداً مطالبة بالحرية التامة . فهو ، بالعكس ، يقاضي الحرية التامة ، وينكر السلطة المطلقة التي تتيح للقوى انتهاك الحدود المحرمة . التنرد لا يطالب باستقلال عام ، بل يود ان يسلم بأن للحرية حدودها حيثما 'وجد كأن انساني' ، لأن الحد هو بالضبط قدرة هذا الكائن على التنرد . هنا يكمن السبب العميق للتشدد التنرد . فكما تبين للتنرد انه يطالب بمجد اادل ، ازداد صلابة . ليس من شك في أن التنرد يطالب بحرية معينة لشخصه ، ولكنه لا يطالب في أية حال من الاحوال بحق تحطيم كينونة الآخرين وحرمتهم ، اذا كان منطقياً . ان لا يذل أحداً . والحرية التي يلتمس ، يطالب بها من اجل الجميع . والحرية التي يرفض ، يمنحها عن الجميع . فهو ليس فقط يداً ضد سيد ، بل هو ايضاً انساناً ضد عالم السيد والعبد . بفضل التنرد ، هناك اذن في تاريخنا ما هو اكثر من علاقة لليادة بالعبودية . ليست 'المنطقة' الشريعة الرائدة فيه . فبإمام قيمة اخرى ،

(١) يلاحظ ان اللغة الحامسة بالمائد المتقدمة هي دالة امة مدرسية او ادارية .

يؤكد المتمرد استحالة الحرية التامة ويطلب لنفسه ، في الوقت ذاته ، بالحرية النسبية اللازمة للاعتراف بهذه الاستحالة . كل حرية انسانية هي إذن نسبية ، في اعتماق اعماق جذورها . الحرية المطلقة ، حرية القتل ، هي الوحيدة التي مع مطالبها بنفسها ، لا تطالب بما يجدها ويعطّلها . فتقطع بالتالي عن جذورها ، وتهم على غير هدى ، طيفاً تجرّيداً مؤذياً ، ريثما يخيل اليها أنها تجد في العقيدة بدنناً تقتصص فيه .

### منطق التمرد

يمكن القول إذن ان التمرد يصبح غير منطقي حينما يصب في التدمير . إنه يطلب بوحدة الوضع البشري ، لذلك فهو قوة حياة لا ممات . ليس منطق الصيبي منطق التدمير ، بل منطق الخلق . وكما تظل حركته صحيحة ، ما عليها ان تهمل اي حد من حدود التناقض الذي يدعمها . يجب ان تكون أمينة للقبول الذي تنطوي عليه ، وفي الوقت نفسه لهذا الرفض الذي تعزله التفسيرات العدمية في التمرد . ان منطق المتمرد هو الرغبة في خدمة العدالة كي لا يزيد في 'ظلم الوضع ، والسعي الى الكلام الواضح كي لا 'يكشف الكذب العام ، وتأكيّد السعادة إزاء عذاب البشر . بما أن الهوى العدمي يزيد في الظلم والكذب ، لذلك يحطم في سورة غضبه تطلبه القديم ، وينتزع من نفسه بالتالي أوضح أسباب تمرد . انه يقتل ، وقد جن جنونه لإحساسه بأن هذا العالم مصيره الموت . أما نتيجة التمرد فالامتناع عن تبرير القتل ، لأن التمرد هو أصلاً احتجاجاً على الموت .

### التمرد بين الخير والشر

ولكن لو كان الانسان قادراً على ان 'يحيل' بمفرده الوحدة في العالم ، ولو أمكنه ان يقيم فيه بمجرد أمره الصدق والبراءة والعدالة ، إذن لكاف الإله بالذات ، واحار التمرد بعد الآن بلا أسباب . لئن كان هناك تمرد ، فلأن الكذب والظلم والعنف تشكل ، جزئياً ، وضع المتمرد . فلا يسهه إذن ان

يطمح الى عدم القتل او التكذب طويلاً مطلقاً ، دون ان يتخلى عن تمرده ، وان يقبل بالقتل والشر قبولاً قطعياً . ولكنه لا يستطيع أيضاً أن يقبل بالقتل والكذب ، لأن الحركة المماكسة التي توسع القتل والعنف تحطم أيضاً اسباب عصيانه . فلا يسع المتمرّد إذن ان يجد السكينة . انه يعرف الخير ، ويفعل الشر رغماً عن نفسه . ان القيمة التي تنهض به لا تعطى له ابدأ بصورة قطعية ، بل عليه ان يصونها في استمرار . اما الكينونة التي يحصل عليها فتتمار إذا لم يدعمها التمرد ثانية . مهما يكن من أمر ، فاذا لم يكن في وسعه دائمياً عدم القتل ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ففي وسعه أن يبدل قصاصي جهده وحميته كي يخفض احتمالات القتل من حوله . إن فخله الوحيد ، وهو العاروق في الظلمات ، ان لا يستسلم لدوارها الحالك ، . . . والمتمرد الى الشر ، أن يدب نحو الخير باصرار وعناد . أخيراً ، اذا قتل هو بالذات ، فيرضى بالمئات . فالمتمرد الامين لأصله 'يدال في التضحية على أن الحرية الحقة ليست إزاء القتل ، بل إزاء موته الخاص . انه يكتشف في الوقت نفسه المرة الماورائية . واذ ذلك يقف كاليانيف تحت المشنقة ويبين بجلاءه لجميع اخوته الحد الصحيح حيث تبدأ عزة البشر وتنتهي .

### ٣ - القتل التاريخي

#### التمرد والتاريخ

ينتشر التمرد أيضاً في التاريخ الذي يتطلب اصطفايات نموذجية . ليس ذلك فحسب ، بل يتطلب أيضاً مواقف فعالة ، الامر الذي قد يبرر القتل العقلاني . واذ ذلك ينعكس التناقض المتمرد في معارضات لا حل لها في الظاهر ، وانموذجها في السياسة : تضاد العنف واللاعنف من جهة ، وتضاد المدانة والحرية من جهة أخرى .

فلنحاول أن نحددتهما في تناقضهما .

## تضاد العنف واللاعنف

إن الغيبة الإيجابية التي تطوي عليها حركة التمرد الأولى تقتضي التغلبي عن العنف كبداً ، وتؤدي بالتالي الى استحالة توطيد ثورة ما .

هذا التناقض يواكب التمرد في استمراره ، وسيشتد ايضاً على صعيد التاريخ .  
وإذا تخلّيت عن فرض احترام المماتة الانسانية ، فاني أتازل أمام المضطرب ، وأتمحلي عن التمرد ، وارتد الى موافقة عدمية . اذ ذلك تصبح العدمية مخافة .  
وإذا طالبت بأن يُسلمم بهذه المماتة في سبيل الحكينة ، فاني اتورط في عمل يقتضي كي يجمع قجة العنف ، وينكر هذه المماتة والتمرد بالذات .

وبتوسيع التناقض... ، اذا كانت وحدة العالم لا يمكن ان تأتي من علي ، فعلى الانسان ان يبنها على مستواه ، في التاريخ ، والتاريخ ، من غير قيمة 'تبدله' ، يخضع لقانون الفعالية .

المادية التاريخية ، التقيدية ، العنف ، انكار كل حرية لا تسير في معنى الفعالية ، ، عالم الشهاعة والصمت ،... هي أصح النتائج لفلسفة تاريخية محضة .  
في عالم اليوم ، وحدها فلسفة الأبدية تستطيع ان تبرر اللاعنف .

فعلى التاريخية l'ahistoricité المطاعة... ، ستعرض بخلق التاريخ . ومن الوضع التاريخي... ستطلب أصله . أخيراً ، إذ 'نكرس الظلم ، ستوكل أمر العدالة الى الله . اذك فر'ودها ، بدورها ، ستطلب الايمان . وسيعترض عليها بوجود الشر ، وبالمفارقة التالية : مفارقة إله قدير... شرير ، أو محسن... عاجز . وسيدقى باب الاصطفاء مفتوحاً بين العون الرباني والتاريخ ، بين الله والسيف .

## التمرد امام احد امرين

ما عماء يتكون حينئذ موقف التمرد ! انه لا يستطيع أن ينصرف عن العالم والتاريخ . من غير ان 'ينكر مبدأ تمرد بالذات ، ولا ان يختار الحياة الأبدية... من غير ان يردى بالشر ، بوجه ما . فاذا لم يكن مسيحياً ، مثلاً ،

وجب عليه المذبي حتى نهاية الشرط . ولكن الماضي حتى نهاية الشرط يعني اصطفاؤه التاريخ على الاطلاق ، ومع اصطفاؤه قتل الانسان ، اذا كان هذا القتل لازماً للتاريخ : ان قبول تبرير القتل هو أيضاً إنكار الأصل . وادالم يصطف المتمرده ، فانه يصطفي الصمت وعبودية الآخرين . وإذا صرح ، في حربه بأس ، انه يصطفي في وقت واحد ضد الله والتاريخ ، فسبكون شاهد الحرية الى الحية ، أي : شاهد لا شيء .

في رحلتنا الحالية ، إزاء استهانة تأكيد سبب ملوي لا نجد سبباً في الشر ، يرى المتمرده نفسه في الظاهر أمام أحد أمرين : الصمت أو الفس ، وفي كلتا الحالتين : أمام استهفاء .

#### تصادم العدالة والحرية

كذلك أيضاً فيما يتعاقب بالعدالة والحرية .

إن هذين التطلعين هما في مبدأ حركة التمرد ، ومجدهما في الوثبة الثورية . بيد أن تاريخ الثورات يبين أنها يتنازعان دائماً تقريباً ، كما لو كانت تطلباتهما المتبادلة غير قابلة للتوفيق . الحرية المطلقة هي حق الافرى في ان يتهم . إنها تستبقي اذن النزاعات التي تهدد العالم . والعدالة المطلقة رهن بالنقاء كل تناقض : فهي تحطم الحرية (١) . والثورة من أجل العدالة ، بواسطة الحرية ، تقيم احدهما ضد الأخرى في النهاية . هناك اذن في كل ثورة ، ما أن تصفى الطبقة التي كانت متحركة حتى الآن ، مرحلة تولد فيها هي بالذات حركة تمرد تعين حدودها وقتئذ عن احتمالات فشاها . إن الثورة تستهدف اول ما تستهدف إرضاء روح التمرد الذي ولدها ، وتلتزم بعدئذ بانكاره حتى تؤكد ذاتها بشكل أفضل . فكأن هناك تضاداً ثابتاً بين حركة التمرد ومكتسبات الثورة .

(١) في : «عناورات حول حسن استعمال الحرية» ، برهان عربييه مرهناً يتأمن تلخيصها يلي : الحرية المطلقة هي تهديم كل قيمة ، والقيمة المطلقة للهي كل حرية . كذلك قال بالانت : «إذا كانت هناك حقيقة واحدة وشاملة ، فلا مبرر لوجود الحرية .

## دور القيمة الوسيطة

ولكن هذه المتناقضات لا يوجد لها إلا في المطلق. فهي تقتضي عالماً وفكرة بلا وساطات. لا يوجد في الحقيقة توفيق يمكن بين إل و منفصل تمام الانفصال عن التاريخ، وتاريخ يخالي من كل استشراف إن من مبادئها على الأرض مما فعلياً الوجودي والمفروض<sup>١١</sup>. والسكن الاختلاف بين هذين الطرازين من البشر ليس، كما يفكر المرء بالاختلاف بين المطابقة غير الجدوية والفعالية. فالأول يعطفي 'تقيم' الامتناع، والثاني 'سهم' التدبير. وفي أن كليهما ينددان القيمة الوسيطة التي يكشفها التمرد، بالعكس، ادراك لا يقدمان لنا، وهما البندان عن الواقع على حد سواء، إلا نوعين من المعجز: معجز الخير ومعجز الشر.

## توضيح حول التاريخ

والحقيقة، لئن كان إنكار التاريخ يعني إنكار الواقع، وإن اعتبار التاريخ ككامل ينهي نفسه بفساد... وهو أيضاً ما ابتعاد عن الواقع. يخيل إلى ثورة القرن العشرين أنها تنهت العدمية وتخلص للتمرد الحقيقي، إذ تستبدل الله بالتاريخ. والحقيقة أنها تعزز العدمية، وتخبون التمرد الحقيقي. فالتاريخ، في حركته الخاصة، لا يقدم في حد ذاته أية قيمة. يجب إذن أن نحيا بموجب الفعالية الفورية، وأرضنا ندمت أو نتكذب. العنف المنهجي، أو الصمت المفروض، الحسبان أو الهمتان المذمور... يجب أن قواعد لا هفر منها. إن الفكرة التاريخية المحضة هي إذن فكرة عدمية: فهي تقبل قبولاً كلياً بشر التاريخ، وفي ذلك تعارض التمرد. وعبثاً تؤكد بالمقابل عقلانية التاريخ المطلقة، فهذا العقل التاريخي إن أيتم، وإن يتكون ذا معنى كاهل، ولن يصبح عقلاً مطلقاً بحق، وقيمة، إلا في نهاية التاريخ. وفي غضون ذلك، يجب أن نتصرف، وأرضنا نتصرف من غير قاعدة أخلاقية، كي تولد القاعدة النهائية الكليية، لموقف سياسي، ليست منطقية إلا تبعاً لفكرة مطلقة، أي: العدمية

(١) هذا هو أيضاً عنوان رواية لأرلور أوستن.

المطلقة من جهة ، والعقلانية المطلقة من جهة أخرى <sup>(١)</sup> .  
أما فيما يتعلق بالتأنيج فليس من فرق بين الموقنين . فما أن يقبل بها .. حتى  
تصبح الأرض مقفورة .

مونت باسبرس

والحقيقة ان المطلق التاريخي البحث لا يمكن حتى تصوره . إن خلاصته ونكته  
يا سبرس <sup>(٢)</sup> ، مثلاً ، تدور بعجز الانسان عن إدراك الكلية ، لأنه هو نفسه موجود  
ضمن هذه الكلية . التاريخ ، كمثل ، لا يسهه ان يوجد إلا بنظر واحد موجود  
خارج نطاق التاريخ والعالم . وفي النهاية ، لا وجود للتاريخ إلا بالنسبة إلى الله .  
من المستحيل إذن أن نتصرف وفق محططات تتوي على مجموع التاريخ الشامل .  
كل مشروع تاريخي ليس من شأنه أن يكون ، والحالة هذه ، إلا مغامرة  
متفاوتة في الرشاد والصحة . انه قبل كل شيء مخاطرة . ولأنه مخاطرة ، فلا يسهه  
ان يبرر أي شطط . أي موقف مقيم ومطلق .

المونت د أمام التاريخ

لو أمكن للتمرد ان يعني فلسفة ، ان كانت فلسفة حدود ، فلسفة الجهل المدبر  
المحسوب والمخاطرة . من يعجز عن معرفة كل شيء ، يعجز عن قتل كل شيء .  
والتمرد لا يجعل من التاريخ شيئاً مطلقاً ، بل يرفضه وينكره باسم فكرة  
يتمثلها عن طبيعته الخاصة . انه يرفض وضعه ، تماماً بأن وضعه إلى حد كبير  
هو تاريخي . فـ... الظلم وسرعة الزوال والموت أشياء تتجلى في التاريخ . فحينما  
نرفضها ، نرفض التاريخ بالذات . صحيح ان التمرد لا ينكر التاريخ المحيط  
به ، بل فيه يحاول أن يؤكد ذاته . ولكنه أمام التاريخ كالفنان امام الواقع ،  
يرفضه عن غير ان يهرب منه . إنه لا يجعل منه شيئاً مطلقاً في أية لحظة من  
اللحظات . فاذا أمكنه ان يسهم ، بحكم ضرورة الاشياء ، في جريمة التاريخ ،

(١) ترى ايضاً ان العقلانية المطلقة ليست العقلانية . فالاختلاف بينها ، للاختلاف بين الذاتية  
والواقعية . إن الأول تدفع الثانية خارج الحدود التي تكسبها معنى وشرعية . انها أشد قسوة ، وفي  
النهاية ألد معالجة . انه العنف إزاء القوة .

(٢) انظر إليه : القنبلة الذرية ومصير الانسان المكتبة الفلسفية ، منشورات عويدات .



فلا يسهه إذن أن يبررها . لا يجوز قبول الجريمة العقلانية في مستوى التمرد .  
ليس ذلك فحسب ، بل هي أيضاً تعني موت التمرد . وزيادة في توضيح هذه  
البدئية . نقول إن أول ضحايا الجريمة العقلانية هم المتمردون الذين يُنكر  
عمايتهم تاريخياً أصبح بعد الآن مؤلها .

#### عالم التعمية وعالم التمرد

إن التعمية الخاصة بالفكر الذي يدعي النورية تستأنف اليوم وتنمي التعمية  
البورجوازية . إنها تمرد الظلم الدائم والتسوية غير المحدودة والقباحة... تحت ستار  
الوعد بمدالة مطلقة . أما التمرد فلا يسعى إلا إلى النسبي ، ولا يسهه أن يعد  
إلا بكرامة ، وكثيرة مقرونة بمدالة نسبية . إنه يتحزب لحدي تستقر عنده وحدة  
البشر . عالمه عالم النسبي . وبدلاً من أن يقول مع هينغل وماركس إن كل شيء  
محتم ، يردد قائلاً فقط إن كل شيء ممكن ، وإن الممكن أيضاً أهل للتضحية عند  
حد معين . بين الله والتاريخ ، اليوجي والمفوض ، يشق درباً صعباً يمكن فيه  
للتناقضات أن تماش وأن تتجاوز .

وانفحص إذن التناقضين المقدمين كمثل .

#### الموافقة على ما هو سي

يتحتم على العمل الثوري الذي يدعي الانسجام مع أصله ، أن يتلخص في  
موافقة ايجابية على النسبي . إنه سيكون أميناً للوضع البشري . ولئن تشدد  
بصدده وسائله ، فإنه سيقبل بالتقريب فيما يتعاقب بغياته ؛ وكما يعرف التقريب  
في تحسن متواصل ، سيطلق هذا العمل العنسان للكلام . وهكذا يصون  
الكينونة المشتركة التي تبرر عصيانه ، ويستبقي للحق خاصة إمكانية التعبير  
الدائمة . إن هذا يُعرّف مسلكاً تجاه العدالة والحرية .

لا وجود لعدالة في المجتمع من غير حق طبيعي أو مدني يسندها . ولا  
وجود لحق من غير تعبير عن هذا الحق . فإذا هب الحق الى الكلام فثمة احتمال  
في ان العدالة التي يسندها ستؤكد عاجلاً أم آجلاً . كي نفوز بالكينونة ، علينا

ان ننطلق من المقدار البسيط من الكينونة نكتشفه في ذاتنا، لا ان نتكره أولاً.  
إن إخراس السبق رينما تتوسط العدالة معناه اسكات الحق إلى الابد ، لأنه لن  
يجد سبباً للكلام اذا سادت العدالة الى الابد .

وبالتالي نفرض ثانية "أمر العدالة الى اولئك الذين وحدهم يُفسيح لهم بالسلام:  
الاقرباء .

### العدالة والحرية

منذ قرون والعدالة والكينونة اللتان ين هما الاقرباء تسمى ان بالإرادة  
المطلقة .

إن قتل الحرية لإقامة العدالة معناه اعادة الاعتبار للعون... ولكن من غير  
الوساطة الربانية ، ومعناه... بحكم ردة فعل مسببة للدوار إرجاع الهيئة  
الصوفية... ولكن في أحط الاشكال .

حتى حينها لا تكون العدالة محققة ، تصون الحرية القدرة على الاحتيم باج ،  
وتتخذ التواصل الروحي .

العدالة في عالم صامت ، العدالة المستعبدة الحرس ، تحطم المشرعية ولا  
يعود في وسعها أخيراً ان تكون العدالة .

ان ثورة القرن العشرين فصلت فصلاً تمييزياً ، ولغيات توسعية مفرطة ،  
بين مفهومين لا يجوز فصلهما . والحرية المطلقة تهرأ بالعدالة . والعدالة المطلقة  
'تنكر الحرية . حتى يعطي هذان المفهومان أصلهما ، ينبغي لها ان يجد  
حدسها الواحد في الآخر .

ما من انسان يعتبر وضعه حراً اذا لم يكن هذا الوضع عادلاً في الوقت  
نفسه ، ولا عادلاً إذا لم يكن حراً . الحرية بعينها لا يمكن تصورهما من غير  
القدرة على توضيح العادل وغير العادل ، من غير القدرة على المطابقة بالكينونة  
النامة باسم جزء من الكينونة يأبى الموت . قمة عدالة أخيراً . وإن تكن  
مختلفة تماماً في إحياء الحرية ، القيمة الوحيدة في التاريخ لا يتطرق اليها الفناء .

لم يميت البشر قط ميتةً صالحةً إلا من أجل الحرية ... فاذا ذلك لا يعتقدون  
ان الموت يطالهم تماماً .

#### النف والحدود

نفس المآلة تصدق على العنف .

فالاغنف المطلق بدعم سلباً العبودية واعمالها القاسرة . والعنف المتهاجي  
يهدم ايجاباً الجماعة الحية وما تتلقى عنها من كينونة .

حتى يعطي هذان المفهومان أكلهما ، ينبغي لهما ان يجدا حدودهما .

في التاريخ كطلق ، يصبح العنف مبرراً ... وكخطورة نسبية ، يصبح  
العنف قطعاً للتواصل الروحي . لذلك ، بالنسبة الى التمرد ، يجب ان يحتفظ  
العنف بطابعه النمطي الموقت ، وان يرتبط دائماً اذا لم يتيسر تفادية -  
مسؤولية شخصية وبخطورة فورية .

والعنف المتهاجي يتدرج في نظام . انه مريح ، بوجه ما . و مبدأ  
الزعامة ... أم « العقل التاريخي » ... ، مهما يكن النمام الذي يدعم  
العنف . فان هذا الاخير يسود على عالم أشياء ، لا عالم أشخاص .

فكما ان التمرد يعتبر القتل بمثابة الحد الذي يتعم على التمرد ان يكوسه  
بموته اذا اتجه نحوه ، كذلك لا يجوز أن يكون العنف إلا حداً أقصى يجابه  
عنفاً آخر : مثلاً في حانة العصيان .

#### التمرد الصحيح

إذا استحال تفادي العصيان بسبب الافراط في الظلم ، فان التمرد يرفض  
سلفاً العنف في خدمة عقيدة او بدافع المصلحة العليا . كل ازمة تاريخية ، مثلاً ،  
تم في سنن ونظم . فاذا لم تتمكن من الازمة بالذات ، وهي المخاطرة المحضة ،  
فاننا تتمكن من النظم لأننا نستطيع ان نعرفها ، وان نختار تلك التي نناضل  
من أجلها ، وأن نوجه كفاحنا في منحاها . ان العمل المتمرد الصحيح لا يقبل  
بالسليح إلا من أجل نظم تحد العنف ، لا من أجل نظم تشرعه . فلا تستحق

الثورة' ان موت في سبيلها إلا اذا أمنت إلغاء عقوبة الموت دون تأخر ، ولا تستحق ان نعاني السجن من أجلها إلا اذا رفضت سلفاً تطبيق عقوبات غير ذات أجل قابل للتوقيع . إذا انتشر العنف الثوري في اتجاه هذه النظم ، معلناً عنها أغلب ما يمكن ، فهذه هي الطريقة الوحيدة بالنسبة اليه كي يكون موقفاً حقيقياً .

حينما تكون الغاية مطلقة ، أي ، من الوجهة المنطقية ، حينما نعتقد اننا مؤكدة ، يجوز لنا ان نصل إلى حد التضحية بالآخرين . وحينما لا تكون كذلك ، لا يجوز لنا أن نضحى إلا بذاتنا، في مدار صراعٍ من أجل الكرامة المشتركة .

الغاية تبرر الوسيلة ؟ هذا ممكن . ولكن ما الذي سيبرر الغاية ؟ على هذا السؤال الذي يتركه الفكر التاريخي معلقاً ، يجيب التمرد : الوسيلة ستبرر الغاية .

#### الثورة بين الوسيلة والغاية

ما معنى مثل هذا الموقف في السياسة؟ وأولاً هل هو فعال ؟ علينا ان نجيب من غير تردد انه الموقف الوحيد الفعال اليوم . هناك نوعان من الفعالية : فعالية الإغصار وفعالية النسخ . ليست الاستبدادية (نزعة المطلق) التاريخية ذات فعالية ، وإنما هي ذات فعالية ، فقد استرلت على السلطة واحتفظت بها . وما أن تتدفع بالسلطة ، حتى تهدم الحقيقة الوحيدة المبدئية . أمسا العمل المتشدد المحدود ، النسابع من التمرد ، فيصون هذه الحقيقة ويحاول فقط أن يوسعها توسيعاً متزايداً .

نحن لا نقول إن هذا العمل لا يسهه ان ينتصر، بل نقول إنه معرض لعدم الانتصار والموت . ولكن إما أن هذه الثورة ستغامر هذه المغامرة ، أو أنها ستعترف بأنها ليست إلا مشروع سادة جدد ، يستحقون نفس الإزدراء . إن ثورة 'تجرّد' عن العزة تخون لعمري أصلها المستمد من العزة . مهما يكن من أمر

(١) يفعد الثورة الروسية .

فان تخيُّرها يقتصر على الفعالية المادية.... والعدم ، أو المخاطرة... والخلق .  
لقد كان الثوريون القدامى يركبون مركب العجالة ، وكان تفاؤلهم تاماً .  
ولكن الفكر الثوري اليوم تعاضم وعياً وبصيرة ، فوراءه مائة وخمسون عاماً  
من التجارب يستطيع أن ينظر فيها . أضف الى ذلك ان الثورة فقدت قنتها  
الإحتفالية . إنها ، بمقردها ، حسابٌ عجيب يشل العالم . انها تعلم - حتى لو  
لم تقر بذلك دائماً - انها ستكون عالمية ، ... او انها لن تكون . ولكن  
حظوظها توازن مخاطرات حربٍ عالمية لن تقدم لها - حتى في حالة الانتصار -  
سوى « إمبراطورية» الدمار. في وسعها حينئذ ان تظل أمينة لعدميتها ، وان  
تجسد في ركاب الجثث العقلَ النهسائي للتاريخ . واذ ذاك يجب التخلي عن كل  
شيء ،... الا عن الموسيقى الصامتة (١) التي ستبدل أيضاً الجحيم الارضي . ولكن  
الفكر الثوري في أوروبا في وسعه أيضاً ، لأول وآخر مرة ، أن ينظر في مبادئه ،  
وأن يتساءل ما هو الانحراف الذي يضل خطاه ويرمي به في الحرب والارهاب ،  
وأن يجد امانة تمرد ه وما له من أسباب .

(١) إشارة إلى الضابط الالمانى الذي تحدث عنه ارنست دوينجر . راجع القسم المتعلق بالتمرد  
والذن . (المرب)

## ملازمة الحد وبجاوزته

### ١ - تمهيد

تعليق الضلال الثوري

إن الضلال الثوري 'يعدل' أولاً بجعل الحد أو بإنكاره إنكاراً منهاجياً .  
ونعني هذا الحد الذي يبدو وكأنه غير منفصل عن الطبيعة البشرية والذي يكشفه  
التمرد بما أن المفاهيم العدمية تهمل هذا الحد ، لذلك ترقى في نهاية الامر في  
حركة ذات تسارع منتظم . فلا يعود يوقفها في نتائجها ، وإذ ذلك تهر  
التدمير الكلي أو الغزو المطلق .

نعلم الآن في ختام هذا التحقيق الطويل حول التمرد والعدمية ، ان الثورة  
بلا حدود سوى القمالية التاريخية ، معناها العبودية بلا حدود . للخلاص من هذا  
المصير ، يتعم على الفكر الثوري اذن ، اذا أراد ان يظل حياً ، ان يتنشط في  
منابع التمرد ، وأن يستلم اذن الفكرة الوحيدة الأمانة لهذا الأصل ، ونعني  
فكرة الحدود .

وجود حد ميثاري

فاذا كان الحد الذي يكشفه التمرد 'يبدل' كل شيء ، واذا كان كل مفهوم ،

كل عمل ، يتخطى نقطة معينة انما ينكر ذاته ، فهناك في الحقيقة حد معياري للأشياء والانسان . في التاريخ كما في السيكولوجيا ، التمرد نواس "مختل" يجري بسبعاته القسوى لأنه يلتبس وتيرته المبيقة . ولكن هذا الاختلال ليس تاماً . أنه يجري حول مدار . ففي الوقت الذي يوحي فيه التمرد بوجود طبيعة مشتركة بين البشر ، يُظهر الاعتدال والحد القائمين في مبدأ هذه الطبيعة .

كل تفكير اليوم ، عديمياً كان أم إيجابياً ، وعلى غير علم منه أحياناً ، ... يُولد هذا الحد المعياري للأشياء ، هذا الحد الذي يؤكد العلم نفسه . فالكائنات والنسبية حتى الوقت الحالي ، وعلاقات عدم اليقين<sup>(١)</sup> 'تعرف' عالماً ما ليس له من حقيقة قابلة للتعريف إلا على صعيد الأبعاد الوسطى ، على صعيد أبعادنا . إن الفلسفات التي توجه عالمنا ، ولدت في عصر الأبعاد العلمية المطلقة . اما معارفنا الفعلية فلا تجيز سوى فكرة أبعاد نسبية . قال لعازار بيكل : «الذكاء هو قدرتنا على ان لا نسير الى نهاية الشروط في تفكيرنا ، كي نظل مؤمنين بالحقيقة الواقعة» .

وحدها الفكرة التقريبية تولد الواقع<sup>(٢)</sup> .

وقف من الآلية

حتى القوى المادية ، في سيرها الاعمى ، تظهر حدها المعياري الخاص . لذلك غير مجدي ان نبتغي قلب الكنيك . لقد انتهى تنصر دولاب المغزل ، وان الحلم بمحضارة حرفية حلم عقيم . الآلة ليست خبيثة إلا في وسيلة استعمالها الحالي . علينا أن نوضي بجسناثنا حتى لو رفضنا مضارها ، ان الشاحنة التي يقودها السائق

(١) راجع بهذا الصدد : المشكلات الماورائية الكبرى ، ترجمة : نهاد رضا .

(٢) إن علم اليوم يفون أسسه وينكر مكتسباته الخاصة إذ يسمح بأن يوضع في خدمة إرهابية الدولة ، واتكر القوة . أما حزاؤه وانعناطه فيها انه لا يتبع إذ ذاك ، في عالم تحريدي ، سوى وسائل تهديم أو استعباد . واتكن عندما يبلغ الحد ، لعن العلم سيفيد التمرد الفردي . إن هذه الضرورة الرهيبة ستشير الى الاعتدال الحاسم .

ليل نهار ، لا تشين هذا الاخير الذي يعرفها بتامها ، وبستخدمها بحسب وفعالية .  
والشطط الحثيقي وغير الانساني يكمن في تقسيم العمل . ولا يحسن من شرط  
الشطط ، سيأتي يوم ستقوم فيه آلة ذات مائة عملية ، بتوردها انسان واحد ،  
... ستقوم بصنع غرض واحد . فيكون هذا الانسان قد وجد جزئياً ،  
وعلى مرتبة مختلفة ، قوة الخلق التي كان يملكها على صعيد الصناعة الحرفية .  
وإذ ذاك يقترب المنتج الغمئل من الخلق . طبعاً ليس مؤجداً أن الشطط<sup>(١)</sup>  
الصناعي سيسير في هذا الدرب . ولكنه بدال منذ الآن ، بسيره ، على ضرورة  
الاعتدال ، وبولتد التفكير القادر على تنظيم هذا الاعتدال . فإما ان قبة الحد  
هذه ستراعى ، أو أن الشطط المعاصر ان يجد قاعدته وسكينة إلا في التدمير  
الكلي .

#### الاعتدال ومناقضاته الغير المتحد

إن قانون الاعتدال هذا يسري أيضاً على كل مناقضات الغير المتحد .  
فلا الواقع عقلائي تماماً . ولا العقلائي واقعي تماماً<sup>(٢)</sup> ، وقد رأينا ذلك بصدده  
السريرية ، والرغبة في الوحدة لا تتطلب فقط أن يكون كل شيء عقلائياً ،  
بل تتطلب أيضاً أن لا يضحى بالعقلاني . لا يجوز لنا ان نقول ان ما من  
شيء ذو معنى ، لأننا نؤكد بذلك قسمة مقررة بحسب ... ، ولا ان كل شيء  
ذو معنى ، لأن آلهة كل شيء ليس لها مدارك بالذات البناء الاعتلائي بعد العقلائي ،  
وهذا بدوره يمنع الأول حدثه المعياري . أخيراً فكل شيء ذو معنى ، وعلا ان  
نحصل عليه من اللاه معنى .

كذلك ، لا يجوز لنا ان نقول ان الكبروتية هي فقط في مستوى الجوهر  
أين نلتقب الجوهر ذاته لم يكن في مستوى الوجود والصدورة لا ، ونحن لا  
يجوز لنا ان نقول ان الكبروتية ليست سوى وجود . فهو متناول على الدوام ،

(١) الشطط اوزة الحد .

(٢) أي : انس ، ما هو وجوده ، ولا ان ما هو من هو هو .



لا يسعه أن يكون<sup>(١)</sup> ، إذ لا بدء من بداية . لا يمكن الشعور بالكينونة إلا في الصيرورة ، وهذه ليست شيئاً بلا الكينونة . العالم ليس في استقرار بحت ، ولكنه ليس حركة فقط . انه حركة واستقرار . فالجدلية التاريخية مثلاً لا تناسب انسياً مطلقاً نحو قيمة مبهولة . إنها تدور حول الحد ، القيمة الاولى . مع ذلك ، كانت هيراقليطس ، مبتدع التاريخ ، يعطي حداً لهذا الانسياب الدائم . وكان يرمز الى هذا الحد بـ «نيميزيس» ، ربة الاعتدال ، وهي شؤم على المفرطين . ان تأملاً يعتزم أخذ تناقضات التمرد المعاصرة بعين الاعتبار ، عليه ان يستنزل إلهامه من هذه الرتبة .

#### توضيح التناقضات الاخلاقية

والتناقضات الأخلاقية تشرع هي ايضاً بالتوضيح على ضوء هذه القيمة الوسيطة . فلا يمكن فصل الفضيلة عن الواقع من غير أن تصبح مصدر شر . ولا يمكنها ايضاً ان تتوحد مع الواقع توحداً ذاتياً مطلقاً من غير أن تُتكرر ذاتها . القيمة الاخلاقية التي أظهرها التمرد ليست فوق الحياة والتاريخ ، مثلما ليس التاريخ والحياة فوق هذه القيمة . والحقيقة انها لا تتجسد في التاريخ إلا عندما 'يضحي' انسان ما بحياته من أجلها . ان الحضارة العاقوبة والبورجوازية تفترض أن القيمة فوق التاريخ ، واذ ذاك تبني فضيلتها الصورية تسمية كريمة . أما ثورة القرن العشرين فتقرر بأن القيم ممتزجة بحركة التاريخ ، ويبرر عقلها التاريخي تسمية جديدة .

#### الواقعية والاحلاق

إن الاعتدال<sup>(٢)</sup> إزاء هذا الاختلال بين لنا أن لا بدء من قسط من الواقعي لكن اخلاق : فالفضيلة الخالصة تماماً قتالة ، ... وان لا بدء من قسط من الاخلاق لكل واقعية : فالكلية قتالة ايضاً .

(١) لقيم هذه الكلمة ، علينا ان نلاحظ ان دامو يير بين الوجود والكينونة .

(٢) ملازمة الحد . الاعتدال . الحد المياري .

لذلك فالهذر الانساني ليس اكثر صحة من الاستفزاز الكلمي . اخيراً ليس الانسان مذنباً تماماً : فهو لم يبدأ التاريخ ، ... ولا هو بريء تماماً : لأنه يواصل التاريخ . الذين يتخطون هذا الحد ويؤكدون براءة الانسان التامة ، ينتهون إلى سورة الإنم النهائي .

التسرد ، بالعكس ، يضعنا اعلى درجٍ اثمٍ محسوب . وأمله الوحيد - ولكنه أملٌ لا يُقهر .. يتجسد اخيراً في القتل الابراء .

فردانية جديدة

على هذا الحد ، وبحكم مفارقةٍ عجيبةٍ ، يُعرف شعارٌ « نحن موجودون » فردانيةً جديدةً . « نحن موجودون » أمام التاريخ ، وعلى التاريخ ان يحسب حساب هذا الشعار ... الذي يتحتم عليه بدوره ان يتوسط في التاريخ . انني بحاجة الى الآخرين ، وهؤلاء يحتاجون إليّ وإلى كل فرد . كل من حامي ، كل مجتمع ، يقتضي قاعدة سلوك . وما المرء ، بدون هذه القاعدة ، سوى غريب يروح تحت عبء جماعة مناوئة . ولكن المجتمع والقاعدة يفتلان اذا أنكرا شعار « نحن موجودون » . أنا وحدي ، بوجه مني ، أدعم الكرامة المشتركة التي لا يجوز لي ان أحط من قدرها في شخصي ، ولا في الآخرين .

ليست هذه الفردانية تمتعاً ، وانما هي كدفاعٍ دائماً ، ودرجة لا مثيل لها أحياناً ، في ذروة الرأفة الأنوثة .

## ٢ - فكرة الضم

المرآة القابضة والنبوة المنبئة

أما ما يخص معرفة هل أن مثل هذا الموقف يجد تعبيره السياسي في العالم المعاصر ، فمن السهل ان نذكر وهذا ليس سوى مثال ما يُسمى تقليدياً

(١) فكرة الظهيرة . فكرة الضم . فكرة الحدود ...

بالحركة النقابية الثورية . هذه الحركة النقابية بالذات أليست غير ناجحة ؟  
الجواب بسيط : إنها هي التي حسنت الوضع العمالي تحسيداً عجيباً ، في مدى  
قرن . وخفضت ساعات العمل من ست عشرة ساعة في اليوم الى أربعين ساعة  
في الاسبوع . أما « الامبراطورية » العقائدية فسارت بالاشتراكية القهقري ،  
وهدمت معظم مكاسب الحركة النقابية . ذلك ان الحركة النقابية كانت تنطلق  
من الأساس المحسوس ، من المهنة ، التي هي على الصعيد الاقتصادي بمثابة  
« الناحية » على الصعيد السياسي : الخلية الحية التي عليها يُبنى الجهاز العضوي ،  
بينما تنطلق الثورة المستبدة من العقيدة وتحشر فيها الواقع عنوةً وكرهاً .  
الحركة النقابية ، كالناحية ، هي إنكار المركزية الديوانية التجريدية ، لصالح  
الواقع<sup>(١)</sup> . أما ثورة القرن العشرين فتدعي الاعتماد على الاقتصاد ، ولكنها قبل  
كل شيء سياسة وعقيدة . فلا يسعها ، وظيفياً ، ان تتفادى الارهاب والعنف  
الممارسين على الواقع . انها ، رغم مزاعمها ، تنطلق من المطلق كي تكيّف  
الواقع . أما التمرد فيستند الى الواقع كي يسير في كفاح دائم نحو الحقيقة .  
إن ثورة القرن العشرين تحاول ان تتمّ من أعلى الى أسفل ، والتمرد من أسفل  
الى أعلى . ليس التمرد رومانسية ، وانما هو تحزبٌ للواقعية الحقة . فإذن كان  
يريد ثورة ، فإنما يريد لها لصالح الحياة لا ضدها . لذلك يعتمد اولاً على اكثر  
الرقائق ائع محسوسة ، كالمهنة والقرية ، حيث تشف الكينونة ، ويشف قلب  
الأشياء والبشر النابض . وعلى السياسة ، في اعتقاده ، ان تخضع لهذه الحقائق .  
أخيراً ، حينما يسير قدماً بالتاريخ ويجفف العذاب عن البشر ، يفعل ذلك من  
غير عنف ، وفي شتى الاوضاع السياسية<sup>(٢)</sup> .

(١) ت. تولان . لا تنحرف الكائنات البشرية إلا في ظرف الرمز الطبيعية .

(٢) ان الاجتماع السائد في الحالية بين ما في المعارضات السياسية الحس من اضطع وخطر .  
فأبدى دوراً هاماً تنمو في هذه المجتمعات مع المنهجية الدستورية وبحقوق الاقتراب من مجتمع  
مادل . أما أولاً ، لدره الكارلية العقلانية ، لأن القضاء على الخلية المهنية واسعة لال المديرات  
الذات .

## المدار المشرق

ولكن هذا المثال أبعد مطلقاً مما يبدو . في يوم غابيت الثورة المستبعدة الفكر النقابي المتحرر ، وقد الفكر الثوري في ذاته معدلاً لا يسعه المارمان منه دون أن ينحط ويتردى . هذا المعدل ، هذا المعدل الذي ينظم ، هو نفسه الذي يحرك السنته الطويلة لما يجوز تسميته بالفكر المشرق ، وحيث عند عهد الاغريق جرى دائماً التوفيق بين الطبيعة والحيرورة . ان تاريخ «الأمة الأولى» حيث كافحت الاشتراكية الالمانية فكر الفرنسيين والاسبانيين والاباطاين المتحررين... هو تاريخ التنازعات بين العقائدية الالمانية والفكر المتوسطي<sup>(١)</sup> .

« الناحية » (٢) ضد الدولة ، المجتمع المحروس ضد المجتمع المطلق ، الحرية المرزونة ضد الطغيان المقلاني ، الفداية الغيرية L'indulgence pour autrui أخيراً ضد استعمار الج... اهير... هي اذن المتناقضات التي نعلم ، مرة أخرى أيضاً ، عن المعارضة الطويلة الأتمة بين الاستدال والشغلط ، والتي تحرك تاريخ الغرب منذ العالم القديم . امل الصراع المشرق في هذا القرن لا يقره بين مسافات التاريخ الالمانية والسياسة المسيحية المشاركتين في الإثم بوجه ما... بقدر ما يقوم بين الاحلام الالمانية... والسنة المتوسطة ، بين فورات البراهمة الالمانية... وبأس الرجولة ، بين الشوق الذي يتفاد بالمعربة والمط...اعة... والشجاعة التي يزيداها سباق الحياة صلابة وبصيرة ، بين التاريخ أخيراً... والطبيعة . ولكن العقائدية الالمانية هي في هذا واردة . وفيها يتم عشرون قرناً من الصراع العقيم ضد الطبيعة باسم إله تاريخي أولاً ، ونامم التاريخ المؤله بعدئذ .

المسيحية بين التاريخ والطبيعة

ليس من شك في ان المسيحية لم تتمكن من الفوز بكثلكتها إلا بعد ما

(١) فكر البلدان الوانمة على ضفاف البحر المتوسط .

راجع رسالة ماركتس إل انلز ( ٢٠ تموز ١٨٧٠ ) ، «تمنياً انتصار روسيا على فرنسا . «إن تفوق البروليتاريا الالمانية على البروليتاريا الفرنسية سيحدثون في الوقت نفسه تفوق مطربتنا على نظرية برودون» .

(٢) من التفسيرات الادارية .

تمثلت ما تستطيع تمثله من الفكر الإغريقي . ولكن عندما بددت الكنيسة تراثها المتوسطي ، ركزت على التاريخ... على حساب الطبيعة ، وغلبت الفن الغوطي على الفن المستوحى من الرومان. كما طالبت بالسلطة الدنيوية وبالحرورية التاريخية مطالبةً متزايدة، محطمة بذلك حداً قائماً في ذاتها. حينها لا تعود الطبيعة موضع تأمل وإعجاب ، لا يعود في وسعها ان تكون بعدئذ سوى موضع عمل يسعى الى تحويلها .

إن هذه الاتجاهات . لا مفاهيم الوساطة التي كان في وسعها ان تكون القوة الحقيقية للمسيحية - ... نقول : إن هذه الاتجاهات هي التي يُكتب لها الظفر في الازمنة الحديثة ، وضد المسيحية بالذات ، وذلك بحكم ارتداد صحيح في الاشياء .

والحقيقة فليُطرد الله من هذا العالم التاريخي ، واذ ذاك تولد العقائدية الالمانية حيث لا يعود العمل كالأوقاتنا ، بل غزواً محضاً ، أي : طغياناً .

انتصار العدمية الموت

ولكن الاستبدادية التاريخية ، رغم ما حققت من انتصارات ، ما فترت قطّ عن الاصطدام بمطلب الطبيعة البشرية لا يُفهر ، يحتفظ بسرّه الحوض المتوسط حيث العبقرية صنورة المعرفة الشاقة. إن النظرات المتمردة ، نظرات (الكومون) أو الحركة النقابية الثورية ، لم تفلت عن المناداة بهذا المطلب في وجه العدمية البورجوازية كما في وجه الاشتراكية المستبدة . والنظرة المستبدة ، بفضل ثلاث حروب وبفضل البطش بصفوة من المتمردين ، قد أغرقت هذه السنة المتمردة . ولكن هذا الانتصار الحقيّر موقت ، وما زالت المعركة مستمرة .

ما وجدت أوروبا قطّ الا في هذا الصراع بين النور والديجور . وما تردت الا بتغليبها عن هذا النضال ، كاسفة النهار بالليل . إن تحطيم هذا التوازن يأتي اليوم بأحسن ثماره (١) . فبعد ما حُرمننا من وساطاتنا وبعد ما عُزلنا عن الجمال

(١) فنلاحظ السخرية الكامنة في هذه الجملة (العرب) .

الطبيعي ، ها نحن أولاء قد أصبحنا ثانية في عالم والعهد القديم ، Ancien Testament  
محصورين بين فراغنة قساة وإله حقوق .

الطبعة أمام التاريخ ثانية

في غمرة البؤس المشترك ، يبعث المطلب القديم عينا آنذاك ، وتنتصب  
الطبعة ثانية أمام التاريخ . طبعا ليس المقصود ازدياد أي شيء ، ولا الإشادة  
بمحضرة ضد أخرى ، بل أن نقول فقط انه ثمة فكرة لم يعد في وسع العالم اليوم  
أن يستغني عنها أكثر مما فعل .

صحيح ان لدى الشعب الروسي ما يلزم لإعطاء قوة تضحية لأوروبا ، وان  
لدى أميركا قوة بناء لا بد منها . ولكن شباب العالم موجود دائما حول نفس  
الضفاف . لقد رُمي بنا في أوروبا سافلة ، يموت فيها أكثر الشعوب صائغا ، محروما  
من الجمال والصدافة ، ... ولكننا لا نزال نحن معاشر الاوروبيين نتهل من نفس  
المعرفة ونعرف من نفس المصير .

إن الفكرة النيرة ، الحضارة ذات الوجهين ، زقت انبلاج فجرها في صميم  
الليل الاوروبي . ولكنها منذ الآن تثير دروب السيادة الخفية .

، اذا على مسرح ثقافتنا ،

تقوم السيادة الخفية على الانصاف من أحكام العذر الاعترافية ، وأولا من  
أشدها وأسوأها ، وهو الذي يدعي ان الانسان المتحرر من الشطط 'ملازم'  
بالتصريف بموجب حكمه الخفية . صحيح ان تجارة اوزة الحد قد ذهبت من قداسة  
حينما تقنع بجنون نيشه . والوجه من التمثل النفسي الذي يعرض نفسه على مسرح  
ثقافتنا ، أما زال دوار الشطط ، جنون المستحيل لا يبارح حرقته أبدا ذلك  
الذي أصطلى به مرة واحدة على الأقل ! هل كان لبروميثيوس في يوم من الايام  
وجهه سبدا أو وجهه نائبا عام ؟ كلا . ان حضارتنا تدوم في مجاهدة نفوسها خبيثة  
أو حثوذة ، أمنية شيم لاهتقين . . . ديب فيهم المرحم . لقد مات إبليس أيضا مع  
الله ، وهن زوائد برح سيولان حقا لم يعد يرى حيزه أبدا يسر .

## الشطط والاعتدال في ١٩٥٠

الشطط في عام ١٩٥٠ راحة دائماً ، ومهنة أحياناً . أما الاعتدال فتوتره محض . ليس من شك في انه يبسم ، فيستخف به المحتاجون (١) المنصرفون إلى الرؤى المضنية . ولكن هذه الابتسامة تتألق في قمة جهدٍ لا نهاية له : انها قوة إضافية . فاذا لم يعد لهؤلاء الأوروبيين الوضعيين الذين يُبدون لنا وجهاً شحيحاً ،... نقول : إذا لم يعد لهؤلاء القدرة على الابتسام ، فلماذا يطمحون إلى تقديم اختلاجاتهم اليائسة على انها نموذج تفوق ؟

## التمرد والاعتدال

تفنى حماقة الشطط الحقيقية ... أو توجد حدتها المعياري الخاص . إنها لا تميت ' الآخرين لتختلق لنفسها حجة . بل في غمرة التمزق الأقصى تجد حدها الذي عنده تضحي بذاتها عند الزوم ، مثل كالياف ، ليس الاعتدال نقيض التمرد . فالتمرد هو الاعتدال ، وهو الذي يأمر به (ينظمه ؟) ويدافع عنه ويبيعه ثانية خلل التاريخ وبلبلاته . ان أصل هذه القيمة نفسه يؤكد لنا انها لا يمكن ان تكون الا همزة . لا يمكن أن يعاش الاعتدال الناضج عن التمرد إلا بالتمرد . انه نزاع دائم ، يولد العقل ويضبطه على الدوام . وهو لا يتغلب على المستحيل ولا على المطلق ، بل يتوازن معها . مها نعمل فيسحتفظ الشطط دائماً بمكانه ازاء العزلة . إننا جميعاً نحمل في ذاتنا سجوننا وجرائمنا وفسادنا . ولكن ليست مهمتنا ان نطلق لها العنان خلل العالم ، بل ان نحاربها في ذاتنا وفي الآخرين . إن التمرد ، إن إرادة عدم اناخة العنق التي تحدث عنها موريس باريس (٢) ، ما زالت اليوم في أساس هذا الكفاح . انه ، وهو مصدر الصور وينبوع حياة حقة ، يدعمنا في حركة التاريخ الفائرة غير المتبلورة .

.....  
(١) المحتاجون هم طائفة دينية متعصبة وجدت في القرن الثامن عشر (المغرب) .  
(٢) راجع : تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين : ص ( ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ،  
(٣٣) . منشورات عويدات - المغرب -

## ما وراء العدمية<sup>(١)</sup>

### المطلق ومستوى الانسان

هناك إذت عمل وفكر ممكنين للإنسان عند المستوى المتوسط ، عند مستواه<sup>(٢)</sup>. كل مشروع اكثر طموحاً يتكشف عن التناقض ، لا يُباع المطلق ، وخاصة لا يُصنع تخلل التاريخ . السياسة ليست الدين ، وإلا فانها مباحث<sup>(٣)</sup>. كيف يُعرف المجتمع المطلق ؟ لعل كل فرد يسمى وراء هذا المطلق ، من أجل الجميع . ولكن المجتمع والسياسة لا يقع على عاتقها إلا تنظيم أمور الجميع ، كي يتبها لكل واحد فراغ وحرية هذا السمي المشترك . وإذ ذلك لا يجوز عبادة التاريخ . فهو ليس سوى مناسبة علينا ان نجعلها مشرة بفضل ترداد يقظ .

### زمان التاريخ وزمان الحصاد

كتب الشاعر رنيه شار على وجه رائع فقال : « وسواس الحصاد واللامبالاة إزاء التاريخ ... هما طرفا قوسي » . فاذا لم يكن زمان التاريخ

(١) راجع : « تاريخ الأدب الفرنسي في القرن العشرين » ، تحت عنوان : « ألبير كامو ، من العدمية الى الانسانية » ، ص ٣٧١ - ٣٧٤

(٢) للتذكير باسكال وسواطره .

(٣) محاكم التفتيش في حالة الدين . أي ان السياسة اذا أصبحت ذات نظرة مطلقة كالدين لانها تعتمد على اللعق والمباحث - المغرب -



من زمان الحصاد ، فليس التاريخ في الحقيقة سوى طيف عابر قاسٍ لا نصيب فيه للإنسان . من يَهَبُ نفسه لهذا التاريخ ، لا يهب نفسه لشيء ، وبدوره ليس شيئاً . أما من يهب نفسه لأيام حياته ، للبيت الذي عنه يدافع ، لكرامة الأحياء ، فإنه يهب نفسه للأرض ويتلقى منها الحصاد الذي يُزرع ويغذي ثابته . أخيراً ، يسير 'قدم' بالتاريخ ، . أولئك الذين يعرفون ان يتردوا أيضاً ضده في اللحظة المطاوعة . ان ذلك يستازم توتراً لا نهاية له ، ويقتضي السكينة الجزعة التي يتحدث عنها نفس الشاعر . وليكن الحياة الحقة قائمة في صميم هذا التمزق . انهم . . . هذا التمزق بالذات ، الفكر 'المحوّم' فوق براكين النور ، الكلف' بالإنصاف ، تشدّد الاعتدال المنهك .

إن ما يتناهى صدها الى سمعنا عند تخوم هذه المغامرة الطويلة المتردة ، ليست عبارات التفاضل التي نحن في غنى عنها في منتهى شقائنا ، وانما اقوال جريئة وبصيرة هي نفس الحصال إزاء ما هو صعب المنال .

التخفيف النسبي للشقاء

ما من حكمة تستطيع اليوم ان تطمح الى منح المزيد. ان التردد يصطدم بالشر على الدوام ، واعتباراً منه ليس له إلا أن يشب وثبة جديدة . في وسع الانسان ان يضبط في ذاته كل ما ينبغي له ان يضبط . وعليه ان يُصلح كل ما يمكن اصلاحه في الخلق . وليكن بعدئذ سيظل الاطفال يموتون بلا مهور ، وحتى في المجتمع الكامل . لا يستطيع الانسان ، حتى لو بذل قصارى جهده ، سوى ان يسعى الى تخفيف شقاء العالم تخفيفاً حسابياً نسبياً . ولكن الظلم والعذاب سيديقيان . ومهما كانا محدودين فيسيطان فضيحة . وستبقى «لماذا؟»<sup>(١)</sup> ديترى كارامازوف تتردد أصداؤها في كل مكان . وان يموت الفن والتمرد إلا مع آخر انسان .

ثمة شر آخر

ثمة شر ، ولا شك ، يكدهه البشر في غمرة تعطشهم المسعور إلى الوحدة .

(١) أي سيبقى الاحتجاج .

ولكن ثمة شر آخر هو في اساس هذه الحركة الخائفة . إزاء هذا الشر ، إزاء الموت ، يطالب الانسان في أعماق ذاته بالعدالة .

المسيحية التاريخية لم ترد على هذا الاحتجاج ضد الشر إلا بالتبشير بالمكوت ، ثم بالخلود الذي يتطاب الايمان . ولكن العذاب يستند الأمل وبوهن الايمان . وإذا ذاك يظلم وحيداً ، من غير تفسير . ان الجماهير اللادعة التوبة من العذاب والموت ، جماهير من غير إله . ومكاننا بالتالي الى جانبها ، بعيداً عن الاستذة القداس والجدد . ان المسيحية التاريخية ترحب التخاص من الشر والقتل الى ما بعد التاريخ ، مع أنها يُسكابندان في التاريخ .

والمادية المعاصرة تعتمد ايضاً ان ترد على جميع الأسئلة . ولكنها وهي خادمة التاريخ ، توتسع ميدان القتل التاريخي ، وتترك في الوقت نفسه من غير تبرير ، الالم إلا في المستقبل الذي يتطلب أيضاً الايمان .

في كلتا الحالتين ، لا بدء من الانتظار ؛ وخلال هذا الوقت يظل الموت ينزل بالبريء . منذ عشرين قرناً ومجموع الشر لم ينخفض في العالم ، ولم يتحقق أي ظهور ، إلهياً . كان أم ثورياً . ثمة ظلم يظل ملتصقاً بكل عذاب ، حتى بأحق عذاب ، في نظر البشر . إن صمت بروميتيوس الطويل امام الغوى التي تثقل كاهله ، ما زال يصرخ احتجاجاً . وانحنى بروميتيوس في غضون ذلك رأى البشر ينقلبون عليه أيضاً ويسخرون منه . لعله وهو المحصور بين الشر البشري والمصير ، بين الارهاب والتعسف ، سوى قوة تمرده التي ينقذ من القتل هذا الذي ما زال انفاذه ممكناً ، من غير ان يستسلم لكهرباء التجديف .

#### أريحية التمرد الجنون

إذ ذاك ندرك ان التمرد لا يستلج الاستغناء عن حب غريب . فالذين لا يجدون طمأنينتهم لا في الله ولا في التاريخ ، يلزمون أنفسهم بالعيش من أجل أولئك الذين ، مثاهم ، لا يقدرون على العيش ، ونهني المشتهين . حينئذ تتوج أصفى حردكة تمرد بصرخة كارامازوف المنزقة للقلب ؛ إذا لم يُنقذ

الجميع فما جدوى خلاص واحد فقط .

على هذا الاساس ثمة محكومون كاثوليكيون في سجون اسبانيا يرفضون اليوم تناول القربان لأن كهنة النظام (الفرنكوي) جعلوه اجبارياً في بعض السجون. أولئك أيضاً، الشهود الرحيدون على البراءة المذبذبة، يرفضون الخلاص إذا كان ثمة الظلم والاضطهاد .

هذه الاريجية المجنونة هي أريجية التمرد الذي يمنح طاقة حبه دون إبطاء ، ويرفض الجور دون إرجاء . ان عزته في ألا يحسب شيئاً ، وأن يوزع كل شيء في الحياة الدنيا ولاخوته الأحياء . بهذه الصورة يُفيض على الأجيال الآتية . الأريجية الحقّة نحو المستقبل هي في منح كل شيء في الحاضر .

تمرد جديد محتم

يُثبت التمرد بذلك أنه حركة الحياة بالذات ، وان لا سبيل لنا إلى نسيانه دون التخلي عن الحياة. إن أصفى صرخة من صرخاته تطالعاكل مرة بكينونة. إنه اذت حبّ وعطاء ، أو ليس شيئاً من الأشياء . الثورة بلا عزة ، ثورة الحسبان التي في تفضيلها انساناً تجريدياً على الانسان الحقيقي تنكسر الكينونة مرات ومرات ، . . . . نقول ان هذه الثورة تحمل حقاً الغلّ محلّ الحب . ما ان ينسى التمرد أصله ويستسلم لعدوى الغلّ، حتى ينكر الحياة، ويمضي الى التدمير، ويطالعا بهؤلاء التمردين الوضيعين الساخرين ، ذرية من العبيد ، الذين يعرضون أنفسهم أخيراً اليوم لاية عبودية كانت ، في جميع اسواق اوروبا . انه لا يعود تمرداً ولا ثورة ، بل حقداً وطغياناً . واذ ذاك ، حينما تصبح الثورة هذه الآلية القتالة المفرطة باسم القوة والتاريخ ، . . . ثمة تمردٌ جديد يصبح مقدساً باسم الاعتدال والحياة . اتنا في هذا الحد الاخير . ففي نهاية هذه الظلمات ، ثمة نور محتم مع ذلك ، نستشفه منذ الآن . وما علينا الا أن نكافح كما يوجد .  
فما وراء العدمية ، نحن جميعاً بين الاطلال نعد نهضة . ولكن لا تعرف ذلك إلا قلة .

## العبان التالون

والحقيقة ان التمرد منذ الآن ، دون ان يطرح الى حل كل شيء ، في وسعه  
المجاهبة على الاقل . اعتباراً من هذه اللحظة ينساب الضمى على حركة التاريخ  
ذاتها . وحول هذا السعير الملتهم تتراقص أطراف متلاطمة ثم تختفي ، فينتف  
بعض العبيان لامسين جفونهم بأصابعهم : هو ذا التاريخ . انت الاوروبيين  
المنصرفين الى الاطراف ، قد أهملوا النقطة النابتة الساطعة . انهم يذنون الحاضر  
في سبيل المستقبل ، وغذاء الانسان في سبيل سراب السلطان ، وبؤس الضواحي  
من أجل مدينة فاضلة ، والعدالة اليرمية من أجل أرض موعودة وهمية .  
ويأسون من حرية الاشخاص .. ويجلدون بحرية النوع ( البشري ) الغريبة .  
ويأبون الموت المنفرد .. ويسمون مخلوداً احتضاراً جماعياً عجبياً . انهم لم يعودوا  
يؤمنون بما هو موجود ، وبالعالم ، وبالانسان الحي .

إن سرّ أوروبا يكمن في انها لم تعد تحب الحياة . فقد اعتقد هيانها أن حب  
يوم واحد في الحياة ، معناه تبرير قرون الاضطهاد . لذلك أرادوا طمس الفرح  
في لوحة العالم ، وارجاهه الى ما بعد . ان عدم تحملهم الحدود ، ورفضهم  
كينونتهم المزدوجة ، ويأسهم من كونهم بشراً ،... كل هذه الاشياء رمت بهم  
أخيراً في شطط غير انساني . واذا أنكروا سمو الحياة الحقيقي ، نحت عليهم  
تأكيد سموهم الخاص . ولعدم وجود ما هو أفضل ، ألهوا انفسهم .. فابتدا  
شقاؤهم : ان هذه الآلهة قد عميت أبصارها .

أما كاليانف وانخوته في العالم أجمع ، يرفضون تأليه انفسهم ، لأنهم يبدون  
القدرة اللامتناهية ، القدرة على إماتة الآخرين . انهم يصطفون ، ويقدمون لنا  
كأنموذج ، القاعدة الوحيدة التي تحمل مسحة الاصاله اليوم : تعلم الحياة والموت ،  
ورفضهم ان يكونوا آلهة .. ليكونوا بشراً .

## اورروا الجديدة

وهكذا في ضمى الفكر ، يرفض التمرد الالهية كي يسهم في النضال

والمصير المشتركين . سنختار ايظا كيبا (١) ، الارض الوفية ، والفكرة الجريئة  
التنوعة ، والعمل الواعي ، وأريحية العارف . في النور ، يظل العالم حيننا الاول  
والاخير . فنحن واخوتنا نعيش تحت سماء واحدة ، والعدالة حية . اذ ذلك  
يولد الفرح الغريب الذي يساعدنا على الحياة والموت ، الفرح الذي نرفض بعد  
اليوم تأجيله . فهو على أرض الألم ، الزؤان الدائم ، القوت المر ، الريح العاتية  
الهابة من جهة البعار ، الفجر القديم والجديد . بواسطته وخلال المعارك ، منجدد  
روح هذا العصر ، وسنعيد بناء أوروبا لا تستبعد شيئاً :

لا هذا الشبح ، نيتشه الذي ، خلال اثني عشر عاماً بعد انهياره ، زحف  
الغرب ليزوره وكأنه الصورة المصعقة لأسمى درجات وجدانه ، ولعدميته . . .  
ولا بني العدالة الصارم الذي يرقد خطأً في ركن الملحدن في مقبرة  
هاينيت ، . . . (٢)

ولا مومياء الرجل الثوري المؤلمة في تابوتها الزجاجي ، . . . (٣)

ولا أي شيء ، ما قدمته عبقرية أوروبا وحيويتها ، في استمرار ، لكبرياء  
عصر بائس .

يستطيع الجميع في الحقيقة ان يجيوا ثانية بجانب ضحايا ١٩٠٥ . ولكن  
شرط أن يفهم انهم يصححون بعضهم بعضاً ، وان ثمة حداً على الارض يوقف  
الجميع . كل واحد يقول للآخر : لست الهأ . وهنا تنتهي الرومانسية (٤).

في هذه الساعة التي يجب فيها على كل منا أن يشد القوس ليظهر شجاعته

(١) إحدى الجزر اليونانية ، مملكة عوليس في القصائد الهومييرية . ومجازاً : الارض  
الأمولة . (العرب) .

(٢) يقصد ماركس المداون في مقبرة هاينيت في لندن . (العرب)

(٣) يقصد لينين .

(٤) اي هنا تنتهي الادلاءة المنحررة من الحدود .

ثانية ، ليفوز في التاريخ وضده بما يمتلك الآن ، بحصاد حقوله الخليل ، ويجب  
هذه الارض العابر ، ...

في هذه الساعة التي يولد فيها أخيراً انسان ، يجب ان نترك العصر وفوراته  
المراهقة .

هاهي ذي القوس تلتوي ، ويثز العود أزا . وعند ما يبلغ التورز منتهاه ،  
ستندفع انطلاقة ' سهم سوي ، انطلاقة ' نبل هو أم لب النبال واكثرها حربية .

**ALBERT CAMUS**

**L'HOMME  
REVOLTE**

**Texte traduit en arabe par  
Nouhad Rida**

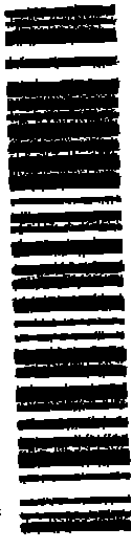
**EDITIONS OULIDAT  
Bejrout - Paris**

## الإنسان المتمرد

ما الإنسان المتمرد ؟ انه إنسان يقول : لا . ولئن  
رفض ، فإنه لا يتخلى . فهو أيضاً إنسان يقول : نعم ،  
منذ أول بادرة تصدر عنه . ان العبد الذي أليف تلقي  
الأوامر طيلة حياته يرى فجأة ان الأمر الجديد الصادر  
إليه غير مقبول . فما هو فحوى هذه « اللا » ؟  
انها تعني مثلاً « ان الامور استمرت أكثر مما يجب »  
و « انك غاليت في تصرفك » وتعني ايضاً ان « هناك  
حداً يجب ان لا نتخطاه » ...  
و « انها مقبولة حتى هذا الحد ، ومرفوضة فيما بعده »  
فحركة التمرد تستند إذن إلى رفض قائم  
يطاق ، وإلى يقين مبهم بوجود حق صالح  
اصح ، إلى اعتقاد المتمرد ان « له الحق كي  
( الانسان التمر

Bibliotheca Akevedim

مكتبة



0351247



نم اءءاءوءء اءءرفءء ءوءءءءء

مءءبءء ءءءءء

[ask2pdf.blogspot.com](http://ask2pdf.blogspot.com)